HUSSAM ABDEL-KAREEM

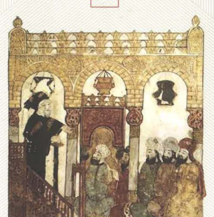
تاريخ

حسام عبد الكريم

صعود معاوية

خلفيّات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1



دراسة في المصادر الإسلاميّة




صعود معاوية
دراسة في المعالم الإسلامية
1



الأهليّة للنشر والتوزيع
e – mail: alahlia@nets.jo
الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12
هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962
ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردنّ
: AlAhliaBookstore
: alahlia_bookstore
الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

صعود معاوية: دراسة في المصادر الإسلاميّة/ تاريخ
(الجزء الأوّل)
خلفيات الفتنة الكبرى/ عهد عثمان
حسام عبد الكريم/ الأردنّ

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2019

◆

تصميم الغلاف: زهير أبو شايب، عمّان، هاتف 95297109 7 00962
الصفّ الضوئيّ: إيمان زكريّا خطّاب، عمّان، هاتف 95349156 7 00962
لوحة الغلاف: الواسطيّ، تراث عربيّ

◆

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 6589 - 09 - 904 - 8

حسام عبد الكريم

صعود معاوية

خلفيّات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1

دراسة في المصادر الإسلاميّة



المقدمة

هذا هو الجزء الأول من كتاب يبحث في أحداث قضية كبيرة في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) الى سنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). ولكن هذا ليس تأريخاً لتلك الفترة الزمنية، بل هو بحث تاريخي فيها. أي أن الأحداث والوقائع المغطاة في هذا البحث هي تلك فقط التي لها علاقة بالفتنة الكبرى، وهي منتقاة من بين أحداث أخرى في ذات الفترة لم يكن لها ارتباط بموضوع الكتاب.

فهذا العمل بحثٌ وتنقيبٌ في أمهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الاسلامي. وقد قمتُ بمقارنة كيف روي الخبر الواحد في المصادر المختلفة وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها. وحرصتُ على إثبات النصوص كما وردت في مصادرها بدقة متناهية وبدون تصرّف. وتركتُ للقارئ الفرصة للنظر فيها وفهمها وهي بلغتها القديمة.

فمن أجل الوصول الى الحقيقة التاريخية كان لا بد من البحث والتحقيق والمقارنة بين المصادر وتحليل الأخبار وربطها بظروفها الموضوعية من أجل الاستقرار على الخبر الصحيح. وكان لا بد من الربط بين الوقائع وتسلسلها وتتابعها ودراسة خلفياتها.

وهذه مهمة صعبة بالنظر الى كثرة الروايات واختلاف التفاصيل، فكان لا بد أن يكون منهج البحث علمياً عقلانياً يأخذ بعين الاعتبار الإمكانية التاريخية للحَدَث ويتمعّن في الأزمان والتواريخ والبلاد والاسماء. وفي أكثر

الأحيان تكون الحقيقة موزعة بين شتى الروايات بحيث تكمل بعضها بعضاً. فمن النادر أن تكون رواية بعينها تروي غليل الباحث عن الحقيقة تماماً، بل الأغلب أن تكون حتى أصح الروايات بحاجة الى ما يكملها أو يوضحها أو يغطي جوانب الضعف والنقص فيها. وهناك فرق بين قبول الروايات التي تتعلق بمجمل سير الأحداث، وبين قبول تفاصيلها. فمن الممكن أن تكون الرواية مقبولة في إطارها العام ولكن بعض تفاصيلها مغلوطة أو مكذوبة. وهذا الأمر يبرز كثيراً عند تناول الوقائع التاريخية الكبرى حيث هناك في الأغلب اتفاقٌ على مجمل مسار الأحداث، مع اختلافٍ في التفاصيل وفي الأقوال المنسوبة للشخصيات المعنية بتلك الأحداث. والنتيجة أنه من الجائز قبول جزء من روايةٍ ما، وعدم قبول جزءٍ آخر منها. وطبعاً يمكن قبول رواياتٍ من مصدرٍ ما ورفض رواياتٍ أخرى من نفس المصدر. فالانتقائية مسموحة، بل ويمكن القول إنها مطلوبة في السعي من أجل التخلص مما علق بالروايات من شوائب التشويه ورواسب تزييف بعض ذوي الأهواء أو مبالغات الرواة وأخطائهم. ومن البديهي القول انه لا يجوز التسليم الكامل بصحة كل ما ورد في أي مصدر من مصادر الحديث أوالسيرة أوالتاريخ، مهما بلغ ذلك المصدر من الشهرة والذيوع. ولا ينبغي أن يكون هناك حَرَج في الإشارة إلى ما يعتري بعض جوانب الكتب المشهورة من خلل أو وهن. ولا يعني ذلك بالضرورة قدحاً في مؤلفيها أو أو تهويناً من شأن الجهود الجبارة التي بذلوها.

إنصاف المؤرخين

وأرغب هنا في تأكيد عظمة الدور الذي لعبه المؤرخون والإخباريون في حفظ التراث التاريخي العربي. فهؤلاء هم الحافظون للذاكرة الجماعية لأمة العرب ولولاهم لما كان هناك تاريخ إسلامي قط. ولولا تلك الطبقة من الرواة الأوائل، الذين نجهل الكثيرين منهم، لحصلت قطيعة مع الماضي ولما وجدنا هذه المادة التاريخية الغزيرة التي نراها في كتب الطبري والبلاذري وغيرهما. كان هناك مجهود حقيقي كبير لجمع وتدوين وتوثيق المادة التاريخية بدأت ارهاصاته في القرن الأول الهجري ثم يلبث أن تطور وتقدم على أيدي

محترفين ومتخصصين في القرن الهجري الثاني، الى أن بلغ ذروته مع عمالقة القرن الثالث. وهذا كله مجهود ينبغي أن يُشكر ويُحمد.

إلاّ أن تراثنا الاسلامي قد اولى مكانة كبيرة وبارزة للمحدّثين والفقهاء. وهؤلاء كانوا ميالين على الدوام الى التقليل من قيمة المؤرخين، بل وازدرائهم ومقتهم. وفي هذا ظلم كبير.

فعلم الإسناد والحديث والجرح والتعديل، رغم أهميته وعظمته، لا يجوز اعتماده معياراً لعلم التاريخ بل ينبغي حصره في نطاقه الديني والشرعي. واما فيما يتعلق بالتاريخ فإن البحث في أسانيد الروايات، والتركيز فقط على ذلك من أجل اعتمادها لتكون مقياساً وميزاناً نهائياً للحُكم على صحتها، خطأ جسيم لأنه سيؤدي إلى الانغلاق في حدود نصوص قليلةٍ جداً لا تكفي حتى للإحاطة بالتصوّر العام لأحداث السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام. وستضيع بسبب ذلك نصوصٌ صحيحة لم يتيسر لها سندٌ يعرفه المحدثون أو الإخباريون. فالكمّ الأكبر من الروايات التاريخية التي وردت في أمهات الكتب لا يجوز أن تخضع لمعايير علماء الجرح والتعديل وشيوخ علم الرجال. ولا يجوز إهمال الذاكرة الجمعية للشعوب والأمم والتي استوعبت ووَعَت عدداً كبيراً مما شاع من أخبار، تناقلتها الأجيال وسجلها المؤرخون. فالأحاديث النبوية يترتب عليها في الغالب أحكام شرعية أو انها تتعلق بأصل الدين ولذا فمن المنطقي – بل والضروري – أن يَعرف المحدّثُ تسلسلَ رواتها ويتأكد من أهليتهم الدينية. وليس ذلك حال الأخبار التاريخية.

كما ان الضوابط والمعايير التي وضعها علماء الجرح والتعديل لقبول الرواة تتضمن بُعداً مذهبياً واضحاً. فرغم انه لا خلاف على أهمية صفات الصدق والأمانة في النقل لدى رواة الأحاديث والسير والأخبار، إلاّ أن اشتراط أن يكون الراوي من المؤمنين بمقولاتٍ ومعتقداتٍ مذهبية معينةٍ، أدّى عملياً إلى ردّ ورفض الكثير من الروايات الصحيحة التي يوجد في أسانيدها بعضُ مَن لم يرَهُ المحدّثون المتعصبون أهلاً للرواية لا بسببٍ يتصل بأمانته وصدقه، بل بسبب عدم اتفاقه مع بعض آرائهم في أمور مذهبية. وهنا منبع الاتهام بالتشيع

الذي كان كثيرا ما يوجه الى المؤرخين. وقلما نجا احدٌ من رجال علم التاريخ والأخبار من الاتهام بالتشيع من قبل أهل الفقه والحديث. فطالت تلك التهمة أبا مخنف وهشام الكلبي والواقدي وابن اسحق واليعقوبي ونصر بن مزاحم والمسعودي وابن أعثم وغيرهم الكثيرين. وحتى الامام الطبري – وهو الذي أشاع في كتابه قصص ابن سبأ وروّج لمرويات سيف بن عمر المعادية لكل ما هو شيعي – اتهم بالتشيّع من قبل الحنابلة وعانى الكثير من جراء ذلك في بغداد. فأوساط المحدثين والفقهاء لم تكن ترتاح لمن يتصدى للحديث عن أخبار الفتنة الكبرى والحروب الأهلية الكبيرة التي حدثت بين المسلمين في النصف الأول من القرن الهجري الأول. وحين يصل الكلام الى الحديث عن الخلافات بين كبار الصحابة ودورهم في أحداث الفتنة الكبرى تبلغ حساسية المحدثين والفقهاء ذروتها ويصبحون كمن يخوض معركة للدفاع عن ذاته! فالمحدثون والفقهاء تبنوا نظرية عدالة كل الصحابة وروّجوها، وهي التي ترفع من مقام الصحابة الى ذرىً سامقة وتمنحهم نوعاً من العصمة والحصانة ضد النقد وتحولهم الى شخصيات دينية غير تاريخية. فلا تريد أوساط المحدثين والفقهاء أن تسمع شيئاً عن صراعات كبار الصحابة لأنها تتمسك بالصورة التي تخيلتها وارتضتها لمجتمع الصحابة المثالي وشخصياته المتحابّة المضحّية المتفانية في خدمة الدين. فإذن قرر المحدثون والفقهاء إقفال باب البحث والنقاش فيما جرى، حتى لو كان ذلك على حساب الحقيقة. ولذلك كانوا ينظرون شزراً لأهل الأخبار والتاريخ، ويهاجمونهم ويضعفونهم ويتهمونهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا.

فالمشكلة إذن ليست من لدن الإخباريين والمؤرخين بل هي مسألة مبدأ لدى أهل الفقه والحديث، الذين لن يرضوا عنهم إلاّ إذا تركوا علمهم جملة وتفصيلاً، أو أنهم توقفوا عن موضوعيتهم وتحولوا الى مروّجين لتاريخ متخيّل وهميّ تغيب فيه الحقيقة لحساب نظرية عدالة الصحابة كما يفهمها الفقهاء.

وحتى لو كان المؤرخ شيعياً فما الضير في ذلك؟ وهل الموضوعية والمصداقية والتحليل العقلاني حكرٌ على مذهب دون غيره؟ وهل كون

الكاتب «سنياً» يمنحه ميزة ويجعله متفوقاً على نظيره «الشيعي»؟ هذه الأسئلة جديرة بالطرح نظراً الى كثافة الهجوم على المؤرخين والتشكيك في جهدهم وعملهم العملاق.

والحق أنه حتى لو كانت هناك «ميول» شيعية في كتابات بعض أهل الأخبار والتاريخ، كأبي مخنف واليعقوبي ونصر بن مزاحم، فهي لا تعدو كونها تفصيلات هنا وهناك، أو تلوين للروايات اذا شئت، ولا تمسّ جوهر الحدث التاريخي. فؤلاء كانوا مؤرخين محترفين ولا يوجد في كتاباتهم أي نوع من «المحاججة» المذهبية. هم كانوا يريدون أن يخبروا، لا أن يبرهنوا. هم اهتموا بالحقيقة التاريخية، ولم يريدوا تلفيقها. وهم بالاجمال حافظوا على حد مقبول من الموضوعية. ولا بأس بعد ذلك إن كان للمؤرخ عواطف. فهؤلاء بشر ولا يمكن أن يكونوا محايدين تماماً في مشاعرهم إزاء أحداث صراع ملحميّ وكبير. وفي مقابل الميول الشيعية لبعض أهل التاريخ والأخبار هناك «ميول أموية» عند البعض الآخر، وذلك أمر مفهوم ولا يقلل من مكانة علم التاريخ ولا أعلامه.

مصادر البحث

لقد لجأتُ إلى المصادر الأقدم والأقرب للأحداث. فكان جلّ الاعتماد على أعمال مؤرخي القرن الثالث الهجري. ويمكن تقسيم المصادر الى رئيسية أساسية وثانوية مساعدة.

وعلى رأس المصادر الأساسية للمادة التاريخية يأتي بالطبع كتاب تاريخ الأمم والملوك للإمام الطبري (توفي عام 309 للهجرة)، الذي هو موسوعة تاريخية عُظمى حَوَت شتى الروايات للأحداث بأسانيدها وتفاصيلها. ولا يقل شأناً عنه المصدر الموسوعي الآخر وهو البلاذري (توفي عام 279 للهجرة)، وكتابه أنساب الأشراف. ويختلف كتابا الطبري والبلاذري في الشكل والتصنيف، فالأول كتاب تاريخ عام اعتمد مبدأ التسلسل الزمني للأحداث بينما ألّف البلاذري كتابه ليكون كتاب أنساب يتعرض فيه للشخصيات وسيرتها. وخلال ترجمته للشخصيات التي أوردها بحسب درجة قرابتها من رسول الله (ص) قدم البلاذري تاريخاً كاملاً وافياً لصدر الاسلام. ورغم ذلك

الاختلاف الظاهري يشترك كتابا الطبري والبلاذري في غناهما الهائل بتفاصيل المادة التاريخية. ويمتاز هذان المؤرخان بالشمولية والنزعة الموسوعية، الى حد تسجيل الحركات واللفتات واللمحات، فضلاً عن الكلمات والمواقف والحوادث، بدقة متناهية واستيعابٍ لا نظير له. ولذلك يمكن إعتبارهما ذروة التاريخ المدوّن لصدر الاسلام.

ويستقي الطبري والبلاذري مادتهما التاريخية من مصادر أقدم مكتوبة ولكن لم تصلنا إلا من خلالهما. وتعود هذه المصادر الى مؤرخين وإخباريين مهمين عاشوا في القرن الثاني الهجري. كانت لهؤلاء مؤلفات عديدة تناولت بتركيز شديد كل جوانب أحداث النصف الأول للقرن الهجري الأول. تلك الطبقة تضم سيف بن عمر (لدى الطبري) الذي توفي عام 180 للهجرة، وأبا مخنف لوط بن يحيى (توفي عام 157 للهجرة)، وأبا عبد الله الواقدي (توفي عام 207 للهجرة)، ومحمد بن شهاب الزهري (توفي عام 124 للهجرة)، وعلي بن محمد المدائني (توفي عام 225 للهجرة)، وهشام الكلبي (توفي عام 204 للهجرة)، وعوانة بن الحكم (توفي عام 147 للهجرة)، ومحمد بن اسحق (توفي عام 150 للهجرة)، والهيثم بن عدي (توفي عام 206 للهجرة). كان هؤلاء بمؤلفاتهم في مجال الأخبار والأنساب والفتوح والمغازي والسير المصدر المكتوب الأساسي الذي استند اليه المؤرخان الموسوعيان الحافظان الكبيران الطبري والبلاذري.

وهؤلاء بدورهم يرجعون الى طبقة أقدم من أهل الأخبار، من القرن الهجري الأول. وأشهر هؤلاء هو عامر الشعبي (توفي عام 105 للهجرة) الذي يمكن اعتباره شيخ أهل العلم في زمانه، ومحمد بن سيرين (توفي عام 110 للهجرة). ولا ينسى ابان بن عثمان بن عفان (توفي عام 105 للهجرة) وعروة بن الزبير (توفي عام 94 للهجرة)، رغم شهرتهما في مجال السيرة. وقد قام الشعبي وغيره بجمع الأخبار والروايات والمأثور التاريخي الشفهي والمنقول من جيل لآخر والمتداول في أوساط القبائل العربية التي شارك أسلافها في أحداث الفتنة الكبرى. فالشعبي معبرٌ عن الذاكرة الجماعية الأكثر قدماً والتي بدورها تمثل هيكل الوقائع الأساسي. فبعض أسانيد أبي مخنف مدهشة في تسلسلها: الشعبي، مجالد بن سعيد، عبد الرحمن بن ابي الكنود، فضيل

بن خديج، ابو الجناب الكلبي ثم يأتي شاهد العيان. فإذن أجيال المؤرخين واهل الأخبار تتالى وتتواصل، حلقة فحلقة، وطبقة فطبقة، الى أن نصل الى الحافظين الكبار من أهل القرن الثالث الهجري.

ولكنّ هناك إشكالاً بخصوص مصادر الطبري المتعلقة بأخبار الفتنة الكبرى. فرغم تنوّع مصادر رواياته إلاّ أن الفترة الأولى من احداث الفتنة الكبرى – زمان الخليفة عثمان بن عفان – تميزت بإفراطه في الاعتماد على مصدر بعينه: سيف بن عمر. فلو أحصينا[1] رواياته عن أحداث زمان الخليفة عثمان لوجدناها كما يلي :

سيف بن عمر: أخذ عنه 97 رواية

الواقدي: أخذ عنه 59 رواية

الزهري: أخذ عنه روايتين

المدائني: أخذ عنه 8 روايات

وهشام الكلبي: أخذ عنه روايتين

فالامام الطبري قرر كما هو ظاهر من هذه الارقام اعتماد روايات سيف كمصدر رئيسي لأخبار فترة خلافة عثمان، وهنا الإشكالية. فسيف بن عمر التميمي – رغم غزارة رواياته – مصدرٌ لا يمكن الاطمئنان اليه. وبنظري فإن الإمام الطبري ارتكب خطأً جسيماً حين أثبت روايات سيف في تاريخه وبالتالي صار مسؤولاً عن شيوع الكثير من الأفكار الخاطئة – بل والغريبة الشاذة – حتى يومنا هذا. ولكن موضوع سيف بن عمر طويل ويحتاج بحوثاً مستقلة وهو يرتبط بقصص عبدالله بن سبأ الخرافية ونظريات التآمر اليهودي. ولستُ بصدد بحث ذلك بالتفصيل هنا. ولمن شاء أن يراجع ما كتب حول ابن سبأ وسيف بن عمر من أبحاث قيمة[2].

---

(1) احصاء الروايات هذا ماخوذ من كتاب «المؤرخون العرب والفتنة الكبرى» لعدنان ملحم، ص69–77.

(2) مثلًا: كتاب «عبد الله بن سبأ» لمرتضى العسكري، وكذلك كتابات حسن بن فرحان المالكي «نحو انقاذ التاريخ الاسلامي» و«مع د. سليمان العودة في عبد الله بن سبأ». وأيضاً يراجع كتابنا «قريش وعلي».

وأنا رغم اعتراضي على مجمل روايات سيف بن عمر واعتقادي بأنه كان يتعمد تلفيق رواياته لخدمة خطه العقائدي والمذهبي إلاّ أنني تعاملتُ مع هذه الروايات التي يزخر بها تاريخ الطبري. فلم أعرض عنها بل بذلتُ جهداً في نقدها وتوضيح مكامن الخلل فيها وتناقضاتها .

وأما البلاذري فقد كان أكثر توازناً في مصادره عن فترة حكم عثمان. وهنا الإحصائية :

الواقدي: أخذ عنه 62 رواية

أبو مخنف: أخذ عنه 36 رواية

الزهري: أخذ عنه 16 رواية

عوانة بن الحكم: أخذ عنه 6 روايات

المدائني: أخذ عنه 42 رواية

وهشام الكلبي: أخذ عنه 14 رواية

الهيثم بن عدي :أخذ عنه 5 روايات

أي أن الواقدي هو المشترك بين الطبري والبلاذري فيما يتعلق بهذه المرحلة التاريخية. والملاحظ أن اعتماد الطبري على روايات سيف سوف ينتهي بعد معركة الجمل وقبيل معركة صفين، حيث تحول بعدها الى الاعتماد على أبي مخنف والآخرين. أي أن الطبري يميز بين مصادره، فلكل مرحلة تاريخية ما يناسبها عنده.

ورغم عدم شهرته[1] إلّا أنّ كتاب تاريخ المدينة لابن شبة النميري (توفي عام 262 للهجرة) مصدرٌ رائع لأحداث عهد الخليفة عثمان. وهو يحتوي كماً مدهشاً من الروايات التي تتناول الاحداث التي وقعت في عهده والنهاية

(1) يعود ذلك الى تأخر العثور على مخطوطته الى أواخر القرن الرابع عشر الهجري. فقد ذكر حبيب محمود احمد أنه عثر عليها في مكتبة المرحوم محمد مظهر الفاروقي في المدينة المنورة فعهد بتحقيقها الى فهيم محمد شلتوت. كتب ذلك في مقدمة الكتاب بتاريخ ذي الحجة 1402 للهجرة.

الاليمة التي لقيها. ولعله لا يوجد نصٌ قديم عالج حياة عثمان والمجتمع المدني وأحداث الفتنة بمثل تلك الدقة والتوسع الموجودة في كتاب ابن شبة هذا، مما يجعله من اهم المصادر الأصيلة المتاحة للباحث. ومما زاده تألقاً أن المؤلف يورد أخباره بإسنادٍ كامل الى أن يصل شاهد الحادثة أو سامعها أو ناقلها. ولكن الكتاب ينتهي عند مقتل عثمان ولا يتناول ما بعد ذلك.

وأما كتاب الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد (توفي عام 230 للهجرة) فهو قديم ومشهور. ورغم أنه في الأساس كتاب في علم تراجم الرجال إلاّ أنه يمكن اعتباره مصدراً مميزاً لتاريخ صدر الاسلام من خلال ما حواه من اخبار وروايات مسندة عن احداث الفتنة في سياق استعراضه لشخصيات الصحابة وحياتهم.

وهناك كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي (توفي عام 314 للهجرة). وهو مما تأخر اكتشافه وتحقيقه. ولكنه يحتوي روايات مفصلة وكثيرة عن حداث الفتنة. وبخلاف المصادر الأساسية التي ذكرناها يعتمد مؤلفه أسلوب الاسناد الجمعي حيث يذكر أسماء من وصله الخبر عن طريقهم مرة واحدة ثم يعلن كيفية تدخله «*وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد*». وتضم مصادره أبو مخنف والواقدي والشعبي وحفيد عبد الرحمن بن عوف وغيرهم.

واختلف كتاب تاريخ اليعقوبي (توفي عام 284 للهجرة) عن غيره من المصادر الرئيسية بتركه للاسناد التفصيلي للروايات التاريخية. كما تميز بنزعة للاختصار والتلخيص مما قلل من شأنه كمصدر بالقياس الى الطبري والبلاذري.

وقد أوضح منهجه بقوله «*ولم نذهب إلى التفرد بكتاب نصنفه ونتكلف منه ما قد سبقنا إليه غيرنا، لكنا قد ذهبنا إلى جمع المقالات والروايات لأنا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمال، وزاد بعضهم ونقص بعض، فأردنا أن نجمع ما انتهى إلينا مما جاء به كل امرئ منهم لان الواحد لا يحيط بكل العلم*»

وقد أجمل ذكر مصادره كما يلي «*وكان من روينا عنه ما في هذا الكتاب: إسحاق بن سليمان بن علي الهاشمي عن أشياخ بني هاشم، وأبو البختري وهب بن وهب القرشي عن جعفر بن محمد وغيره من رجاله، وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد، ومحمد بن عمر الواقدي عن موسى بن عقبة وغيره من رجاله، وعبد الملك بن هشام عن زياد بن عبد الله البكائي عن محمد بن إسحاق المطلبي، وأبو حسان الزيادي عن أبي المنذر الكلبي وغيره من رجاله، وعيسى بن يزيد بن دأب، والهيثم بن عدي الطائي عن عبد الله بن عباس الهمداني، ومحمد بن كثير القرشي عن أبي صالح وغيره من رجاله، وعلي بن محمد بن عبد الله بن أبي سيف المدائني، وأبو معشر المدني، ومحمد بن موسى الخوارزمي المنجم، وما شاء الله، الحاسب في طوالع السنين والأوقات. وأثبتنا عن غير هؤلاء الذين سمينا جملا جاء بها غيرهم ورواها سواهم وعلمناها من سير الخلفاء وأخبارهم، وجعلناه كتابا مختصرا، حذفنا منه الاشعار وتطويل الاخبار*»

وعند تناول معركة صفين وما جرى بها لا يمكن تجاهل كتاب «وقعة صفين» لنصر بن مزاحم المنقري. فهو كتاب متخصص بهذا الحدث الكبير وقد أودع فيه مؤلفه (وهو من المصادر القديمة – توفي سنة 212 للهجرة) تفاصيل كثيرة جدا عن القتال و المعارك، والمساجلات والمراسلات، والاشعار والخطب، وكل ما يتعلق بتلك الحرب. والكتاب به نفسٌ ملحميّ، وهو بالتالي ميالٌ الى المبالغات وبراعة التصوير، ولكنه غنيّ بالمادة التاريخية. ومن مزاياه ايضا اعتماد مؤلفه على مصدر قديم غير ابي مخنف والواقدي: عمر بن سعد الأسدي والذي جاءت رواياته بشكل عام غير متناقضة مع رواياتهما.

وكذلك يعتبر كتاب «الاخبار الطوال» لأبي حنيفة الدينوري (توفي سنة 282 للهجرة) من المصادر المفيدة للباحث كونه يحتوي تفاصيل كثيرة عن حربي الجمل وصفين واغتيال عليّ وتنازل الحسن لمعاوية. ولم يعتنِ مؤلفه بذكر اسانيد رواياته بل اعتمد اسلوب انتقاء الاخبار التي وجدها من المصادر

القديمة وقال «وجدتُ في كتب اهل العلم بالاخبار الاولى» ثم يسترسل بالسرد. ولم يذكر اسماء مصادر رواياته الا قليلا، ومنهم الشعبي والكلبي والهيثم بن عدي.

واما المصادر المساعدة فهي كثيرة. وأهمها كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (والذي هو عملٌ موسوعيّ ضخم ومفيدٌ، إلاّ أن مؤلفه من المتأخرين)، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد، والبداية والنهاية لابن كثير والامامة والسياسة لابن قتيبة (رغم أن هناك شكاً في صحة نسبة الكتاب اليه) والثقات لابن حبان وكتب تراجم الرجال وخاصة أسد الغابة لابن الأثير والاستيعاب لابن عبد البر وتاريخ خليفة بن خياط (الذي هو قديم ولكنه مختصر).

وقد أوليتُ عناية خاصة لابن كثير ورواياته وآرائه، لكونه يمثل اتجاهاً واضحاً منحازاً للخليفة عثمان ولبني أمية بشكل عام. فيمكن القول إنه المؤرخ الرسمي للحكام ولمؤسسة الخلافة برمتها. ويقترب من خطه الامام الذهبي في كتابيه سير أعلام النبلاء وتاريخ الاسلام.

وهناك مصادر هامشية لجأتُ اليها لتدعيم روايات أو إكمالها مثل الاصابة لابن حجر ومروج الذهب للمسعودي وتاريخ ابن خلدون.

* * * * *

وقد قررتُ أن أسمّي هذا الكتاب «صعود معاوية» نظراً لما في ذلك من غرابةٍ تصل الى حد العجب: إذ كيف يصلُ رجلٌ من الطلقاء الى رئاسة دولة الرسول (ص) وهم الذين أصرّوا على الصمود في معاداته ومعاداة دعوته الى الرمق الاخير؟! كيف يتجاوز المهاجرين والانصار الذين صنعوا ملحمة الاسلام بدمائهم وتضحياتهم وصبرهم؟! ما الذي جرى حتى يمكن لرجلٍ يحملُ تلك الصفة «طليق» أن يصعد الى القمة ومن ثم يؤسس لعرشٍ عائليّ تتوارثه سلالته ؟! الجواب على هذه التساؤلات الكبيرة هو: «الفتنة الكبرى» وأحداث الفتنة الكبرى، وهي موضوع هذا الكتاب.

ويتكاملُ هذا العمل مع جزئين تاليين لأغطّي بقية الملحمة :

«عليّ وعائشة ... حرب الجمل»

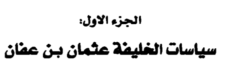
و

«صِفّين، الخوارج ... ونهاية عليّ»

وأتمنى ان أكون قد وفقتُ في ما كتبتُ، وأن يكون هذا الكتاب إسهاماً في جلاء الحقيقة التاريخية لمن يسعى لها.

حسام عبد الكريم

آب 2018



الجزء الاول:

سياسات الخليفة عثمان بن عفان

الفصل الأول: قضية عبيد الله بن عمر[1]

مشكلة تواجه الخليفة في يومه الأول

كانت أول مشكلة واجهت الخليفة عثمان وتطلبت منه قراراً هي ما حصل من عبيد الله بن عمر بن الخطاب.

والظاهر ان عبيد الله هذا كان شاباً قوياً متهوراً. وبخلاف أخيه عبد الله الذي اشتهر بالعبادة والهدوء، يبدو أن هناك شكاً حول حُسن أخلاقه منذ صغره. وقد ذكر محمد بن حبيب البغدادي في كتاب «المنمق في أخبار قريش» أن أباه عمر كان أقام عليه حد الخمر .

الوقائع

فقد اندفع عبيد الله بن عمر للثأر من عدد من الأشخاص الذين اعتقد أنهم ساعدوا أبا لؤلؤة في قتل والده. وبدون أي تمحيص أو تدقيق أو تحقيق. فابتدأ بقتل الهرمزان، وهو كان من القيادات الفارسية وقد أشهر إسلامه في زمان عمر، ثم أتى جفينة، وكان نصرانياً من أهل الحيرة، فقتله. ثم أتى منزل أبي لؤلؤة فقتل ابنته الصغيرة.

وليس هناك اختلاف يذكر بين المؤرخين وأصحاب الأخبار بشأن ما قام به عبيد الله من قتل. ولكن هناك تأويلات وتبريرات لما فعله، تبعاً لميول الرواة.

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص15-17)، تاريخ الطبري (ج3 ص302-303)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص163)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص 461)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص342-343)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص167)، والمنمق في أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص 395).

فمثلاً قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عن الخليفة عثمان «*وأما أول حكومة حكم فيها فقضية عبيد الله بن عمر، وذلك انه غدا على ابنة ابي لؤلؤة قاتل عمر، فقتلها. وضرب رجلاً نصرانياً يقال له جفينة بالسيف فقتله. وضرب الهرمزان الذي كان صاحب تستر فقتله.*

وكان قد قيل انهما مالآ أبا لؤلؤة على قتل عمر. والله أعلم»

وروى ابن الأثير في «أسد الغابة» انه بعد دفن عمر «*قيل لعبيد الله: قد رأينا أبا لؤلؤة والهرمزان نجياً، والهرمزان يقلب هذا الخنجر بيده، وهو الذي قتل به عمر، ومعهما جفينة وهو رجل من العباد جاء به سعد بن ابي وقاص يعلم الكتاب بالمدينة، وابن فيروز، وكلهم مشرك إلاّ الهرمزان.*

فعدا عليهم عبيد الله بالسيف فقتل الهرمزان وابنته وجفينة. فنهاه الناس فلم ينتهِ وقال والله لأقتلنّ من يضغر هؤلاء في جنبه....»

وقد ذكر ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عدة روايات عن الواقدي كلها تشير الى قيام عبيد الله بقتل الهرمزان وجفينة والبنت الصغيرة. وبعضها يقول ان عبيد الله في هياجه أراد «*ألاّ يترك سبياً في المدينة يومئذ إلاّ قتله*» لولا قيام عمرو بن العاص وسعد بن ابي وقاص وعثمان بن عفان بالسيطرة عليه وانتزاع سيفه وتهدئته

موقف عثمان تجاه القاتل

سبّبَ ما قام به عبيد الله مشكلة حقيقية وحرجاً بالغاً للخليفة الجديد. فالقاتل هو ابن الخليفة المغدور. وعمر بن الخطاب له مكانة رفيعة وعظيمة في نفوس المسلمين الذين لم يكونوا بعدُ استفاقوا من صدمة اغتياله.

ولكن ما فعله عبيد الله كان فظيعاً. فهو ارتكب جريمة بشعة تمثّلت بقتل ثلاثة أشخاص من بينهم طفلة، على الظن ودون أي محاكمة. والهرمزان كان مسلماً. وعلى الرغم من أن البعض قد يشكك في مدى إخلاص ذلك القائد الفارسي الذي دخل الاسلام، إلاّ أنه لم يصدر منه ما يتناقض مع واجباته كمسلم.

فالحكم الشرعي بحق عبيد الله معروفٌ إذن: الاعدام. فالقاتل يقتل، إلاّ أن يعفو أولو الدم.

ولكن ماذا يفعل عثمان؟ هل ينفذ حكم الشرع بعبيد الله بن عمر؟ هل يأمر بقتله؟

أم هل يتغاضى عنه على اعتبار أن مافعله كان فورة غضب وهياج؟ وهؤلاء المقتولون كانوا من الموالي، وبالتالي ليس لهم قبيلة تغضب لهم.

كان عثمان ميالاً بطبعه الى الحل الثاني. فتكفي مصيبة قتل عمر، ولا داعي لإلحاق ابنه به. ولكن المشكلة كانت أن عثمان يرأس دولة الاسلام التي أسسها رسول الله (ص) قبل سنين قليلة على أساس العدل والحكم الالهي. فهي ليست دولة أباطرة وأكاسرة، وعثمان بحكم منصبه كان «خليفة لرسول الله» وعليه أن يلتزم بما شرعه رسول الله. ولذلك كان عثمان غاضباً جداً على عبيد الله الذي وضعه في هذا الموقف الصعب: روى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» عن محمد بن عمر (الواقدي) ان عثمان بن عفان كان يقول لعبيد الله *«قاتلكَ الله! قتلتَ رجلاً يصلي وصبية صغيرة وآخر من ذمة رسول الله (ص). ما في الحق تركك»*

قرر عثمان أن يجد مخرجاً شرعياً لقراره بالعفو عن ابن عمر:

فهو اولاً أراد أن يكون قراره مدعوماً بموافقة أغلبية المسلمين. فقام بجمع كبار القوم واستشارهم:

وروى الطبري في تاريخه وابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري:

«فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار: أشيروا عليّ في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق.

فقال عليّ: أرى أن تقتله.

فقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين: ان الله قد أعفاك أن يكون هذا

الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك.

قال عثمان: أنا وليّهم. وقد جعلتها دية. واحتملتها في مالي»

إذن يقول عثمان انه بحكم منصبه كأمير للمؤمنين، يكون هو ولي الدم لهؤلاء المقتولين الذين هم من الموالي. وهو بتلك الصفة يعطي نفسه الحق بالعفو.

وقد أكدت رواية ابن الاثير في «اسد الغابة» على هذا المعنى :

«وقيل: انه إنما تركه عثمان لأنه قال للمسلمين: من وليّ الهرمزان؟

قالوا: أنتَ.

قال: قد عفوتُ عن عبيد الله.»

ومعظم الروايات تذكر تدخل عمرو بن العاص لمساعدة الخليفة الجديد في قراره

قال ابن كثير في البداية والنهاية *«وقال بعض المهاجرين: أيقتل ابوه بالأمس ويقتل هو اليوم؟*

فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، قد برّأك الله من ذلك. قضية لم تكن في أيامك فدعها عنك.»

وذكر ابن سعد في رواية كلمة عمرو بن العاص لعثمان *«يا أمير المؤمنين، ان هذا الأمر قد كان قبل ان يكون لك سلطان على الناس»*

وروى ابن الأثير *«... وقال جماعة منهم عمرو بن العاص: قتل عمرُ أمسِ ويقتل ابنه اليوم! أبعد الله الهرمزان وجفينة.»*

وللإنصاف تنبغي الاشارة الى أن عثمان، بقراره العفو عن ابن عمر، كان في الواقع يقترب من الشعور العام السائد في المدينة. وقد أشارت إحدى روايات الواقدي في الطبقات الكبرى لابن سعد الى جو الكآبة الذي خيم على المدينة بسبب إشفاق الكثيرين من المسلمين من تطبيق عقوبة الاعدام بحق

عبيد الله «*وأظلمت الارض يومئذ على الناس فعظم ذلك في صدور الناس وأشفقوا ان تكون عقوبة قتل عبيد الله جفينة والهرمزان وابنة ابي لؤلؤة*». وذكرت إحدى الروايات ان قيام عثمان في النهاية بالعفو عن عبيد الله كان ناتجاً عن هذا الرأي العام «*ان عثمان استشار المسلمين فأجمعوا على ديتهما ولا يقتل بهما عبيد الله بن عمر. وكانا قد أسلما وفرض لهما عمر*»

وقام الخليفة بدفع الدية، بالنيابة عن القاتل، الى ذوي المقتولين،كما في روايات الطبري وابن سعد وابن الاثير وابن كثير.

وأما اليعقوبي فلم يشر الى دفع الدية. فقد ذكر في تاريخه أن الخليفة عثمان قد عفى عن القاتل، واكتفى بإبعاده من المدينة الى الكوفة:

«*ثم أخرج عثمانُ عبيدَ الله بن عمر من المدينة إلى الكوفة، فأنزله داراً فنسب الموضع اليه: كويفة ابن عمر*»

وكذلك لم يذكر ابن عبد البر في الاستيعاب دفع الدية صراحة. بل قال باختصار «*ان عبيد الله بن عمر قتل الهرمزان بعد ان أسلم، وعفا عنه عثمان*»

كما ان روايات الواقدي لدى ابن سعد «الطبقات الكبرى» لم تذكر ان عثمان احتمل الدية في ماله ولا انه أرسل عبيد الله الى الكوفة، ولم تشر الى نص كلام عثمان بشأن قراره بالعفو.

موقف علي بن ابي طالب ومعارضة قرار العفو

أخرج ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات للواقدي تشير الى معارضة علي بن ابي طالب للعفو عن عبيد الله وإصراره على تطبيق الحد الشرعي عليه :

«*قال علي لعبيد الله بن عمر: ما ذنبُ بنت ابي لؤلؤة حين قتلتها ؟!*

فكان رأي عليّ حين استشاره عثمان، ورأيُ الأكابر من أصحاب رسول الله على قتله، لكن عمرو بن العاص كلم عثمان حتى تركه. فكان علي يقول: لو قدرتُ على عبيد الله بن عمر ولي سلطان لاقتصصتُ منه»

وقال ابن كثير في البداية والنهاية عن عثمان «*كان أول ما تحوكم اليه في شأن عبيد الله.*

فقال علي: ما من العدل تركه، وأمر بقتله.»

وقد مرت بنا رواية الزهري لدى الطبري وابن سعد وفيها إشارة علي بقتل عبيد الله.

فبالنسبة لعلي: المبدأ هو الأساس. فحتى لو كان القتلى من الفرس حديثي الدخول في الاسلام، أو حتى غير مسلمين، ليس في الدين ما يبرر قتل الناس على المظنّة. وفي الشرع ليس الانفعالُ مبرراً للجريمة. وليس في الشرع ما يدعو لقتل الأطفال. فلا بد أن يعاقب عبيد الله على فعلته. وعليٌ يرى أنه يجب التزام المبدأ الرسولي في أن لا فرق بين عربي وعجمي إلاّ بالتقوى.

وقد أشار عدد من المؤرخين الى أن موقف علي تجاه ابن عمر كان من الأسباب التي دعت الأخير الى الالتحاق بمعاوية بعد حوالي 12 عاماً من تلك الحادثة، حين ولي علي الخلافة. ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال في الاستيعاب عن عبيد الله بن عمر «... *فلما ولي علي خشي على نفسه فهرب الى معاوية، فقتل بصفين*» وأيضا ابن سعد في رواية للواقدي «*وكان علي بن ابي طالب لما بويع له أراد قتل عبيد الله بن عمر فهرب منه الى معاوية فقتل بصفين*»

ولكني لا أعتقد أن الامام علياً لما تولى الخلافة سنة 35 للهجرة قد أراد بالفعل أن يقتل عبيد الله بن عمر. لأنه ببساطة كان يواجه آنذاك من المشاكل والصعوبات، الكبيرة والخطيرة، ما يصرفه عن معالجة قضية قديمة لابن عمر، ليس لها طابع مُلِحّ. ولكن هذا لا ينفي أن عبيد الله ربما يكون استسلم لمخاوفه وهواجسه تجاه علي فقرر عدم المخاطرة بالبقاء الى جواره.

وانفرد اليعقوبي بالاشارة الى أن المقداد بن عمرو كان من المعارضين لقرار العفو. فقال في تاريخه:

«*وأكثر الناس في دم الهرمزان وإمساك عثمان عبيد الله بن عمر.*

فصعد عثمان المنبر فخطب الناس وقال: ألا إني وليّ دم الهرمزان، وقد وهبته لله ولعمر، وتركته لدم عمر. فقام المقداد بن عمرو فقال: إن الهرمزان مولى لله ولرسوله وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله.

فقال: فننظر وتنظرون.»

وهذه الرواية ممكنة القبول لأن المقداد كان من النواة الصلبة المؤيدة لعلي بن ابي طالب في كل مواقفه.

روايات مُصَمّمة للدفاع عن القاتل وعن موقف الخليفة

وقد انفرد ابن الاثير بذكر رواية مصممة للدفاع عن الخليفة عن طريق الزعم بأن العفو عن القاتل قد صدر بالفعل عن ابن الهرمزان، وبالتالي لا لوم على عثمان ! فقد قال في «أسد الغابة»:

«وقيل: ان عثمان سلم عبيد الله الى القماذبان بن الهرمزان ليقتله بأبيه.

قال القماذبان: فأطاف بي الناس وكلموني في العفو عنه. فقلتُ: هل لأحد أن يمنعني منه؟

قالوا: لا .

قال: أليس إن شئتُ قتلته؟

قالوا: بلى.

قلتُ: قد عفوتُ عنه !

قال بعض العلماء: ولو لم يكن الامر هكذا لم يقل الطعانون على عثمان عدل ست سنين ولقالوا انه ابتدأ أمره بالجور لأنه عطل حدا من حدود الله.»

وبالاضافة الى أن ابن الاثير قد ذكر الرواية بصيغة «قيل» مما يشي بتشككه بها، فقد عبر صراحة عن ذلك حين كتب: *«وهذا أيضا فيه نظر، فإنه لو عفا عنه ابن الهرمزان لم يكن لعلي أن يقتله، وقد أراد قتله لما ولي الخلافة ولم يزل عبيد الله كذلك حياً حتى قتل عثمان وولي عليّ الخلافة وكان رأيه أن*

يقتل عبيد الله. فأراد قتله فهرب منه إلى معاوية وشهد معه صفين، وكان على الخيل. فقتل في بعض أيام صفين»

وفات ابن الاثير أن يذكر أن القماذبان بن الهرمزان، لو صحّ أنه عفا عن قاتل أبيه، فليس له أن يعفو عن قاتل جفينة، الرجل النصراني من الحيرة، ولا أن يعفو بالنيابة عن البنت الصغيرة ابنة أبي لؤلؤة.

وأما العلامة ابن كثير فهو لم يشعر بالحاجة الى البحث عن روايات ولا الكثير من التبريرات لفعل عثمان، بل أعلن تأييده له بلا أي تحفظ، على أساس أنه الامام الذي من حقه أن يرى المصلحة. فقال في «البداية والنهاية» *«فودى عثمان رضي الله عنه اولئك القتلى من ماله، لأن أمرهم اليه، إذ لا وارث لهم إلاّ بيت المال. والامام يرى الاصلح في ذلك. وخلى سبيلَ عبيد الله»*

وهذا الموقف متوقع من ابن كثير، وهو ينسجم مع خطه العام.

وفي تاريخ الطبري نجد أن سيف بن عمر التميمي قد ذكر رواية من شأنها إيجاد عذر للقاتل وتبرير اندفاعه عن طريق إلقاء اللوم على المقتولين. وهذه الرواية تتحدث عن تفاصيل مؤامرة لاغتيال عمر حاكها الهرمزان وجفينة مع القاتل أبي لؤلؤة. فقد روى الطبري في تاريخه *«ان عبد الرحمن بن ابي بكر قال غداة طعن عمر: مررتُ على ابي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة والهرمزان، وهم نجي، فلما رهقتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان، نصابه في وسطه. فانظروا بأي شيء قتل.*

وقد تخلل أهل المسجد وخرج في طلبه رجل من بني تميم، فرجع اليهم التميمي، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه فقتله، وجاء بالخنجر الذي وصف عبد الرحمن بن ابي بكر. فسمع بذلك عبيد الله بن عمر، فأمسك حتى مات عمر.

ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله، فلما عضه السيف قال: لا اله الا الله. ثم مضى حتى أتى جفينة، وكان نصرانياً من اهل الحيرة، ظئراً لسعد بن مالك أقدمه الى المدينة للصلح الذي بينه وبينهم وليعلم بالمدينة الكتابة، فلما علاه بالسيف صلب بين عينيه .

وبلغ ذلك صهيباً فبعث اليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول: السيف بأبي وأمي، حتى ناوله اياه، وثاوره سعد فأخذ بشعره وجاؤوا الى صهيب»

وسيف بن عمر متخصصٌ بروايات المؤآمرات. ولذلك لا ينبغي أخذ روايته هذه بكثير من الجدية. وعلى أي حال، فروايته هذه أيسر شأناً بكثير مما سيرويه عن مؤآمرات هائلة رهيبة حيكت وأدت لمقتل الخليفة عثمان وحرب الجمل.

ويلاحظ ان رواية سيف هذه تجاهلت ذكر قتل البنت الصغيرة. ولم ينسَ سيف أن يذكر دور ذلك الرجل من قبيلته، تميم، الذي لحق بأبي لؤلؤة حتى قتله!

وختاماً أشير ألى أن العلامة ابن عبد البر قد عبر عن تشككه في تفاصيل جريمة عبيد الله بن عمر حين قال في الاستيعاب «*وقصته في قتل الهرمزان وجفينة وبنت ابي لؤلؤة فيها اضطراب*». ولكنه لم يوضح أسباب قوله هذا. وهو على كل حال قد أثبت تفاصيل مقتله بصفين .

الفصل الثاني: عطايا عثمان لعائلته ولأقربائه[1]

رد الحكم بن ابي العاص

كان من أول الأشياء التي فعلها الخليفة الثالث حين استلم السلطة أنه قام بردّ عمّه الحكم بن أبي العاص وبنيه الى المدينة، في مخالفة صريحة لأمر الرسول(ص) ورغبته. فقد كان رسول الله (ص) أمر بنفي الحكم بن أبي العاص وولده إلى الطائف، لأنه لا يريد أن يساكنه هذا الشخص، نظرا لتاريخه الطويل في إيذائه، وبأسفل الطرق وأكثرها انحطاطا.

ذلك رغم أن عثمان كان قد كلم أبا بكر فيهم بعد وفاة الرسول(ص)، وسأله ردّهم، إلاّ أنه رفض إيواء طرداء رسول الله، ومع أنه قد حاول مرة أخرى مع عمر الذي رفض واتخذ الموقف نفسه.

وقد ذكر ابن اسحاق «كما ورد في سيرة ابن هشام» أسماء كل من أبي لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص64)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1092)، الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص50)، تاريخ الطبري (ج3 ص314، ص382)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص137 وص 208-209)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص164، 166، 168، 173)، الاستيعاب في معرفة الاصحاب لابن عبد البر (ص 453)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص34، ج3 ص116)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج1 ص198-199)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص 244) ،تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص187)، الاصابة لابن حجر العسقلاني (ج4 ص5)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص108، ص482) وكنز العمال للمتقي الهندي (ج5 ص714) والكامل في التاريخ لابن الاثير (ص372-373) ،مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص64)، السيرة النبوية لابن هشام (ج2 ص 57)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص97) ،و كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 - ص 370 - 371)

الثقفي وابن الأصداء الهذلي على أنهم كانوا أسوأ جيران لرسول الله في مكة وأنهم كانوا يؤذونه في بيته «*فكان أحدهم -فيما ذكر لي- يطرح عليه صلى الله عليه وسلم رحم الشاة وهو يصلّي، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له. حتى اتّخذ رسول الله حجرا يستتر به منهم إذا صلّى. فكان رسول الله إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف على بابه ثم يقول: يا بني عبد مناف، أيّ جوار هذا؟ ثم يلقيه في الطريق.*»

وليس هناك خلاف بشأن سيرة الحكم بن ابي العاص مع رسول الله(ص). فأخباره مشهورة معروفة. وأكتفي بما قال ابن الاثير عنه في أسد الغابة:

«*... وهو طريدُ رسول الله(ص). نفاه من المدينة إلى الطائف، وخرج معه ابنه مروان...*

وقد اختلف في السبب الموجب لنفي رسول الله(ص) إياه. فقيل: كان يتسمع سر رسول الله(ص) ويطلع عليه من باب بيته...

... وقيل: كان يحكي رسول الله(ص) في مشيته وبعض حركاته. وكان النبي(ص) يتكفأ في مشيته فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته...

... وقد روي في لعنه ونفيه أحاديث كثيرة لا حاجة إلى ذكرها. إلاّ أن الأمر المقطوع به أن النبي(ص)، مع حلمه وإغضائه على ما يكره، ما فعل به ذلك إلاّ لأمر عظيم

ولم يزل منفياً حياة النبي(ص). فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليردّه إلى المدينة فقال: ما كنتُ لأحلّ عقدة عقدها رسول الله(ص). وكذلك عمر.

فلما ولي عثمان رضي الله عنه ردّه...»

وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد خبر مشادّة بين الحسن والحسين من جهة، ومروان من جهة أخرى: «*قال مروان: انكم أهل بيت ملعونون! فغضب الحسن وقال: ويلكَ قلتَ أهلَ بيتٍ ملعونون؟! فوالله لقد لعن الله أباك على لسان نبيّه (ص) وأنت في صلبه*»[1].

(1) والعديد من المصادر ذكرت أن عائشة قالت نفس هذه العبارة لمروان أثناء خلافه من أخيها عبد الرحمن. ومنهم ابن الاثير في أسد الغابة وقال: ان القصة مشهورة.

وبعد أن ردّه عثمانُ الى المدينة، أكرمه ووصله. وقد استفاض المؤرخون من أصحاب النزعة الشيعية في وصف تفاصيل انقلاب أحوال الحكم بفضل ابن أخيه عثمان. ومن هؤلاء اليعقوبي الذي قال في تاريخه: «*وكتب عثمان إلى الحكم بن أبي العاص أن يقدم عليه، وقد كان طريد رسول الله. وقد كان عثمان لما ولي أبو بكر اجتمع هو وقوم من بني أمية إلى أبي بكر فسألوه في الحكم فلم يأذن له. فلما ولي عمر فعلوا ذلك فلم يأذن له. فأنكر الناس إذنه له وقال بعضهم: رأيتُ الحكم بن أبي العاص يوم قدم المدينة عليه فزر خلق، وهو يسوق تيساً، حتى دخل دار عثمان، والناس ينظرون إلى سوء حاله وحال مَن معه، ثم خرج وعليه جُبّة خزّ وطيلسان*»

ولكن حتى الامام الذهبي، صاحب النزعة الاموية، لم يملك إلاّ الإقرار بإغداق الخليفة على عمه الحكم. فقال في سير أعلام النبلاء: «*نفاه النبي(ص) إلى الطائف، لكونه حكاه في مشيته وفي بعض حركاته، فسبّه وطرده، فنزل بوادي مج (الطائف). ونقم جماعة على أمير المؤمنين عثمان كونه عطف على عمه الحكم، وآواه وأقدمه المدينة، ووصله بمئة ألف*».

وهكذا فالذهبي يعترف بأن «جماعة» قد نقموا على عثمان لرده الحكم بن ابي العاص.

والمصادر الشيعية تفيد أن قرار عثمان هذا قد لاقى رفضا واعتراضاً من جانب الامام علي الذي واجه الخليفة مباشرة وطالبه بالعودة عن قراره. فقد روى الشيخ المفيد في كتاب الجمل:

«*ولما ولي عثمان الأمر استدعاه من الطائف إلى المدينة وآواه وحباه وأعطاه وقطعه المربد بمدينة الرسول فعظم ذلك على المسلمين وقالوا آوى طريد رسول الله وحباه وأعطاه. وصاروا إلى أمير المؤمنين (ع) فسألوه أن يكلمه في إخراجه عن المدينة ورده إلى حيث نفاه النبي*.

فجاءه أمير المؤمنين وقال له: قد علمتَ يا عثمان أن النبي قد نفى هذا الرجل عن المدينة ولم يرده وأن صاحبيك سلكا سبيله في تبعيده واتبعا سنته في ذلك وقد عظم على المسلمين ما صنعت في رده وإيوائه فاخرجه عن المدينة واسلك في ذلك سنة النبي صلى الله عليه وآله .

فقال: يا علي قد علمت مكان هذا الرجل مني وأنه عمي وقد كان النبي صلى الله عليه وآله أخرجه عن المدينة لبلاغه ما لم يصلح عليه وقد مضى النبي لسبيله ورأى أبو بكر وعمر ما رأياه. وأنا أرى أن أصل رحمي وأقضي حق عمي وهو ليس شر أهل الأرض وفي الناس من هو شر منه.

فقال (ع): والله لئن بقيت يا عثمان ليقول الناس فيك ما هو شر من هذا»

هل يدفع عثمان من ماله الشخصي أم من بيت مال المسلمين؟

والحديث عن رد الحكم واكرامه مدخل جيد لبحث نقطة حساسة تتعلق بسياسة الخليفة الثالث.

ولا بد أن ذلك كان أمراً عجيباً بنظر عامة المسلمين الذين لم يكن معروفاً لديهم على أي أساس أباح خليفة رسول الله لنفسه أن يردّ واحداً من أعدى أعداء الرسول(ص) الى مدينته، بل ويتجاوز ذلك إلى حد تكريمه والاحتفاء به! ولا شك أن الكثير من المسلمين كانوا يراقبون تصرفات عثمان باستهجان وعَجَب لقيامه بتوزيع الأموال على عائلته الأموية بتلك الطريقة. وقد كان أمر الحكم بن ابي العاص من المطاعن الرئيسية على عثمان، واستخدمه كارهو عثمان في شتى المناسبات لتبرير عدائهم له والتأليب عليه. وقد اضطر عثمان الى الدفاع عن نفسه مرات عديدة، إحداها أمام كبار الصحابة، كما روى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة. فكان دفاع عثمان يرتكز على ثلاثة أسس :

- إن الحكم قد تاب.
- إن أبا بكر وعمر لوكان لهما قرابة مثله لفعلا نفس الشيئ.
- إنه يعطيه من ماله الخاص

وفيما يلي نص هذه الرواية المتعاطفة مع عثمان : «*ونقمتم عليّ إيوائي الحكم بن أبي العاص. وإن رسول الله قد كان يقبل توبة الكافر، وإن الحكم تاب فقبلت توبته. ولعمري أنه لو كانت ثمت لأبي بكر وعمر مثل رحمه بي لآوياه. ونقمتم عليّ أني وصلته بمالي. والله ما هو إلاّ مالي*»

ولكن اليعقوبي في تاريخه لا يوافق على أن عثمان كان يعطي عمه الحكم من ماله الخاص، بل يؤكد ان عطايا عثمان لأقربائه كانت من بيت المال، وان ذلك أثار معارضة خازن بيت المال الذي حاول المماطلة في التنفيذ والتهرب من الدفع، ولما لم ينجح استقال احتجاجاً. فعن عبد الرحمن بن يسار قال «*رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة اذا أمسى آتاها عثمان. فقال له: ادفعها الى الحكم بن ابي العاص. وكان عثمان اذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها فرضاً من بيت المال.*

فجعل يدافعه ويقول له: يكون فنعطيك أن شاء الله .

فألحّ عليه فقال: انما أنت خازن لنا، فإذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت!

فقال: كذبتَ والله ! ما أنا لك بخازن، ولا لأهل بيتك. انما أنا خازن المسلمين.

وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب فقال: ايها الناس زعم عثمان اني خازن له ولأهل بيته، وانما كنتُ خازناً للمسلمين، وهذه مفاتيح بيت مالكم، ورمى بها!

فأخذها عثمان ودفعها الى زيد بن ثابت»

ورغم أن رواية اليعقوبي هذه تخلو من ذكر اسم خازن بيت المال، ذلك القوي الذي اشتبك علناً مع الخليفة، واستقال احتجاجاً، مما يمكن اعتباره عنصر ضعف فيها، إلاّ أن هناك من الروايات ما يدعمها ويجعلها ممكنة القبول جداً.

فقد تحدث رواة آخرون، لا يُشتبه في تحاملهم على عثمان، عن خلافات الخليفة مع خازن بيت ماله، عبد الله بن الارقم.

فقد ذكر ابن الاثير في اسد الغابة في ترجمة عبد الله بن الارقم «*واستعمله عمر على بيت المال، وعثمان بعده، ثم انه استعفى عثمان من ذلك فأعفاه*» ورغم انه لم يذكر سبباً مباشراً لاستقالة ابن ارقم، إلاّ ان ابن الاثير أشار في

موضع آخر الى رفضه اعطيات عثمان، مما يوحي بصحة رواية اليعقوبي حول احتجاجه على سياسة عثمان المالية «*وروى مالك قال: بلغني ان عثمان أجاز عبد الله بن الارقم وهو على بيت المال بثلاثين ألفاً فأبى أن يقبلها. وروى عمرو بن دينار ان عثمان رضي الله عنه أعطاه ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال: عملتُ لله وانما أجري على الله*»

وكرر ابن حجر العسقلاني في «الاصابة» نفس ما ذكره ابن الاثير عن عبد الله بن الارقم. وكذلك فعل الذهبي في سير اعلام النبلاء.

ويلاحظ أن روايات هؤلاء جاءت بصيغة مخففة وملطفة. إلاّ أن ذلك لا يغير في حقيقة حصول الخلاف بين الخليفة وخازن بيت المال. والفارق أن اليعقوبي، صاحب النزعة الشيعية، استفاض في إبراز التفاصيل، بعكس البقية، الحريصين على سمعة الخليفة.

وقد صرح ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح بأن عثمان كان يدفع من بيت المال :

«*قال: ثم كثر المال عليه، فكان كل ما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ويزيدهم في العطايا، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم. قال: ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم، ثم بعث إلى الحكم بن أبي العاص فرده إلى المدينة وهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين وجعل له خمس إفريقية، وجعل [من بني] أمية الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصل ابنه بمال جليل*»

وأكثر الروايات تفصيلاً نجدها لدى البلاذري في أنساب الأشراف، الذي روى عن الزهري، أن عائشة قالت لعثمان في معرض تأنيبها له «... *واستسلفتَ من بيت المال 500 ألف درهم ليس عندك لها قضاء!*

وقال له عبد الله بن الارقم خازن بيت المال وصاحبه: اقبض عنا مفاتيحك! فلم يفعل وجعل يستسلف ولا يردّ...

قال الزهري: وكان في الخزائن سفط فيه حليّ فأخذ منه عثمان فحلى به بعض أهله. فأظهروا عند ذلك الطعن عليه، وبلغه ذلك فخطب فقال: هذا مال الله، أعطيه من شئتُ وأمنعه من شئتُ! فأرغم الله انف من رغم ...»

والزهري كما هو معلوم لا يتهم بالتحامل على عثمان، ولذلك نقطع بأن عثمان كان بالفعل يبيح لفسه أخذ ما يشاء من بيت المال دون ان يرده. فهو كان يعتبر ذلك حقاً له. ورواية الزهري هذه تشير بوضوح الى أن عطاياه لأقربائه كانت من بيت المال. والزهري مقرب من الحكام الامويين، ولا يشتبه بتحامله على عثمان.

المِنح لمروان بن الحكم

ولم يكتفِ الخليفة بالاغداق على عمه الحكم بل امتدّ كرمه الى ابن عمه مروان ! فكتب الى عبد الله بن أبي السرح يأمره بتقديم خمس غنائم افريقيا الى مروان بن الحكم بعد أن زوّجه ابنته. وخبر إطعام عثمان خمس افريقية - وأحياناً يذكر خمس مصر - لمروان شائعٌ ومشهور، ولا خلاف حوله بين أصحاب الاخبار. ومن ذلك:

ذكر الطبري في تاريخه في معرض حديثه عن غزوة افريقي سنة 27 رواية الواقدي (حدثني اسامة بن زيد الليثي عن ابن كعب) «*وكان الذي صالحهم عليه عبد الله بن سعد ثلثمائة قنطار ذهباً. فأمر به عثمان لآل الحكم. قلتُ: أو لمروان؟ قال: لا أدري*»

قال اليعقوبي انه بعد انتصار المسلمين بقيادة ابن ابي السرح في غزوة افريقية «*كثرت الغنائم وبلغت ألفي ألف دينار وخمسمائة ألف دينار وعشرين الف دينار.*

وروى بعضهم ان عثمان زوج ابنته من مروان بن الحكم، وأمر له بخمس هذا المال»

وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء «*وكتب لمروان بخمْس افريقية*»

وذكر ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ان عطاءات عثمان لمروان كانت من المآخذ عليه:

«اجتمع ناسٌ من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه.

وما كان من هبته خمُس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله»

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الزهري *«لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة اميرا. يعمل ست سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً، وانه لأحب الى قريش من عمر بن الخطاب لأن عمر كان شديداً عليهم، فلما وليهم عثمان لانَ لهم ووصلهم ثم توانى في أمرهم، واستعمل أقرباءه وأهل بيته في الست الأواخر وكتب لمروان بخمس مصر وأعطى أقرباءه المالَ، وتأول في ذلك الصلة التي أمر الله بها. واتخذ الأموالَ واستسلف من بيت المال وقال: ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما، واني أخذته فقسمته في أقربائي. فأنكر الناس عليه ذلك»* [1]

كما تجب الاشارة الى ان هناك اضطرابا في الروايات التي تتحدث عن خُمس افريقية. فبالاضافة الى الروايات الكثيرة التي تذكر قيام عثمان بمنح ذلك الخمس لابن عمه مروان، توجد روايات تقول ان الخليفة قد منح ذلك الخمس لأخيه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي السرح. ولكن العلامة ابن الأثير في الكامل حل ذلك الاشكال بقوله ان فتح افريقية تم على مرحلتين: الاولى كانت عام 25 للهجرة حين كان ابن ابي السرح لا يزال يعمل تحت

---

(1) وروى نفس هذا النص السيوطي في تاريخ الخلفاء نقلًا عن ابن سعد، مع استبدال عبارة «خمس مصر» بعبارة «خمس افريقية»

وذكر المتقي الهندي، وهو من أصحاب الحديث، في كنز العمال أن عثمان «كتب لمروان بخمس مصر، وأعطى أقرباءه المالَ وقال: ان أبا بكر وعمر تركا من ذلك ما هو لهما. واني أخذته فقسمته في أقربائي». وهذه نفس رواية ابن سعد.

إمرة عمرو بن العاص بمصر فوجهه عثمان الى أطراف افريقية غازياً «وقال له عثمان: *إن فتح الله عليك فلك من الفيء خمس الخمس نفلاً*» فنجح جيش عبد الله في الوصول الى أطراف افريقية، دون التوغل فيها، وصالحه أهلها على مال يؤدونه.

والثانية كانت عام 27 للهجرة، بعدما تولى ابن ابي السرح ولاية مصر فأذن له عثمان بشن حملة كبرى باتجاه افريقية أسفرت عن نجاح باهر وغنائم كبيرة وأموال كثيرة (ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار). وأضاف ابن الاثير «*وحُمِل خمس افريقية الى المدينة فاشتراه مروان بن الحكم بخمسمائة ألف دينار، فوضعها عنه عثمان. وكان هذا مما أخذ عليه.*

وهذا أحسن ما قيل في خمس افريقية. فإن بعض الناس يقول: أعطى عثمان خمس افريقية عبدَالله بن سعد. وبعضهم يقول: أعطاه مروانَ بن الحكم. وظهر بهذا انه أعطى عبدَالله خمسَ الغزوة الاولى وأعطى مروانَ خمسَ الغزوة الثانية التي افتتحت فيها جميع افريقية. والله اعلم»

ورأي ابن الاثير هذا جائز وممكن. وعليه يكون عثمان قد منح الخمس في المرة الاولى كحافز لقائده ابن ابي السرح. ويكون في المرة الثانية قد قرر «مسامحة» ابن عمه مروان في تأدية مبلغ الخمسمائة ألف دينار الذي كان عليه دفعه لبيت المال لقاء خمس غنائم افريقية الذي كان «اشتراه»!

عطايا لبقية بني أمية

وطبعاً لم يقتصر عثمان في عطاياه على بني عمه الحكم، بل كان يعطي غيرهم من بني أمية، من أمثال عبد الله بن خالد بن أسيد.

قال اليعقوبي في تاريخه «*وزوّج عثمان ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد، وأمَرَ له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة*»

وقال الطبري في تاريخه في رواية عبد الله بن احمد بن شبويه ان من المآخذ التي ذكرها الصحابة على عثمان «*قالوا: أعطيتَ عبدَالله بن خالد بن*

أسيد، ومروانَ. وكانوا يزعمون أنه أعطى مروان خمسة عشر ألفاً، وابنَ أسيد خمسين ألفاً..»

وروى البلاذري في أنساب الأشراف عن أبي مخنف والواقدي «أنكر الناس على عثمان إعطاءه سعيدَ بن العاص مائة ألف درهم» وذكر رواية عن ابن جريج «كان مما أنكروا على عثمان أنه ولى الحكم بن ابي العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلاثمائة ألف درهم، فوهبها له حين أتاه بها»، كما روى عن الواقدي «قدمت إبل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن ابي العاص»

وجمع ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة أخبار عطاءات عثمان لأقربائه وخاصته فقال عنه:

«فإنه أوطأ بني أمية رقابَ الناس، وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع. وافتتحت افريقية في أيامه فأخذ الخُمسَ كله فوهبه لمروان ....

وطلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد صلة، فأعطاه أربعمائة ألف درهم.

وأعاد الحكم بن ابي العاص بعد ان كان رسول الله(ص) قد سيره، ثم لم يرده أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف درهم.

وتصدق رسول الله (ص) بموضع سوق بالمدينة يعرف بمهزور، على المسلمين، فأقطعه عثمان الحارث بن الحكم أخا مروان بن الحكم.

وأقطع مروانَ فدكَ، وقد كانت فاطمة عليها السلام طلبتها بعد وفاة ابيها (ص) تارة بالميراث وتارة بالنحلة، فدفعت عنها.

وحمى المراعي حول المدينة كلها من مواشي المسلمين كلهم إلاّ عن بني أمية.

وأعطى عبد الله بن ابي سرح جميع ما أفاء الله عليه من فتح افريقية بالمغرب، وهي من طرابلس الغرب الى طنجة من غير أن يشركه فيه أحد من المسلمين.

وأعطى ابا سفيان بن حرب مائتي ألف من بيت المال، في اليوم الذي أمر فيه لمروان بن الحكم بمائة ألف من بيت المال. وقد كان زوجه ابنته أم أبان فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى. فقال عثمان: أتبكي أن وصلتُ رحمي؟ قال: لا، ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذتَ هذا المالَ عوضاً عما كنتَ أنفقته في سبيل الله في حياة رسول الله (ص). والله لو أعطيتَ مروانَ مائة درهم لكان كثيراً! فقال: ألقِ المفاتيحَ يا ابن أرقم فإنا سنجد غيرك.

وأتاه أبو موسى بأموال من العراق جليلة، فقسمها كلها في بني امية .

وأنكحَ الحارثَ بن الحكم ابنته عائشة، فأعطاه مائة ألف من بيت المال أيضا بعد صرفه زيد بن ارقم عن خزنه»[1]

ومن الطبيعي، والمتوقع، أن تثير سياسة عثمان بتوزيع الاموال على ذوي قرباه، انتقادات متعددة. والشعر أحد أهم مظاهر التعبير في ذلك الزمان. وقد ذكر ابن عبد البر في ترجمة عبد الرحمن بن حنبل في الاستيعاب حالة احتجاج على سياسة عثمان *«وهو القائلُ في عثمان بن عفان رضي الله عنه لما أعطى مروانَ خُمسَ افريقية :*

وأحلف بالله جهدَ اليميـ	*ـن ما ترك الله أمراً سدى*
ولكن جُعِلتَ لنا فتنةً	*لكي نُبتلى بك أو تُبتلى*
دعوتَ الطريدَ فأدنيتَهُ	*خلافاً لما سنّهُ المصطفى*
ووليتَ قرباكَ أمرَ العباد	*خلافاً لسنّة مَن قد مضى*
وأعطيتَ مروانَ خُمسَ الغنيمَـ	*ـةِ آثرتهُ وحميتَ الحِمى*
ومالاً أتاك به الأشعريّ	*من الفيءِ أعطيته من دنا*
فإن الأمينين قد بيّنا	*منار الطريق عليه الهدى*
فما أخذا درهماً غيلةً	*ولا قَسَما درهماً في هوى»*

(1) وهذه الرواية تذكر اسم زيد بن أرقم كخازن بيت المال الذي اختلف مع عثمان. وقد ورد سابقاً أنه عبد الله بن أرقم. فربما حصل لبس لدى ابن ابي الحديد.

وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه ان مصير عبد الرحمن هذا كان النفي! فقال *«وسيّر عبدَالرحمن بن حنبل صاحب رسول الله الى القموس من خيبر. وكان سبب تسييره إياه أنه بلغه كرهه مساوئ ابنه وخاله، وأنه هجاه»*

وكان كرم عثمان في الواقع يتسع ليشمل كل قبيلة قريش، من بعد بني أمية. ومن ذلك ما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن سعيد بن المسيب عن عمرو بن عثمان بن عفان أن أباه قال له *«يا بني إن وليتَ من أمر الناس شيئاً فأكرم قريشاً، فإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: من أهان قريشاً أهانه الله»*

وسوف يأتي الحديث مفصلاً حول ثروات كبار الصحابة في زمان عثمان.

****

كانت تلك الحقائق حول عطايا عثمان لقومه من بني أمية. ولا بد بعد ذلك من معرفة الخلفية النظرية التي سمحت للخليفة بهذا التصرف. فكيف كان عثمان يبرر سياسته المالية تجاه أقربائه؟

فلسفة عثمان في الإغداق على بني أمية[1]

ان المَعلم الأساسي لشخصية عثمان بن عفان، والذي ميّز حياته كلها، في الجاهلية وفي العهد النبوي وأثناء فترة خلافته، هو ولاؤه لصلات القرابة ورابطة الدم وانتماؤه القرشيّ الشديد.

وبالاضافة الى رواية الزهري لدى ابن سعد، والتي يقول فيها عثمان ان أبا بكر وعمر تركا ما هو حق لهما من بيت المال، كما أوردناها سابقاً، ذكر ابن سعد رواية أخرى عن المسور قال فيها *«سمعتُ عثمان يقول: أيها الناس! إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلف أنفسهما وذوي أرحامهما. وإني تأولتُ فيه صلة رحمي»*

---

(1) مصادر هذا المبحث: مسند أحمد بن حنبل (ج1 ص62)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص66، ج5 ص45)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1099)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص46)، تاريخ الطبري (ج3 ص382)، العقد الفريد لابن عبد ربه (5 ص55)، أسد الغابة لابن الأثير (ج3 ص380)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج32 ص82، ج39 ص253)

وروى ابن عبد ربه في العقد الفريد ان عثمان بن عفان قال لعبد الرحمن بن عوف الذي طالبه بأن يسير بسيرة ابي بكر وعمر «*عمر كان يقطع قرابته في الله، وانا أصل قرابتي في الله*»

فالنصوص تتواتر لتؤكد أن المستند الشرعي الأساسي لعثمان في سلوكه تجاه قومه من بني أمية هو صلة الرحم. فبنظر عثمان، إعطاءُ أقربائه المالَ هو امرٌ محمودٌ شرعاً لأن الله حث المؤمن على الاحسان لذوي قرباه. وكان عثمان يبيح لنفسه التصرف في بيت المال كما يشاء.

ولستُ أعرف كيف فات عثمانَ أن صلة الرحم التي أمر الله بها تنحصر في المال الشخصي، وليس المال العام الذي هو أمانة في رقبة المسؤول. فهل غنائم افريقية ملك شخصيٌ للخليفة حتى يعطي خمسها لابن عمه ليصل رحمه؟ هذا أمرٌ محيرٌ حقاً، لأنه من الصعب تصوّر عدم معرفة عثمان بتلك الحقيقة التي هي من البديهيات.

وربما يكون عثمان يرى في الأموال العامة عوضاً له عما كان يكسبه، هو شخصياً، من التجارة. فواجبات منصب الخليفة بالتأكيد لم تكن تتيح لعثمان أية فرصة لمتابعة النشاط التجاري المربح الذي كان يمارسه. فوقته أصبح مشغولاً بالكامل في رعاية شؤون المسلمين، فلا بأس إذن من أن يبسط يده في بيت مال المسلمين فيأخذ منه ما يشاء.

بل ان من المرجح أن يكون عثمان يرى في المال العام عوضاً له عما كان ينفقه ويتبرع به أيام النبي(ص) لصالح المسلمين[1]. فلطالما ساهم في تجهيز الجيوش وحفر الآبار، فلماذا لا يكون له الآن حق معلوم في المال العام، خصوصاً وأن الله قد فرج على المسلمين وأكثر من الأموال؟

ويبدو أن مفهوم عثمان الخاص لصلة الرحم كان يتسع ليشمل التعيينات في المناصب القيادية في الدولة أيضاً.

فحين ولى عثمانُ ابنَ خاله عبدَ الله بن عامر البصرة وهو شاب يافعٌ

(1) وقد أوردنا كلام ابن أرقم لعثمان في هذا المعنى، كما ذكره ابن أبي الحديد

في الخامسة والعشرين من عمره، كتب إلى أبي موسى الأشعري يقول له أنه لم يعزله عن منصبه لعجز أو خيانة «*ولكني أردتُ أن أصل قرابة عبد الله بن عامر*»[1]

وفي رواية للطبري في تاريخه أضاف عثمان حججاً لتدعيم رأيه في صلة رحمه: فهو أولاً يقتدي بالنبي (ص) الذي كان يعطي قرابته. وهو ثانياً يشير الى أن أقرباءه الكثيرين كانوا يعانون من صعوبات اقتصادية مما يجعل من مساعدتهم واجباً عليه وهو بمنصبه ذاك، فلا يجوز أن يتخلى عنهم.

يقول نص الطبري ان عثمان قال للصحابة في معرض دفاعه عن سياسته «*اني أخبركم عني وعما وليتُ: ان صاحبيّ اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منهما بسبيل احتساباً. وإن رسول الله (ص) كان يعطي قرابته. وأنا في رهطٍ أهل عيلة وقلة معاش، فبسطتُ يدي في شيئ من ذلك المال لمكان ما أقوم به فيه. ورأيتُ أن ذلك لي ...*»

وفي رواية لابن قتيبة في الامامة والسياسة يوضح عثمانُ سبباً آخر لسلوكه:

«*لما أنكر الناس على عثمان بن عفان صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن لكل شيئ آفة، ولكل نعمة عاهة. وان آفة هذا الدين وعاهة هذه الملة: قومٌ عيابون طعّانون، يرونكم ما تحبون، ويسرّون ما تكرهون. أما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد عبتم عليّ أشياء ونقمتم أموراً قد أقررتم لابن الخطاب مثلها، ولكنه وقمكم وقمعكم، ولم يجترئ أحد يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه اليه. أما والله لأنا أكثر من ابن الخطاب عددا، واقرب ناصراً وأجلد.*

الى أن قال لهم: أتفقدون من حقوقكم شيئاً؟ فما لي لا أفعل في الفضل ما أريد؟ فلمَ كنتُ إماماً إذن؟ أما والله ما عابَ عليّ من عابَ منكم أمراً أجهله، ولا أتيتُ الذي أتيتُ إلاّ وأنا أعرفه»

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق نقلاً عن ابن سعد

فهنا يقول عثمان إنه قد أدّى واجباته تجاه الرعية، وأعطاهم حقوقهم، فلا بأس بعدها من التصرف بالمال الفائض كما يشاء «فمالي لا أفعل بالفضل ما أريد؟». ويؤكد عثمان هنا انه يتصرف عن وعي تام وإدراك كامل لما يفعله، ولا يريد أن يصغي للطعّانين الحاقدين الذين لا يتوقفون عن النميمة!

ويبدو أن كلامه المتكرر، وفي عدة مناسبات، عن «صلة الرحم» لم يكن مقنعاً لسامعيه، مما كان يثير أعصابه ويدفعه أحياناً الى كلام حادّ مُتحَدّ غاضب، من قبيل ما رواه ابن شبة النميري في تاريخ المدينة عن سالم بن ابي الجعد:

«دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم عمار.

فقال: إني سائلكم، أنشدكم الله هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤثر قريشاً على سائر الناس، ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟

فسكت القوم.

فقال: لو أن مفاتيح الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم! والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم»[1]

---

(1) وقد روى مثل هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ دمشق عن سالم بن ابي الجعد. كما روى هذا الحديث بتمامه، عن سالم بن ابي الجعد أحمد بن حنبل في مسنده وابن الاثير في اسد الغابة، ولكن بدون عبارة «والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم» في آخره.

الفصل الثالث: التعيينات في قيادة الدولة:

ولاة عثمان

عثمانُ يبدأ بتغيير سياسة عمر

ورث عثمان عن عمر دولة شاسعة مترامية الأطراف. فعلى الرغم من أن الفتوحات الكبرى لم تكن قد اكتملت بعد، إلاّ أن الفعل الأساسي كان قد حصل، والحسم قد تم بالفعل، ولم يبق سوى إكمال العمل.

فالقوة الفارسية قد دُمّرت ودخل العرب إيران كفاتحين، ولم يعد لبقايا النظام الساساني القديم سوى تجمعات غير كبيرة في مناطق متباعدة، وغير قادرة على تشكيل تهديد جدّي وحقيقي للقوة العربية الساحقة. كانت الأرضية لإكمال الفتح وإنجاز السيطرة التامة على كل أنحاء إيران قد وضعت على يد عمر بن الخطاب.

وكانت سوريا الكبرى قد سقطت بالفعل في أيدي العرب، وكان قد بدأ ينشأ نوع من التوازن في بلاد الشام بين القوة العربية وبين الروم البيزنطيين الذين كانوا قد بدأوا يسلمون بالخسارة ولا يطمحون سوى إلى المحافظة على مواقعهم إلى الشمال من سوريا. وكذلك كان العرب قد بدأوا بتوطيد أركان حكمهم في مصر.

إذن كان التحدي الحقيقي أمام الخليفة عثمان يتمثل في تأصيل وتجذير السيطرة العربية على الأقاليم المفتتحة، بالإضافة إلى متابعة الحملات العسكرية لإخضاع ما تبقى من مناطق خارج السيطرة في تلك الأقاليم، وخاصة فارس.

كانت الفتوحات التي حصلت في عهد عمر إنجازاً عظيماً هائلا بكل المقاييس. وكانت مهمة «هضم» تلك البلاد وجعلها جزءً من الفضاء العربي، ليست بالسهلة أبدا. فتلك بلاد كان فيها نظام إداري واقتصادي قديم جدا وفاعل، ولم يكن العرب معتادين على أمور حضارية ومَدَنية بذاك الحجم.

ولذلك فإن مهمة الولاة العرب لتلك الأقاليم كانت في غاية الأهمية والصعوبة أيضاً. فمطلوبٌ من الوالي أن يحسن إدارة شؤون الجيوش العربية الفاتحة التي بدأت تستقر وتستوطن في البلاد المفتتحة،

وعليه أيضا أن يتبنّى سياسة مدروسة تجاه أهل البلاد الأصليين بما يضمن ولاءهم للحكام الجدد وبما يكفل استمرار إنتاجية تلك الأراضي الشاسعة وما تعود به من فوائد اقتصادية هائلة

واخيرا عليه أن يتأكد من الجاهزية العسكرية الدائمة للتجمعات العربية لمواجهة أية تحديات أو تهديدات قد تشكلها بقايا الأنظمة الرومانية أو الساسانية في الشام أو العراق أو مصر أو فارس.

ولكن عثمان بن عفان أظهر سوء سياسة وسوء تقدير قل نظيرهما. لم يكن عثمان على مستوى التحدي الحضاري الكبير الذي كان ماثلا أمام قيادة أمة العرب.

بدأ عثمان في تغيير سياسة عمر بن الخطاب فيما يتعلق بحكام الولايات. فعلى الرغم من أن عمر حافظ على وضع قيادي، بشكل عام للقرشيين في دولته، إلاّ أنه كان يخضعهم إلى متابعة ومراقبة حثيثة ودائمة. كان عمر يحاسب عماله على سياستهم، وكانت له طرق أخرى في الحصول على معلومات عن وضع ولاياته، غير الولاة. كان عمر يعزل العمال، وينقلهم ويستبدلهم، يهمّشهم ثم يعيد تفعيلهم حين يرى الوقت مناسبا. ولم يقم عمر أبدا بتعيين أقرباء له في مناصب قيادية في الدولة.

كان ولاة عمر يخشونه حقا، وكانوا يهابون شَبَحَهُ المخيّم عليهم، رغم بعد المسافة عن العاصمة. لم يُتح عمر بسياسته تلك، المجالَ لولاته لكي يصنعوا ولاءً شخصيا لهم في المناطق التي كانوا يديرونها.

وكان الرعية، من عامة العرب ومقاتلي الجيوش وأفراد القبائل التي استوطنت في الأقاليم، يشعرون أن أمامهم طريقا مفتوحا إلى القائد الأعلى، عمر، يستطيعون أن يسلكوه ليوصلوا صوتهم، شكاويهم، ومطالبهم إليه. وبالتالي لم يكن هناك شعور بين الناس أن من واجبهم التزلّف للوالي. ففي نهاية الأمر، كان الوالي هو والي عمر، وينفّذ سياسة عمر لا سياسته هو. فإن كان الوصول إلى عمر متاحاً، وإذا كان عمر، وهذا الأهم، مستعدا للسماع واتخاذ الاجراءات، فما الحاجة إلى النفاق للوالي أو الولاء الشخصي له؟

بدأ عثمان بتغيير سياسة عمر تلك، كلها!

قام عثمان بتعيين أقربائه اللصيقين، وخاصتة من بني أمية، في كل المناصب القيادية العليا في الدولة.

وهنا يجب ملاحظة أن أقرباءه أولئك الذين ولّاهم قيادة الدولة، ليسوا كغيرهم من المسلمين! فقد كانوا جميعا من العناصر التي لا تمتلك أية شرعية إسلامية على الإطلاق. بل على العكس، كان لهم، أو لآبائهم، أسوأ تاريخ مع رسول الله(ص)!

أولاً: تعيين الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط والياً للكوفة[1]

وهذا من أكثر المواضيع إشكالية التي ميزت خلافة عثمان. فهذه الشخصية تسببت في إلحاق أذى شديد باسم الخليفة وسمعته .

---

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص174)، تاريخ الطبري (ج3 ص307، ص311-312، ص325، ص327-330)، تاريخ الخلفاء للسيوطي ص)184(، الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص)50، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص)117، أسباب النزول للواحدي (ص 236 + ص261)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص753-751 + ص762)، سيرة ابن هشام (ج3 ص)300، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج63 ص220 ،ص235،ص239، ص242-244، ص250)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص141، ص146)، الاصابة لابن حجر العسقلاني (ج6 ص)482، صحيح مسلم (كتاب الحدود) ص657، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص)165، تفسير ابن كثير (ج3 ص460 + ج4 ص224)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص)174، فقه السنة لسيد سابق (ص)174، الكامل في التاريخ لابن الاثير (ص)371، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص)101، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج7 ص)45، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج17 ص236-230)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص975-972) ومسند أحمد بن حنبل (ج1 ص82، ص144).

خلفية الوليد

الوليد من أقرباء عثمان اللصيقين، وهو من عائلته من بني أمية، واسمه الكامل: الوليد بن عقبة بن ابي معيط بن ابي عمرو بن أمية بن عبد شمس[1]. وبالاضافة الى ذلك الوليد هو أخو الخليفة عثمان من أمه.

وكان أبوه، عقبة بن أبي معيط، معروفاً بين كل المسلمين بشدّة عدائه لرسول الله(ص) وإيذائه له في مكة إلى درجة فاقت الآخرين من سادة قريش في مكة. وكان من حدّة عدائه للرسول(ص) أنه قد أمر بإعدامه هو وبضعة أشخاص من بين أسرى قريش يوم بدر، ونفّذ الحُكم.[2]

والوليد من الطلقاء، وقد أعلن اسلامه يوم فتح مكة.[3]

والوليد نفسه، كما أبوه، كان له نصيبٌ موفور من الرداءة في سيرته وسلوكه أيام النبي(ص)، بعد دخوله الاسلام!

وهناك إجماعٌ بين المفسّرين أن الآية القرآنية «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأ فتبيّنوا. أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» نزلت فيه[4]

---

(1) وهناك مَن يطعن في صحة نسبه: فتوجد رواياتٌ تقول ان أبا عمرو، واسمه ذكوان، لم يكن في الحقيقة ابناً لأمية، بل كان عبداً له فاستلحقه وتبناه. ولكن ليس هذا الموضوع هنا.

وبالاضافة الى كونه من أبناء عمومة عثمان، كان الوليد أيضاً أخاه من أمه، وهي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس.

(2) وقد روى أصحاب السير والحديث أخباراً شنيعة جداً بشأن ممارسات عقبة بحق النبي(ص) في مكة. وبالامكان مراجعتها في مصادرها.

(3) وقد كان قبل ذلك متصلباً في عدائه للاسلام الى حد أنه حاول رد أخته أم كلثوم بنت عقبة الى مكة، بعد أن كانت قد أسلمت وهاجرت بعد صلح الحديبية. فقدم هو وأخوه عمارة الى المدينة وطالبا النبي(ص) بتسليمهما إياها، ولكن النبي(ص) رفض وردهما خائبين. روى ذلك ابن هشام في سيرته.

(4) ومن هؤلاء الإمام البخاري الذي قال في التاريخ الصغير أن الآية (رقم 6 من سورة الحجرات) نزلت في الوليد

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب «*ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن، فيما علمتُ، أن قوله تعالى (إن جاءكم فاسقٌ بنبأ) نزلت في الوليد بن عقبة*»

ويمكن مراجعة تفسير ابن كثير وأيضا الواحدي في أسباب النزول للاطلاع على تفاصيل الحادثة المشينة التي كان بطلها الوليد بن عقبة الذي خان الامانة وتعمد الكذب على رسول الله (ص) من أجل الاضرار ببني المصطلق الذين كان بينه وبينهم عداوة قديمة. وقد فضحه القرآن ونعته بالفاسق.

وهناك آية قرآنية أخرى نزلت بحق الوليد: فقد ذكر الواحدي في أسباب النزول، وابن عساكر في تاريخ دمشق «إن قوله تعالى *(أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً؟ لا يستوون[1]) نزلت في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه والوليد بن عقبة بن أبي معيط الذي قال له: أنا أحَدّ منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ للكتيبة منك.*

فقال له عليّ: اسكت فإنما أنت فاسق. فنزلت الآية»[2]

وباختصار، لم يكن الوليد، من ناحية الخصال والشرعية الاسلامية، يمتلك ما يؤهله لشغل أي منصب عال في دولة الاسلام. بل على العكس، كانت مثالبه والمآخذ عليه كبيرة الى حد يجعل من مجرد التفكير في توليته مسؤوليات قيادية أمراً غريباً، بل مستهجناً!

عزل سعد بن ابي وقاص عن ولاية الكوفة وتعيين الوليد مكانه

في عام 25 للهجرة (أو 24 أو 26) قرر عثمان عزل والي الكوفة الصحابي المشهور سعد بن ابي وقاص وتعيين الوليد بن عقبة مكانه. واستمر الوليد في منصبه ذاك الى عام 30 .

ويمكن النظر الى هذا القرار من عثمان باعتباره خطوة مهمة في اتجاهه لتغيير ولاة عمر بن الخطاب في الولايات المهمة واستبدالهم برجاله هو، رجال مرتبطون به ويوالونه لشخصه. فأغلب الشخصيات التي خلفها عمر بن الخطاب في مناصب حكام الولايات كانت من الوزن الثقيل في المعايير

---

(1) سورة السجدة، الآية 18

(2) وقد أخطأ ابن كثير في تفسيره حين قال «*وقد ذكر عطاء بن يسار والسدي وغيرهما انها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط*» لأنه وجّه سبب النزول الى عقبة بن ابي معيط، بدلا من ابنه الوليد! ولكن ما ذهب اليه الواحدي وابن عساكر هو الاصح، ولعدة أسباب: فعقبة بن ابي معيط أعدم بأمر النبي(ص) بعد أن أسر يوم بدر، وبالتالي لا تنطبق عليه تماماً صفة الفاسق المذكورة في الآية. فهو كافر ومشرك بلا لبس ولم يدخل الاسلام يوما حتى يقال له فاسق، بخلاف ابنه الوليد. كما أن فارق السن بين علي بن ابي طالب وعقبة بن ابي معيط كبير جدا للدرجة تجعل من المستبعد أن يخوضا جدالا من أي نوع. فعقبة كان كبيرا وكان يتصدى للنبي (ص) ذاته. واما الوليد فكان عدوه الرئيسي علي.

الاسلامية: شخصيات من أوساط الصحابة أو ذات انجازات في مجال القيادة والفتوحات من نمط سعد بن ابي وقاص وعمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري. وهؤلاء كانت لهم شخصياتهم المستقلة ولم يكونوا يدينون لعثمان بمناصبهم. وربما لم يكن عثمان مرتاحاً لهامش الاستقلالية هذا.

وأرسل عثمان الوليدَ الى الكوفة حاملاً بنفسه الخبرَ لواليها ولأهلها.

وأثار قرار عثمان بتعيين الوليد بن عقبة والياً على الكوفة استياء سعد بن ابي وقاص الذي لم يصدّق الخبر الذي جاءه به الوليد نفسه.

فقد روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين انه قال له لما أبلغه قرار عثمان بعزله واستبداله بالوليد بن عقبة «*والله ما ادري أكِستَ بعدي، أم حمقتُ بعدك!*»

وفي لفظ ابن عبد البر في الاستيعاب من رواية ابن سيرين أن سعداً قال له «*ما أدري أصلحتَ بعدنا أم فسَدَ الناس؟*» وفي رواية سعيد بن جبير لدى ابن عبد البر ان الوليد أجاب سعداً «*لا تجزعن أبا اسحق. فإنما هو الملك يتغدّاه قومٌ، ويتعشاه آخرون. فقال سعد: أراكم والله ستجعلونها ملكاً*»[1]

ويمكن القول ان صدمة سعد واستياءه كانت ناتجة عن شخصية الوالي الذي اختاره عثمان، وليس عن قرار العزل بحد ذاته. وظاهرٌ من كلام سعد انه لا يرى للوليد من الصلاح والاستقامة ما يجعله أهلاً لهذا المنصب الرفيع. وبالتالي لم يجد سعدٌ سبباً لذلك القرار سوى قرابة الوليد اللصيقة من الخليفة.

وقد أخرج الطبري في تاريخه أربع روايات عن سيف بن عمر التميمي يتحدث فيها عن «سبب *عزل عثمان عن الكوفة سعداً واستعماله عليها الوليد*» وذلك ضمن أحداث سنة 26 هجرية. وملخص هذه الروايات أنه كانت هناك مخالفات مالية ارتكبها سعد ولم يرضَ أن يسكتَ عنها خازن بيت المال الذي كان وقتها عبد الله بن مسعود. فقد استقرض سعدٌ مبلغاً من المال من بيت مال المسلمين ولم يؤدّه. ولما طالبه ابن مسعود بالسداد رفضَ وشتمه بقول قبيح جداً:

---

(1) وذكر ابن الاثير في الكامل نفس هذا الحوار بين سعد والوليد.

«فأتى ابنُ مسعود سعداً فقال له: أدّ المالَ الذي قِبلكَ !

فقال له سعد: ما أراكَ إلاّ ستلقى شراً ! هل أنت إلاّ ابن مسعود ،عبدٌ من هذيل ؟!»

ويقول سيف في هذه الروايات ان ما جرى أثار غضب الخليفة عثمان عليهما، فقام بعزل سعد عن ولاية الكوفة بينما أقرّ ابن مسعود على بيت مالها. وكان الذي أمّره بدل سعد هو الوليد بن عقبة «وكان عاملاً على عرب الجزيرة لعمر بن الخطاب»[1].

ولكن لا بد من التحفظ بشأن هذه الروايات في تاريخ الطبري، للأسباب التالية :

- فهذه روايات سيف بن عمر. وسيف له منهج ثابتٌ في رواياته يتلخص بالدفاع الدائم والمتواصل عن الخليفة عثمان وكل ولاته وسياساته. وهنا يظهر ان قيام عثمان بعزل سعد أمرٌ طبيعي بعد مشكلته تلك مع ابن مسعود. فكل ما عمله عثمان هو تغيير الوالي الذي ارتكب مخالفة بوالٍ آخر من ولاة عمر بن الخطاب (وتؤكد الروايات على ان الوليد كان عاملاً لعمر على الجزيرة).
- هناك رواية تتشابه مع هذه، ذكرها ابن عبد ربه وغيره، وتتحدث عن خلاف بين ابن مسعود ووالي الكوفة بسبب الاعتداء على بيت مال الكوفة، ولكن الوالي في هذه الحالة كان الوليد بن عقبة نفسه (وليس سعد). وسيأتي الحديث عنها لاحقاً. وهناك احتمال بأن يكون ابن مسعود قد كرر التصدي للوالي الجديد، الوليد، لما حاول ان يحذو

(1) وقال ابن حجر في فتح الباري ان عثمان عزل سعد بن ابي وقاص واستبدله بالوليد *«وكان سبب ذلك ان سعداً كان أميرها وكان عبد الله بن مسعود على بيت المال. فاقترض سعدٌ منه مالاً. فجاءه يتقاضاه، فاختصما. فبلغ عثمانَ فغضب عليهما وعزل سعداً، واستحضر الوليد -وكان عاملاً بالجزيرة على عمر بها- فولاه الكوفة. وذكر ذلك الطبري في تاريخه»*
وهذه الرواية ظاهرها ان الخلاف كان أساساً بين ابن مسعود وسعد وان عثمان حل الإشكالية بينهما، وكان الوليد هو الحل!

حذو سلفه سعد في الاقتراض من بيت المال وعدم السداد. ولكن هذا الاحتمال ضئيل، وإلاّ لكرر عثمان موقفه المتمسك بابن مسعود الحريص على المال العام. ولكن هذا لم يحصل، وقام عثمان بعزل ابن مسعود وتفاقم الخلاف بينهما كما سيأتي لاحقاً.

فروايات سيف بن عمر هذه تنفي عن الوليد مثلبة الاعتداء على بيت المال.

- بل ان البلاذري في أنساب الأشراف يروي عن أبي مخنف ان ابن مسعود عبّر عن استيائه من استبدال سعد بالوليد وقال «من غير غيرا الله ما به، ومن بدّل أسخط الله عليه. وما أرى صاحبكم إلاّ وقد غير وبدّل، أيعزلُ مثل سعد بن ابي وقاص ويولى الوليد؟!»
- وروايات سيف هذه تحاول أن تجد للخليفة عذراً لعزله قائداً مشهوراً، كسعد بن ابي وقاص. ولكن عثمان بن عفان نفسه لم يكن يرى انه مضطرٌ لمثل هذا التبرير. فهو عزل والياً قديماً، أبا موسى الأشعري، عن البصرة وعيّن مكانه قريبه ابن عامر، على أساس صلة الرحم لا أكثر! فلمَ لا يكون الأمر هنا في الكوفة مثل ذلك؟
- كما ان سيرة عثمان ومنهجه فيما يتعلق بالمال، تشير الى أنه كان متساهلاً ومتسامحاً بشأن بيت المال. ومن المتوقع أن لا يثير اقتراض واليه مبلغاً من بيت المال وعدم سداده غضب عثمان، بل تفهمه. فهو ذاته كانت له مثل تلك الممارسة التي يعتبرها طبيعية ومشروعة ما دامت حقوق عامة المسلمين مؤداة. فهو ليس كعمر.
- كما ان في روايات سيف خللاً من حيث الشكل. فهي تدرج القصة ضمن حوادث سنة 26 للهجرة (رغم ان الطبري يصرح بأن سيف قال ان عزل سعد كان سنة 25). ولكن الرواية ذاتها تقول ان الوليد قدم أميراً على الكوفة في السنة الثانية من خلافة عثمان. ومعروفٌ أن عثمان تولى الحكم في ذي الحجة سنة 23. وسواء قال سيف ان هذه المشكلة حصلت سنة 25 أو 26، فهي ليست السنة الثانية من خلافة عثمان.

ممارسات الوليد بن عقبة في الكوفة

قال ابن عبد البر في الاستيعاب عن الوليد بن عقبة «*وله أخبارٌ فيها نكارة وشناعة، تقطع على سوء حاله وقبح أفعاله، غفر الله لنا وله*» وأضاف «*أخبارُهُ في شرب الخمر، ومنادمته أبا زبيد الطائي، مشهورة كثيرة، يسمج بنا ذكرها هنا، ونذكر منها طرفاً*»

كما قال :

«*وخبرُ صلاته بهم وهو سكران، وقوله: أزيدكم، بعد ان صلى الصبح اربعاً، مشهورٌ من رواية الثقات من نقل أهل الحديث، وأهل الأخبار*»

وقال عنه ابن حجر العسقلاني في الاصابة «*وقصة صلاته بالناس الصبحَ اربعا وهو سكران مشهورة مخرجة. وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضا مخرجة في الصحيحين. وعزله عثمان بعد جلده عن الكوفة وولاها سعيدَ بن العاص*»[1]

إذن كان الوليد يشرب الخمر. ويبدو انه كان يعاقر الخمر كثيراً الى حد لم يتمكن معه من إبقاء هذا السلوك طيّ الكتمان، فافتضح أخيراً. وكانت فضيحته صارخة صاخبة: ترنّحَ يوماً وهو ثمِلٌ بينما كان يؤمّ الناسَ في صلاة الصبح، وقال كلاماً خليعاً عابثاً ! وهذا كان امراً لا يطاق في ذلك الزمان: فهو اعتداءٌ على أمر الله واستهتار بتعليمات رسوله وإهانة لمشاعر عامة المسلمين.

وكانت هذه الحادثة القشة التي قصمت ظهر البعير. فلم يعد الأمرُ يحتمل المماطلة أو التأجيل. فالوليدُ كان أحياناً يتهاون في شأن الصلاة (ويبدو انه كان يؤديها مرغماً بحكم واجبات منصبه)، وكان له ندماء في مجالس الشرب والسمر، وكان يسمح للسَحَرة ويستمتع بممارساتهم.

ولكن عامة الناس كانوا يهابون الوليدَ ويخشون بأسَهُ، لأنهم يعلمون

---

(1) وحادثة صلاته بالمسلمين الصبحَ أربعَ ركعات وهو مخمور، وأنه قال لهم لما نبهوه: هل أزيدكم، مذكورة في كل كتب التاريخ. ومنها مثلاً: تاريخ الخلفاء للسيوطي، وحتى أن الشيخ الفقيه سيد سابق ذكرها في كتابه المشهور «فقه السنة».

أنه أخو الخليفة ومن رجاله الثقات المقربين. وكان عثمان يقدم له الحماية والدعم المطلق ويرفض تصديق ما يفيض من انتقادات ومآخذ عليه.

وأكد ابن حجر في فتح الباري ان تصرفات الوليد بن عقبة ومماطلة الخليفة عثمان في معاقبته كانت من المآخذ الشائعة عليه «*وكان أكثر الناسُ فيما فعل به، أي من تركه إقامة الحد عليه*» وقال في موضع آخر «*كانوا يتكلمون في سبب تأخيره إقامة الحد على الوليد*» ولكنه اعتذر عن الخليفة وقدم تفسيراً لسلوكه «*وولى الوليدَ لما ظهر له من كفايته لذلك وليَصِلَ رحِمَهُ، فلما ظهر له سوء سيرته عزله. وإنما أخّرَ إقامة الحد عليه ليكشف عن حال مَن شهد عليه بذلك، فلما وضح له الأمر أمَرَ بإقامة الحد عليه*»

وروى ابن قتيبة في الإمامة والسياسة ان من جملة مآخذ الصحابة على عثمان:

«*.. وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أميرٌ عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه*»

وقد روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة كيف حاول عثمان الدفاع عن أخيه الوليد وحمايته في وجه الذين كانوا يشهدون عليه، وفي وجه الذين يطالبون بعزله عن منصبه:

فعن الزهري نقلاً عن كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني «*خرج رهط من اهل الكوفة الى عثمان في أمر الوليد. فقال: أكلما غضب رجلٌ على أميره رماه بالباطل؟! لئن أصبحتُ لكم لأنكلنّ بكم.*

فاستجاروا بعائشة. وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة.

فقال: أما يجدُ فسّاق العراق ومرّاقها ملجأ إلاّ بيت عائشة؟!

فسمعت، فرفعت نعل رسول الله(ص) وقالت: تركتَ سنة صاحب هذا النعل! وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد، فمن قائل: قد أحسنت، ومن قائل: ما للنساء ولهذا؟ حتى تخاصموا وتضاربوا بالنعال .

ودخل رهط من أصحاب رسول الله(ص) على عثمان فقالوا له: اتقِ الله ولا تعطل الحدود، واعزل أخاك عنهم.

ففعل»

وعن المدائني نقلاً عن كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني «قدم *رجل من اهل الكوفة الى المدينة فقال لعثمان: اني صليتُ صلاة الغداة خلف الوليد، فالتفتَ في الصلاة الى الناس، فقال: أأزيدكم؟ فإني أجد اليوم نشاطاً! وشممنا منه رائحة الخمر.*

فضرب عثمانُ الرجلَ.

فقال الناس: عطلتَ الحدود، وضربتَ الشهود!»

وقد ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ما يشير الى مدى شدة إدمان الوليد. فقد روى عن علقمة أن الوليد بن عقبة، وهو على رأس جيشٍ للمسلمين، كان يشرب الخمر، إلى درجة أن جنوده فكروا في إقامة الحد عليه، ثم تراجعوا من أجل المصلحة:

«... *فشرب الوليد الخمرَ، فأردنا أن نحدّه.*

فقال حذيفة: أتحدّون أميرَكم وقد دنوتم من عدوكم، فيطمعوا فيكم...»

وأمام تواتر أخبار فسق الوليد ومجونه، والشهود الكثر على ذلك، والأدلّة القاطعة، لم يجد عثمان بداً من إقامة الحد الشرعي عليه، وعزله عن منصبه. ويلاحظ في كل الروايات التي تتحدث عن ذلك أن عثمان كان يوجّه خطابه دائماً الى علي بن ابي طالب، دون غيره، ويسأله عما ينبغي عمله ويطلب منه أخيراً أن يطبق الحد عليه. وهذا يدل على أن علياً كان بالفعل يمارس ضغطاً متواصلاً على عثمان لكي يضع حداً للوليد وممارساته. والارجح ان الكثيرين من أهل الكوفة كانوا يلجأون الى علي بالذات ليبثوا اليه شكاواهم على الوليد، لأنهم خافوا أن ينالهم غضب الخليفة بسبب انحيازه لأخيه.

وقد ورد خبر شربه الخمرَ وحدّه في صحيح مسلم، كتاب الحدود ،على النحو التالي :

عن حصين بن المنذر، ابي ساسان، قال «شهدتُ عثمان بن عفان، وأتي بالوليد، قد صلى الصبحَ ركعتين ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان، أحدهما حمران، أنه شرب الخمر، وشهد آخرُ أنه رآه يتقيأ.

فقال عثمان: انه لم يتقيأ حتى شربها. فقال: يا علي: قم فاجلده.

فقال علي: قم يا حسن. فاجلده!

فقال الحسن: ولّ حارها مَن تولى قارها (فكأنه وَجَدَ عليه). فقال: يا عبد الله بن جعفر، قم فاجلده!

فجلده، وعلي يعدّ، حتى بلغ أربعين. فقال: أمسِك.

ثم قال: جلد النبي(ص) أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين. وكلٌ سنّة. وهذا أحبّ اليّ»[1]

وروى احمد بن حنبل في مسنده خبر جلد الوليد كما يلي :

عن حضين بن ساسان الرقاشي «انه قدِم ناسٌ من أهل الكوفة على عثمان رضي الله عنه فأخبروه بما كان من أمر الوليد، أي بشربه الخمر. فكلمه عليٌّ في ذلك

فقال: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد.

فقال: يا حسن قم فاجلده .

قال: ما انت من هذا في شيء، ولّ هذا غيرك!

قال: بل ضعفتَ ووهنتَ وعجزتَ! قم يا عبد الله بن جعفر.

فجعل عبد الله يضربه ويعد علي حتى بلغ أربعين ثم قال: أمسك، أو قال كف، جَلدَ رسولُ الله (ص) أربعين وأبو بكر أربعين، وكملها عمر ثمانين، وكلٌ سنة»[2]

---

(1) وأمام ثبوت صحة الرواية لم يجد ابن كثير بدأً من الاعتراف بحادثة صلاة الوليد بالناس مخموراً وشهادة الشهود عليه ولكنه أخرجها في البداية والنهاية باختصار شديد وأشار إلى أن عثمان أمر بجلده.

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة نفس رواية ابي ساسان التي في صحيح مسلم، مع زيادة تنسب لعلي تعنيفه ابنه الحسن لرفضه تنفيذ الجلد.

(2) ووردت نفس الرواية مرة اخرى في مسند احمد عن حضين بن المنذر بن الحرث بن وعلة، ولكن في مقدمتها «ان الوليد بن عقبة صلى بالناس الصبح اربعاً ثم التفتَ اليهم فقال: ازيدكم؟»

ولا بدّ من التحفظ بشأن ما ورد في هذه الروايات على لسان عليّ من إقراره اجتهاد عمر بالجلد ثمانين، خلافاً لعمل رسول الله وقوله عن ذاك «كلٌّ سُنة». فمنهاج علي، الشديد الالتزام بأحكام النبي(ص)، يتناقض تماماً مع هذا القول المنسوب له. كما أن عصيان الحسن لأبيه حين طلب منه ان يقوم بالجلد لا يمكن تصديقه. بل الارجح ان الهدف من هذه الدعوى القول بأن الحسن ليّنٌ ورقيق، بخلاف أبيه.

فالرواية الأخرى التي رواها ابن شبة عن هرار بن موسى الهمذاني تبدو أقرب للصحيح *«لما كان من أمر الوليد بن عقبة ما كان، حيث شهدوا عليه أنه شرب الخمر. فأتي به عثمان رضي الله عنه. فلما ثبتت الشهادة قال علي: انا جلادُ قريش سائرَ اليوم فضَرَبَهُ الحَدّ...»* ثم يتابع فيقول ان علياً ذكر أن بني اسرائيل هلكوا بسبب تعطيلهم الحدود عن أشرافهم ولذلك لا يجوز للمسلمين ان يكونوا مثلهم.

فمن البيّن أن الخليفة أمر بإقامة الحد على الوليد، مُرغماً غير راغب، وأن ذلك كان ظاهراً على حاله وقوله، مما جعل الناسّ يهابون تطبيق حد الجلد على الوليد. وهذا ايضاً ما جعل علياً أكثرّ إصراراً على تطبيق الحد ولو بنفسه. فتلك مسألة مبدأ لدى علي: فحكم الله يجب ان يطبق على أيٍّ كان، مهما كان منصبه ومرتبته.

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة المزيد من التفاصيل:

قال ابو الفرج الاصفهاني نقلا عن ابي عبيدة وهشام بن الكلبي والاصمعي *«كان الوليد زانيا يشرب الخمر. فشربَ بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبحَ في المسجد الجامع.*

فصلى بهم أربعَ ركعات!

ثم التفتَ إليهم فقال: أزيدكم؟

وتقيأ في المحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً صوته في الصلاة:

علق القلب ربابا بعدما شابت وشابا

فشخص اهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره، وشهدوا عليه بشرب الخمر.

فأتي به. فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحد. فلما دنا منه قال: نشدتك الله وقرابتي من أمير المؤمنين! فتركه.

فخاف علي بن ابي طالب عليه السلام أن يعطل الحد، فقام اليه فحدّه بيده فقال الوليد: نشدتك الله والقرابة!

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام): اسكت ابا وهب، فإنما هلك بنو اسرائيل لتعطيلهم الحدود.

فلما ضربه وفرغ منه قال: لتدعوني قريش بعدها جلاداً»

وروى ابو الفرج ايضا عن ابي الضحى «كان ناس من اهل الكوفة يتطلبون عثرة الوليد بن عقبة، منهم أبو زينب الازدي، وأبو مورع. فجاءا يوماً ولم يحضر الوليد الصلاة، فسألا عنه، فتلطفا حتى علما أنه يشرب، فاقتحما الدار فوجداه يقيء. فاحتملاه وهو سكران حتى وضعاه على سريره، وأخذا خاتمه من يده.

فأفاق، فافتقد خاتمه، فسأل عنه أهله فقالوا: لا ندري. وقد رأينا رجلين دخلا عليك فاحتملاك فوضعاك على سريرك. فقال: صِفوهما لي. فقالوا: أحدهما آدم طوال حسن الوجه، والآخر عريض مربوع عليه خميصة. فقال: هذا ابو زينب وهذا ابو مورع.

ولقي ابو زينب وصاحبه عبد الله بن حبيش الأسدي وعلقمة بن يزيد البكري وغيرهما فأخبروهم. فقالوا: اشخصوا الى أمير المؤمنين فاعلموه. وقال بعضهم: انه لا يقبل قولكم في أخيه.

فشخصوا اليه فقالوا: إنا جئناك في أمر، ونحن مخرجوه اليك من أعناقنا. وقد قيل انك لا تقبله.

قال: وما هو؟

قالوا: رأينا الوليد وهو سكران من خمر شربها، وهذا خاتمه أخذناه من يده وهو لا يعقل.

فأرسل عثمان الى علي (عليه السلام) فأخبره، فقال: أرى أن تشخصه فإذا شهدوا عليه بمحضر منه حددته.

فكتب عثمان الى الوليد فقدم عليه. فشهد عليه ابو زينب وأبو مورع وجندب الأزدي وسعد بن مالك الاشعري.

فقال عثمان لعلي: قم يا ابا الحسن فاجلده...»

وروى ابو الفرج عن الشعبي ان الشاعر الحطيئة قال

«شهِدَ الحطيئة يوم يلقى ربّهُ   انّ الوليدَ أحق بالعذرِ

نادى وقد تمت صلاتهم   أأزيدكم -سكراً- ولم يدرِ

فأبوا أبا وهب ولو أذنوا   لقرنتَ بين الشفع والوترِ

كفوا عنانك إذ جريتَ ولو   تركوا عنانك لم تزل تجري[1]»

ويبدو أن الظرفاء من الرواة قد أدخلوا بعض التفاصيل الطريفة في أخبار سيرة الوليد في الكوفة. فموقف الوليد وهو يؤم الناسَ سكرانا مسطولا يثير الخيالَ ويطلق العنان للرواة للاستفاضة في التفاصيل. وهكذا ظهر شعرٌ كثير منسوب لنديمه ابي زيد وللشاعر النصراني الحطيئة حول الوليد وشربه[2].

---

(1) كما روى ابن شبة في تاريخ المدينة أيضا الشعر الذي قاله الحطيئة بتلك المناسبة، وفيه اختلافات طفيفة. كما روى عن خالد بن سعد أبياتاً قالها صديقه المقرب ابو زيد الطائي *«وكان نديما للوليد وكان نصرانيا»*

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق ان الناس قد زادوا البيتين التاليين الى شعر الحطيئة :

نادى وقد تمت صلاتهم   أأزيدكم؟ ثملاً وما يدري

ليزيدهم خيراً ولو فعلوا   لأتت صلاتهم على العشر

وهذا كله يدل على اشتهار حادثة صلاة الوليد بن عقبة بالناس وهو سكران وذيوعها، حتى أصبحت مثار تندّر

(2) وأضاف ابن عبد البر في الاستيعاب الى شعر حطيئة أعلاه قوله:

«تكلم في الصلاة وزاد فيها   علانية وجاهر بالنفاقِ

ومجّ الخمرَ في ستر المصلى   ونادى والجميع الى افتراقِ

أزيدكمُ على أن تحمدوني   فما لكم وما لي من خلاقِ»

ولكن مع ذلك فإن فسقَ الوليد وخلاعته أمرٌ متواتر لا يرقى إليه الشك.

وقد ازدادت صورته سوءً بعد توليه إدارة شؤون الكوفة، فعُرف بتقريب صديقه النصراني أبي زبيد، الذي أنزله في دار الضيافة بالقرب من منزله، وأدخله المسجدَ برغم نصرانيته، وأقام له الموائد الشهرية التي تتصدرها الخمور. وتمادى الوليد في تجاوزاته، فأدخل أحد السَحَرة إلى المسجد ليقيم ألعابه، مما أثار الناس عليه، حتى وصل الخبر إلى المدينة. وهناك اخبار كثيرة جدا حول ذلك[1].

منها ما رواه ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن ابي الفرج الاصفهاني أن الوليد استقبل صديقه القديم، أبا زبيد الطائي، لما قدم عليه الكوفة، وأنزله داراً قريبة للمسجد، بعد أن كان استوهبها من صاحبها عقيل بن ابي طالب. فطعن أهل الكوفة على الوليد «*لأن أبا زبيد كان يخرج من داره حتى يشق المسجد الى الوليد فيسمر عنده، ويشرب معه، ويخرج فيشق المسجد وهو سكران. فذاك نبههم عليه*» وقال في رواية أخرى «*فكان مما احتج به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج اليه من داره وهو نصراني يخترق المسجد فيجعله طريقاً*»

وقد روى الذهبي في سير اعلام النبلاء عدة روايات عن حادثة الساحر الذي كان يلعب عند الوليد في المسجد، مما أثار استهجان الصالحين من الناس وخاصة الصحابي جندب الأزدي الذي اندفع الى قتل الساحر والدخول في مشكلة مع الوليد الذي عاقبه بسبب ذلك. فعن ابي عثمان النهدي «*ان ساحراً كان يلعب عند الوليد بن عقبة الامير. فكان يأخذ سيفه فيذبح نفسه، ولا يضرّه. فقام جندب الى السيف فأخذه فضرب عنقه ثم قرأ (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون)*»

وأضاف في رواية عن ابي مخنف ان الساحر كان يدخل في جوف حمار ويخرج من دبره، ويضرب عنق الرجل ثم يحييه! فقتله جندب بن كعب «*فأراد الوليد بن عقبة قتله، فلم يستطع. فحبسه*»

---

(1) رواية أبي مخنف من أكثرها تفصيلاً. وهي مذكورة في أنساب الاشراف-للبلاذري.

وقال أيضاً في رواية عن ابي الأسود «*فسجنه الوليد. فهرّبه السجان لصلاحه*»

ويبدو ان علاقة السمر والشرب بين الوليد بن عقبة وصديقه ابي زبيد الطائي كانت وثيقة الى حد أنهما دفنا الى جوار بعضهما البعض في الرقة. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق :

«*مر مسلمة بن عبد الملك بقبر الوليد بن عقبة بن ابي معيط بالرقة فقال: قبرُ مَن هذا ؟*

قيل: قبر الوليد بن عقبة.

قال: رحم الله ابا وهب وجعل يثني عليه.

فقبر مَن هذا الآخر؟

قيل: قبرُ ابي زبيد الطائي الشاعر .

قال: وهذا فرحمه الله

فقيل: انه كان نصرانياً.

قال: انه كان كريماً»

وقد لخص اليعقوبي في تاريخه ضمن كلامه عن احداث سنة 26 للهجرة أخبار الوليد بن عقبة فقال «*وفيها ولي الوليد بن عقبة بن ابي معيط الكوفة، مكان سعد، وصلى بالناس الغداة، وهو سكران، اربع ركعات، ثم تهوع في المحراب، والتفت الى مَن كان خلفه فقال: أزيدكم؟*

ثم جلس في صحن المسجد وأتي بساحر يدعى بطروى من الكوفة، فاجتمع الناس عليه، فجعل يدخل من دبر الناقة ويخرج من فيها، ويعمل أعاجيب.

فرآه جندب بن كعب الازدي فخرج الى بعض الصياقلة، فأخذ منه سيفا ثم أقبل في الزحام وقد ستر السيف حتى ضرب عنقه ثم قال له: احيِ نفسك إن كنتَ صادقاً!

فأخذه الوليد فأراد أن يضرب عنقه فقام قومٌ من الازد فقالوا: لا تقتل والله صاحبنا!

فصيره في الحبس. وكان يصلي الليل كله، فنظر اليه السجان، وكان يكنى ابا سنان، فقال: ما عذري عند الله إن حبستك على الوليد يقتلك؟ فأطلقه.

فصار جندب الى المدينة، وأخذ الوليد ابا سنان فضربه مائتي سوط، فوثب عليه جرير بن عبد الله، وعدي بن حاتم، وحذيفة بن اليمان، والاشعث بن قيس، وكتبوا الى عثمان مع رسلهم

فعزله وولى سعيد بن العاص مكانه.

فلما قدم الوليد قال عثمان: مَن يضربه؟ فأحجم الناس لقرابته، وكان أخا عثمان لأمه، فقام عليٌّ فضربه.

ثم بعث به عثمان على صدقات كلب وبلقين»

أكاذيب سيف بن عمر

لم يكتفِ سيفُ بن عمر بالتغاضي عن سلبيات الوليد او التخفيف من حدة بعض الأخبار المتعلقة به ولا حتى بالدفاع عنه في بعض مواقفه وسياساته بل قدم منظومة متكاملة من الروايات الملفقة حول ممارسات الوليد بن عقبة خلال عهده في الكوفة تؤدي نتيجتها الى صورة تختلف تماماً عن كل ما ذكره الآخرون.

ولما كانت مسألة شرب الخمر واقامة الحد عليه بسبب ذلك هي الفضيحة الأكثر لصوقاً بالوليد وسمعته، فقد لجأ سيف الى مواجهتها بشكل محترف وعلى النحو التالي:

فهو أولا تطرق الى سبب «الوشاية» التي تعرض لها الوليد. وقد أرجع الأمر الى «حقد شخصي» تجاه الوليد أضمره مجموعة من أهل الكوفة لا ذنب للوليد فيه إلا قيامه بتطبيق القانون وتنفيذ واجبات منصبه! فقد روى الطبري في تاريخه عن سيف ان الوليد «*كان أحبّ الناس في الناس وأرفقهم بهم، فكان ذلك خمس سنين وليس على داره باب*» ثم بدأ يتحدث عن مشكلة

وقعت بين مجموعة من شباب الكوفة قامت خلالها مجموعة منهم زهير بن جندب الأزدي ومورع بن ابي مورع الأسدي وشبل بن أبي الأزدي بالاعتداء على شاب آخر هو ابن الحيسمان الخزاعي وقتله. فشهد عليهم لدى الوليد ابو شريح الخزاعي وابنه «*فكتب فيهم الى عثمان، فكتب اليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر*». ويضيف سيف انه بسبب تلك الحادثة، التي لا ذنب فيها للوليد على الاطلاق، أصبح آباء الشبان المعدومين، وخاصة جندب وأبي مورع، أعداء شخصيين للوليد، يتربصون به ويحاولون الايقاع به!

ثم انتقل سيف ليعالج المسألة الأصعب وهي شرب الخمر، وإذ به، وبجرأة وصفاقة نادرة، ينفيها من أصولها! ولم يأبه بالأخبار المتواترة، ولا بالصحاح، ليجعل الأمر كله تلفيقاً تعرض له الوليد «المظلوم» على يد المجموعة الحاقدة! وهكذا خرّج سيف قصته كما رواها الطبري في تاريخه وابن عساكر في تاريخ دمشق: فهو يقول ان جندب الأزدي ومَن معه اطلقوا «اشاعة» ان الوليد يشرب الخمر «*جاء جندب ومن معه الى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر! وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس. فقال ابن مسعود: مَن استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره..*»

ثم تناول سيف موضوع أبي زبيد الطائي، نديم الوليد في جلسات الشرب كما يلي:

«*كان عمر بن الخطاب قد استعمل الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة فنزل في بني تغلب. وكان ابو زبيد في الجاهلية والاسلام في بني تغلب حتى أسلم وكانت بنو تغلب أخواله. فاضطهده أخوالُه دَيناً له، فأخذ له الوليد بحقه، فشكرها له ابو زبيد وانقطع اليه وغشيه بالمدينة. فلما ولي الوليد الكوفة اتاه مسلماً معظماً على مثل ما كان يأتيه بالجزيرة والمدينة، فنزل دار الضيفان، وآخر قدمة قدمها ابو زبيد على الوليد وقد كان ينتجعه ويرجع، وكان نصرانياً قبل ذلك فلم يزل الوليد به وعنه حتى أسلم في آخر إمارة الوليد وحَسُن اسلامُه فاستدخله الوليد. وكان عربياً شاعراً حين قام على الاسلام.*

فأتى آتٍ أبا زينب وأبا مورع وجندباً وهم يحقدون له مذ قتل ابناءهم ويضعون له العيون فقال لهم: هل لكم في الوليد يشارب ابا زبيد؟ فثاروا في

ذلك. فقال ابوزينب وابو مورع وجندب لأناس من وجوه اهل الكوفة: هذا أميركم وابو زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر. فقاموا معهم ومنزل الوليد في الرحبة مع عمارة بن عقبة وليس عليه باب. فاقتحموا عليه من المسجد وبابه الى المسجد.

فلم يفجأ الوليد إلا بهم، فنحّى شيئاً فأدخله تحت السرير. فأدخل بعضهم يده فأخرجه لا يؤامره. فإذا طبقٌ عليه تفاريق عنب! وانما نحاه استحياء أن يروا طبقه ليس عليه الا تفاريق عنب.

فقاموا فخرجوا على الناس فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون. وسمع الناس بذلك فأقبل الناس عليهم يسبونهم ويلعنونهم ويقولون أقوام غضب الله لعمله وبعضهم أرغمه الكتاب فدعاهم ذلك الى التحسس والبحث. فستر عليهم الوليد وطواه عن عثمان. ولم يدخل بين الناس في ذلك بشيء وكره ان يفسد بينهم فسكت عن ذلك وصبر»

ويلاحظ في سياق رواية سيف ان الوليد يستحق الثناء والتقدير على اخلاصه في سبيل دين الله ونجاحه في إدخال صديقه النصراني في الاسلام! كما لا بد من التنويه بحسن خصال الوليد الذي يصبر على الأذى ويكره ان يضر هؤلاء الحاقدين فلا يبلغ الخليفة بما جرى!

واما كيف حُدّ الوليد وعُزل ؟ فيقول سيف ان الحاقدين انفسهم تابعوا مؤامراتهم ضد الوليد من أجل عزله

«فغشوا الوليد وأكبوا عليه. فبيناهم معه يوما في البيت وله امراتان في المخدع بينهما وبين القوم ستر، احداهما بنت ذي الخمار والاخرى بنت ابي عقيل.

فنامَ الوليدُ.

وتفرق القوم عنه. وثبت ابو زينب وابو مورع، فتناول احدهما خاتمه، ثم خرجا.

فاستيقظ الوليد وامرأتاه عند رأسه فلم يرَ خاتمه فسألهما عنه فلم يجد عندهما منه علماً. قال: فأي القوم تخلف عنهم؟ قالتا: رجلان لا نعرفهما ما

غشياك الا مذ قريب. قال: حلياهما. فقالتا: على احدهما خميصة وعلى الآخر مطرف وصاحب المطرف ابعدهما منك فقال: الطوال؟ فقالتا: نعم فقال: والقصير ؟ فقالتا: نعم. وقد رأينا يده على يدك.

قال: ذاك ابو زينب والآخر ابو مورع وقد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان؟

فطلبهما فلم يقدر عليهما. وكان وجههما الى المدينة

فقدما على عثمان ومعهما نفر ممن يعرف ممن يعرف عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال

فقالوا له.

فقال: مَن يشهد؟ قالوا: ابو زينب وابو مورع. وكاع الآخران.

قال: كيف رأيتما؟

قالا: كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر

فقال: ما يقيء الخمر الا شاربها

فبعث اليه فلما دخل على عثمان رآهما فقال متمثلا:

ما إن خشيت على أمر خلوتُ به   فلم أخفك على امثالها حار

فحلف له الوليد وأخبره خبرهم

فقال: نقيمُ الحدودَ ويبوء شاهدُ الزور بالنار. فاصْبِرْ يا أخي.

فأمر سعيدَ بن العاص فجلده. فأورث ذلك عداوة بين ولديهما حتى اليوم»

وهكذا يحاول سيف بن عمر أن يظهر الوليد بن عقبة، الفاسق بالإجماع، وبالنص القرآني، وابن أعتى أعداء رسول الله(ص)، بمظهر الوالي الطيب المسكين الذي يأكل قطفاً من عنبٍ لا غير! بينما يحاول «الأشرار» الإساءة إليه، حتى أنهم يجرّدونه خاتمه من على إصبعه دون أن يشعر بهم لأنه نائم!

ثم شهدوا عليه زورا عند عثمان الذي اضطر – رغم اقتناعه ببراءة الوليد – الى تطبيق الحد عليه.

وقد علق العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب على هذه القصة كما يلي «*وقد رُوي، فيما ذكر الطبري، أنه تعصّبَ عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً، وشهدوا عليه زوراً أنه تقيّأ الخمر، وذكر القصة، وفيها أن عثمان قال له: يا أخي اصبر، فإن الله يأجرك، ويبوء القوم بإثمك.*

وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار لا يصحّ عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل»

ومن المفيد التامل في الرواية التالية لملاحظة التلاعب الذي قام به سيف بن عمر :

فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن ابي الضحى:

«*كان ابو زينب الأزدي، وأبو مروع، يلتمسان عثرة الوليد. فجاءا يوماً -ولم يحضر الصلاة- فسألا عنه وتلطفا حتى علما انه يشرب. فاقتحما الدار فوجداه يقيء، فاحتملاه وهو سكران فوضعاه على سريره، وأخذا خاتمه وخرجاه. فأفاق، فتفقد خاتمه، فسأل، فقالوا: قد رأينا رجلين دخلا (الدار فاحتملاك فوضعاك على سريرك). فقال: صفوهما. فوصفوهما. فقال: هذان ابو زينب وابو مروع.ولقي ابو زينب وابو مروع عبدَ الله بن جبير الاسدي، وعقبة بن يزيد البكري، وغيرهما فأخبراهم فقالوا: اشخصوا الى امير المؤمنين فأعلموه. فشخصوا .*

فقالوا له: انا جئناك لأمر نحن مخرجوه اليك من أعناقنا .

قال: وما هو؟

قالوا: رأينا الوليدَ سكرانَ من خمر قد شربها، وهذا خاتمه أخذناه وهو لا يعقل.

فأرسل الى علي رضي الله عنه يشاوره .فقال: أرى أن تشخصه فإن شهدوا عليه بمحضر منه حددته.

فكتب اليه عثمان رضي الله عنه فقدم. فشهدوا عليه -ابو زينب وابو مروع وجندب الاسدي وسعد بن مالك الاشعري- ثم شهد عليه الايمان .فقال عثمان رضي الله عنه لعلي: قم فاضربه....»

وهذه الرواية كما لا يخفى أكثر وجاهة من رواية سيف. فهي تختلف عنها في نقطة رئيسية: إثبات شرب الخمر. وطبعاً انتزاع خاتم الوليد من يده وهو سكران أمرٌ ممكن، بعكس ما يدعيه سيف بأنهم انتزعوا خاتمه من يده وهو نائم، ودون أن يفيق!

ثانياً: تعيين سعيد بن العاص واليا على الكوفة[1]

إذن قام عثمان في عام 29 أو 30 للهجرة باستبدال الوليد بن عقبة في منصب والي الكوفة بسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية

وسعيد بن العاص هذا كان قد نشأ في حجر عثمان، بالاضافة طبعاً الى كونه من أبناء عمومته.

ذكر ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب وابن الاثير في أسد الغابة:

«ولد عام الهجرة، وقيل: بل ولد سنة احدى. وقتل أبوه العاص بن سعيد بن العاص يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه. روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال: رأيته يوم بدر يبحث التراب عنه كالأسد، فصمد إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله....

وكان سعيد بن العاص هذا أحد أشراف قريش، ممن جمع السخاء والفصاحة، وهو أحد الذين كتبوا المصحف لعثمان رضي الله عنه

استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان فافتتحها. ويقال انه افتتح أيضا جُرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30»

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج4 ص95-97 و ج5 ص32) ، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج17 ص242 و ج2 ص 59 و ج16 ص188)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 272 + ص753)، أسد الغابة لابن الاثير (ج2 ص310)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج 21 ص114)، تاريخ الطبري (ج3 ص364) و كنز العمال للمتقي الهندي (ج5 ص623) ومروج الذهب للمسعودي (ج2 ص265)

ومن المؤكد أن هذا التعيين الجديد سبّب خيبة أمل شديدة في أوساط الكوفيين. فما يرونه أمامهم هو مجرد تغيير في الاسم، لا في المضمون. فالوالي الجديد يشترك مع الوليد بن عقبة في المعالم الرئيسية: فكلاهما من أقرباء الخليفة من العائلة الأموية. وكلاهما ابنٌ لواحدٍ من أشرس أعداء رسول الله(ص) ممن قتلهم علي بن أبي طالب يوم بدر. وكلاهما رمزٌ لقريش وسلطانها. والفارق هنا أن الوالي الجديد أصغر سناً، فهو يبلغ من العمر 29 عاماً فقط.

وبعد كل تلك المشاكل والفضائح التي سببها الوليد بن عقبة في الكوفة، كان من المتوقع أن يعين الخليفة والياً له خبرة واستقامة لإصلاح الضرر. ولكن عثمان لم يفعل، وفضل تعيين قريبه الشاب في ذلك المنصب الحساس.

وقد روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة وابن عبد البر في الاستيعاب شعراً قاله أحدهم معبّراً فيه عن رأي الناس في هذا التعيين الجديد:

فَرَرتُ من الوليد إلى سعيد ... كأهل الحجر إذ فزعوا فباروا

يلينا من قريش كل عامٍ ... أميرٌ محدَثٌ أو مستشار

لنا نارٌ تحرقنا فنخشى ... وليس لهم -ولا يخشون- نارٌ

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي، وكرره عنه ابن عساكر في تاريخ دمشق:

«*فلما قدم الكوفة قدمها شاباً مُترفاً ليست له سابقة.*

فقال: لا أصعد المنبر حتى يُطهرا فأمر به فغسل.

ثم صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونَسَبهم إلى الشقاق والخلاف. فقال: إنما هذا السواد بستانٌ لأغيلمةٍ من قريش!

فشكوه الى عثمان فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله!»

وعبارة «*انما هذا السواد بستان قريش*» التي قالها سعيد بن العاص سوف

تشتهر وتنتشر وسوف يكون لها تأثير مهم على مستقبل الأحداث في الكوفة وعلى مصير الخليفة ذاته. وسيأتي الحديث عنها لاحقاً.

وفي رواية للواقدي في تاريخ الطبري «ان عثمان بعث سعيد بن العاص الى الكوفة أميراً عليها حين شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر من شهد عليه، وأمره أن يبعث اليه الوليد بن عقبة.

فقدم سعيد بن العاص الكوفة فأرسل الى الوليد: أن أمير المؤمنين يأمرك أن تلحق به.

فتضجع أياماً. فقال له: انطلق الى أخيك فإنه قد أمرني أن أبعثك اليه.

وما صعد منبر الكوفة حتى أمر به أن يغسل! فناشده رجال من قريش كانوا قد خرجوا معه من بني أمية وقالوا: ان هذا قبيح! والله لو أراد هذا غيرك لكان حقاً أن تذب عنه! يلزمه عار هذا أبدا

فأبى إلاّ أن يفعل. فغسله

وأرسل الى الوليد أن يتحول من دار الامارة. فتحول منها ونزل دار عمارة بن عقبة»

وذكر المسعودي في مروج الذهب «... فلما دخل سعيد الكوفة والياً أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل، وأمر بغسله وقال: ان الوليد كان نجساً رجساً»

وقد عبر ابن عبد البر في الاستيعاب عن خيبة أمل الناس واحباطهم من تعيينات الخليفة، خاصة بعد أن شاهدوا سياسات سعيد :

«فكتبوا الى عثمان: لا حاجة لنا في سعيدك ولا وليدك!

وكان في سعيد تجبّر وغلظة، وشدة سلطان.

وكان الوليد أسخى منه وآنس وألينَ جانباً، فلما عزل الوليد وانصرف قال بعض شعرائهم:

يا ويلنا قد ذهب الوليدُ وجاءنا من بعده سعيدُ

ينقص في الصاع ولا يزيدُ»

استطراد بشأن فروع بني أمية

ومبادرة سعيد بن العاص الى «غسل المنبر» في الكوفة قبل ان يصعده، لتطهيره من «رجس» الوليد بن عقبة، والتي تدل على احتقاره الشديد له، تعتبر مدخلاً مناسباً للتطرق الى بطون العائلة الأموية.

فيمكن تقسيم بني امية الى أربعة بطون:

آل حرب: وهؤلاء ابناء وسلالة حرب بن أمية. ومن هؤلاء أبوسفيان صخر بن حرب، وابنه معاوية وحفيده يزيد بن معاوية. وهذا الفرع الأموي له سؤدد سياسي وماليٌ في مكة. فحرب بن أمية كان يقود جموع قريش في معاركها. وكذلك ابنه صخر الذي تابع درب ابيه فتولى قيادة قريش، على مدار سبعة أعوام، في حروبها ضد النبي (ص) بعد مصرع القيادات الكبيرة يوم بدر. وبالإضافة الى نزعته السياسية والقيادية، يمتاز هذا الفرع الأموي بغناه ونشاطه التجاري البارز. وهذا الفرع الاموي هو الاشهر والابرز، وأخباره ذائعة ومعروفة.

آل العاص: ومن أبرز هؤلاء سعيد بن العاص بن أمية، الملقب بأبي أحيحة، الذي كان عظيم الشأن في قريش، ثرياً، مهاباً مطاعاً، حتى يروى أنه كانت له عمامة زرقاء وكان يمنع أي أحد من قريش أن يرتدي مثلها! قال ابن الاثير في اسد الغابة «*كان أبو أحيحة إذا اعتمّ بمكة لا يعتمّ أحدٌ بلون عمامته إعظاماً له. وكان يقال له: ذو التاج*» وقد كان ابو أحيحة هذا شديد العداء لمحمد (ص) ودعوته في مكة رغم كونه طاعناً في السن. فلما سمعَ أن ابنه خالداً قد أسلمَ سراً وتبعَ محمداً(ص):

«*فدعاه، وكلمه أن يدع ما هو عليه.*

فقال خالد: لا أدع دين محمدٍ حتى أموت عليه!

فضربه أبو أحيحة بقراعةٍ في يده حتى كسرها على رأسه ثم أمَرَ به إلى الحبس. وضيّق عليه، وأجاعَه وأعطشه. حتى لقد مكث في حَرّ مكة ثلاثاً ما يذوق ماء...»[1]

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد

وحتى بعد أن هرب ابنه منه وهاجر مع المسلمين إلى الحبشة، بقي سعيد بن العاص بن أمية غاضباً وحاقداً على محمد(ص)، حتى أنه مرض مرة:

«... فقال: لئن رفعني الله من مرضي هذا، لا يُعبد إله ابن أبي كبشة ببطن مكة ..»

وقد قتل ابنه العاص بن سعيد كافراً في معركة بدر على يد علي بن ابي طالب. ويشتهر من هذا الفرع الاموي سعيد بن العاص، والي الكوفة أيام عثمان، ووالي المدينة أيام معاوية. وهو ابن القتيل في بدر، ويحمل نفس اسم جده ابي أحيحة، فاسمه الكامل سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية. ولذلك يحصل تشوّش لدى الكثير من الباحثين بسبب تشابه الاسم بين الجد والحفيد.

وتجدر الاشارة الى ان هذا الفرع الاموي قد خرج منه جناحٌ آمن بالاسلام مبكراً. وقد مرّ ذكر خالد بن سعيد ومشكلته مع أبيه بسبب ذلك. بل ان خالد بن سعيد، رغم كونه أموياً بالنسب، يمكن وصفه بأنه شيعي! فبعد وفاة النبي (ص) كان يقول: لا أبايع إلاّ علياً، وبقي لفترة طويلة مُصراً على رفضه لبيعة أبي بكر.

وكان خالد يقول لبني هاشم *«أنتم الظهرُ والبطن والشعارُ دون الدثار، والعصا دون اللحا، فإذا رضيتم رضينا وإذا سخطتم سخطنا ..... أما والله يا بني هاشم: إنكم الطوالُ الشجر، الطيبو الثمر..»*[1]

«وبقي خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر»[2]

وقد حاول أبو بكر أن يستميله ويسترضيه. فبعد عودته من اليمن، التي كان النبي(ص) قد بعثه عليها، قرر الخليفة الجديد تعيينه قائداً لأحد الجيوش المتجهة لفتح الشام. ولكن عمر بن الخطاب تدخل لدى أبي بكر من اجل عزله. فقام أبو بكر بعزله وعيّن مكانه يزيد بن أبي سفيان وأعطاه لواءه.

والسبب كان شكّ عمر في ولائه للقيادة الجديدة لأنه كان ممن رفض

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد
(2) الطبقات الكبرى لابن سعد. وكذلك ورد في كنز العمال للمتقي الهندي

بيعة أبي بكر، وكان هواه مع عليّ، كما روى ابن سعد في الطبقات الكبرى «وأقام خالد ثلاثة أشهر لم يبايع أبا بكر. ثم مر عليه أبو بكر بعد ذلك مظهرا وهو في داره فسلم عليه. فقال له خالد: أتحبّ أن أبايعك؟ فقال أبو بكر: أحب أن تدخل في صلح ما دخل فيه المسلمون. قال: موعدك العشية أبايعك. فجاء وأبو بكر على المنبر فبايعه. وكان رأي أبي بكر فيه حسنا وكان معظما له، فلما بعث أبو بكر الجنود على الشام عقد له المسلمين، وجاء باللواء إلى بيته. فكلم عمرُ أبا بكر وقال: تولي خالدا وهو القائلُ ما قال؟ فلم يزل به حتى أرسل أبا أروى الدوسي فقال إن خليفة رسول الله(ص) يقول لك: اردد إلينا لواءنا. فأخرجه فدفعه إليه وقال: والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإن المليم غيرك»

ورغم هذا الخلاف مع ابي بكر، إلاّ أن خالداً، ومعه اخواه عمرو وأبان، خرجوا مع الجيوش المتجهة الى الشام. وكان بلاؤهم حسناً فاستشهدوا جميعاً في معارك اجنادين، ومرج الصفر واليرموك.

والخلاصة ان فرع آل العاص هو أكرم فروع بني أمية وأكثرها شموخاً واعتداداً بالنفس. ورغم ان سعيد بن العاص، كان بالتأكيد ملتزماً بالخط الأموي العام أثناء عمله لعثمان ومعاوية من بعده، إلاّ انه كان يظهر لديه في بعض المواقف ما يشير الى كرم الأصل والمنبت. فكان يأبى ان يمارس سلوكاً ينمّ عن خسّةٍ مما تعافه النفس السوية، بخلاف أقربائه الأمويين من البطون الأخرى وبالذات مروان بن الحكم والوليد بن عقبة. فمثلاً هو كان يرفض ان يشتم الامام علي بن ابي طالب على المنبر في المدينة. كما انه لم يمانع ان يُدفن الامام الحسن بن علي عند قبر جده رسول الله(ص) لما توفي ولم يتدخل فيما جرى بين بني هاشم ومروان بن الحكم، رغم كونه الوالي على المدينة آنذاك. عدا عن ان سعيد بن العاص لم يحارب الامام علي في الجمل وصفين، وبقي في مكة ورفض أن يتابع المسير مع عائشة الى البصرة، ولم يذهب الى معاوية إلاّ بعد أن بويع بالخلافة.

آل أبي العاص: وهؤلاء سلالة ابي العاص بن أمية، وأبرزهم الخليفة

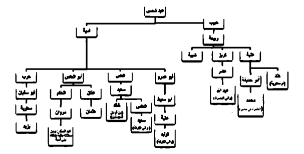
عثمان بن عفان بن ابي العاص، وابن عمه مروان بن الحكم بن ابي العاص، ومن بعده ابنه عبد الملك وبقية خلفاء بني أمية حتى انهيار دولتهم. وهذا الفرع لم يكن بارزاً ولا معروفاً بالسيادة والعلوّ. فهو لا يعدّ نداً لآل حرب ولا آل العاص من أمية. بل ان في ممارسات وسلوكيات الحكم بن ابي العاص، بعد أن اضطرّ للدخول في الاسلام، ما يشير الى نزعة للتهتك والخلاعة مما تأباه الأنفس الكريمة.

آل أبي مُعيط: وهؤلاء سلالة ابي معيط بن ابي عمرو بن أمية. وهذا الفرع هو الأكثر خمولاً وسفالة من بين بطون أمية. بل ان هناك عدة روايات تطعن في صحة نسب هذا الفرع. فيقال ان ابا عمرو بن أمية، واسمه الاصلي ذكوان، كان في الحقيقة عبداً لأمية، اشتراه من صفورية من الشام، وتبناه واستلحقه فيما بعد. ومن أشهر شخصيات هذا الفرع عقبة بن ابي معيط الذي أعدمه رسول الله (ص) يوم بدر، وابنه الوليد بن عقبة، والي عثمان على الكوفة، وقد مرّ ذكره.

وهذه البطون الأموية كانت تتنافس فيما بينها، وتتحاسد، وتتفاخر. ومن الامثلة على ذلك، كما روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، أن بطن أبي العاص الاموي، رأى في قيام معاوية بن ابي سفيان باستلحاق زياد بن أبيه بنسبه محاولة لتقوية فرع آل حرب على حسابه ! حتى أن عبد الرحمن بن الحكم بن ابي العاص قال لمعاوية *«لو لم تجد إلاّ الزّنجَ لاستكثرتَ بهم علينا»* .

وفي ختام هذا الاستطراد لا بد من الاشارة الى مجموعة أخرى من الشخصيات البارزة التي يمكن اعتبارها أموية رغم عدم انتسابها لأمية من الناحية السلالية. فأمية هو ابن عبد شمس بن عبد مناف. وعبد شمس هذا له عقبٌ غير أمية، وهو أخوه حبيب وابنه ربيعة. وهناك شخصيات لعبت أدواراً مهمة تنتمي الى ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، منها من عظماء قريش وأعداء النبي (ص) في مكة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنته هند زوجة ابي سفيان. ومن الجيل اللاحق اشتهر عبد الله بن عامر بن كريز، والي عثمان على البصرة،

وكذلك محمد بن ابي حذيفة بن عتبة، عدو عثمان في مصر! فهؤلاء جميعاً هم من بني عبد شمس، وبنو أمية كلهم من بني عبد شمس أيضاً. وفي الاجمال هناك تداخل بين الجهتين، من ناحية القرابة اللصيقة، والمواقف والسلوك ايضاً، حتى يمكن اعتبارهم كلهم شيئاً واحداً.



ثالثاً: تعيين عبد الله بن عامر والياً على البصرة[1]

قال ابن عبد البر في ترجمته في الاستيعاب «*عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، القرشي العبشمي، ابن خال عثمان بن عفان رضي الله عنه. أم عثمان أروى بنت كريز....*

وُلِدَ على عهد رسول الله (ص)...

قال صالح بن الوجيه وخليفة بن خياط: وفي سنة 29 عزل عثمانُ أبا موسى الأشعري عن البصرة، وعثمانَ بن ابي العاص عن فارس، وجمعَ ذلك كله لعبد الله بن عامر بن كريز. وقال صالح: وهو ابن 24 سنة»

(1) مصادر هذا البحث: اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص191)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص427)، تاريخ خليفة بن خياط (ص116)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص166)، تاريخ الطبري (ج3 ص321)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص45)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج32 ص82) و فتوح البلدان للبلاذري (ج2 ص441).

قال ابن الاثير في ترجمته في اسد الغابة «*واستعمله عثمان على البصرة سنة 29 بعد ابي موسى. وولاه أيضا بلاد فارس بعد عثمان بن ابي العاص. وكان عمره لما ولي البصرة أربعاً أو خمساً وعشرين سنة*»

وبشأن الأهلية الاسلامية لعبد الله بن عامر: بما أنه قد ولد في السنة الرابعة للهجرة، لا يمكن الحديث عن أي دور له شخصياً في الفترة النبوية لا سلبا ولا ايجاباً، لأن عمره حين توفي النبي (ص) لم يكن يتجاوز السادسة الا قليلا. واما أبوه، فلا يوجد له ذكرٌ في أحداث الفترة النبوية. فلا هو معروفٌ ضمن أعداء النبي (ص) من قيادات قريش في مكة، ولا هو من الذين أسلموا واتبعوا النبي(ص). بل كل ما يذكر عنه انه كان من الطلقاء من مسلمة الفتح. وأغلب الظن أنه كان شخصية خاملة رغم نسبه الرفيع. والظاهر أنه اكتفى بدور التابع البسيط لأعمامه عتبة وشيبة ابني ربيعة الذين كانا يتصدران أهل مكة في مواجهة محمد(ص).

وهكذا يكون عثمان قد تابع مسلسل تعييناته لأقربائه وأبناء عائلته في المناصب القيادية العليا في الدولة. وهو هنا يعين قريبه من بني عبد شمس وابن خاله والياً على البصرة عام 29 للهجرة بعد أن عزل واليها الصحابي القديم أبا موسى الأشعري.

وهناك منحهُ صلاحيات واسعة، رغم صِغر سنّه الذي لم يتجاوز الخمسة وعشرين، ثم ولاّه أيضاً بلادَ فارس بعد عزل عثمان ابن أبي العاص الثقفي.

ومثلما كان رد فعل سعد بن ابي وقاص حينما عُزل عن الكوفة وعُيّن مكانه الوليد الوليد بن عقبة، كان رد ابي موسى: الاستياء والاستنكار:

قال خليفة بن خياط في تاريخه عن أحداث عام 29 للهجرة «*فيها عزل عثمان بن عفان أبا موسى الاشعري عن البصرة، وعثمانَ بن ابي العاص عن فارس، وجمع ذلك أجمع لعبد الله بن عامر بن كريز.*

فحدثني الوليد بن هشام قال: حدثني ابي عن جدي عن الحسن قال: قال ابو موسى: يقدم عليكم غلامٌ كريمُ الجدات والعمات، يجمع له الجندان. فقدم ابن عامر.

وسمعت ابا اليقظان ذكر نحو ذلك وقال: قدم ابن عامر وهو ابن اربع أو خمس وعشرين سنة»

قال اليعقوبي في تاريخه «*وعزل أبا موسى الأشعري وولّى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز وهو يومئذ ابن خمس وعشرين سنة. فلما بلغ أبا موسى ولاية عبد الله بن عامر قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ثم قال: قد جاءكم غلامٌ كثير العمات والخالات والجدّات في قريش، يفيض عليكم المال فيضاً*»

وفي رواية للطبري عن ابي بكر الهذلي أن ابا موسى قال لأهل البصرة لما استبدل بابن عامر «*يأتيكم غلامٌ خراج ولاج، كريم الجدات والخالات والعمات، يُجمع له الجندان.*

قال الحسن: فقدم ابن عامر. فجمع له جند ابي موسى وجند عثمان بن ابي العاص الثقفي»

وكدأبه المتواصل وعادته في الدفاع عن عثمان وسياساته، كائناً ما كانت، لم يفت سيف بن عمر أن يجد تبريراً لقرار عزل ابي موسى وتعيين ابن عامر مكانه. فانفرد الطبري، في روايته عن سيف، في ذكر قصة طويلة ملخصها ان اهل (إيذج والاكراد) قد ارتدوا فندَبَ الوالي ابو موسى الناسَ للخروج للجهاد حتى لو كانوا راجلين فاستجابوا، ولكنهم فوجئوا أن ابا موسى لما خرج معهم «*أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلاً*» مما أثار استياءهم «*ومضوا فأتوا عثمانَ فاستعفوه منه وقالوا: ما كل ما نعلم نحب أن نقوله. فأبدلنا به.*

فقال: مَن تحبون؟

فقال غيلان بن خرشة: في كل أحدٍ عوض من هذا العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا. فلا تنفك من أشعري كان يعظم ملكه عن الأشعريين ويستصغر ملك البصرة. وإذا أمّرتَ علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مهتراً كان فيه عوض منه، ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه.

فدعا عبد الله بن عامر وأمّره على البصرة»

وهذا الوصف الوارد في رواية سيف هذه في نعت ابي موسى «*العبد الذي قد أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا*» هو قاسٍ جداً بحقه، ولا يوجد له نظير في المصادر الأخرى، التي هي في إجمالها تشير الى ان أبا موسى كان والياً ناجحاً. وكلمة (العبد) المستعملة هنا غريبة ومستهجنة، فأبو موسى صريحٌ من عرب اليمن وليس من الموالي حتى يشتمه عدوه بقوله عنه «عبد».

وهناك رواية أخرى في الطبري عن علي بن مجاهد، ربما أمكن قبولها، وهي تذكر ان غيلان بن خرشة هذا قال لعثمان «*أما منكم خسيسٌ فترفعوه؟ أما منكم فقيرٌ فتجبروه؟ يا معشر قريش حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعري هذه البلاد؟*

فانتبه لها الشيخ فلاها عبد الله بن عامر»

وهذه الرواية أخف وطأة من رواية سيف، فلا يستبعد أن يكون غيلان هذا قد اقترح على عثمان استبدال ابي موسى بواحد من قومه، تزلفاً ونفاقاً للخليفة وتقرباً منه. فالارجح ان سيف بن عمر قد أخذ هذه الرواية وحرفها واضاف اليه فقرة الأربعين بغلاً والاوصاف المسيئة بحق ابي موسى. كل ذلك من أجل إيجاد عذر لعثمان في عزله.

والظاهر أن غيلان بن خرشة هذا قد نال مكافأة من عبد الله بن عامر بعدما تولى. فقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن من ضمن الأنهار التي كان ابن عامر يحفرها في البصرة واحداً عرف باسم أمه: نهر ام عبدالله دجاجة «*وتولاه غيلان بن خرشة الضبي*».

ولستُ متأكدا من المقصود ب «تولاه» هنا، ولكن أظنها تعني امتلاك حقوقه والسيطرة عليه.

وعلى كل حال فإن عثمان لم يرَ نفسَه مضطراً الى شرح أسباب عزله لأبي موسى الأشعري واكتفى بان كتب له «*اني لم أعزلك عن عجز ولا خيانة ... واني لأعرف فضلك وانك من المهاجرين الأولين ولكني أردتُ أن أصل قرابة عبد الله بن عامر...*» كما ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى وابن عساكر في تاريخ دمشق.

رابعاً: تعيين عبد الله بن سعد بن ابي السرح واليا على مصر[1]

هو عبدالله بن سعد بن أبي السرح القرشي العامري. وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة.

خلفية ابن ابي السرح

من الضروري التذكير بأن هذا الشخص كان من أخبث رجالات قريش منذ القدم. فبخلاف غيره من سادة قريش الذين رفضوا دعوة محمد(ص) وحاربوه علناً وبكل صراحة، فضّل هو محاربة محمد(ص) بطريقةٍ أخبث وألأم! فقد تظاهر بالإيمان بدعوة محمد(ص) وهو مستضعفٌ في مكة، وتقرّب منه إلى أن جعله من الذين يكتبون الوحي القرآني. وبعد ذلك ارتدّ وعاد إلى إخوانه في قريش ليقولَ لهم إن محمدا(ص) كذاب وليس نبيّا: «ما يدري ما يقول! إني لأكتب له ما شئت!»

وليس هناك اختلافٌ يُذكر بين أصحاب السير والحديث والاخبار حول سيرة ابن ابي السرح. فمثلاً قال عنه ابن اسحق، صاحب السيرة، كما يروي ابن هشام «*أنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله(ص) الوحي، فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش*» وذكر ابن الأثير في أسد الغابة في ترجمته «*وكان يكتب الوحي لرسول الله (ص) ثم ارتدّ مشركاً وصار الى قريش بمكة فقال لهم: اني كنتُ أصرف محمداً حيث أريد. كان يملي علي عزيز حكيم فأقول: أو عليم حكيم. فيقول: نعم كلٌّ صواب!*» وقال الواحدي في أسباب النزول، وقريبٌ منه ما رواه الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين، أن الآية (ومن

---

(1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج4 ص44)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص173)، أسباب النزول للواحدي (ص148)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص45) و (ج2 ص54)، كتاب المغازي للواقدي (ج1 ص74)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص32-33-34) و(ج39 ص301)، الاصابة لابن حجر العسقلاني (ج4 ص95)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص190)، سنن النسائي (ج7 ص106)، سنن أبي داود (ج1 ص127)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج2 ص141)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص435)، الكامل لابن الاثير (ص372)، تاريخ الطبري (ج3 ص315)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص244)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص164).

قال سأنزل مثل ما أنزل الله) قد أنزلت فيه، وذلك حين دعاه رسول الله (ص) ليكتب له آية خلق الإنسان حيث قال: «*لئن كان محمد صادقا لقد أوحي إليّ كما أوحي إليه، ولئن كان كاذبا لقد قلتُ كما قال. وارتدّ عن الإسلام*» وروى الواقدي في كتاب المغازي أن ابن أبي السرح ارتدّ ورجع ليقول لقريش «*ما كان يعلّمه إلاّ ابن قمَطة، عبدٌ نصرانيٌ. قد كنتُ أكتب له فأحوّلُ ما أردتُ. فأنزل الله عز وجل (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون إليه أعجميّ وهذا لسانٌ عربيّ مبين)*»[1]

وبسبب هذا الدور الدعائي الحقير الذي لعبه ابن أبي السرح، قرر الرسول(ص) إعدامه يوم فتح مكة: روى ابن عساكر «*قال رسول الله(ص): مَن وجد ابن أبي السرح فليضرب عنقه، وإن وجد متعلقا بأستار الكعبة*»

وقد كان المسلمون حريصين جداً على تنفيذ الأمر النبوي بقتله، لولا أنّ عثمان بن عفان خبّأه ثم أتى به إلى النبي(ص) فجاءَ ليشفعَ له، فألحّ عليه كثيرا إلى أن أحرجه فتركه وأعرضَ عنه.

وقد ورد في سنن النسائي وسنن أبي داود، واللفظ للأول، «*لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله(ص) الناسَ إلاّ أربعة نفرٍ وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، عبد الله بن خطل، مقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح. فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة فاستبَق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق سعيدٌ عماراً وكان أشبّ الرجلين فقتله. وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه وأما عكرمة فركب البحر .... وأما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله(ص) إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبي(ص).*

قال: يا رسول الله بايع عبدَ الله!

قال: فرفعَ رأسَه فنظرَ إليه ثلاثاً، كلّ ذلك يأبى.

(1) الآية رقم 103 من سورة النحل.

فبايعه بعد ثلاث.

ثم أقبل على أصحابه فقال: أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك؟ هلاّ أومأتَ إلينا بعينك؟

قال: إنه لا ينبغي لنبيّ أن تكونَ له خائنة أعين»[1]

وبالرغم من طريقة إسلامه هذه إلاّ أن ابن ابي السرح لم يعدم مَن يتعاطف معه على قاعدة «عفا الله عما سلف»، ومن هؤلاء ابن عبد البر الذي قال عنه في الاستيعاب «*حسُنَ إسلامه، فلم يظهر منه شيء ينكر عليه بعد ذلك. وهو أحد النجباء العقلاء الكرماء من قريش*»

عزل عمرو بن العاص

ورغم هذه الخلفية الحافلة لابن أبي السرح، لم يرَ الخليفة بأساً في تعيينه في منصب رفيع جداً وحساس.

ففي مصر عيّن عثمانُ عبدالله بن سعد بن أبي السرح حاكماً بعد أن عزل عنها عمرو بن العاص عام 25 للهجرة[2]

والذي حدث أن عمرو بن العاص، الداهية والسياسي والقائد المشهود له، قد تعرّض إلى نكسة شديدة في عهد عثمان بن عفان. فقد أسفر صراعٌ باطنيّ، طويلٌ ومُضنٍ، بين عمرو بن العاص ورجلٍ يماثله في الخلق: عبد الله بن أبي السرح، على أرض مصر، قِوامُه المكائد والوشايات، عن انتصار الأخير، الذي لا شكّ استغلّ علاقته الوطيدة بالخليفة ،وكونه أخاه بالرضاعة. فقام عثمان بعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وتعيين ابن أبي السرح مكانه.

---

(1) سنن النسائي. وسنن أبي داود، باب قتل الأسير لا يعرض عليه الإسلام. وكذلك روى ابن عساكر في تاريخ دمشق. والجزء الأول من الرواية ورد في المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري. وأيضاً وردت القصة بألفاظ مختلفة لدى ابن سعد في الطبقات الكبري و ابن الأثير في أسد الغابة وابن حجر العسقلاني في الاصابة.

(2) أسد الغابة لابن الأثير

وكان عزل عمرو عن ولاية مصر قد تم على مرحلتين: الأولى كفّ يده عن مالية البلاد وتسليمها لابن ابي السرح. وطبعا لن يستقيم أمر البلاد برأسين متنافسين ولا بد من إطاحة أحدهما. قال ابن الاثير في الكامل ضمن كلامه عن سنة 27 «*في هذه السنة عُزل عمرو بن العاص عن خراج مصر، واستُعمِل عليه عبد الله بن سعد بن ابي سرح، وكان أخا عثمان من الرضاعة. فتباغيا. فكتب عبد الله الى عثمان يقول: ان عمرا كسر عليّ الخراج. وكتب عمرو يقول: ان عبد الله قد كسر عليّ مكيدة الحرب.*

فعزل عثمان عمراً واستقدمه، واستعمل بدله عبد الله على حرب مصر وخراجها[1]»

ولكن ابن عبد البر في الاستيعاب يذكر سبباً مباشراً لعزل ابن العاص «*في سنة 25 انتقضت الاسكندرية، فافتتحها عمرو بن العاص، وقتل المقاتلة وسبى الذرية. فأمر عثمانُ بردّ السبي الذين سُبوا من القرى، ولم يصح عنده نقضهم. وعزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد بن ابي السرح*[2]»

وأنا لا أظن أن عثمان قد عزل ابن العاص عن ولاية مصر بسبب خطأ إداريّ معيّن كما توحي بذلك هذه الرواية الاخيرة لابن عبد البر وابن حبان واليعقوبي، بل المرجّح أن عثمان أراد حاكماً لمصر يدين له شخصياً بالولاء والطاعة، فكان ابن أبي السرح هو الحل. فابن أبي السرح يدين بحياته كلها لعثمان الذي أنقذه من حكم الإعدام الذي كان النبي(ص) قد أصدره عليه، وإخلاصه لشخص عثمان لن تشوبه شائبة.

أو لعل ما صنعه عمرو بن العاص في سبي الاسكندرية كان ذريعة اتخذها عثمان لتبرير قراره الذي كان مضمراً في نفسه.

وأما سيف بن عمر فإن روايته لتعيين ابن ابي السرح تصل درجة من السخف تجعلها لا تستحق البحث الجدي. وفيما يلي ملخصها كما روى

(1) وهذه الرواية منقولة بالتأكيد عن تارخ الطبري الذي وردت فيه بصيغة «قال ابن عمرو حدثني اسامة بن زيد عن يزيد بن ابي حبيب»
(2) ومثل هذه الرواية وردت في كتاب الثقات لابن حبان وكذلك وردت في تاريخ اليعقوبي

ابن عساكر في تاريخ دمشق: وحسب قول سيف فإن المسألة كلها سببها ذلك الشخص اليهودي الشيطاني عبد الله بن سبأ! فابن سبأ قد رسَمَ لأتباعه في مصر، وخاصة سودان بن حمران والغافقي وكنانة بن بشر، خطة جهنمية لزعزعة الأوضاع فيها. فقرر لهم أن يطعنوا في الوالي عمرو بن العاص ويكثروا الشكوى منه وأن يطالبوا بتعيين عبد الله بن أبي السرح مكانه! وأنهم نفّذوا تلك الخطة إلى أن نجحوا في مسعاهم لدى عثمان بن عفان على خطوتين: فأولاً عيّن عثمانُ ابن أبي السرح على الخراج واستبقى عمراً على الصلاة بالناس. فسعى أتباع ابن سبأ بالإفساد بين ابن أبي السرح وابن العاص وأغروهما ببعضهما البعض! إلى أن نجحوا ثانياً وأخيراً في إقناع الخليفة، بناء على إصرارهم، بتعيين عبد الله ابن أبي السرح والياً مطلقاً على مصر!

واقتبس ابن كثير في البداية والنهاية جوهر الرواية وذكرها بدون سند ودون التصريح باسم عبد الله بن سبأ بل استبدله بلفظة (الخوارج) فقال عن عزل عمرو وتولية ابن ابي سرح «*وكان سبب ذلك ان الخوارج من المصريين كانوا محصورين من عمرو بن العاص، مقهورين معه لا يستطيعون أن يتكلموا بسوء في خليفة ولا أمير. فما زالوا حتى شكوه الى عثمان لينزعه عنهم ويولي عليهم من هو ألين منه. فلم يزل ذلك دابهم حتى عزل عمراً عن الحرب وتركه على الصلاة، وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن ابي سرح. ثم سعوا فيما بينهما بالنميمة فوقع بينهما، حتى كان بينهما كلامٌ قبيح. فأرسل عثمان فجمع لابن ابي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها. وبعث الى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك*»

خامساً: توسيع ولاية معاوية بن ابي سفيان[1]

في الشام وسّعَ عثمان صلاحيات معاوية، وهو واحدٌ من بني عمومته من بني أمية، وزاد في ولايته وجعلها تشمل كل بلاد الشام، دمشق وحمص

---

(1) مصادر هذا البحث: البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص109)، تاريخ الطبري (ج3 ص304)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص241)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 161)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج7 ص406) و (ج4 ص375)، فتوح البلدان للبلاذري (ج1)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج3 ص135)

والأردن وفلسطين وأضاف لها الجزيرة، بعد أن كانت تقتصر على دمشق، أو بعض الشام بتعبير آخر، أيام عمر.

قال ابن كثير في البداية والنهاية ان يزيد بن ابي سفيان هو أول من تولى إمرة دمشق من المسلمين وذلك في زمن عمر، بعد أن كان أبو بكر قد وعده بذلك حين أرسله قائداً لأحد الجيوش الأربعة التي بعثها لفتح الشام، ولكنه توفي في طاعون عمواس القاتل «*ولما مات كان قد استخلف أخاه معاوية على دمشق. فأمضى عمر بن الخطاب له ذلك*»

وذكر الطبري في تاريخه اسماء عمال عمر بن الخطاب على الولايات عند وفاته في أواخر سنة23 للهجرة. وكان منهم «*وعلى حمص عمير بن سعد*[1]*، وعلى دمشق معاوية بن ابي سفيان*»

وكذلك روى ابن حبان في كتاب الثقات عن عمال عمر لدى وفاته «*وعلى حمص أعمالها عمير بن سعد الضمري، وعلى دمشق معاوية بن ابي سفيان*»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن عمال عمر لدى فاته «*وعمير بن سعد الانصاري على حمص، ومعاوية بن ابي سفيان على بعض الشام*»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى عن معاوية «*ولاه عمر بن الخطاب دمشقَ عملَ أخيه يزيد بن ابي سفيان حين مات يزيد. فلم يزل والياً لعمر حتى قتل عمر رضي الله تعالى عنه. ثم ولاه عثمان بن عفان ذلك العمل وجمع له الشامَ كلها*»

وروايات البلاذري في كتابه فتوح البلدان تفيد بأن عمير بن سعد كان قد تولى حمصَ والجزيرة لعمر بن الخطاب، وذلك بعد أن توفي واليها السابق

---

(1) وقد ذكر ابن سعد في طبقاته ان عمير بن سعد هو صحابيٌ أنصاريٌ، كان أبوه قد شهد بدراً، واستشهد في معركة القادسية. وذكر له بسنده خطبة تدل على حرصه على الرعية وعلى العدل والحق «*كان يقول وهو أمير على المنبر على حمص، وهو من أصحاب النبي(ص): «ألا ان الاسلام حائط منيع وباب وثيق. فحائط الاسلام العدل وبابه الحق. فاذا نقض الحائط وحطم الباب استفتح السلام. فلا يزال الاسلام منيعا ما اشتد السلطان. وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذا بالعدل*»

عياض بن غنم الذي كان له دور بارز في فتح منطقة الجزيرة. فقام عثمان بضم كل ذلك الى عمل معاوية.

والظاهر أن ولاية الشام قد استقرت أيام عمر بن الخطاب على اقليمين: جنوبيٌّ ومركزه دمشق برئاسة معاوية ويشمل الاردن وفلسطين وجزء من لبنان، وشماليٌّ مركزه حمص برئاسة عمير بن سعد الانصاري ويشمل قنسرين والرقة وكل منطقة الجزيرة. روى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن الزهري «*نزع عثمان عميرَ بن سعد وجمع الشامَ لمعاوية*» وعنه أيضا «*لم ينفرد معاوية بالشام حتى استخلف عثمان*»

مع العلم أن طلائع جيوش الفتح العربي التي أرسلها الخليفة أبو بكر الى الشام كانت مقسمة الى أربعة جيوش ولها أربعة اتجاهات: جند دمشق، جند الاردن، جند فلسطين وجند حمص، وكان لها أربع قادة. ولكن بعد نجاح الفتح استقرت الولاية على ما ذكرناه.

وثمة ملاحظة هنا: وهي ان معاوية كان هو الوحيد الذي استبقاه الخليفة عثمان من ولاة عمر بن الخطاب. وهو قام بتغيير عمال كل الولايات الأخرى ونزع عنها ولاة عمر. والمفارقة هنا ان عثمان كان يحتج على الذين يلومونه بسبب وضعية معاوية العالية جدا في الدولة بقوله ان عمر قد ولاه! وللسائل أن يسأل: ان عمر قد ولى أبا موسى الاشعري وعمرو بن العاص وغيرهم، فلماذا استبدلهم عثمان اذن؟ ان استبقاء معاوية- الاموي- فقط من بين عمال عمر كان يدعم نظرية كارهي الخليفة الذين قالوا انه أراد أن تسيطر عائلته على كل مفاصل دولة الاسلام.

وبالاضافة الى توسيع حدود ولاية معاوية، غيّر عثمان أسلوب التعامل معه عما كان أيام عمر. فبعد أن كان عمر يحكم قبضته على كل كبيرة وصغيرة من شؤون الحكم في الولايات كلها، لجأ عثمان إلى أسلوب تفويض الصلاحيات إلى الوالي. وسواء اتخذ عثمان هذا المنحى بسبب ضعفٍ في شخصيته، أم بسبب صعوباتٍ موضوعية ناتجة عن بُعد المسافات وضخامة حجم الدولة، فالنتيجة واحدة وهي المزيد من اللامركزية في الإدارة والقرارات.

فتخلص معاوية، أخيراً، من شبح عمر المُهيمن، وأصبح حراً طليقاً في ولايته الضخمة والغنية. فعدا عن المبلغ السنوي الذي يرسله معاوية من خراج الشام إلى مركز الخلافة في المدينة، صار معاوية مستقلاً بالفعل فيما يختص بشؤون الجيوش والإدارة، والتجمعات العربية التي استوطنت الشام، والعلاقة مع أهل البلاد القدماء ومع دولة الرومان في الشمال.

واستغل معاوية قرابته من عثمان وصلاته العائلية به، في ترسيخ هيمنته وسيطرته على مقاليد الأمور في الشام. فكان يقول لرعيته إن كل ما يأمر به ويقرره إنما هو أمر الخليفة وسياسته. ولم تكن هناك قنوات تواصل بين الخليفة في المدينة وبين الرعية في الشام، إلاّ من خلال معاوية. وبمرور الوقت، أخذ الناس في الشام يسلمون أن معاوية هو فقط مَن يعبّر عن مؤسسة الخلافة وينطق باسمها، ويمتلك صلاحية القرار بالنيابة عنها.

وسوف يأتي لاحقاً الحديث عن الدور الذي صار معاوية يلعبه في أواخر عهد عثمان، وكيف تحوّل الى الرجل القوي في الامبراطورية الاسلامية يلجأ له الخليفة عثمان عندما يريد أن يؤدب أحداً عارضه أو يقمع خطراً هدده.

سادساً: والي اليمن يعلي بن أمية [1]

وفي اليمن كان رجل عثمان وواليه المخلص هو يعلي بن أمية (وهو أحياناً ينسبُ الى أمه منية، فيقال له: يعلي بن منية). وعلى الرغم من أنه لم يكن من أقرباء عثمان، بل كان من قبيلة تميم، إلاّ أنه كان من حلفاء قريش في مكة. وكان كغيره من ولاة عثمان من الطلقاء ومسلمة الفتح.

روى ابن عبد البر في الاستيعاب عن المدائني «*استعمل أبو بكر الصديق يعلي بن أمية على بلاد حلوان في الردّة. ثم عمل لعمر على بعض اليمن، فحمى لنفسه حمى فبلغ ذلك عمرَ، فأمره أن يمشي على رجليه الى المدينة! فمشى خمسة أيام، أو ستة الى صعدة، وبلغه موت عمر فركب! فقدم المدينة على عثمان رضي الله عنه، فاستعمله على صنعاء.*

(1) مصادر هذا البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص765)، اسد الغابة لابن الاثير (ج5 ص128)، حياة الصحابة للكاندهلوي (ج1 ص564)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1028) ،شرح نهج البلاغة -لابن أبي الحديد (ج 10، ص 239 - 244)

ثم قدم وافداً على عثمان، فمرّ عليٌّ على باب عثمان، فرأى بغلته جوفاء عظيمة فقال: لمن هذه البغلة؟ فقالوا: هي ليعلي. قال: ليعلي والله!

وكان عظيم الشأن عند عثمان، وله يقول الشاعر:

إذا ما دعا يعلي وزيد بن ثابتٍ   لأمرٍ ينوب الناسَ أو لخطوبِ»

وقال عنه ابن الاثير في اسد الغابة:

«أسلم يوم الفتح. وشهد حنيناً والطائف وتبوك. ..

وهو حليف بني نوفل بن عبد مناف. واستعمله عمر بن الخطاب على بعض اليمن، واستعمله عثمان على صنعاء.

وقدم على عثمان، فمرّ علي بن ابي طالب على باب عثمان فرأى بغلة جوفاء عظيمة، فقال: لمن هذه البغلة؟ قالوا: ليعلي. قال: ليعلي والله!

وكان ذا منزلة عظيمة عند عثمان»

وقول علي «ليعلي والله» هو من قبيل الاستهجان والاستنكار لمنزلة ذلك الطليق الرفيعة عند الخليفة.

ورغم تصريح ابن الاثير أنه شهد غزوات حنين والطائف وتبوك مع النبي(ص) بعد فتح مكة، إلاّ أن هناك ما يشير الى أنه كان يفعل ذلك مداراة، وانه كان يتحين الفرص والأعذار للتخلف ما أمكنه ذلك. ومن ذلك ما ذكره الكاندهلوي في حياة الصحابة عن البيهقي *«ان يعلي بن منية رضي الله عنه قال: أذن رسول الله (ص) بالغزو، وأنا شيخ كبير ليس لي خادم، فالتمستُ أجيراً، وأجري له سهمه، فوجدتُ رجلاً ...»*

فكيف يكون يعلي شيخاً كبيراً بينما كان له دور ملحوظ في حرب الجمل بعد حوالي 25 عاماً؟ وكيف يكون بلا خادم وهو يقول انه استأجر رجلاً ليذهب مكانه للغزو مع النبي(ص)؟

وسوف يأتي الحديث عن دوره في التحضيرات لحرب الجمل لاحقاً.

وهناك رواية تقول بأن يعلي بن منيه كان هو بالذات سبباً في محاولة اغتيال تعرض لها عثمان بن عفان في السابق نتيجة لظلمه للناس. فقد جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري أن رجلا أراد قتل عثمان بالخنجر

فكمن له ولكنه فشل في محاولته وقبض عليه، ولما سأله عثمان عن السبب الذي دفعه لذلك أجابه «*ظلمني عاملك باليمن*» فأمر به عثمان فبقي في الحبس حتى مات.

ورغم أني لم أجد هذا الخبر في مصدر آخر، إلاّ أن علاقة يعلي الوطيدة الوطيدة بالخليفة هي أمر مؤكد، وكذلك اغتناؤه من منصبه الرفيع في زمان عثمان. وقد أشار معاوية بن أبي سفيان في رسالة منه الى يعلي بعد مقتل عثمان أن من المآخذ التي عيبت على عثمان تعيينه يعلي على اليمن لفترة طويلة. وفيما يلي نص الرسالة كما ذكرها ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة :

«*وكتب إلى يعلى بن أمية: حاطك الله بكلاءته، وأيدك بتوفيقه. كتبت إليك صبيحة ورد على كتاب مروان بخبر قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإن أمير المؤمنين طال به العمر حتى نقصت قواه، وثقلت نهضته، وظهرت الرعشة في أعضائه، فلما رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعا للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألبوا عليه، فكان أعظم ما نقموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدتك عليها. ثم ترامى بهم الامر حالا بعد حال، حتى ذبحوه ذبح النطيحة.....*

واعلم يا بن أمية أن القوم قاصدوك بادئ بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حسبه ...»

وكان جواب يعلي «*وكتب إليه يعلى بن أمية: إنا وأنتم يا بنى أمية كالحجر لا يبنى بغير مدر، وكالسيف لا يقطع إلا بضاربه. وصل كتابك بخبر القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النطيحة بودر بها الموت لينحرن ذابحه نحر البدنة وافى بها الهدى الاجل ! ثكلتني من أنا ابنها إن نمت عن طلب وتر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رمق ! إني أرى العيش بعد قتل عثمان مرا، إن أدلج القوم فإني مدلج، وأما قصدهم ما حوته يدي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإن لنا ولهم لمعركة نتناحر فيها نحر القدار النقائع، عن قليل تصل لحومها ...*»

*****

كلمة بشأن أهلية وكفاءة ولاة عثمان[1]

لا بد من الاشارة الى خطأ يقع فيه الكثيرون، ممن تدهشهم وتثير استنكارهم قرارات الخليفة عثمان بتعيين أقربائه اللصيقين الذين بعضهم شبانٌ بلا خبرة في تلك المناصب المهمة. والخطأ يتمثل في القفز للاستنتاج بأن هؤلاء الولاة كانوا مجموعة من التافهين وعديمي الكفاءة الذين انصرفوا الى اللهو والدعة. وربما يكون في بعض سلوكيات وممارسات هؤلاء الولاة، وخاصة الوليد بن عقبة، ناهيك عن تحدرهم من العائلة الأموية الغنية والارستقراطية، ما يدفع الى ذلك الاستنتاج.

ولكن ذلك الاستنتاج ليس صحيحاً.

فإذا تجاوزنا النظر الى الأمور من الزاوية الدينية الشرعية المحضة، أو الأخلاقية والروحية، سنجد أن عمال عثمان هؤلاء كانوا في الحقيقة أصحابَ قدرات قيادية مميزة. بل أكثر من ذلك انهم يستحقون الثناءَ والتقريظَ على نجاحهم في قيادة الجيوش والقوات، وإدارة الرجال والمقاتلين، وقوتهم في مواجهة أشرس الأعداء والانتصار عليهم في الميدان، وعلى جرأتهم وذكائهم.

فرغم فساد أخلاقه وسوء سلوكه، إلاّ أنه لا ينبغي الاعتقاد بأن *الوليد بن عقبة* بن ابي معيط كان رخواً أو متقاعساً عن أداء مهام منصبه الأساسية. فهو كان يقوم بمسؤولياته في تنظيم القوات ومتابعة الفتوحات. وهو قاد الجيش الذي هاجم آذربيجان وأرمينيا سنة 26 للهجرة وعاد من هناك ظافراً بعد أن هزمت قواته أهلها، كما ذكر الطبري في تاريخه. *فالوليد* كان له سهمٌ ظاهرٌ في الفتوح وقتال الأعاجم. وروى البلاذري في فتوح البلدان أن الوليد بن عقبة لما تولى «*غزا الديلَم مما يلي قزوين، وغزا اذربيجان، وغزا جيلان وموقان، والبير، والطيلسان*»

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص307)، فتوح البلدان للبلاذري (ج2 ص395)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص272) ،أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص310) و (ج3 ص191+ ص174) ، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج29 ص36-39)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص193)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص136) و النزاع والتخاصم للمقريزي (ص87).

وبشأن سعيد بن العاص، ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب وابن الاثير في أسد الغابة :

«*استعمله عثمان على الكوفة. وغزا بالناس طبرستان فافتتحها. ويقال انه افتتح أيضا جُرجان في زمن عثمان سنة 29 أو سنة 30*» وروى البلاذري في فتوح البلدان ان سعيد بن العاص أيضا «*غزا الديلَم ومصّر قزوين، فكانت ثغر أهل الكوفة وفيها بنيانهم*»

وأما *عبد الله بن عامر* فقد قال عنه ابن الاثير في أسد الغابة «*افتتح خراسان كلها، وأطرافَ فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل الجيوش ففتح هذه الفتوح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزدجرد، فأحرم ابن عامر من نيسابور بعمرة وحجة شكر الله عز وجل على ما فتح عليه*»

وكذلك فإن *عبد الله بن سعد بن أبي السرح*، كانت له صولات وجولات في الغزو والقتال. وقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق تفاصيل حملاته التي نوجزها كما يلي :

فهو قاد الجيش الذي توغّل في إفريقية سنة 27 للهجرة حتى وصل القيروان وعاد ظافراً.

ثم إنه غزا النوبة والسودان والحبشة سنة 31 للهجرة

كما انه كان قائد غزوة ذات الصواري البحرية العظيمة التي ألحق فيها المسلمون هزيمة مدوّية بالرومان وأسطولهم البحري سنة 34 للهجرة.

وقال عنه ابن الاثير في اسد الغابة «*... وكان على ميمنة عمرو بن العاص لما افتتح مصر وفي حروبه هناك كلها*

.... ثم ولاه عثمان بعد ذلك مصر سنة 25، ففتح الله على يديه افريقية، وكان فتحاً عظيماً بلغ سهم الفارس ثلاثة آلآف مثقال ذهباً وسهم الرجل ألف مثقال

... وغزا عبد الله بن سعد بعد افريقية الاساود من أرض النوبة سنة احدى وثلاثين وهو الذي هادنهم الهدنة الباقية الى اليوم

وغزا غزوة الصواري في البحر الى الروم»

وأما *معاوية بن ابي سفيان* فقد كان مشاركاً في حركة الفتوحات في الشام منذ بداياتها، وخبرته في هذا المجال طويلة. ومؤهلاته وقدراته الفذة في القيادة والادارة والتخطيط مشهورة ومعروفة.

فولاة عثمان هؤلاء كانت لهم مهمة أساسية أرسلهم عثمان لتنفيذها وهي متابعة حركة الفتوحات التي كانت أيام عمر بن الخطاب. ويبدو أن هذا كان معيار النجاح والفشل بنظر الخليفة. وهم كانوا يدركون ذلك فصرفوا جهدهم في اتجاه الحملات العسكرية التي كانوا يباشرونها بأنفسهم حيناً وعن طريق قادة يختارونهم أحياناً أخرى.

وعلى الصعيد الشخصي، وبعيداً عن مقاييس التقوى والورع والايمان، كان هؤلاء أهل كفاية وثقافة. فالوليد بن عقبة كان شاعراً وصاحب بلاغة وقوي الشكيمة. وسعيد بن العاص كان كذلك فصيحاً الى الحد الذي جعل عثمان يضمه الى لجنة نسخ المصحف. وابن عامر كان كريماً وقوي الشخصية. وكان ابن ابي السرح ذكياً ومتعلماً وقوياً.

والعائلة الأموية باجمالها كانت متعلمة وغنية وذات نفوذ قديم. فلا عجب أن يكون أبناؤها مؤهلين للمناصب القيادية.

وسوف تثبت مجريات الأحداث كيف كان هؤلاء فعّالين ومؤثرين في الصراع الكبير الذي خاضوه ضد الامام علي بقيادة معاوية.

لقد كان بنو أمية على أتم استعداد وجاهزية لاهتبال الفرصة الذهبية التي يوفرها لهم الخليفة عثمان. فتحت الأبواب أمامهم وأشرعت للوصول إلى قمة الهرم ومفاصل الحكم والإدارة في الدولة، ولم يكونوا في وارد إضاعة هذه الفرصة الثمينة التي ربما لا تتكرر. وكانت القيادات الأموية من العناصر الشابة، الذكية والقوية، تعلم أن شيخها لن يدوم لها طويلاً. فعثمان رجلٌ عجوز وبالتالي ينبغي التصرف بسرعة وتركيز من أجل تحقيق أكبر قدر من الاستفادة من الموارد اللامحدودة والهائلة التي تتدفق على خزينة الدولة، والتي أصبحت فعلياً بين أيديهم. ونجح الأمويون، وبالأخص معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم، في السيطرة تماماً على أجهزة الحكم في الدولة: الإدارية

والتنظيمية والعسكرية، وقاموا ببناء شبكة واسعة من «قيادات الصف الثاني» المرتبطة مصلحياً وعضوياً بهم، لتعمل معهم وفي خدمتهم. وفي كل بلاد المسلمين، أوجدَ الأمويون طبقة تدين لهم بالولاء ولا ترى مستقبلها إلا معهم ولا تعرف رؤساء لها سواهم. وسواء اتفق الخليفة مع مخططات وطموحات القيادات الأموية أم لم يتفق، فإن قدرة هؤلاء مؤكدة على ترويض عثمان، إن هو أبدى بعض التحفّظ والممانعة في الانسياق وراء تحقيق الأحلام الأموية. وذلك الذي حدث. فقد تمكن الاتجاه الأموي من شلّ الخليفة والاستحواذ على القرار بشكل كامل.

ولذلك كله لم يتورع مروان بن الحكم، في أواخر أيام عثمان من قولها علانية: إنه المُلك الأمويّ الصريح!

فقد قال مروان أمام حشود المتمردين من أهل الكوفة والبصرة ومصر :

«جئتم تريدون أن تنزعوا مُلكنا من أيدينا. أخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم أمر يسؤكم. ولا تحمدوا غبّه. ارجعوا إلى منازلكم: فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا»[1].

فبنظر مروان فإن دولة بني أمية قد قامت بالفعل، وهو ونظراؤه لن يفرطوا بها!

وبعد ذلك، أنا لا أستبعد أن تكون رواية ابن أبي الحديد والمقريزي صحيحة :

«قال أبو سفيان في أيام عثمان، وقد مرّ بقبر حمزة، وضرَبَه برجله وقال: يا أبا عمارة: إن الأمر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا اليوم يتلعبون به»[2]

فقولٌ كهذا ليس غريباً على شخصية أبي سفيان.

---

(1) البداية والنهاية لابن كثير

(2) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج16 ص136). وفي رواية المقريزي، (ص87) من النزاع والتخاصم، إضافة على لسان أبي سفيان «وكنا أحق به من تيم وعدي».



الجزء الثاني:

معارضة عثمان في اوساط الصحابة

الفصل الاول: علاقة علي بعثمان[1]

مقدمة

كانت علاقة الامام علي في معظم الأوقات متوترة مع الخليفة عثمان. وكل الروايات تشير الى غضب علي الشديد مما كان يعتبره فسادا في سياسة عثمان وحكمه. وكان عليٌّ يصرّ على مجابهة عثمان مباشرةً. وكان عثمان لا يستسيغ ذلك ولا يطيقه إلاّ على مضض.

وقد سلط ابن شبة الكثير من الضوء على العلاقات المتوترة بين عليّ والخليفة عثمان، وكيف أن عثمان كان يقول بأن الطاعنين عليه «يتخذون علياً عضداً» ويعتبرونه «كهفاً» لهم، وكيف أن الأوساط المحيطة بعثمان كانت ذات موقف شديد العداء لعليّ، فيصفونه بـ«أبي تراب»[2] ويتهمونه بأنه «رأس الطعن» على الخليفة.

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة أن عثمان قال لعلي مرة وهو

---

(1) مصادر هذا البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص35)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج8 ص 255و ص259) و (ج8 ص302-303) و (ج9 ص2-30)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1044-1048)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص51)، تاريخ الطبري (ج3 ص377)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص263-266)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص188)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 ص378- ص380 وص 392)، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ج 2 ص268) و صحيح البخاري (ج2 باب التمتع والاقران من كتاب الحج) و أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص147+ ص99)

(2) و«أبو تراب» هو اللقب الذي سيعتمده معاوية بن أبي سفيان وجماعته لوصف علي بن أبي طالب وشتمه.

يعوده لمرض ألمّ به «والله يا ابا الحسن ما أدري ؟ أشتهي موتك أم أشتهي حياتك؟ فوالله لئن مت لا أحب أن أبقى بعدك لغيرك، لأني لا أجد منك خلفا. ولئن بقيت لا أعدم طاغيا يتخذك سلما وعضدا، ويعدك كهفا وملجأ، لا يمنعني منه إلا مكانه منك، ومكانك منه. فأنا منك كالابن العاق من أبيه: إن مات فجعه، وإن عاش عقه! فإما سلمٌ فنسالم، وإما حربٌ فنحارب. فلا تجعلني بين السماء والأرض. فإنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفا، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفا. ولن يلي أمر هذه الأمة بادئ فتنة»

وهذا النص يظهر حيرة عثمان الحقيقية تجاه علي. فهو لا يدري ماذا يفعل تجاهه، فاكتفى بتحذيره من الفتنة.

أسباب الخلاف

أولاً: معارضة علي لتسليم قيادة دولة الاسلام لبني أمية

فالظاهر أن السبب الرئيسي وراء غضب علي الشديد كان التعيينات التي قام بها عثمان لأقاربه في قيادة الدولة، وسياساتهم التي طبقوها.

وفي نهج البلاغة لخّص عليٌّ ببلاغته الفريدة موقفه من عثمان ورهطه من بني أمية. فقال عن عثمان في خطبته الشقشقية المشهورة «... *الى أن قام ثالث القوم نافجاً حَضنيه، بين نَثيلِهِ ومُعتَلَفِهِ. وقام معه بنو أبيه يَخضمون مالَ الله خَضمة الإبل نبتة الربيع. الى أن انتكث عليه فتلُهُ، وأجهز عليه عملُهُ، وكَبَت به بطنتُهُ...*»[1]

ومن المفيد التأمل بالنص التالي الذي أورده الطبري في تاريخه من رواية للواقدي. وفيه تظهر حيرة علي وإحباطه الشديد من عثمان وسياسته التي لا يرى لها سبباً مقنعاً. وكان موضوع ولاة عثمان، وبالأخص معاوية وابن

(1) نافجاً حضنيه: رافعاً لهما. والحضن: ما بين الإبط والكشح. يقال للمتكبّر: جاء نافجاً حضنيه. ويقال مثله لمن امتلأ بطنه طعاماً. والنثيل: الروث. والمعتلف: موضع العلف. والخضم: الأكل بأقسى الأضراس أو ملء الفم بالمأكول. انتكث فتله: انتقض. والبطنة: البطر والأشر والاسراف في الشبع. وكبت به: من كبا الجواد إذا سقط لوجهه.

عامر، من الأمور التي يلح عليّ بن أبي طالب على عثمان بشأنها ويطالبه بعزل هؤلاء. وفيما يلي الحوار:

قال علي لعثمان «والله ما أدري ما أقول لك! وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم، ما سبقناك الى شيء فنخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيتَ وسمعتَ وصحبتَ رسول الله (ص) ونلتَ صهره. وما ابن ابي قحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك. وإنك أقرب الى رسول الله (ص) رحماً، وقد نلتَ من صهر رسول الله(ص) ما لم ينالا، ولا سبقاك الى شيء.

فالله الله في نفسك، فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل. وإن الطريق لواضح بين، وإن أعلام الدين لقائمة.

تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى فأقام سنة معلومة وأمات بدعة متروكة. فوالله إن كلا لبين، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وإن البدع لقائمة لها أعلام. وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به فأمات سنة معلومة واحيا بدعة متروكة. وإني سمعتُ رسول الله (ص) يقول: يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور في جهنم كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم

وإني أحذرك الله وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الامة المقتول، فإنه يقال: يقتل في هذه الامة إمام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة وتلبس أمورها عليها ويتركهم شيعا فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجا

فقال عثمان: قد والله علمتُ ليقولن الذي قلت! أما والله لو كنتَ مكاني ما عنفتك ولا أسلمتك ولا عبتُ عليك ولا جئتُ منكرا أن وصلت رحما وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر يولي.

أنشدك الله يا علي: هل تعلم ان المغيرة بن شعبة ليس هناك؟

قال: نعم.

قال: فتعلم أن عمر ولاه؟

قال: نعم.

قال: فلم تلومني أن وليتُ ابن عامر في رحمه وقرابته؟

قال عليّ: سأخبرك! أن عمر بن الخطاب كان كل مَن ولّى فإنما يطأ على صماخه. إن بلغه عنه حرفٌ جَلَبَه ثم بلغ به أقصى الغاية. وأنتَ لا تفعل. ضعفتَ ورفقتَ على أقربائك

قال عثمان: هم أقرباؤك أيضاً!

فقال علي:: لعمري أن رحمهم مني لقريبة. ولكن الفضل في غيرهم.

قال عثمان: هل تعلم أن عمر ولّى معاوية خلافته كلها؟ فقد وليته.

فقال علي: أنشدك الله! هل تعلم أن معاوية كان أخوفَ من عمر، من يرفأ ،غلام عمر، منه؟

قال: نعم.

قال عليّ: فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها. فيقول للناس: هذا أمر عثمان. فيبلغك ولا تغير على معاوية[1]»

ومن المهم ملاحظة إصرار عثمان على موضوع صلة الرحم في تبرير تلك التعيينات، بالاضافة الى القول بأن عمر بن الخطاب كان قد استعمل أشخاصاً ليسوا ذوي أهلية إسلامية، بل أصحاب كفاءات إدارية واستشهد على ذلك بالمغيرة بن شعبة، الذي يتفق كلاهما على أنه ساقط من الناحية الدينية (بتعبير عثمان: ليس هناك) وأشار الى أن عمر ولّى معاوية ذاته. مما اضطر علياً لتوضيح الفارق بين عمر وعثمان في التعامل مع الولاة.

(1) وقد أخرج ابن كثير في البداية والنهاية هذه الرواية عن الواقدي في سياق كلامه عن سنة 34 للهجرة، حين كثر كلام الناس وانتقادهم لعثمان فطلبوا من علي أن يكلم عثمان.

ثانياً: اعتراض علي على سياسة عثمان تجاه مجموعة من الصحابة غير القرشيين وبطشه بهم

وكان ما أظهره عثمان من بطش وقسوة تجاه الصحابة من ذوي الأصول المتواضعة، الموالي وذوي الأصول غير القرشية الذين أوقع بهم عثمان عقاباً معنوياً ومالياً بل وجسدياً عنيفاً لأنهم واجهوه وأعلنوا رفضهم لمناهجه، مما يفاقم من المشاكل بين علي وعثمان، لأن علياً كان يدافع عنهم بحرارة، وخاصة أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود.

أخرج ابن ابي الحديد رواية عن الواقدي وفيها أن عثمان لما احضر أبا ذر الغفاري من الشام وتبادل معه كلاماً حادّاً، التفتَ الى الحضور وقال «*أشيروا علي في هذا الشيخ الكذاب، اما أن أضربه أو أحبسه أو أقتله، فإنه فرّق جماعة المسلمين، أو أنفيه من أرض الاسلام.*

فتكلم علي عليه السلام -وكان حاضراً- فقال: أشير عليك بما قال مؤمن آل فرعون (فإن يكُ كاذباً فعليه كذبه وإن يكُ صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم. ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب).

فأجابه عثمان بجواب غليظ، وأجابه علي عليه السلام بمثله.

ولم نذكر الجوابين تذمماً منهما»

ولا يخفى ان تشبيه علي لأبي ذر بمؤمن آل فرعون فيه ذم شديد للسلطة الحاكمة ورئيسها عثمان، الذي فهم المغزى وردّ على عليّ بجواب مقذع استبشعه ابن ابي الحديد.

روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة ضمن كلامه عن حادثة نفي ابي ذر الغفاري من المدينة المنورة ان علياً وآل بيته قد خرجوا لوداع ابي ذر رغم نهي عثمان عن ذلك. ولما تصدى مروان بن الحكم لتنفيذ أمر الخليفة وحاول أن ينهى علياً عن وداع ابي ذر، غضب علي وضرب وجه راحلة مروان بالسوط وطرده. وأثار ذلك غضب عثمان «*ورجع القوم الى المدينة فجاء علي عليه السلام الى عثمان .*

فقال له: ما حملك على ردّ رسولي وتصغير أمري؟

فقال علي عليه السلام: أما رسولك، فأراد أن يردّ وجهي فرددته، وأما أمرك فلم أصغره.

قال: أما بلغك نهيي عن كلام أبي ذر؟!

قال: أوكلما أمرتَ بأمر معصيةٍ أطعناك فيه؟!

قال عثمان: أقِد مروان من نفسك.

قال: مم ذا؟

قال: من شتمه وجذب راحلته.

قال: أما راحلته فراحلتي بها، وأما شتمه إياي فوالله لا يشتمني شتمة إلاّ شتمتك مثلها. لا أكذب عليك.

فغضب عثمان وقال: لم لا يشتمك؟ كأنك خيرٌ منه؟

قال علي: إيْ والله، ومنك! ثم قام فخرج.

فأرسل عثمان الى وجوه المهاجرين والانصار والى بني أمية، يشكو اليهم علياً عليه السلام. فقال القوم: أنت الوالي عليه، وإصلاحُه أجمل. قال: وددتُ ذلك.

فأتوا علياً عليه السلام فقالوا: لو اعتذرتَ الى مروان وأتيته؟

فقال: كلا! أما مروان فلا آتيه ولا أعتذر منه. ولكن إن أحب عثمانُ أتيته.

فرجعوا الى عثمان فأخبروه. فأرسل عثمان اليه. فأتاه ومعه بنو هاشم.

فتكلم علي عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما ما وجدتَ عليّ فيه من كلام أبي ذر ووداعه، فوالله ما أردتُ مساءتك ولا الخلاف عليك. ولكن أردتُ به قضاء حقه. وأما مروان فإنه اعترض يريد ردي عن قضاء حق الله عز وجل، فرددته رد مثلي مثله. وأما ما كان مني إليك، فإنك أغضبتني، فأخرج الغضب مني ما لم أرده.

فتكلم عثمان، فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أما ما كان منك إليّ فقد وهبته لك. واما ما كان منك الى مروان فقد عفا الله عنك. واما ما حلفتَ عليه فأنت البر الصادق. فأدنِ يدك. فأخذ يده فضمها إلى صدره»

وروى المسعودي في مروج الذهب تفاصيل أكثر عن الغضب المتبادل بين الخليفة وعلي بسبب تشييعه لأبي ذر «فشكا مروان الى عثمان ما فعل به علي بن ابي طالب فقال عثمان: يا معشر المسلمين من يعذرني من علي؟ ردّ رسولي عما وجهته له، وفعل كذا. والله لنعطينه حقه.

فلما رجع علي استقبله الناس فقالوا له: ان امير المؤمنين عليك غاضب لتشييعك أبي ذر.

فقال: علي: غَضَب الخيل على اللُّجُم!

فلما كان بالعشي جاء الى عثمان، فقال له: ما حملك على ما صنعتَ بمروان؟ ولِمَ اجترأتَ عليّ ورددتَ رسولي وأمري؟

قال: اما مروان، فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردّي. واما أمرك فلم أردّه.

قال عثمان: ألم يبلغك اني قد نهيتُ الناسَ عن ابي ذر وعن تشييعه؟

فقال علي: أوكلّ ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعنا فيه امرك؟ بالله لا نفعل!

فقال عثمان: أقِدِ مروان.

قال: وممّ أقيده؟

قال: ضربتَ بين أذني راحلته (وشتمته، فهو شاتمك وضاربٌ بين أذني راحلتك).

قال علي: أما راحلتي فهي تلك، فإن أراد أن يضربها كما ضربتُ راحلته فليفعل. واما أنا فوالله لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول إلاّ حقا.

قال عثمان: ولم لا يشتمك إذا شتمته؟ فوالله ما أنت عندي بأفضل منه!

فغضب علي بن أبي طالب وقال: ألي تقول هذا؟ وبمروان تعدلني؟ فأنا والله أفضل منك، وأبي أفضل من أبيك، وأمي أفضل من امك! وهذه نبلي قد نثلتها، وهلم فانثل بنبلك!

فغضب عثمان واحمرّ وجهه، فقام ودخل داره. وانصرف علي. فاجتمع اليه اهل بيته، ورجال من المهاجرين والانصار.

فلما كان من الغد واجتمع الناس الى عثمان شكا اليهم علياً وقال: انه يعيبني ويظاهر من يعيبني، يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما. فدخل الناس بينهما (حتى اصطلحا) وقال له علي: والله ما أردتُ بتشييع أبي ذر إلا الله تعالى»

وكذلك حصل خلافٌ بين الرجلين بشأن عبد الله بن مسعود. فعندما أوقع عثمان عقاباً جسدياً على ابن مسعود بسبب مشكلته[1] مع الوليد بن عقبة تصدى له علي ولامه على ذلك. روى البلاذري في أنساب الأشراف أنه لما استدعى عثمان ابن مسعود من الكوفة تبادل معه كلاماً قاسياً «... *ثم أمر به عثمان فأخرج من المسجد اخراجاً عنيفاً. وضرب به عبد الله بن زمعة بن الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي الارض، ويقال بل احتمله يحموم غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الارض فدُقّ ضِلعُه.*

فقال علي: يا عثمان أتفعلُ هذا بصاحب رسول الله(ص) بقول الوليد بن عقبة؟!

فقال: ما بقول الوليد فعلتُ هذا، ولكن وجّهتُ زبيد بن الصلت الكندي الى الكوفة فقال له ابن مسعود: ان دم عثمان حلال!

فقال علي: أحلتَ من زبيد على غير ثقة..... وقام علي بأمر ابن مسعود حتى أتى به منزله...»

(1) سيأتي الحديث مفصلاً حول ابن مسعود ومشاكله مع عثمان والوليد

وجهة نظر عثمان في سبب معارضة عليّ له، وردّ علي

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ان عثمان زار العباسَ بن عبد المطلب شاكيا وقال له «*أما بعد، فإني جئتك استعذرك من ابن أخيك علي: سبّني وشهّر أمري، وقطع رحمي، وطعن في ديني. وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطلب! إن كان لكم حق تزعمون انكم غلبتم عليه، فقد تركتموه في يدي من فعل ذلك بكم، وأنا أقرب إليكم رحما منه، وما لمتُ منكم احدا إلاّ عليا، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه فتركته لله والرحم، وأنا أخاف ألاّ يتركني فلا أتركه*»

وقد خصص ابن ابي الحديد فصلا في شرح نهج البلاغة للحديث عما شجر بين علي وعثمان ايام خلافته، ذكر فيه روايات عديدة عن الزبير بن بكار في الموفقيات، وأبي العباس المبرد في الكامل، والجوهري في السقيفة، والواقدي في الشورى، وعن الجاحظ، وعن ابي سعد الابي.

وهذه الروايات تتكامل لتظهر مدى التوتر الذي كان يميز علاقتهما، والغضب المتبادل والمطاعن التي كان كل منهما يذكرها عن الآخر. ويظهر فيها عثمان وهو يشكو مُرّ الشكوى من علي الذي يعتبره رأس الطاعنين عليه وحاسدا قد اجترأ عليه رغم قرابته. وكان عثمان يقول انه ليس ذنبه ان قريشا لا تحب عليا! وتوضح الروايات ان عثمان لجأ في احيان كثيرة الى طلب وساطة خاله[1] العباس، واحيانا عبد الله بن العباس، من اجل ان يكف علي عنه. وتذكر الروايات دفاع ابن عباس عن علي وقوله لعثمان ان عليا ليس مصدر الطعن عليه بل هو يقول مثل ما يقوله الناس بشأن سياسة الخليفة. وفي هذه الروايات يظهر ايضا عمار بن ياسر كرجل علي، اللصيق به، والمحرّض على عثمان الذي كان بدوره يمقته ويتوعده. وفي مقابل عمار بن ياسر، يلعب مروان بن الحكم دورا مناظراً في جانب عثمان، فيحرضه هو وبنو امية على علي وعمار.

---

(1) العباس هو خال عثمان مجازاً، لأنه ليس أخا أمه، بل أخو جدته. فأم عثمان هي أروى بنت كريز – من بني عبد شمس. ولكن امها – أي جدة عثمان- هي البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم. وقد ذكر البلاذري في أنساب الأشراف انها كانت الاخت التوأم لعبدالله والد النبي(ص). ولذلك كان عثمان كثيراً ما يخاطب العباس بصيغة الخال.

وانا هنا أختار رواية للواقدي لأنها توضح فكرة عثمان بأن عليا لم يخالف ابا بكر وعمر بينما يخالفه هو رغم انه امتداد لرأيهما، وتظهر ان موقف علي كان ناتجا عما يراه سياسة ظالمة للمسلمين عامة وليس له خاصة، ولذا هو لا يسعه السكوت:

«عن ابن عباس رحمه الله قال: شهدتُ عتاب عثمان لعلي عليه السلام يوما،

فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله ان تفتح للفرقة بابا! فلعهدي بك وانت تطيع عتيقا وابن الخطاب طاعتك لرسول الله(ص). ولستُ بدون واحدٍ منهما، وانا أمسّ بك رحما، وأقرب اليك صهراً. فإن كنتَ تزعم ان هذا الأمر جعله رسول الله(ص) لك، فقد رأيناك حين توفي نازعت ثم أقررت.

فإن كانا لم يركبا من الأمر جددا، فكيف أذعنتَ لهما بالبيعة وبخعت بالطاعة؟ وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنتَ لهما.

فقال علي عليه السلام: أما الفرقة فمعاذ الله ان أفتح لها بابا، وأسهل اليها سبيلا. ولكني أنهاك عما ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك الى رشدك.

واما عتيق وابن الخطاب، فإن كانا أخذا ما جعله رسول الله(ص) لي، فأنت أعلم بذلك والمسلمون. وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين.

فأما ألا يكون حقي بل المسلمون فيه شرع، فقد أصاب السهم الثغرة.

وأما أن يكون حقي دونهم، فقد تركته لهم، طبتُ به نفسا، ونفضتُ يدي عنه استصلاحا.

وأما التسوية بينك وبينهما، فلستَ كأحدهما: انهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وعُمتَ فيه وقومُك عومَ السابح في اللجة!

فارجع الى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عمرك إلا كظِمء الحمار؟ فحتى متى والى متى؟ ألا تنهى سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم؟! والله لو ظلم عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركا بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبى! وأفعل وأعزل من عمالي كل من تكرهه ويكرهه المسلمون.

ثم افترقا، فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك وقال: يجترأ عليك الناس، فلا تعزل أحدا منهم»

مشاجرات ووساطات

ويبدو أنه كثيراً ما كانت تتطور الأمور بين علي وعثمان الى مشاجرات حادة، خاصة بعد وفاة العباس، مما يستدعي تدخل وسطاء آخرين بينهما.

ورد في نهج البلاغة *«ومن كلام له عليه السلام وقد وقعت بينه وبين عثمان مشاجرة، فقال المغيرة بن الأخنس لعثمان: أنا أكفيكه!*

فقال أمير المؤمنين عليه السلام للمغيرة: يا ابن اللعين الأبتر، أنت تكفيني! فوالله ما أعز الله من أنت ناصره، ولا قام من أنت منهضه. أخرج عنا أبعد الله نواك، ثم ابلغ جهدك. فلا أبقى الله عليك إن أبقيت!»

وشرح ابن ابي الحديد هذا الكلام على النحو التالي:

المغيرة بن الاخنس بن شريق الثقفي: كان أبوه من كبار المنافقين، الذين أسلموا كرها يوم الفتح، فأخذ أبوه مائة من الابل من النبي(ص) مع غيره من المؤلفة قلوبهم. والمغيرة حاقد على الامام علي الذي قتل بنفسه أخاه أبا الحكم بن الاخنس يوم أُحُد كافرا

وقد قال له علي: يا ابن الابتر *«لأن مَن كان عقبُهُ ضالا خبيثا فهو كمن لا عقب له، بل من لا عقب له خير منه»*

قال ابن ابي الحديد *«واعلم ان هذا الكلام لم يكن بحضرة عثمان، ولكن عوانة روى عن اسماعيل بن ابي خالد، عن الشعبي: أن عثمان لما كثرت شكايته من علي عليه السلام، أقبل لا يدخل إليه من أصحاب رسول الله(ص) أحدٌ إلاّ شكا اليه عليا.*

فقال له زيد بن ثابت الانصاري -وكان من شيعته وخاصته: أفلا أمشي إليه فأخبره بموجدتك فيما يأتي إليك. قال: بلى. فأتاه زيد ومعه المغيرة بن الاخنس بن شريق الثقفي- وعداده في بني زهرة، وامه عمة عثمان بن عفان- في جماعة، فدخلوا عليه

فحمد زيدٌ الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن الله قدم لك سلفا صالحا في الاسلام، وجعلك من الرسول بالمكان الذي أنت به، فأنت للخير كل الخير أهل، وأمير المؤمنين عثمان ابن عمك، ووالي هذه الامة، فله عليك حقان: حق الولاية وحق القرابة. وقد شكا إلينا أن علياً يعرض لي، ويرد أمري علي. وقد مشينا إليك نصيحة لك، وكراهية ان يقع بينك وبين ابن عمك أمر نكرهه لكما.

قال: فحمد علي عليه السلام الله، وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال: أما بعد، فوالله ما أحب الاعتراض، ولا الرد عليه، إلاّ أن يأبى حقا لله لا يسعني أن أقول فيه إلاّ بالحق. ووالله لأكفنّ عنه ما وسعني الكف.

فقال المغيرة بن الأخنس، وكان رجلا وقاحاً، وكان من شيعة عثمان وخلصائه: انك والله لتكفن عنه أو لتكفن، فإنه أقدرُ عليك منك عليه! وإنما أرسل هؤلاء القوم من المسلمين اعزازا لتكون له الحجة عندهم عليك.

فقال له علي عليه السلام: يا ابن اللعين الابتر، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع، أنت تكفني! فوالله ما أعز الله من أنت ناصره. أخرج أبعد الله نواك، ثم اجهد جهدك. فلا أبقى الله عليك ولا على أصحابك إن أبقيتم!

فقال له زيد: إنا والله ما جئناك لنكون عليك شهودا، ولا ليكون ممشانا إليك حجة، ولكن مشينا فيما بينكما التماس الأجر ان يصلح الله ذات بينكما، ويجمع كلمتكما. ثم دعا له ولعثمان. وقام فقاموا معه.

وهذا الخبر يدل على ان اللفظة (أنت تكفني)، وليست كما ذكره الرضي

رحمه الله (أنت تكفيني)، لكن الرضى طبق هذه اللفظة على ما قبلها، وهو قوله (أنا اكفيكه). ولا شبهة أنها رواية أخرى[1]»

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر رواية عن صهيب مولى العباس بن عبد المطلب قال «*أرسلني العباس الى عثمان أدعوه. فأتيته فإذا هو يغدي الناس فدعوته.*

فأتاه فقال: أفلح الوجه أبا الفضل!

فقال العباس: ووجهك يا امير المؤمنين.

فقال عثمان: ما زدتُ إذ اتاني رسولك وأنا أغدي الناس فغديتهم ثم أقبلتُ.

قال له العباس: أذكرك الله في علي! فإنه ابن عمك وأخوك في دينك وصاحبك مع رسول الله(ص) وصهرك. فإنه قد بلغني أنك تريد أن تقوم بعلي وأصحابه، فأعفني من ذلك يا امير المؤمنين.

فقال عثمان: ان أول ما جئتك به أن قد شفعتك أن عليا لو شاء ما كان أحدٌ دونه، ولكنه أبى إلاّ رأيه!

قال ثم بعث العباس الى علي فقال له (أحسبه قال): أذكرك الله في ابن عمك وابن عمتك وأخيك في دينك وصاحبك مع رسول الله (ص) وولي بيعتك.

قال علي: والله لو أمرني أن أخرج من داري لخرجتُ! فأما أداهن أن لا يقام بكتاب الله فلم أكن لأفعل»

ولم يكن العباس ليتدخل عارضا وساطته لولا شعوره بمدى تدهور العلاقة بين علي وعثمان. ويلاحظ هنا قول عثمان انه لو شاء عليٌ لكان أقرب الناس اليه، ولكنه أبى إلاّ رأيه! ورأيه هذا لا شك انه منحازٌ ضد الخليفة

---

(1) ورواية ابن ابي الحديد الاخيرة هذه التي أسندها الى الشعبي أخرجها ايضاً ابن أعثم الكوفي بإسناده الجمعي في كتاب الفتوح بنفس العبارات تقريباً، وفيها كلام المغيرة الوقح الموجه الى علي «*والله ! لتكفن عنه شئت او أبيت، وهو والله أقدر عليك منك عليه*»

وسياسته وبطانته مما جعل العباس يشعر انه «يريد ان يقوم بعلي واصحابه». كما يلاحظ فشل وساطة العباس بسبب رفض علي للمجاملات وإصراره على المبدأ: فهو لن يداهن في كتاب الله. فعلي يريد تغييراً جدياً في سياسة الخليفة، ولن يقبل ما دون ذلك.

ردود فعل عثمان على مواقف عليّ

ولكن عثمان، مع امتعاضه وغضبه، لم يكن ليستطيع أن يوقع عقاباً مباشراً بعليّ، عدا عن تهميشه وتجاهله. وقد روى ابن عساكر أن الناس كانوا يأتون علياً ليشكوا إليه ولاة عثمان، فكتب عليّ صحيفةً وأرسلها إلى عثمان فردّها ولم يستجب.

ففي تاريخ دمشق لابن عساكر روايتان حول خلافات علي وعثمان :

واحدة عن محمد بن علي بن ابي طالب (ابن الحنفية) يقول فيها ان ان أباه أرسله بكتاب يتضمن شكاوى الناس من جباة عثمان وسعاته، فردّه ولم يستجب «*كان الناس أتوا علياً يشكون اليه سعاة عثمان.*

فأرسلني أبي فقال: يا بني: خذ هذا الكتاب، فإن فيه عشر النبي (ص) والصدقة. فاذهب به الى عثمان.

قال فأتيته فأخبرته به.

فقال: انطلق فلا حاجة لنا به!

فأتيتُ أبي فأخبرته فقال: لا عليك. ضعه حيث أخذته»

وقد تدخل أحد الرواة لتأويل موقف عثمان، الرافض لقبول كتاب علي ومطالباته لعثمان بالالتزام بسياسة النبي(ص): «*قال سفيان: ونرى ان عثمان انما رده ان عنده من ذلك علما، فاستغنى عنه*»

وهنا يلاحظ كيف كان الكثيرون يلجأون لعلي بالذات لبث شكاواهم. ولا شك ان ذلك لثقتهم به وبانحيازه الحازم للحق، وربما أيضا لخوفهم من الخليفة ومن بطانته .

وكان عثمان (في بعض الأحيان) يتجاوب مع طلبات علي ومساعيه، خاصة إذا لم يكن الأمر (ذا خطر). ومثال ذلك ما رواه ابن أعثم في كتاب الفتوح حول تدخل علي للحيلولة دون ضرب الرسول الذي حمل كتاب شكوى وتظلم من أهل الكوفة إلى عثمان، وهو من قبيلة عنزة «فأمر عثمان بالعنزي، فجردوه من ثيابه ليضرب .

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لماذا يضرب هذا الرجل؟ إنما هو رسول جاء بكتاب وأبلغك رسالة حملها، فلم يجب عليه في هذا ضرب .

فقال عثمان رضي الله عنه: أفترى أن أحبسه؟

قال: لا، ولا يجب عليه الحبس .

قال: فخلى عثمان عن العنزي، وانصرف إلى الكوفة، وأصحابه لا يشكون أنه قد حبس أو ضرب أو قتل، قال: فلم يشعروا به إلا وقد طلع عليهم، فما بقي في الكوفة رجل مذكور إلا أتاه ممن كان على رأيه، ثم سألوه عن حاله فأخبرهم بما قال وما قيل له، ثم أخبرهم بصنع علي رضي الله عنه، فعجب أهل الكوفة من ذلك ودعوا لعلي بخير وشكروه على ما فعله»

وكان العباس بن عبد المطلب، عم عليّ وأكبر بني هاشم سناً، هو الأكثر قياماً بدور الوسيط بين الخليفة وعلي. فكان العباس يتدخل مرات من تلقاء نفسه حين يرى التوتر وقد بلغ ذروته، ومرات بطلب من عثمان نفسه الذي كان يتردد في موقفه من علي فلا يدري دائماً ماذا يفعل. وكانت ردود فعل الخليفة على وساطات العباس تتراوح ما بين الاستجابة الجزئية لبعض مطالب علي، وبين الإعراض والتجاهل. وفي بعض المواقف التي استجاب فيها عثمان لمطالب، كانت استجابته شكلية دائما، ولم تمسّ جوهر سياسته وتوجهاته.

ألم يكن علي قادراً على التفاهم مع صحابيّ قديم كعثمان؟!

هكذا كانت الأمور بين علي والخليفة: توتر دائمٌ وخلافٌ متواصل[1] ترتفع

---

(1) بل إن حدة الخلاف بينهما تعدت المواقف السياسية والنظرة الى طريقة ادارة الدولة فوصلت الى القضايا الدينية والشرعية. وهناك نص في صحيح البخاري (ج2 باب التمتع والاقران من كتاب الحج) يشير بوضوح الى أن علياً لم يكن يعترف بعثمان كمصدر للفتوى الشرعية ولم يكن يتردد في مخالفته بشكل علني:

حدته وتنخفض حسب الظرف والموقف. ولا يوجد ما يشير الى انسجام أو تآلف بينهما أو تعاون في قيادة الأمة، كما هو متوقع من شخصيتَين من كبار الصحابة في زمان بدأ يقل فيه وجود صحابة حقيقيين ممن عاصروا النبي(ص) واحتكوا به. والروايات أيضا تشير بوضوح الى وجود رغبة واستعداد حقيقي لدى عثمان للتفاهم مع علي واسترضائه وكسب وده، وأن الصدّ والرفض كان يأتي من طرف علي الذي كان يصر على مواجهة الخليفة ومعارضته والتصدي له.

وهذا السلوكُ، الفاعلُ والقوي، من عليّ تجاه عثمان يختلف عن سلوكه تجاه الخليفتين أبي بكر وعمر. فلم يُروَ أنه كان يجابههما بانتقادات حادة فيما يتعلق بالشؤون العامة.

فلمَ كان ذلك؟ وهل حصل ذلك، كما تصور عثمان نفسه، لأن علياً كان يتملكه الشعور بأن منصب الخليفة من حقه هو وأن عثمان مغتصبٌ له؟ والجواب هو بالنفي. فعليٌ كما أثبت بالسلوك والفعل كان لديه الاستعداد الكامل للتنازل عن حقوقه هو بالذات، والتغاضي عن مشاعره الشخصية، وتحمل الاحساس بالغبن والضيم، في سبيل الاسلام والمسلمين. فما دامت حقوق الناس مصونة، وما دام ولي الأمر القائم يبذل جهده لتحقيق العدل بين المسلمين، وما دامت قيادة الدولة تسعى لرفع شأن الاسلام في الأرض، فلن يثير عليٌ أي خلاف ولن يُحدث أية فرقة.

وتلك كانت المشكلة مع عثمان. فعليٌ يرى انحرافاً تاماً عن مبادئ الاسلام يحصل أمام ناظريه، ولم يكن يسعه السكوت. فما كان مطلوبا من عثمان يتجاوز جميل القول وعبارات المجاملة بكثير. كان علي يريد تغيراً ملموساً في سياسة الخليفة. وهذا ما لم يكن عثمان ليفعله. فعثمان كان لديه كامل الاستعداد لاكرام علي وتقريبه منه ورفع مكانته في الدولة بشرط أن يدعه يحكم كما يشاء.

«سمعتُ عثمان وعلياً بين مكة والمدينة، وعثمان ينهى عن المتعة وأن يجمع بينهما. فلما رأى ذلك علي أهلّ بهما جميعاً قائلاً: لبيك عمرة وحجة معاً.
فقال عثمان: تراني انهى الناس عن شيء وتفعله انت؟
فقال علي: لم أكن لأدع سنة رسول الله (ص) لقول أحد من الناس»

وبين هذين الموقفين لم يكن ممكناً الالتقاء.

وليس هناك سبب وجيه يدعو الى الشك في مصداقية المصادر التي اعتمدناها في هذا البحث. فهي قديمة ومتنوعة ولا تنحصر في إخباريّ معيّن. وهي متكاملة ومتسقة مع سياق الأحداث التاريخية.

وسوف نتطرق الى المزيد عن علاقة علي بعثمان عند الحديث عن ظروف الثورة على الخليفة ومقتله.

وسوف نفرد فصلاً نتكلم فيه عن موقف الامام علي من مقتل الخليفة عثمان ودوره في تلك الأحداث العصيبة.

الفصل الخامس: عثمان يقسو على معارضيه من الصحابة غير القرشيين

عددٌ من كبار أصحاب الرسول يتصدون لعثمان

تصدّى عددٌ من كبار صحابة الرسول(ص)، ذوي الماضي الإسلامي العريق والبارز، لعثمان بن عفان. كانت شخصيات معروفة وذات مكانة عالية في الإسلام، ممن تمتلك مؤهلات شرعية مرموقة ترى أمام أعينها مدى الانحراف عن السياسة النبوية الذي كان الخليفة يمارسه. وبدأت الضغوطات على عثمان على شكل نصائح، وملاحظات وطلبات من أجل التوقف عن تطبيق سياسة الانفراد والهيمنة الأموية على الدولة. فكيف يمكن لهؤلاء أن يتقبلوا، مثلاً، وضع مروان بن الحكم الجديد؟! فقد تحول مروان الى ما يقرب من رئيس وزراء فعليّ للدولة الاسلامية. لقد استغنى عثمان عن الاستعانة بكبار الصحابة من سكان المدينة، واكتفى بمروان بن الحكم الذي جعله مستشاره وكاتم سرّه ووزيره. ولم يعد عثمان يستشير إلاّ خاصته من بني أمية ولا يستمع إلاّ لهم. فليس غريباً أن يثير ذلك غضب علي بن ابي طالب[1] وغيره من قدماء الصحابة الذين عايشوا الفترة النبوية منذ بداياتها، فحاولوا ثني عثمان عن استعمال بطانته هذه، وخاصة مروان، دون جدوى.

---

(1) قال له علي بن أبي طالب في أحد المواقف «أما رضيتَ من مروان ولا رضي منك إلّا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك. مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به. والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه ... أذهبتَ شرفك وغلبتَ على أمرك» كما روى الطبري في تاريخه (ج3 ص397)

وقد وضحنا أن علي بن ابي طالب كان هو المعارض الأبرز والصوت الأعلى في معارضة عثمان. وإذا كان عليٌّ، بحكم وضعه المرتفع والمميز في المنظومة الاسلامية، قد نجا من العقوبة المباشرة والصارمة للخليفة، إلاّ أن غيره من الصحابة ذوي الأصل الأدنى من الموالي أو الحلفاء أو القبائل البعيدة، الذين لا يتحدرون من قريش وعليائها، قد انصبّ عليهم جام غضب عثمان، وكأنه كان يريد التعويض عن عجزه عن ايقاع العقوبة بغيرهم!

وسوف نتطرق فيما يلي من صفحات الى تفاصيل الصراع الذي خاضه ثلاثة من أشهر هؤلاء الصحابة ضد عثمان: أبو ذر الغفاري، عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر.

أولاً: أبو ذر الغفاري: صراعُهُ مع عثمان ومعاوية ونفيُه ووفاته[1]

على الرغم من ان الصحابي أبا ذر الغفاري قد توفي عام 30 للهجرة، وبالتالي لم يعش ليشهد أحداث الثورة على عثمان ومقتله سنة 35 للهجرة، إلاّ انه يمكن القول ان أبا ذر كان له دور وتأثير في تلك الاحداث الكبيرة.

خلفية أبي ذر

وأبو ذرّ كان من الشخصيات المميزة فعلاً في ميزان الشرعية الإسلامية.

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 الصفحات 335–337، 368، 378، 399، 430)، صحيح البخاري (باب قصة زمزم ج4 ص221) و(باب ما أدى زكاته فليس بكنز ج2 ص133)، (ج1 ص27 باب العلم قبل القول والعمل)، سنن ابن ماجه ج1 ص55، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج2 الصفحات 62، 65، 68–69، 74، 77)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج8 الصفحات 246، 253، 257، 258، 259، 260، 261، 262 و ج13 ص228)، تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج3 الصفحات 1034–1041)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج3 ص343)، علل الدارقطني (ج6 ص236)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص171)، البيان والتبيين للجاحظ (ج3 ص122)، سنن الدارمي (ج1 ص136)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص 171–172)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج4 ص226–230) و (ج2 ص354)، فتح الباري في شرح صحيح البخاري لابن حجر (ج1 ص148)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص185)، صحيح ابن حبان (ج15 ص58)، السيرة النبوية لابن هشام (ج4 ص139)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص178)ومسند أحمد بن حنبل (ج1 ص63)

فقد كان له فضلٌ لا يتوفر لغيره، وهو فضل السعي الذاتي للحقيقة والإيمان. فهو كان بدوياً من قبيلة غفار، البعيدة عن مكة، ولكنه كان يمتلك نفساً تسعى للحقيقة وتتوق للوصول إلى سبيل الهداية. كانت نفس أبي ذر تأبى وتستنكر ما شاع بين الناس في الجاهلية من شِرْكٍ وضلال. ولذلك فعندما سمع من بعض الحجاج أن هناك رجلاً يقول إنه نبيّ في مكة، أثاره ذلك إلى حد أنه أرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بخبره. ولما عادَ لم يشفِ غليل روحه الظامئة إلى الحق، فشدّ الرحال إلى مكة ووصلها في أحلك الظروف سواداً على رسول الله(ص)، حين كان يعاني الأمرّين من جبّاري قريش. فأخذ يبحث عن النبي(ص)، وهو غريبٌ في مكة، إلى أن التقى صدفةً بعليّ بن أبي طالب الذي أخذه حتى أتى النبي(ص) فسمع منه وآمنَ به فوراً. وقصة اسلامه هذه مشهورة ومعروفة وقد رواها أصحاب السير والحديث ومنهم البخاري في صحيحه (باب قصة زمزم)

فأبو ذر يعتبر من الطبقة الاولى من صحابة النبي(ص). وقد وردت بحقه مجموعة من الاحاديث النبوية، ومن أشهرها ذلك الذي يمتدح أهم خصاله، وهي الصدق والاخلاص. فقد ورد في سنن ابن ماجه :

«عن عبد الله بن عمرو قال: سمعتُ رسول الله(ص) يقول: ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»

معارضة أبي ذر لعثمان

وباستعراض مجمل أخبار معارضة ابي ذر للخليفة عثمان، يمكن تمييز ثلاثة محاور، أو جذور، لتلك المعارضة :

1 - المحور الاقتصادي، ويتجلى ذلك في رفض مظاهر الاثراء الفاحش واكتناز الأموال من قبل الطبقة القرشية الحاكمة ومَن سار على نهجها، والدعوة الى إنصاف الفقراء والمحرومين والمهمّشين.

وقد روى الامام البخاري حديثاً يظهر كيف كانت علاقة ابي ذر بالاثرياء من قريش أيام عثمان. فقال انه كان يمرّ على «الملأ من قريش» وهو بهيئة خشنة، فيهددهم بالعذاب في النار يوم القيامة لأنهم من كانزي الأموال ويقول

عنهم «إنهم لا يعقلون شيئاً»، فكانوا يكرهون كلامه. وفيما يلي النص من صحيح البخاري (باب ما أدى زكاته فليس بكنز):

عن الاحنف بن قيس قال «جلستُ الى ملأ من قريش فجاء رجلٌ خشن *الشعر والثياب والهيئة، حتى قام عليهم فسلم ثم قال: بشّر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتى يخرج من نغض كتفه، ويوضع على نغض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه يتزلزل .*

ثم ولّى فجلس الى سارية، وتبعته وجلستُ اليه، وأنا لا أدري من هو.

فقلتُ له: لا أرى القومَ إلاّ قد كرهوا الذي قلتَ .

قال: انهم لا يعقلون شيئاً ! قال لي خليلي

قلتُ: من خليلك؟

قال النبي (ص): يا أبا ذر، أتُبصِرُ أُحُداً؟ قال: فنظرتُ الى الشمس ما بقي من النهار وأنا أرى أن رسول الله (ص) يرسلني في حاجة له، قلتُ نعم.

قال: ما أحبّ أن لي مثل أُحُدٍ ذهباً أنفقه كله، إلاّ ثلاثة دنانير .

وإن هؤلاء لا يعقلون! يجمعون الدنيا! لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله[1]»

ولا شك أن السلوك الشخصي لعثمان، وثراءه الفاحش، وما عُرف عنه من استمتاعه بمباهج ونعم الحياة[2]، كان مما يثير أعصاب أبي ذر ويزيد من عزيمته. فبنظر أبي ذر كان عثمان رمزاً لقريش وثرائها وكانزيها.

فمثلاً أخرج ابن ابي الحديد رواية عن الواقدي بشأن الجدال العنيف الذي دار بين الخليفة عثمان وابي ذر الغفاري لما أحضره من الشام

---

(1) رواه ايضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء بعبارات قريبة

(2) ومثال على ذلك ما رواه الطبري في تاريخه عن عبد الله بن عامر «كنتُ أفطر مع عثمان *في شهر رمضان، فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر. قد رأيتُ على مائدة عثمان الدرمك الجيد، وصغار الضأن كل ليلة. وما رأيتُ عمر قط أكل من الدقيق منخولاً ولا أكل من الغنم إلاّ مسانّها»*

وفي معرض الكلام المتبادل سأله عثمان «أنت الذي تزعم أنا نقول: يد الله مغلولة، وان الله فقير ونحن أغنياء!

فقال ابو ذر: لو كنتم لا تقولون هذا لأنفقتم مال الله على عباده ...»

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية تظهر كيف ان أبا ذر كان يعتقد ان الله تعالى جرّم اكتناز الاموال من حيث المبدأ، حتى لو تم إخراج الزكاة الشرعية. ورأيه هذا عبّر عنه حتى بحق الصحابي الكبير عبد الرحمن بن عوف، فكيف الامر بما يتعلق بغيره ممن ليس لهم صحبة ولا يتصدقون كما كان يفعل ابن عوف؟

فعن عبد الله بن الصامت قال عن ابي ذر وعثمان» ودخل عليه وهو يقسم مال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بين ورثته، وعنده كعب.

فأقبل عثمان رضي الله عنه فقال: يا أبا اسحق، ما تقول في رجل جمع هذا المال فكان يتصدق منه، ويحمل في السبيل، ويصل الرحم؟

فقال: اني لأرجو له خيراً.

فغضب ابو ذر، ورفع عليه العصى وقال: وما يدريك يا ابن اليهودية؟ ليودّنّ صاحب هذا المال يوم القيامة أن لو كان عقارب تلسع السويداء من قلبه»[1]

وقد روى أحمد بن حنبل في مسنده قصة الصدام بين أبي ذر وكعب الأحبار بحضرة عثمان عن مالك بن عبد الله الزيادي عن أبي ذر «أنه جاء يستأذن على عثمان بن عفان رضي الله عنه فأذن له وبيده عصاه. فقال عثمان رضي الله عنه: يا كعب إن عبد الرحمن توفي وترك مالاً، فما ترى فيه؟

فقال: إن كان يصلُ فيه حق الله فلا بأس عليه.

فرفع أبو ذر عصاه فضرب كعباً وقال: سمعتُ رسول الله (ص) يقول: ما أحب لو أن لي هذا الجبل ذهباً أنفقه ويتقبل مني، أذر خلفي منه ست أواق، أنشدك الله يا عثمان أسمعته؟ ثلاث مرات.

(1) ونفس هذه الرواية اخرجها الذهبي في سير اعلام النبلاء.

قال نعم»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ثانية تظهر كيف كان ابو ذر غاضباً من عثمان وسياساته المالية. فعن مالك بن انس بن الحدثان «جاء ابو ذر وأنا جالس مع عثمان رضي الله عنه.

فسلم عليه عثمان رضي الله عنه. وقال: كيف انت يا ابا ذر؟

فقال: كيف أنت؟ وولى وجهه!

فاستفتح (الهكم التكاثر)، رفع بها صوته حتى ان للمسجد لرجة، أو للجة (شك ابو عاصم).

قال: فانتهت به القراءة الى سارية فركع ركعتين فجوّد فيهما. وركبه الناس -وأنا في الناس- فقالوا: يا ابا ذر حدثنا عن رسول الله (ص).

قال: سمعتُ النبي(ص) يقول: في الإبل صدقتها والبقر صدقتها، والغنم صدقتها، وفي البر صدقته. ومَن جَمَعَ دنانيرَ ودراهمَ أو تبر ذهب أو تبر فضةٍ لا ينفقه في سبيل الله ولا يعدّه لغريم فهو كنز يكوى به يوم القيامة.

قال: فقلتُ: يا ابا ذر اتق الله وانظر ما تقول، فإن هذه الاموال قد كثرت في الناس.

قال: يا ابن أخي من أنت ؟

فانتسبتُ له. فقال: قد عرفتُ نسبك الأكبر، يا ابن أخيَ أتقرأ القرآن؟

قلت: نعم.

قال: أليسَ يقول الله (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله)؟

قلتُ: بلى.

قال: فافقه اذن يا ابن أخي»

2 – محور الاخلاق والقيم، وما كان يراه من انحرافٍ عن عهد رسول الله(ص) وتعاليمه.

فكان الكثير مما يجري في عهد عثمان مثار استهجان أبي ذر وغضبه. وقد روى الحاكم في المستدرك على الصحيحين ان أبا ذر كان يروي عن رسول الله(ص) «*إذا اقتربَ الزمانُ كثرَ ليسُ الطيالسة، وكثرت التجارة، وكثر المالُ، وعظم ربّ المال بماله، وكثرت الفاحشة، وكانت إمارة الصبيان، وكثر النساء، وجارَ السلطان، وطفّف في المكيال والميزان، ويُربي الرجلُ جروَ الكلب خيرٌ له من أن يُربي ولداً له، ولا يُوقر كبير ولا يُرحم صغير، ويكثُر أولادُ الزنا حتى إن الرجل ليغشى المرأة على قارعة الطريق فيقول امثلهم في ذلك الزمان لو اعتزلتما عن الطريق، ويلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب امثلهم في ذلك الزمان المداهن*»

وهذا يعني أن أبا ذر كان يرى أن الاخلاق قد فسدت والضمائر قد خربت من بعد رسول الله(ص). وكان يعارض ذلك ويحمل المسؤولية للحاكم.

وقد ورد في البيان والتبيين للجاحظ كيف كان أبو ذر مصراً على الاستمرار على منهاج الرسول (ص) في الزهد والتواضع «*قال أبو ذر: فارقتُ رسولَ الله(ص) وقوتي من الجمعة إلى الجمعة مُدّ، ولا والله لا أزدادُ عليه حتى ألقاه*».

فكان أبو ذر يمتلك تصميماً شديداً على تبليغ ونشر وصايا النبي(ص) مهما كان الثمن باهظاً. ومن ذلك ما رواه الدارمي في سننه ان أبا ذر قال: «*أمرنا رسول الله(ص) أن لا يغلبونا على ثلاث: أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونعلّم الناس السُنن*» وهذا ما كان يفعله أبو ذر ومستعد أن يضحّي في سبيله.

ومن ذلك ايضاً ما رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء أن أبا ذر قال «*بايعني رسول الله(ص) خمساً، وواثقني سبعاً، وأشهد الله عليّ سبعاً: ألاّ أخاف في الله لومة لائم*».

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عن الواقدي ان عثمان لما استقدم ابا ذر من عند معاوية «*قال له: أنت الذي فعلتَ وفعلتَ ؟!*

فقال ابو ذر: نصحتك فاستغششتني، ونصحتُ صاحبك فاستغشني!

قال عثمان: كذبتَ، ولكنك تريد الفتنة وتحبها. قد أنغلتَ الشامَ علينا.

فقال له ابو ذر: اتبع سنة صاحبيك لا يكن لأحد عليك كلام.

فقال عثمان: مالك وذلك، لا أمّ لك!

قال ابو ذر: والله ما وجدتَ لي علراً إلاّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»

3 – محور التشيّع لعلي بن ابي طالب ولآل بيت النبي(ص).

فالأرجح أن ما تميز به أبو ذر من ولاء شديد لشخص علي بن أبي طالب وآل بيته كان لا يروق لعثمان وبطانته من حيث المبدأ. فالخليفة ومستشاروه كانوا يعتبرون ما يذيعه أبو ذر من حديث النبي(ص) بشأن آل البيت عملا عدائياً موجهاً ضدهم.

فقد ورد في علل الدارقطني عن ابي ذر ان رسول الله (ص) قال *«أيها الناس: إني تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض، ومثلها مثل سفينة نوح مَن ركب فيها نجا»*

وهناك مؤشرات ان التشيّع لعلي بن ابي طالب لم يكن بدعة لاحقة في الإسلام نشأت في زمن عثمان، بل كان تياراً أصيلاً ترجع جذوره إلى أيام الرسول(ص) وامتدّت لما بعد وفاته. وقد كان عددٌ من أهمّ صحابة الرسول(ص)، ممن ليسوا من أصول قرشية، متمسّكين بضرورة ولاية علي بن أبي طالب بعد رسول الله(ص). وكان أبو ذر من تلك المجموعة التي اشتهر منها أيضاً عمار بن ياسر وسلمان الفارسي والمقداد بن عمرو. وهؤلاء الاربعة يحظون بتقدير كبير جداً من أتباع المذهب الشيعي قديماً وحديثاً.

وقد ورد في تاريخ اليعقوبي نص ما قاله أبو ذر الغفاري في المسجد النبوي في بداية عهد عثمان بن عفان:

«وبلغ عثمانَ أن أبا ذر يقعد في مسجد رسول الله، ويجتمع اليه الناسُ، فيحدث بما فيه الطعن عليه. وانه وقفَ بباب المسجد فقال: أيها الناس مَن عرفني فقد عرفني، ومَن لم يعرفني فأنا أبو ذر الغفاري، أنا جندب بن جنادة الربذي:

إن الله اصطفى آدمَ ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم. محمدٌ الصفوة من نوح، فالأول من ابراهيم، والسلالة من إسماعيل، والعترة الهادية من محمد. إنه شرف شريفهم واستحقوا الفضل في قوم هم فينا كالسماء المرفوعة وكالكعبة المستورة أو كالقبلة المنصوبة أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتونة أضاء زيتها وبورك زبدها. ومحمدٌ وارث علم آدم وما فضل به النبيون. وعلي بن أبي طالب وصيّ محمد ووارث علمه.

أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها! أما لو قدّمتم من قدّم الله وأخرتم من أخّر الله وأقررتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم، ولما عالَ وليّ الله، ولا طاش سهمٌ من فرائض الله ولا اختلف اثنان في حكم الله إلاّ وجدتم ذلك عندهم من كتاب الله وسنة نبيّه .

فأما إذا فعلتم ما فعلتم فذوقوا وبالَ أمركم. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»

ويتبع هذا: القدحُ في بني أمية والتشكيك في شرعيتهم الاسلامية

فمثلاً أخرج ابن ابي الحديد رواية أخرى عن الواقدي بشأن الجدال الذي دار بين الخليفة عثمان وابي ذر الغفاري قبل ان يصدر قراره بنفيه.

وفي معرض ذلك الحوار العاصف قال ابو ذر *«أشهد اني سمعتُ رسول الله (ص) يقول (إذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثين رجلاً، جعلوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، ودينه دخلا).*

فقال عثمان لمن حضر: أسمعتموها من رسول الله ؟

قالوا: لا .

قال عثمان: ويلك يا ابا ذر! أتكذب على رسول الله؟

فقال ابو ذر لمن حضر: أما تدرون اني صدقتُ؟

قالوا: لا والله ما ندري.

فقال عثمان: ادعوا لي عليا.

فلما جاء قال عثمان لأبي ذر: اقصص عليه حديثك في بني ابي العاص. فأعاده.

فقال عثمان لعلي عليه السلام: أسمعتَ هذا من رسول الله(ص)؟

قال: لا، وقد صدق ابو ذر!

فقال: وكيف عرفتَ صدقه؟

قال: لأني سمعتُ رسول الله (ص) يقول (ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من ابي ذر).

فقال من حضر: أما هذا فسمعناه كلنا من رسول الله

قال ابو ذر: أحدثكم اني سمعتُ هذا من رسول الله (ص) فتتهمونني؟! ما كنتُ أظن اني أعيش حتى أسمع هذا من أصحاب محمد(ص).»[1]

وبقي أبو ذر مخلصاً في ولائه لعلي بن أبي طالب وداعياً إلى ولايته حتى آخر لحظة في حياته. فقد روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة عن أبي رافع:

«أتيتُ أبا ذر بالربذة أودعه، فلما أردتُ الانصراف قال لي ولأناس معي: ستكون فتنة. فاتقوا الله، وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب، فاتبعوه. فإني سمعتُ رسول الله(ص) يقول له: أنت أول مَن آمن بي وأول مَن يصافحني يوم القيامة. وأنت الصديق الأكبر، وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل. وأنت يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الكافرين. وأنت أخي ووزيري، وخيرُ مَن أترك بعدي، تقضي ديني وتنجز موعدي»

---

(1) وقد ذكر اليعقوبي في تاريخه هذه الرواية، باختصار، وفيها «بنو أمية» بدلًا من «بنو أبي العاص»

والنتيجة كانت معارضة لا هوادة فيها أظهرها أبو ذر للخليفة عثمان، معارضة تصاعدت وتفاقمت واتصفت بالجذرية. والرواية التالية لدى الذهبي في سير أعلام النبلاء تظهر مدى كُره ابي ذر للنظام الحاكم، وكل من يعمل في خدمته من الرعية. والرواية تقول انه عندما كان ابو ذر مريضاً يوشك على الموت وهو منفيٌّ بالربذة، مرّ به قوم من المسلمين فاستوقفتهم زوجته لكي يكفنوا زوجها إن قضى نحبه، فخاطبهم ابو ذر «*أنشدكم الله: أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً!*

فكل القوم كان نال من ذلك شيئاً، إلاّ فتى من الانصار قال: أنا صاحبك. ثوبان في عيبتي من غزل أمي، وأحد ثوبي هذين اللذين علي.

قال: أنت صاحبي، فكفني»

تسلسل أحداث صراع أبي ذر مع عثمان

ذكر ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة:

«*واعلم ان الذي عليه أكثر أرباب السيرة وعلماء الأخبار والنقل:*

ان عثمان نفى أبا ذر أولاً الى الشام،

ثم استقدمه الى المدينة لما اشتكى منه معاوية،

ثم نفاه من المدينة الى الربذة لما عمل بالمدينة نظير ما كان يعمل بالشام»

ولا مانع أبداً من قبول هذا التسلسل للأحداث. وأما لماذا نفاه عثمان أولاً الى الشام، فالجواب ان تلك الممارسة كانت مأثورة في زمان عثمان، الذي كان يلجأ أحياناً الى نفي الناقمين عليه والمعارضين له الى الشام، حيث ابن عمه وثقته ورجل الدولة القوي معاوية، فيقوم بتأديبهم وإخضاعهم بطريقته. وسيأتي الحديث عن ذلك.

النفي الى الشام

يتابع ابن ابي الحديد روايته السابقة:

«*أصل هذه الواقعة: ان عثمان لما أعطى مروان بن الحكم وغيره بيوت*

الأموال، واختص زيد بن ثابت بشيء منها، جعل أبو ذر يقول بين الناس وفي الطرقات والشوارع: بشّر الكافرين بعذاب أليم، ويرفع بذلك صوته ويتلو قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم).

فرفع ذلك الى عثمان مراراً وهو ساكت.

ثم انه أرسل إليه مولى من مواليه: أن انته عما بلغني عنك!

فقال أبو ذر: أوينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله تعالى؟! وعيب من ترك أمر الله تعالى. فوالله لأن أرضي الله بسخط عثمان أحب إليّ وخير لي من ان أسخط الله برضا عثمان.

فأغضب عثمانَ ذلك وأحفظه، فتصابر وتماسك، الى أن قال عثمان يوماً، والناسُ حوله: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال شيئاً قرضاً، فإذا أيسرَ قضى؟

فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك.

فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديين، أتعلمنا ديننا؟!

فقال عثمان: قد كثر أذاك لي، وتولعك بأصحابي. الحق بالشام. فأخرجه اليها.»

وقال اليعقوبي في تاريخه بشأن حادثة النفي الاولى :

«وبلغ عثمانَ أيضاً أن أبا ذر يقع فيه، ويذكر ما غيّر وبدّل من سنن رسول الله، وسنن ابي بكر وعمر. فسيّرهُ الى الشام، الى معاوية»

وكذلك روى الذهبي في سير أعلام النبلاء تفاصيل عن نفي عثمان لأبي ذر إلى الشام بعد ذلك الحوار الذي لجأ خلاله عثمان إلىَ الاستشهاد بمستشاره كعب الأحبار ليؤكد أنه ليس على المسلم أكثر من دفع الزكاة، بينما أصر أبو ذر على أنه لا يجوز للمسلم أن يكتنز المال وأنه قال لكعب الأحبار بحضرة الخليفة: يا ابن اليهودية. وأن عثمان كان يهين أبا ذر عن طريق تركه فترة طويلة ينتظر على بابه لدى استدعائه.

ورووى ابن شبة في تاريخ المدينة حادثة النفي الى الشام، وفي روايته ما يظهر بأن بطانة الخليفة وحاشيته كانت تساهم في تحريف كلام ابي ذر، ونقله الى عثمان بعد تهويله وحرفه عن مقصده. فعن ابن عباس ان عثمان قال لأبي ذر لما دخل عليه «*أنت الذي تزعم انك خير من ابي بكر وعمر؟*

قال ابو ذر رضي الله عنه: ما قلتُ هذا.

قال عثمان: اني أقيم عليك البينة.

قال: ما أدري ما بينتك ؟ قد عرفتُ ما قلتُ.

قال: فكيف قلتَ؟

قال: قلتُ ان رسول الله(ص) قال (ان أحبكم إليّ وأقربكم مني الذي يأخذ بالعهد الذي تركته عليه حتى يلحقني). وكلكم قد أصاب من الدنيا غيري. فأنا على العهد، وعلى الله البلاغ.

قال له عثمان رضي الله عنه: الحق بمعاوية. فأخرجه الى الشام»

بين أبي ذر ومعاوية

لا يمكن تصور رجلين في الكون كله، في ذلك الزمان، أكثر اختلافاً وتنافراً وتناقضاً من معاوية بن ابي سفيان وابي ذر الغفاري! فمعاوية الثري أباً عن جد، الارستقراطي في قريش، رجل الدولة المحنك والسياسي الداهية لن يطيق رجل مبادئ وأخلاق، بدويّ من قبيلة لا تسامي قريشاً، زاهد في الدنيا، صارم لا يداهن، كأبي ذر. فكان الصدام بينهما حتمياً.

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري انه لما وصل أبو ذر إلى الشام «*أخذ بقلوب الناس، فأبكي عيونهم وأوغر صدورهم. وكان فيما يقول: لا يبقين في بيت أحدٍ منكم دينارٌ ولا درهم ولا تبرٌ ولا فضة، إلاّ شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم*».

ومن الطبيعي أن يستشعر معاوية بالخطر الداهم من وجود رجل مثل هذا الصحابي الجليل، وبهذه الأفكار، عنده في الشام. وبحكم طريقة تفكيره

المعهودة، حاول معاوية أن يستكشف إمكانية رشوة أبي ذر، أو إيقاعه بإغراء مالي لكي يفضحه بين الناس ويؤآخذه عليه. يتابع ابن شبة:

«فبعث إليه معاوية رضي الله عنه بجنح الليل بألف دينار. أراد أن يخالف فعله قوله وسريرته علانيته.

فلما جاءه الرسول قسم الألف فلم يصبح عنده منها دينار ولا درهم.

فلما أصبح معاوية رضي الله عنه دعا الرسول فقال له: انطلق إلى أبي ذر فقل له: أنقذ لي جسدي من عذاب معاوية، أنقذ الله جسدك من النار، فإنه أرسلني إلى غيرك فأخطأتُ بك.

فقال له أبو ذر: اقرأ على معاوية السلام وقل له: يقول لك أبو ذر ما أصبح عندنا من دنانيرك دينارٌ واحد. فإن آخذتنا بها فأنظرنا ثلاث ليال نجمعها لك.

فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله وسريرته تصدق علانيته كتب إلى عثمان رضي الله عنه: إن كان لك بالشام حاجة فأرسل إلى أبي ذر، فإنه قد أوغر صدور الناس عليك.

فكتب إليه عثمان رضي الله عنه: أن الحق بي»

وفي رواية ثانية أن معاوية كتب لعثمان «إن كان لك في الشام حاجة فأخرج أبا ذر منه، فإنه قد نغل الناس(1) عندي»

وفي متابعة لرواية ابن ابي الحديد السابقة:

«فكان أبو ذر ينكر على معاوية أشياء يفعلها، فبعث اليه يوماً معاوية ثلاثمئة دينار.

فقال أبو ذر لرسوله: إن كانت من عطائي الذي حرمتمونيه عامي هذا أقبلها، وإن كانت صلة فلا حاجة لي فيها. وردها عليه.

ثم بنى معاوية الخضراء بدمشق. فقال أبو ذر: يا معاوية، إن كانت هذه من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهي الاسراف.

(1) نغل الناس أي أفسدهم

وكان أبو ذر يقول بالشام: والله لقد حدثت اعمال ما أعرفها. والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه(ص). والله اني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يحيا، وصادقاً مكذباً، وأثرة بغير تقي، وصالحاً مستأثراً عليه.

قال حبيب بن مسلمة الفهري لمعاوية: ان أبا ذر لمفسدٌ عليكم الشام، فتدارك أهله ان كان لك فيه حاجة»

كما ذكر ابن ابي الحديد رواية أخرى تلقي مزيداً من الضوء على الاشتباك الذي حصل بين ابي ذر ومعاوية في الشام. فمن كتاب (السفيانية) للجاحظ عن جلام الغفاري أنه جاء معاوية يوماً «سمعتُ صارخاً على باب داره يقول: أتتكم القطار بحمل النار! اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له. اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له.

فازبأرّ معاوية وتغير لونه، وقال: يا جلام، أتعرف الصارخ؟

فقلتُ: اللهم لا .

قال: من عذيري من جندب بن جنادة؟ يأتينا كل يوم فيصرخ على باب قصرنا بما سمعتَ!

ثم قال: أدخلوه عليّ. فجيء بأبي ذر بين قوم يقودونه، حتى وقف بين يديه.

فقال له معاوية: يا عدو الله، وعدو رسوله! تأتينا في كل يوم فتصنع ما تصنع. أما اني لو كنتُ قاتلَ رجل من أصحاب محمد من غير إذن أمير المؤمنين عثمان لقتلتك، ولكني أستأذن فيك.

قال جلام: وكنتُ أحب أن أرى أبا ذر، لأنه رجل من قومي. فالتفتُ اليه فإذا رجل أسمر ضرب من الرجال، خفيف العارضين، في ظهره جنأ.

فأقبل على معاوية وقال: ما أنا بعدو لله ولا لرسوله، بل أنت وأبوك عدوان لله ولرسوله، أظهرتما الاسلام وأبطنتما الكفر. ولقد لعنك رسول الله (ص)، ودعا عليك مرات ألاّ تشبع. سمعتُ رسول الله (ص) يقول (إذا ولي الامة الاعين الواسع البلعوم، الذي يأكل ولا يشبع، فلتأخذ الامة حذرها منه).

فقال معاوية: ما أنا ذاك.

قال ابو ذر: بل أنت ذلك الرجل. أخبرني بذلك رسول الله (ص)، وسمعته يقول وقد مررتَ به (اللهم العنه ولا تشبعه إلاّ بالتراب). وسمعته (ص) يقول (إستُ معاوية في النار).

فضحك معاوية وأمر بحبسه وكتب الى عثمان فيه...»

ورغم ان تبادل العبارات الحادة جداً، كما هو وارد في هذه الرواية، بين ابي ذر ومعاوية أمرٌ طبيعيٌ ومتوقع، إلاّ انه تبدو واضحة تدخلات وإضافات الرواة، وخاصة افتعالهم على لسان ابي ذر (إست معاوية في النار). -

ويضيف اليعقوبي في تاريخه :

«...وكان يجلس في المسجد فيقول كما كان يقول، ويجتمع اليه الناس حتى كثر من يجتمع اليه ويسمع منه. وكان يقف على باب دمشق، اذا صلى صلاة الصبح فيقول: جاءت القطار تحمل النار، لعن الله الآمرين بالمعروف والتاركين له، ولعن الله الناهين عن المنكر والآتين له.

وكتب معاوية الى عثمان: انك قد أفسدتَ الشام على نفسك بأبي ذرا فكتب اليه: أن احمله على قتب بغير وطاءا فقدم به الى المدينة، وقد ذهب لحم فخذيه ...»[1]

وكان معاوية لما عجز عن التوصل إلى أي تفاهم مع أبي ذر، وإلى أن يأتيه فيه أمر عثمان، قد أصدر أوامره بعزل أبي ذر عن المجتمع عن طريق تهديد كل من يتصل به أو يستمع إليه.

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الأحنف بن قيس أنه زار الشام فرأى في المسجد رجلاً يصلي عند سواريه فيؤخر عنه الناس. فلما سأله، طلب منه أبو ذر أن يبتعد عنه لأنه لا يريد أن يصيبه شر بسببه *«قال: قُم عني ا لا أعدك بشر. فقلتُ له: كيف تعدني بشر؟ قال: إن هذا، يعني معاوية، نادى مناديه ألاّ يجالسني أحد»*

(1) ويلاحظ خلو الرواية من تفاصيل الكلام المتبادل بين معاوية وابي ذر.

النفي الى الربذة[1]

وأخيراً قرر الخليفة أن يتخلّص من مشكلة أبي ذر، جذرياً. لم يعد عثمان يطيق وجود أبي ذر في عاصمته، ولا في أي مكانٍ مأهولٍ من دولته، فكان قرار النفي القاسي، إلى مكانٍ موحشٍ مقفر، حيث لن يجدَ أبو ذرٍ مَن يستمع إليه من المسلمين لكي «يفسده» بكلامه المتواصل عن الظلم والفساد. ففي الربذة، لمن سيتحدث أبو ذرٍ حول وصايا النبي(ص) بالعدل بين الناس، والزهد والورع؟ ولأن أبا ذر لم تكن له قاعدة قبلية تحميه، لم يتورّع الخليفة عن اتخاذ أقسى العقوبة بحقه، ربما ليجعله عبرةً لمن يعتبر!

كان قرار عثمان هو بالفعل حكم بالموت، بطيء، على أبي ذر. وبالفعل لم يلبث أبو ذر في الربذة طويلاً، فمات هناك وحيداً.

وفي متابعة لرواية ابن ابي الحديد من كتاب (السفيانية) للجاحظ عن جلام الغفاري:

«فكتب عثمان الى معاوية أن احمل جندباً إليّ على أغلظ مركب وأوعره. فوجه به مع من سار به الليل والنهار، وحمله على شارف ليس عليها إلاّ قتب، حتى قدم به المدينة وقد سقط لحم فخذيه من الجهد .

فلما قدم بعث اليه عثمان: الحق بأي أرض شئتَ .

قال: بمكة؟

قال: لا

قال: بيت المقدس؟

قال: لا

قال: بأحد المصرين؟

---

(1) بلغت شهرة حادثة النفي تلك إلى حد أنه حتى ابن اسحاق قد ذكرها في السيرة النبوية بقوله *«لما نفى عثمانُ أبا ذر إلى الربذة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه احد إلاّ امرأتهُ وغلامه ...»* في السيرة النبوية لابن هشام

قال: لا . ولكني مُسيّرك الى ربذة.

فسيّرهُ اليها فلم يزل بها حتى مات»

روى اليعقوبي في تاريخه انه لما حُمِلَ أبو ذر من الشام الى المدينة، وبعد جدال عنيف مع عثمان :

«... فلم يقم بالمدينة إلاّ أياماً حتى أرسل اليه عثمان: والله لتخرجن عنها !

قال: أتخرجني من حرم رسول الله؟

قال: نعم! وأنفك راغم.

قال: فإلى مكة؟

قال: لا .

قال: فإلى البصرة ؟

قال: لا .

قال: فإلى الكوفة؟

قال: لا ولكن الى الربذة التي خرجتَ منها حتى تموت بها ! يا مروان أخرجه. ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج»

وفي رواية أخرى لابن ابي الحديد عن الواقدي

«ثم ان عثمان حظر على الناس ان يقاعدوا ابا ذر، أو يكلموه. فمكث كذلك أياماً، ثم أتي به فوقف بين يديه.

فقال ابو ذر: ويحك يا عثمان! اما رأيتَ رسول الله (ص)، ورأيتَ أبا بكر وعمر؟! هل هديك كهديكم؟ أما انك لتبطش بي بطش جبار .

فقال عثمان: اخرج عنا من بلادنا .

فقال ابو ذر: ما أبغض إليّ جوارك. فإلى أين أخرج؟

قال: حيث شئتَ .

قال: أخرج الى الشام أرض الجهاد؟

قال: انما جلبتك من الشام لما قد أفسدتها، أفأردّك اليها؟!

قال: أفأخرج الى العراق؟

قال: انك إن تخرج اليها تقدم على قوم أولي شبه وطعن على الأئمة والولاة

قال: أفأخرج الى مصر؟

قال: لا

قال: فإلى أين أخرج؟

قال: الى البادية.

قال ابو ذر: أصير بعد الهجرة اعرابياً؟

قال: نعم

قال ابو ذر: فأخرج الى بادية نجد؟

قال عثمان: بل الى الشرق الأبعد، أقصى فأقصى. امضِ على وجهك هذا فلا تعدونّ الربذة.

فخرج اليها»

مناقشة روايات ابن سعد

واما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد أورد عدة روايات حول نفي أبي ذر للربذة :

واحدة عن ابن سيرين، يبدو فيها أنه بذل مجهوداً لتخفيف وطأة ما جرى. وقد لجأ إلى إقحام رسول الله(ص) في الأمر حين ذكر أنه (ص) كان قال لأبي ذر «*إذا بلغ البناء سلعاً فاخرج منها -ونحا بيده نحو الشام- ولا أرى أمراءك*

يدعونك». وهو يريد أن يوحي أن ما جرى كان تنفيذاً لأمر الرسول(ص) ونبوءته! فقد خرج أبو ذر إلى الشام كما أمره الرسول(ص)، وأيضاً حال «أمراؤه» بينه وبين المقام هناك كما تنبّأ الرسول(ص)! وأمراؤه في هذه الحالة هو معاوية بالطبع. ويقول ابن سيرين إن معاوية كتب لعثمان أن أبا ذر «*أفسد الناس بالشام*» فطلب منه الخليفة أن يرسله له فلما وصله قال له «*كُن عندي تغدو عليك وتروح اللقاح. قال: لا حاجة لي في دنياكم. ثم قال: ائذن لي حتى أخرج إلى الربذة. فأذن له*»

ورواية عن حصين عن زيد بن وهب أنه لقي أبا ذر وهو بالربذة فسأله عن سبب وجوده هناك فقال له انه اختلف مع معاوية بشأن تفسير الآية «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها ...» لأن معاوية قال انها نزلت في أهل الكتاب بينما قال أبو ذر ان المسلمين مشمولون بها، فشكاه لعثمان الذي استجلبه إلى المدينة وقال له «*إن شئتَ تنحّيتَ فكنتَ قريباً*» وهذا سبب وجوده في الربذة.

وثالثة عن عبد الله بن سيدان السلمي «*تناجى أبو ذر وعثمان حتى ارتفعت أصواتهما*» وأن أبا ذر خرج من هذه (المناجاة) مبتسماً «*فقال له الناس: مالك ولأمير المؤمنين؟ قال: سامعٌ مطيعٌ. ولو أمرني أن آتي صنعاء او عدن ثم استطعتُ أن أفعل لفعلتُ. وأمره عثمان ان يخرج إلى الربذة*»

ويلاحظ ان ابن سعد قد اخرج عددا كبيرا من الروايات التي تتحدّث عن وصية رسول الله (ص) المشددة والمؤكّدة لأبي ذر أن يسمع ويطيع لكل من يُولى عليه، وان لا يشق عصا الطاعة وان لا يتمرد على الأمراء الفاسدين ... الخ وأنه بالتالي فإن أبا ذر كان شديدَ الطاعة لعثمان إلى درجة انه كان يقول ان عثماناً لو صلبه على أطول خشبة لسمع له وأطاع! وأنه أجاب نفراً من اهل العراق ممن مروا به وهو بالربذة فقالوا له «*فعلَ بكَ هذا الرجل وفعلَ، فهل انت ناصبٌ لنا راية فلنكمل برجال ما شئتَ؟*» فنهاهم عن ذلك وقال لهم «... *لا تذلّوا السلطان، فإنه من أذلّ السلطان فلا توبة له*» !

فلو كان أبو ذر حقا بهذه الدرجة من الطاعة والولاء لعثمان، والحرص

على السلاطين والأمراء، فلِمَ طعن على معاوية؟ ولم تحدّى الخليفة؟ ولمَ واجهَ قريشاً؟ ولِم تحمّل النفي من بلد لآخر؟ ولمَ ولم؟ أما كان ممكناً له أن يجلس وادعاً مستقراً في بيته، يصلّي ويصوم ويعبد ربّه، تاركاً الدنيا وما فيها لأهلها؟ وهل يمكن لأبي ذر أن يخالف تلك التوصيات المشددة من النبي(ص) له بأن لا يواجه الأمراء «الذين يستأثرون بالفيء»؟

بل إن هناك ما يشير إلى أن موقف أبي ذر المعارض للسلاطين والولاة كان يتسع ليصل كل مَن تولّى عملاً لهم وتعاون معهم، حتى لو لم تظهر منه ممارسات فاسدة أو منحرفة. فكان أبو ذر يرى هؤلاء الحكام رجساً ودنساً ولا يجد عذراً لمن يسير في ركابهم. روى ابن سعد أن أبا موسى الأشعري لما قدِمَ كان يُقبلُ على أبي ذر ويلزمه ويقول له «*مرحباً بأخي*» فكان أبو ذر يبتعد عنه ويدفعه قائلاً له «*لستُ بأخيك! إنما كنتُ أخاك قبل أن تستعمل*».[1] هذا مع العلم أن أبا موسى لم يكن من ولاة عثمان المطعون عليهم، بل إنه لم يعمل لعثمان سوى فترة قصيرة في أول عهده قبل أن يعزله ويولي قريبه ابن عامر. فأبو موسى كان عاملاً لعمر في الأساس، ويمكن القول أنه كان ناجحاً في إدارته. ومع ذلك يلومه أبو ذر.

إن سيرة أبي ذر العملية، وما جرى له، يقطع بالجزم بأن حقيقة ما رواه أبو ذر عن النبي (ص) كان:

«*أوصاني خليلي بسبع:*

أمرني بحب المساكين والدنوّ منهم

وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي

وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً

وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت

وأمرني ان أقول الحق وإن كان مراً

---

(1) وهذه الرواية اخرجها أيضاً الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم

وامرني ان أكثر من (لا حول ولا قوة إلاّ بالله) فإنهن من كنز تحت العرش»

وذلك خلاف روايات الطاعة التي استعرضناها

الوداع الاخير

وأصدر عثمان أوامره بأن لا يخرج أحدٌ لوداع أبي ذر عند مسيره إلى منفاه الموحش. ولكنّ علياً بن أبي طالب تحدّي قرار عثمان وخرج لوداع أبي ذر، هو وولداه الحسن والحسين، ومعهم عمار بن ياسر. وقد روى الشريف الرضي في نهج البلاغة (شرح محمد عبده، ج2 ص178) الكلام الذي قاله له عليّ عندما ودّعه لمّا نفاه عثمان إلى الربذة :

«يا أبا ذرّ، انّك غضبتَ لله، فارجُ مَن غضبتَ له. انّ القوم خافوكَ على دنياهم وخفتهم على دينك. فاترُك في أيديهم ما خافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه. فما أحوجهم الى ما مَنعتهم، وما أغناك عما منعوك. وستعلمُ مَن الرابح غداً، والأكثر حسّداً. ولو أن السموات والأرضين كانتا على عبدٍ رتقاً ثم اتّقى الله لجعل الله له منهما مخرجاً. ولا يؤنسنّك الاّ الحقّ ولا يوحشنّك إلاّ الباطل. فلو قبلتَ دنياهم لأحبّوك، ولو قرضتَ منها لأمنوك»

وروى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلاً عن كتاب السقيفة للجوهري خبر إخراج ابي ذر من المدينة عن عكرمة عن ابن عباس :

«*لما أخرج ابو ذر الى الربذة، أمر عثمان فنودي في الناس ان لا يكلم أحدٌ أبا ذر ولا يشيعه. وأمر مروانَ بن الحكم ان يخرج به. فخرج به.*

وتحاماه الناسُ إلاّ علي بن ابي طالب عليه السلام، وعقيلاً أخاه، وحسناً وحسيناً عليهما السلام، وعماراً، فإنهم خرجوا معه يشيعونه.

فجعل الحسن عليه السلام يكلم أبا ذر، فقال له مروان: ايها يا حسن! ألا تعلم أن أمير المؤمنين قد نهى عن كلام هذا الرجل؟ فإن كنتَ لا تعلم فاعلم ذلك.

فحمل علي عليه السلام على مروان فضرب أبلسوط بين أذني راحلته وقال: تنحّ لحاك الله الى النار!

فرجع مروان مغضباً الى عثمان فأخبره الخبر، فتلظى عثمان على علي عليه السلام.

ووقف ابو ذر فودعه القوم، ومعه ذكوان مولى أم هانئ بنت ابي طالب. قال ذكوان: فحفظتُ كلام القوم - وكان حافظاً

فقال علي عليه السلام: يا ابا ذر، انك غضبتَ لله! ان القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك. فامتحنوك بالقلى ونفوك الى الفلا. والله لو كانت السماوات والأرض على عبد رتقاً ثم اتقى الله لجعل له منها مخرجاً. يا ابا ذر لا يؤنسنك إلاّ الحق، ولا يوحشنك إلاّ الباطل.

ثم قال لأصحابه: ودعوا عمكم. وقال لعقيل: ودع أخاك.

فتكلم عقيل، فقال: ما عسى ان نقول يا ابا ذر؟ وأنت تعلم انا نحبك وأنت تحبنا. فاتقِ الله فإن التقوى نجاة. واصبر فإن الصبر كرم. واعلم ان استثقالك الصبر من الجزع، واستبطاءك العافية من اليأس. فدع اليأسَ والجزع.

ثم تكلم الحسن فقال: يا عمّاه! لولا انه لا ينبغي للمودع أن يسكت، وللمشيّع أن ينصرف، لقصر الكلام وإن طال الأسف. وقد أتى القوم اليك ما ترى، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها، وشدة ما اشتدّ منها برجاء ما بعدها. واصبر حتى تلقى نبيك (ص) وهو عنك راض.

ثم تكلم الحسين فقال: يا عمّاه! ان الله تعالى قادر ان يغيّر ما قد ترى. والله كل يوم هو في شأن. وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك. فما أغناك عما منعوك، وأحوجهم الى ما منعتهم! فاسأل الله الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وان الجشع لا يقدم رزقاً، وجزع لا يؤخر أجلاً.

ثم تكلم عمار رحمه الله مغضباً فقال: لا آنسَ الله من أوحشك، ولا آمن من أخافك ! أما والله لو أردتَ دنياهم لأمنوك، ولو رضيتَ أعمالهم لأحبوك.

وما منع الناس أن يقولوا بقولك إلاّ الرضا بالدنيا، والجزع من الموت. مالوا الى ما سلطان جماعتهم عليه، والملك لمن غلب. فوهبوا لهم دينهم، ومنحهم القوم دنياهم، فخسروا الدنيا والآخرة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

فبكى أبو ذر رحمه الله، وكان شيخاً كبيراً، وقال: رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة! إذا رأيتكم ذكرتُ بكم رسول الله (ص). ما لي بالمدينة سكن ولا شجن غيركم. اني ثقلتُ على عثمان بالحجاز، كما ثقلتُ على معاوية بالشام، وكره أن اجاور أخاه وابن خاله بالمصرين فأفسدُ الناس عليهما، فسيّرني الى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلاّ الله. والله ما أريد إلاّ الله صاحباً، وما أخشى مع الله وحشة .

ورجع القوم الى المدينة[1]»

وروى اليعقوبي في تاريخه ان عثمان لما أمر أبا ذر بالخروج الى الربذة قال :

«*... يا مروان أخرجه. ولا تدع أحداً يكلمه حتى يخرج.*

فأخرجه على جمل ومعه امرأته وابنته. فخرج علي والحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعمار بن ياسر ينظرون. فلما رأى أبو ذر علياً قام اليه فقبل يده ثم بكى وقال: اني اذا رأيتك ورأيتُ ولدك ذكرتُ قول رسول الله فلم أصبر حتى أبكي. فذهب علي يكلمه، فقال له مروان: ان أمير المؤمنين قد نهى أن يكلمه أحد. فرفع علي السوط فضرب وجه ناقة مروان وقال: تنحّ، نحاك الله الى النار! ثم شيّعه، فكلمه بكلام يطول شرحه. وتكلم كل رجل من القوم وانصرفوا.

وانصرف مروان الى عثمان، فجرى بينه وبين علي في هذا بعض الوحشة وتلاحيا كلاماً»

(١) ويمكن التحفظ على وجود عقيل بن ابي طالب ضمن المودعين لأبي ذر مع أخيه علي وبنيه وعمار (كما في هذه الرواية). فعقيل لم يعرف عنه نشاط يذكر في تحدي عثمان أو الاعتراض على سياساته.

في الربذة :الوفاة

استثارت قصة أبي ذر ونهايته المأساوية ووفاته وحيداً في الصحراء مشاعر الكثيرين من المسلمين الذين راوا فيها ظلماً تعرّض له ذلك الرجل الكبير بسبب إصراره على تحدّي الحاكمين ومواجهتهم بدعوة للحق لا تلين ولا تساوم. لقد تحوّل أبو ذر الى رمز للبطولة في نظر الكثيرين، والرموز دائماً ما تحتوي قصصهم على إضافات من قبل الرواة لإضفاء حبكةٍ تناسب المقام الذي يراد للشخصية الرمز أن تبلغه.

وهذا ما حصل بشأن وفاة أبي ذر. فالرجل توفي في الربذة بلا شك معزولاً وحيداً، ربما بمعية زوجته أو ابنته. ولكن لا بد من الاضافات...

روى البلاذري في أنساب الأشراف عن الواقدي أن زوجة أبي ذر قالت إنه حدثها بأن النبي(ص) قد تنبأ بتفاصيل وفاة أبي ذر «*قال لي رسول الله (ص): إنك تموت بأرض غربة. وأخبرني أنه يلي دفني رهطٌ صالحون*» وتقول الرواية هذه «*ان أبا ذر رضي الله تعالى عنه مات، فقالت امرأته: بينا أنا جالسة عنده، وقد توفي، إذ أقبل ركب فسلموا فقالوا: ما فعل أبو ذر؟ قلتُ: هو ذا ميتاً قد عجزتُ عن غسله ودفنه. فأناخوا فحفروا له وغسلوه. وأخرج جرير بن عبد الله حنوطاً وكفناً فحنطه وكفنه. ثم دفنوه وحملوها الى المدينة*»

وهناك عدة روايات تجعل عدداً من الذين سيكونون فيما بعد أعداءً للخليفة عثمان هم أنفسهم الذين تصادف مرورهم بالربذة لدى وفاة أبي ذر. وأهم هؤلاء مالك الأشتر.

ومنها ما رواه اليعقوبي في تاريخه:

«*... فلم يزل ابو ذر بالربذة حتى توفي. ولما حضرته الوفاة قالت له ابنته: اني وحدي في هذا الموضع، وأخاف ان تغلبني عليك السباع! فقال: كلا، انه سيحضرني نفر مؤمنون، فانظري أترين أحداً ؟ فقالت: ما أرى أحداً. قال: ما حضر الوقت. ثم قال: انظري هل ترين أحداً ؟ قالت: نعم أرى ركباً مقبلين. فقال: الله أكبر صدق الله ورسوله! حوّلي وجهي الى القبلة، فإذا حضر القوم*

فأقرئيهم مني السلام، فإذا فرغوا من امري فاذبحي لهم هذه الشاة وقولي لهم: أقسمتُ عليكم إن برحتم حتى تأكلوا. ثم قضى عليه، فأتى القوم، فقالت لهم الجارية: هذا ابو ذر صاحب رسول الله قد توفي. فنزلوا، وكانوا سبعة نفر، فيهم حذيفة بن اليمان، والاشتر، فبكوا بكاء شديداً. وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه. ثم قالت لهم: انه يقسم عليكم ألاّ تبرحوا حتى تأكلوا. فذبحوا الشاة وأكلوا، ثم حملوا ابنته حتى صاروا بها الى المدينة.»

ومنها ما رواه البلاذري عن أبي مخنف *«لما حضرت أبا ذر الوفاة بالربذة أقبل ركبٌ من أهل الكوفة فيهم جرير بن عبد الله البجلي، ومالك بن الحارث الأشتر النخعي، والأسود بن يزيد بن قيس بن يزيد النخعي، وعلقمة بن قيس بن يزيد عم الأسود، في عدة آخرين. فسألوا عنه ليسلموا عليه فوجدوه وقد توفي. فقال جرير: هذه غنيمة ساقها الله الينا. فحنطه جرير وكفنه ودفنه وصلى عليه -ويقال بل صلى عليه الاشتر- وحملوا امرأته حتى أتوا بها المدينة»*

واما الواقدي -لدى البلاذري- فجعل عدواً آخر لعثمان هو الذي صلى عليه ! عبد الله بن مسعود.

وقد أخرج ابن حبان في صحيحه رواية تقول بأنه عندما كان ابو ذر مريضا يوشك على الموت وهو منفيٌّ بالربذة، مرّ به قوم من المسلمين فاستوقفتهم زوجته لكي يكفنوا زوجها إن قضى نحبَهُ، فخاطبهم ابو ذر قائلاً *«إني أشهدكم أن لا يكفنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً !*

فليس أحد من القوم إلاّ قارف بعض ذلك، إلاّ فتى من الانصار فقال: يا عم، أنا أكفنك، لم أصِب مما ذكرتَ شيئاً. أكفنك في ردائي هذا وفي ثوبين في عيبتي من غزل أمي حاكتها لي.

فكفنه الانصاري في النفر الذين شهدوه. منهم حجر بن الادبر ومالك بن الاشتر في نفر كلهم يمان»

وهنا يضيف ابن حبان اسم عدوّ آخر للحكم الأموي: حجر بن عدي الكندي (وهو الذي أعدمه معاوية فيما بعد).

وفي الروايات التي مرت كلها لا يمكن تصديق تلك الصدفة العجيبة التي تجعل أشخاصاً من أمثال الاشتر أو حجر بن عدي هم بالذات الذين يتصادف مرورهم بالربذة أثناء أو بعيد وفاة أبي ذر. هنا يظهر تدخل الرواة.

كيف لخص الامام البخاري موضوع ابي ذر؟

روى البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال *«مررتُ بالربذة فإذا أنا بأبي ذر رضي الله عنه.*

فقلتُ له: ما انزلك منزلك هذا؟

قال: كنتُ بالشام، فاختلفتُ أنا ومعاوية في (الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله). قال معاوية: نزلت في أهل الكتاب. فقلتُ نزلت فينا وفيهم. فكان بيني وبينه في ذاك.

وكتب الى عثمان رضي الله عنه يشكوني .

فكتب إليّ عثمان أن اقدم المدينة.

فقدمتها. فكثر عليّ الناسُ حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك.

فذكرتُ ذاك لعثمان. فقال لي: إن شئتَ تنحّيتَ فكنتَ قريباً.

فذاك الذي أنزلني هذا المنزل.

ولو أمّروا عليّ حبشياً لسمعتُ وأطعتُ»

والرواية هذه مخففة جداً وتخفي أكثر مما تكشف. وهي تحاول أن تقول ان خلافاً فقهياً بين «صحابيين» بشأن تفسير آية قرآنية كان أساس المشكلة كلها. ولا تتحدث هذه الرواية عن خلاف بين عثمان وابي ذر ولا عما جرى بينهما. وتستخدم هذه الرواية الصيغة الملطفة والغامضة لحادثة النفي «إن شئتَ تنحيتَ»، وهذه الصيغة حمالة اوجه. وتختتم الرواية بالقول الشائع المنسوب الى أبي ذر عن السمع والطاعة.

ولكن الامام البخاري نفسه في موضع آخر من صحيحه أخرج ما يتعلق بمشاكل أبي ذر مع عثمان.

روى البخاري في صحيحه (باب العلم قبل القول والعمل). «*قال أبو ذر: لو وضعتم الصمصامة على هذه -وأشار إلى قفاه- ثم ظننتُ أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي(ص) قبل أن تجيزوا عليّ لأنفذتها*». (والصمصامة هي السيف الصارم).

ولما كانت هذه الرواية مبتسرة وتخلو من مقدمة الحديث التي يظهر فيها السبب الذي دفع أبا ذر إلى القول أنه سيبلّغ حديث النبي(ص) حتى لو تعرض للقتل بسبب ذلك، فقد تولّى شارحُ صحيح البخاري توضيح ذلك. فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في فتح الباري في شرح صحيح البخاري أن أبا ذر كان جالساً عند الجمرة الوسطى وقد اجتمع إليه الناس يستفتونه فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثم قال: ألم تُنهَ عن الفتيا؟!

فرفع أبو ذر رأسه إليه وقال: أرقيبٌ أنتَ عليّ؟! لو وضعتم الصمصامة......

وذكر ابن حجر «إن الذي خاطبه رجلٌ من قريش وإن الذي نهاه عن الفتيا عثمانُ رضي الله عنه»

وهذا يعني أن عثمان قد حاول لجم أبي ذر وإسكاته، ولكن لما فشل في ذلك، واستمرّ أبو ذر في إشاعة أحاديث الرسول(ص) والفتيا لمن يريده من المسلمين، لجأ عثمان الى الحل الأخير وهو النفي القاسي.

وأيضا ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى (ج2 ص354) أن الرجل قال لأبي ذر «*ألم ينهكَ أمير المؤمنين عن الفتيا؟*»

أكاذيب: دفاعاً عن عثمان ومعاوية

قال ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة بشأن ابي ذر «*واعلم ان أصحابنا رحمهم الله قد رووا أخباراً كثيرة معناها أنه أخرج الى الربذة باختياره*»

وكمثال على ذلك روى عن قاضي القضاة في «المغني» عن شيخه أبي علي «ان معاوية كتب يشكوه وهو بالشام. فكتب اليه عثمان: أن صِر الى المدينة.

فلما صار اليها قال له: ما أخرجك الى الشام؟

قال: اني سمعتُ رسول الله(ص) يقول: إذا بلغت عمارة المدينة موضع كذا فاخرج منها. فلذلك خرجتُ.

فقال: أي البلاد أحبّ اليك بعد الشام؟

قال: الربذة.

قال: فسِر اليها»

وبعد أن أخرج بعض روايات أخرى بهذا الاتجاه، أعلن العلامة ابن ابي الحديد رأيه القيم:

«ونحن نقول: وهذه الأخبار، وإن كانت قد رويت، لكنها ليست في الاشتهار والكثرة كتلك الأخبار.

والوجه أن يقال في الاعتذار عن عثمان وحسن الظن بفعله: انه خاف الفتنة واختلاف كلمة المسلمين، فغلب على ظنه أن إخراج أبي ذر الى الربذة أحسَمُ للشغب، وأقطعُ لأطماع من يشرئب الى شق العصا. فأخرجه مراعاة للمصلحة. ومثل ذلك يجوز للإمام.

هكذا يقول أصحابنا المعتزلة، وهو الأليق بمكارم الأخلاق. فقد قال الشاعر:

إذا ما أتت من صاحب لك زلة   فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

وانما يتأوّل أصحابنا لمن يحتمل حاله التأويل كعثمان. فأما من لم يحتمل حالُه التأويل، وإن كانت له صحبة سالفاً كمعاوية وأضرابه، فإنهم لا يتأولون لهم إذا كانت أفعالهم وأحوالهم لا وجه لتأويلها، ولا تقبل العلاج والاصلاح»

أي ان ابن ابي الحديد يقول انه لا داعي للكذب والتلفيق واختراع الروايات للدفاع عن عثمان فيما قرره بشأن ابي ذر الغفاري. فالصحيح هو الاقرار بما ارتكبه عثمان بحق ابي ذر، ولكن لا بد من محاولة التماس عذر وتأويل لما فعله الخليفة على أساس حقه في تقدير المصلحة العامة للمسلمين، باعتبار ان

عثمان صحابي قديم من المهاجرين مما يجيز حسن الظن به، بخلاف معاوية ومجموعته الذين لا تسمح شناعة أفعالهم بالتماس أعذار لهم.

كما ان ابن شبة النميري في تاريخ المدينة قد أخرج عدة روايات بشأن الخروج الطوعي لأبي ذر الى الربذة. وهذه الروايات أقل ما يقال فيها بأنها هزيلة وركيكة ومبتسرة، ويظهر فيها أبو ذر وكأنه مضرب المثل في الطاعة والولاء لعثمان، الى حد القول انه لو طلب منه أن يحبو على الارض لحبا! وبعض الرواة يذكر ان ابا ذر كان يقول لعثمان انه ليس من الخوارج! وأخرى تنسب للرسول (ص) أقوالاً بشأن إخراج ابي ذر. وبعضها تتحدث عن حرص عثمان على راحة ابي ذر في منفاه الطوعي .... وما شابه ذلك من أخبار.

بل انه روى كيف ان محمد بن سيرين كان يغضب بشدة إذا سمع أحداً يقول ان عثمان أخرج أبا ذر الى الربذة، ويصرّ على انه خرج من تلقاء نفسه!

وكذلك ابن كثير في البداية والنهاية تجاهل كل ملابسات وفاة أبي ذر وخلفياتها واختزلها بالقول «*خرج إلى الشام فكان فيه حتى وقع بينه وبين معاوية فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ثم نزل الربذة فأقام بها حتى مات*».

كيف تناولَ الطبري هذا الموضوع؟

قد أعرضَ عن كل الروايات التي تكشف عن حقيقة ما جرى، واختارَ فقط ما رواه سيف بن عمر، لأنه الكاتب الوحيد الذي حفظ للسلطان ماء وجهه، واستنقذه من عواقب تلك الأحداث كما صرح بذلك الطبري نفسه في مستهل حديثه عن هذه القصة، فقال:

«*في هذه السنة، 30 للهجرة، كان ما ذكر من أمر أبي ذر ومعاوية، وإشخاص معاوية إياه من الشام إلى المدينة. وقد ذكر في سبب إشخاصه إياه منها أمورٌ كثيرة كرهتُ ذكرَ أكثرها.*

فأما العاذرون معاوية فإنهم ذكروا في ذلك قصة كتب بها إلى السرى يذكر أن شعيباً حدثه سيف ....»

ويسرد الطبري هذه القصة مردداً بين فقراتها (قال سيف) (قال سيف)

حتى أتى على آخرها. ثم قال: «*وأما الآخرون فإنهم رووا في سبب ذلك أشياء كثيرة وأموراً شنيعة كرهتُ ذكرَها*».

إذن يقرر الطبري، صاحب الموسوعة التاريخية الكبرى، أن ينقل فقط رواية سيف، ولا شيء غيرها! إذن هو يقرر أن يروي ما قاله «العاذرون معاوية» فقط، وأما الآخرون فالطبري كره ذكر أخبارهم!

والآن ماهي رواية سيف بن عمر التي يتمسّك بها الطبري فلا يروي سواها؟

«*لمّا ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر. فقال: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية، يقول المالُ مالُ الله؟! ألا إن كل شيء لله، فكأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسمَ المسلمين!*

فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمّي مالَ المسلمين مالَ الله؟!

قال: يرحمك الله يا أبا ذر. ألسنا عباد الله، والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره؟

قال: فلا تقله.

قال: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين.

وأتى ابن السوداء أبا الدرداء. فقال له: مَن أنتَ؟ أظنك والله يهودياً.

فأتى عبادةَ بن الصامت، فتعلّق به، فأتى به معاوية. فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر!

وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول: يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم. فما زالَ حتى ولعَ الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس.»

ثم يذكر تسيير معاوية أبا ذر إلى المدينة على أحسن هيئة، فيكرمه الخليفة، رضي الله عنه، أحسنَ إكرام ويتلطف به، غير أن أبا ذر يصرّ على أن يهجر المدينة ليرتدّ أعرابياً! فيذهب باختياره إلى المنفى في الربذة، بناءً على وصية النبي(ص) له بأن يخرج من المدينة إذا بلغ البناء فيها منطقة سلع! وأن عثمان أكرمه وأعطاه إبلاً ومملوكين لرعايته.

وواضحٌ من هذه القصة أنها فصّلت لكي تدافع عن الحكام: عثمان ومعاوية.

ولكن وللأسف فإن ترويج هكذا رواية من قبل الطبري فيه إساءة عظيمة لواحدٍ من أرفع الصحابة السباقين إلى الإسلام مكانةً، وهو أبو ذر! ففي سبيل الدفاع عن الحكام رضي الطبري أن يجعل أبا ذر في موقف التابع الغبيّ لإرادة اليهودي الماكر (وهو ابن سبأ، الذي يلقبه بابن السوداء)، ثم جعل منه رجلاً متمرداً على الخليفة بإيعاز من ذلك اليهودي، ثم جعل منه مرتداً أعرابياً بعد الهجرة!

إن الطبري باختياره هذا يصرح بالقول والفعل أنه قد وقف إلى جانب الأمير الغالب، ملتمساً له العذر على كل حال، وإن لم يجد هذا العذر إلاّ عند الوضّاع سيف بن عمر. وهذا هو السبب الوحيد الذي يفسر إعراضه المعلن عن سائر أحاديث «العاذرين أبا ذر» – وهو الطرف المغلوب– واكتفائه برواية «العاذرين معاوية» – وهو الأمير الغالب.[1]

ولم يوضح سيف بن عمر في روايته هذه ماذا فعل معاوية بابن السوداء بعد أن أحضره له عبادة بن الصامت؟ ولكن أخذاً بعين الاعتبار ما يرويه سيف عن نشاط ابن السوداء اللاحق في بلادٍ أخرى، فلا بد من الاستنتاج أن معاوية قد أطلقه، بكل بساطة!

وعدا عن كل هذا التهافت في رواية سيف بن عمر، فإن هناك اشكالاً من حيث الشكل ايضا. فسيف بن عمر نفسه يذكر ان ابن سبأ، الذي يسميه ابن السوداء، كان موجوداً في البصرة بعد عام 32 للهجرة! فقد روى الطبري عنه في تاريخه انه «*لما مضى من إمارة ابن عامر ثلاث سنين*» نزل عبد الله بن سبأ ضيفاً على أتباعه في البصرة، وعلى رأسهم حكيم بن جبلة العبدي «*واجتمع اليه نفر فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح فقبلوا منه واستعظموه .*

وأرسل اليه ابن عامر فسأله: ما أنت ؟

---

(1) وفي موضع آخر، أعلن الطبري أنه قرر الإعراض عن ذكر كثير من الأسباب التي كانت وراء الثورة التي أدت إلى قتل عثمان. فقال: «*فأعرضنا عن ذكر كثير منها لعلل دعت إلى الإعراض عنها*» ولم يوضح ماهية تلك العلل، إلاّ أنه من الواضح أن ذلك يندرج في نطاق سعيه للدفاع عن عثمان.

فأخبره أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام، ورغب في جوارك فقال: ما يبلغني ذلك. اخرج عني. فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فاستقر بمصر...»

وبما أن ابن عامر تولى منصبه عام 29 للهجرة، فلا شك أن هذا الاجتماع المذكور بينه وبين ابن سبأ كان في سنة 33 أو 32 على أقل تقدير.

بينما نجد سيفا نفسه يقول في رواية أخرى له «*كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء، أمه سوداء. فأسلم زمان عثمان ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم. فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند احد من اهل الشام فأخرجوه حتى اتى مصر...*»

وهذا يعني أن ابن سبأ قد توجه الى الشام بعد البصرة والكوفة. فمتى اجتمع بأبي ذر الغفاري بالشام؟ فأبو ذر توفي في عام 30 للهجرة[1]، وبالتالي كيف يمكن ان يكون موجوداً في دمشق، ليجتمع مع ابن سبأ بعد ثلاثة أعوام من وفاته؟!

ثانياً: مشكلة عبد الله بن مسعود[2]

خلفية ابن مسعود

وعبد الله بن مسعود هو أيضاً من الشخصيات الإسلامية البارزة، بامتياز. فقد كان من السباقين الأولين للإيمان بمحمد(ص) في الفترة المكية من

(1) تقول روايات البلاذري في أنساب الاشراف انه توفي سنة 31

(2) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج1 ص232)، صحيح البخاري (باب مناقب عبد الله بن مسعود ج5 ص35)، سنن الترمذي باب مناقب عبد الله بن مسعود (ج5 ص 338 رقم 3898)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص256 و ص260)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص150) و (ج3 ص161)، مسند الامام أحمد بن حنبل (ج1 ص450)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج5 ص56)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1049 و ص 1006 و ص1051 و ص1050)، التاريخ الصغير للامام البخاري (ج1 ص106)، طبقات خليفة بن خياط (ص47)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص171 و ص170)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص183)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج33 ص136-137-183-188 - 191) و (ج63 ص240 و ص243)، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص473-499)، فتح الباري لابن حجر (ج7 ص45) و كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 - ص 393) و أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص140)

دعوته. وابن مسعود كان من الضعفاء والفقراء في مكة، فهو ذو أصل متواضع، من قبيلة هُذيل.

ويلغ من شدة حماسِهِ للدين الذي آمَنَ به أنه كان أولَ مَنْ أصرّ على الجَهر بقراءة القرآن على مسامع جبابرة قريش في مكة، فناله أذىً شديد جرّاء ذلك كما ورد في السيرة النبوية لابن هشام.

وقد شارك في معركة بدر، وكان له شرف الاجهاز على أبي جهل ذاته حين وجده بين الحياة والموت بعد أن هاجمه الفتيان الانصاريان. ويروى أن أبا جهل، وهو في لحظاته الأخيرة، قد وصفه ب «رويعي الغنم» مما يدل على الاحتقار الذي كان ابن مسعود يلقاه من كبراء قريش.

وفي الفترة المدنية كان ابن مسعود شديد القرب من رسول الله (ص)، كما ذكر البخاري في صحيحه(باب مناقب عبد الله بن مسعود)، حيث قال أنه من كثرة دخوله وخروجه هو وأمه من وإلى بيت النبي(ص) ظنّه أبو موسى الأشعري من أهل البيت: «*قدمتُ أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينا ما نرى إلاّ أنّ عبد الله بن مسعود رجلٌ من أهل بيت النبي(ص)! لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبي(ص)*»

وقد صار ابن مسعود من أبرز المتعمقين بالقرآن، قراءته وتلاوته وأسباب نزوله وعلومه.

جاء في سنن الترمذي «*عن عبد الله بن عمرو: قال رسول الله(ص): خذوا القرآن من أربعة: من ابن مسعود وأبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة*».

الخلاف بين ابن مسعود والخليفة

ومن استعراض الروايات المختلفة التي تتحدث عن خلاف ابن مسعود وعثمان، يمكن القول انه كان هناك سببان للمشكلة:

السبب الأول: هو ممارسات الوليد بن عقبة بن ابي معيط في الكوفة، وعدم سكوت ابن مسعود عنه

والظاهر أن الخلاف بين ابن مسعود والخليفة بدأ مع قدوم واليه، الفاسق المستهتر بشؤون الدين، الوليد بن عقبة، إلى الكوفة. ولا شك ان الوليد بن

عقبة، بكل ما في نفسه من كِبر وخيلاء، لم يكن لينسى ان ابن مسعود كان في ماضي الايام راعياً لغنم أبيه. فقد ذكر ابن الاثير في أسد الغابة وابن سعد في الطبقات الكبرى في قصة هجرة النبي(ص) الى المدينة عن ابن مسعود «كنتُ *غلاماً يافعاً في غنم لعقبة بن ابي معيط أرعاها ...*».

وقد كان ابن مسعود على بيت مال المسلمين في الكوفة (وكان عمر قد ولاّه ذلك) حين بعث عثمانُ الوليدَ بن عقبة والياً عليها. ومن المرجح أن الوليد لم يكن ليقبل أن يحاسبه ابن مسعود على تصرفاته وقراراته، لأنه أعلى منه منصباً عدا عن علاقته الخاصة بالخليفة.

وكان ابن مسعود يعتبر أموال المسلمين أمانة في عنقه، ولا يحتمل أي عبث بها. فهو على هذا الصعيد من مدرسة عمر بن الخطاب.

فكان الصدام بين الرجلين أمراً حتمياً: إن كان بحكم وظيفة ابن مسعود كأمين على بيت المال، أو كان بحكم وضعيته كصحابي عريق له مسؤولية معنوية عن أخلاق وتعاليم الاسلام الصافي الذي جاء به محمد (ص).

وقد حصل الصدام بالفعل في الاتجاهين :

وقد تطرقنا الى ما فعله الوليد من شرب للخمر وتهتك في الصلاة وعبث مع السحرة.وغيرها من سلوكيات كانت طبعاً تثير حفيظة ابن مسعود وتدفعه الى المواجهة. فقد روى الامام أحمد في مسنده «*ان الوليد بن عقبة أخر الصلاة مرة. فقام عبد الله بن مسعود فثوب بالصلاة فصلى بالناس.*

فأرسل اليه الوليد: ما حملك على ما صنعتَ ؟ أجاءك من أمير المؤمنين أمر فيما فعلتَ أم ابتدعتَ ؟

قال: لم يأتني أمر من أمير المؤمنين ولم أبتدع. ولكن أبى الله عز وجل علينا ورسوله أن ننتظرك بصلاتنا وأنت في حاجتك[1]»

وقد أخذ الوليدُ مالاً من بيت المال دون وجه معلوم، ودون إذن ابن مسعود.

---

(1) روى مثل هذه الرواية أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق

روى ابن عبد ربه في العقد الفريد عن عبد الله بن سنان قال «خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد، وكان على بيت مال الكوفة، وأمير الكوفة الوليد بن عقبة بن ابي معيط، فقال: يا أهل الكوفة، فقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتني بها كتاب من أمير المؤمنين، ولم يكتب لي بها براءة.

قال: فكتب الوليد بن عقبة الى عثمان في ذلك، فنزعه عن بيت المال»

واما البلاذري في أنساب الأشراف فروى عن أبي مخنف أن الوليد قد أخذ قرضاً من بيت المال، أي بعلم ابن مسعود، ولكنه لم يردّه «لما قدم الوليد الكوفة ألفى ابنَ مسعود على بيت المال فاستقرضه مالاً، وقد كانت الولاة تفعل ذلك ثم تردّ ما تأخذ، فأقرضه عبد الله ما سأله. ثم انه اقتضاه إياه. فكتب الوليد في ذلك الى عثمان. فكتب عثمان الى عبد الله بن مسعود: انما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما اخذ من المال.

فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال: كنت أظن أني خازن للمسلمين، فأما اذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك. وأقام بالكوفة بعد القائه مفاتيح بيت المال[1]»

وهكذا تخلص الوليد من ابن مسعود:

جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري «إن الوليد بن عقبة كتب إلى عثمان رضي الله عنه يبغضه على ابن مسعود وإن عثمان رضي الله عنه سيره من الكوفة إلى المدينة وحرّمه عطاءه ثلاث سنين»

---

(1) وقد تطرقنا سابقاً الى الروايات التي تحدثت عن خلاف الخليفة عثمان مع خازن بيت المال عبد الله بن الارقم والذي استقال احتجاجاً على سياسة عثمان المالية. وتلك الروايات فيها عبارات مشابهة لهذه المنسوبة الى ابن مسعود هنا «انما أنت خازن لنا ... والقاء المفاتيح». ولكن لا مانع من قبول الروايتين لأن ابن الارقم كان خازن بيت المال في المدينة بينما ابن مسعود كان خازن بيت مال الكوفة. وليس غريباً تشابه رد الفعل من قبل الرجلين لأن ذلك متوقع من الموظف المخلص الامين تجاه تجاوزات الحاكم.

السبب الثاني، وهو الأشهر: قرار عثمان بحرق كل المصاحف، بما فيها مصحف ابن مسعود، واعتماد نسخة زيد بن ثابت فقط.

وكان مما فاقم من كره ابن مسعود لعثمان وسياساته، ما سبق وقرره عثمان من إحراق مصحفه بالعراق، واعتماد المصحف الذي أوكل مهمة نسخه لزيد بن ثابت، الذي اعتبره ابن مسعود غير مؤهل البتة لهكذا مهمة.

وبعد وفاة الرسول(ص)، أصبح ابن مسعود عَلَماً يلجأ إليه عامة المسلمين، من أهل العراق خاصةً، ليتعلموا القرآن. وكان ابن مسعود قد كتب المصحف، بنفسه وبيده، كما سمعه من رسول الله(ص). وكان فخوراً جداً بمصحفه الذي كان يعتني به كثيراً ويعلمه للناس في العراق مع شروحاته لأسباب نزول الآيات وسيرة النبي(ص).

روى اليعقوبي في تاريخه «*وجمع عثمان القرآن وألفه، وصير الطوال مع الطوال، والقصار مع القصار من السور، وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل، وقيل أحرقها، فلم يبقَ مصحف إلاّ فعل به ذلك...*»[1]

فكان غضب ابن مسعود شديداً بسبب حرق مصحفه هو، واعتماد مصحفٍ يكتبه زيد بن ثابت كنسخة نهائية لعموم المسلمين «*قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما لك لا تقرأ علي قراءة فلان؟ فقال: لقد قرأتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة فقال لي: لقد أحسنت، وإن الذي يسألوني أن أقرأ على قراءته في صلب رجل كافر*» [2]

وفي ترجمة ابن مسعود لدى ابن عساكر (تاريخ دمشق) ليس هناك كلام صريح عن غضب ابن مسعود لحرق مصحفه واعتراضه على عثمان. ولكن هناك إشارات غير مباشرة لذلك. فبعض الروايات تتحدث عن قوله بشأن زيد

---

(1) وحسب تاريخ اليعقوبي ينحصر سبب الخلاف بين ابن مسعود وعثمان في مسألة حرق المصاحف. فهو لم يتحدث عن مشاكل ابن مسعود مع الوليد. وربما يرجع ذلك الى ميل اليعقوبي للاختصار والتلخيص والتركيز على ما هو أشهر.
(2) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري

بن ثابت، دون الإشارة الى عثمان. فقد أخرج روايات الأعمش عن ابي وائل وعلقمة بن قيس وشقيق وفيها ان ابن مسعود قال «*لقد أخذت من في رسول الله (ص) بضعا وسبعين سورة وإن زيد بن ثابت له ذؤابة يلعب مع الغلمان*» أو «*كيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت من في رسول الله(ص) بضعا وسبعين سورة وان زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان*» أو رواية ابي عوانة عن اسماعيل بن سالم عن ابي سعد الأزدي «*أقرأني رسول الله (ص) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت*»

فعبد الله بن مسعود لم يصدّق أن عثمان يختار زيد بن ثابت بالذات لهكذا مهمة حساسة! فرسول الله(ص) كان أكبر من زيد بأربعين سنة على الأقل[1]، وبالتالي لم يكن زيد، بنظر ابن مسعود، قد خالط رسول الله(ص) بما يكفي لكي يختاره عثمان من بين بقية الصحابة الأكبر، والأعلم بالقرآن منه. فقد جاء في سيرة ابن هشام أن زيداً كان حَدثا صغيراً يوم أحد، حتى أن رسول الله(ص) لم يُجزه لكي يكون في الجيش. وبالتالي فإن زيداً كان عمره حوالي 34 عاما فقط في بداية عهد عثمان، على افتراض أن عمره يوم أحد كان 13 عاماً.

العقوبة

ذكر ابن الاثير في أسد الغابة أن عثمان أرسل الى ابن مسعود يأمره بالقدوم الى المدينة فقال له اهل الكوفة «*أقِم ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه*[2]». ثم اورد خبراً آخر عن عيادة الخليفة لابن مسعود أثناء مرضه وعرضه عليه عطاءه، وأن ابن مسعود رفض لأن النبي(ص) قال له ان من قرأ سورة الواقعة لن يصيبه الفقر. وعلق ابن الاثير على هذا الموقف «*وإنما قال له عثمان ألا آمر لك بعطائك لأنه كان قد حبّسه عنه سنتين*[3]...»

(1) ذكر البخاري في التاريخ الصغير أن زيد بن ثابت شهد الخندق وكان ابن خمس عشرة.
(2) وهذا يدل على خشيتهم أن يناله سوء، رغم ان ابن الاثير لم يوضح سبب ذلك
(3) ومن قبيل الامانة العلمية ذكر ابن الاثير الرواية الأخرى المصممة للدفاع عن الخليفة، ولكنه ذكرها بصيغة تشي بتشككه بها «*وقيل: بل كان عبد الله ترك العطاء استغناء عنه*»

وقد أخرج الذهبي (في سير اعلام النبلاء) أن الخليفة أرسل يأمر ابن مسعود بالقدوم من الكوفة فخاف عليه الناسُ «*لما بعث عثمان الى ابن مسعود يأمره بالمجيء الى المدينة، اجتمع اليه الناسُ فقالوا: أقم فلا تخرج، ونحن نمنعك أن يصل اليك شيء تكرهه. فقال: ان له عليّ طاعة، وانها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها. فردّ الناسَ وخرج اليه*»

ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى عن هشام بن عروة عن ابيه أن عثمان حرم ابن مسعود عطاءه لمدة سنتين وأن الزبير ذهب إلى عثمان وطالبه بعطاء ابن مسعود بعد موته وقال له «*أعطني عطاء عبد الله. فأهل عبد الله أحق به من بيت المال.*

فأعطاه عطاءه عشرين ألفاً أو خمسة وعشرين ألفاً»[1]

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر هناك اعتراف ان عثمان منع عن ابن مسعود عطاءه (دون الاشارة الى السبب). ففي رواية عن يحيى بن ابي زكريا الغساني عن هشام «*اوصى عبد الله بن مسعود الى الزبير وكان عثمان بن عفان قد حبس عطاءه سنتين*[2]». وهذه كانت أكثر الروايات صراحة ان عثمان منعه عطاءه، ولكن حتى سياق غيرها – المخففة – يوحي بذلك ايضا. فمثلا رواية شجاع عن ابي فاطمة ان عثمان لما عاده في مرضه قال له «*أفلا نأمر لك بعطائك؟ قال: لا حاجة لي فيه اليوم. قال: تدعه لأهلك وعيالك. قال: قد علمتهم شيئا اذا قالوه لم يفتقروا: سمعت رسول الله(ص) يقول: من قرأ الواقعة كل ليلة لم يفتقر*».

وهناك روايات تقول ان عقوبة ابن مسعود لم تقتصر على حرمانه من عطائه، بل انه تعرض الى عقوبة جسدية (الضرب). ومن ذلك النص الذي أورده ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح وفيه يلوم الزبيرُ بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته، وكان مما فيه «*مالك ولعبد الله بن مسعود هجرتَ قراءته*

---

(1) لم يوضح ابن سعد هنا طبيعة المشكلات بين الخليفة وابن مسعود.
(2) ونفس هذه الرواية أخرجها ابن عساكر أيضاً عن طريق الفضل بن دكين عن حفص بن غياث عن هشام بن عروة بن الزبير

وأمرتَ بدوس بطنهِ، فهو في بيته لما به وقد اقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عثمان: إن الذي بلغني من ابن مسعود أكثر مما بلغت منه، وذاك أنه قال: وددتُ أني وعثمان برمل عالج يحث علي وأحث عليه حتى يموت الأعجز منا»

ومن هؤلاء اليعقوبي الذي روى في تاريخه «*وكان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع ان يدفع مصحفه الى عبد الله بن عامر*[1]*، وكتب اليه عثمان: أن أشخصه، إنه لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الامة فساداً.*

فدخل المسجدَ وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء! فكلمه ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان فجرّ برجله حتى كسر له ضلعان، فتكلمت عائشة وقالت قولا كثيراً ....»

وقد ذكرنا سابقاً رواية البلاذري في أنساب الأشراف التي تذكر أن عثمان قد أمر بإخراجه بعنف من المسجد فتم الاعتداء عليه وضربه بقسوة مما استدعى تدخل علي بن ابي طالب لرعايته. وفي نفس تلك الرواية وصف عثمان الشنيع له «*دويبة سوء*»

وعلى الرغم من روايات ابن أعثم واليعقوبي والبلاذري هذه، إلاّ أنني استبعد أن يكون عبد الله بن مسعود قد تعرض للضرب والاهانة بهذه الطريقة (الدوس ببطنه، كسر ضلعه...). فالاغلب وجود مبالغة هنا. كذلك الأمر بالنسبة لكلمة عثمان «دابة سوء»، فلا يعقل أن يستقبله بشتيمة كهذه لدى دخوله المسجد. فما أرجحه هو قيام عثمان بلومه وعتابه بلهجة حازمة واتهامه بخلق الشقاق والخلاف فدافع عن نفسه فاستفز عثمانَ فقام بإهانته وطرده من المسجد وحرمه من عطائه. وربما تعرض ابن مسعود للدفع الخشن من قبل بعض رجال الخليفة مما أدى الى سقوطه وإصابته.

نهاية ابن مسعود

واستمر هذا العقاب القاسي إلى أن شارف ابن مسعود على الموت.

(1) ويلاحظ هنا خطأ الرواي في ذكر عبد الله بن عامر الذي كان والياً على البصرة، لا الكوفة.

عندها رقّ الخليفة فذهب يعوده عارضاً عليه عطاءه الذي حرمه منه لسنوات طويلة، ولكنه تلقى صفعة مؤلمة من ابن مسعود، صاحب النفس الأبية:

«لما بلغ عثمان أن عبد الله مريض، حمل إليه عطاءه خمسة عشر ألفا، وكان عطاء البدريين خمسة آلاف. فدخل عليه عثمان رضي الله عنه فقال: كيف تجدك؟

قال: مردود إلى مولاي الحق.

قال: يرحمك الله. كأنها ظنة، هذا عطاؤك خمسة عشر ألفا فاقبضه.

قال: منعتنيه إذ كان ينفعني! فأنا آخذه منك يوم القيامة.

فانصرف ولم يقبل عطاءه»[1]

وقد بلغ من شدة كره ابن مسعود للخليفة وشعوره بالظلم أنه أوصى ألاّ يصلي عليه عثمان ! فجاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري:

«أوصى عبد الله إلى الزبير وأمَرَه ألاّ يصلّي عليه عثمان.

فلما مات عجّله.

وانتهى عثمان رضي الله عنه إلى القبر حين رفعوا أيديهم من التراب.

فقال: يا زبير! لم لم تؤذن أمير المؤمنين ولم تعلمه؟

قال الزبير: إنما كرامة الميت تعجيله.

فقال عثمان رضي الله عنه: فعلتَ هذا عمداً، لم يكن بك تعجيله. لولا أن تكون سنة لنبشته حتى أصلي عليه. فقال الزبير: ما كنتَ تصل إلى ذاك. وتفرقا»[2].

وواضح من النص كيف أن الخليفة شعر بإهانة عظيمة بسبب وصية ابن مسعود إلى حد انه فكر بإخراجه من القبر ليصلي عليه ثم يعاد دفنه!

ويذكر ابن الاثير في أسد الغابة ان عبد الله بن مسعود توفي سنة 32

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري
(2) وأيضاً روى خليفة بن خياط في طبقاته أن الزبير بن العوام هو الذي صلى على ابن مسعود بعد وفاته.

للهجرة «وصلى عليه عثمان، وقيل صلى عليه عمار بن ياسر، وقيل صلى عليه الزبير ودفنه ليلاً، أوصى بذلك. وقيل لم يعلم عثمان رضي الله عنه بدفنه فعاتب الزبيرَ على ذلك»

وروى اليعقوبي في تاريخه «واعتلّ ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرتُ الذي فعلته بي: انك أمرتَ بي فوطئ جوفي، فلم أعقل صلاة الظهر، ولا العصر، ومنعتني عطائي.

قال: فإني أقيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعلتُ بك!

قال: ما كنتُ بالذي أفتح القصاص على الخلفاء. قال: فهذا عطاؤك فخذه.

قال: منعتنيه وانا محتاج اليه، وتعطينيه وانا غني عنه؟ لا حاجة لي به.

فانصرف. فأقام ابن مسعود مغاضبا لعثمان حتى توفي. وصلى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غائباً فستر أمره. فلما انصرف رأى عثمان القبرَ فقال: قبر من هذا؟ فقيل: قبر عبد الله بن مسعود قال: فكيف دفن قبل أن أعلم؟ فقالوا: ولي أمره عمار بن ياسر. وذكر أنه أوصى ألاّ يخبر به ...»

وقال ابن سعد في الطبقات الكبرى «قال محمد بن عمر: وقد روي لنا انه صلى على عبد الله بن مسعود عمارُ بن ياسر. وقال قائل: صلى عليه عثمان بن عفان. واستغفر كل واحد منهما لصاحبه قبل موت عبد الله.

قال: وهو أثبتُ عندنا ان عثمان بن عفان صلى عليه»

وروى الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عروة أن عثمان كان قد حرم ابنَ مسعود عطاءه لمدة سنتين، فلما مرض ابنُ مسعود جاءه عثمان عائداً وعرض عليه أن يأمر له بعطاء فرفض وقال: لا حاجة لي به.

وروى ايضاً أن ابن مسعود قد أوصى الى الزبير ان يصلي عليه، وان الزبير قد راجع عثمان بعد وفاته وطالبه بعطاء ابن مسعود «أعطني عطاء عبد الله، فعيال عبد الله أحق به من بيت المال. فأعطاه خمسة عشر ألفاً»

واخيرا فإن أغلب الروايات التي ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق تشير الى ان عبد الله بن مسعود قد أوصى للزبير وانه الذي صلى عليه (وليس عثمان كما هو مفترض كونه الخليفة)، وان الزبير قد أخذ عطاءه من عثمان بعد وفاته

وهو خمسة عشر الفا لعياله. وتوجد روايات قليلة تشير ان الذي صلى عليه كان عمار بن ياسر «أو عثمان بن عفان».

انحياز بعض الرواة والمؤرخين ضد ابن مسعود

ومن هؤلاء الامام الذهبي. فهو في ترجمة ابن مسعود من سير أعلام النبلاء لم يورد أي شيء عن علاقته بالوليد بن عقبة. ولكنه ذكر الروايات التي تفيد بغضبه من تولية زيد بن ثابت كتابة المصحف وبأنه كان يعارض ذلك لعدم أهلية زيد بنظره. ففي رواية *«قال عبد الله: لقد قرأتُ من في رسول الله(ص) سبعين سورة، وزيد له ذؤابة يلعب مع الغلمان»* وفي رواية أخرى انه قال عن زيد *«والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صلب أبيه كافر»*.

وقد دافع الذهبي عن عثمان ولام ابن مسعود على موقفه الرافض لزيد بن ثابت فقال *«انما شق على ابن مسعود لكون عثمان ما قدمه على كتابة المصحف، وقدم في ذلك من يصلح أن يكون ولده. وانما عدل عنه عثمان لغيبته عنه بالكوفة، ولأن زيداً كان يكتب الوحي لرسول الله(ص)، فهو إمام في الرسم، وابن مسعود فإمام في الاداء. ثم ان زيداً هو الذي ندَبَهُ الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن، فهلا عتب على أبي بكر؟ وقد ورد ان ابن مسعود رضي وتابع عثمان ولله الحمد. وفي مصحف ابن مسعود أشياء أظنها نسخت. وأما زيد فكان أحدثَ القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي(ص) عام توفي على جبريل»*

وهذا رأي له وجاهة من قبل الامام الذهبي. وهو لا يستند الى تزييف للحقائق التي لا ينكرها (بشأن الخلاف الذي حصل). ولذلك يجب احترام رأيه. وهذا يختلف عن سيف بن عمر الذي يسعى لترويج آرائه المؤيدة لعثمان عن طريق اختلاق الروايات وتلفيقها.

فهكذا جاءت روايات سيف بن عمر كما ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق: فقد ذكر احتكاكاً بين ابن مسعود والوليد، ولكنه روى ذلك في سياق الدفاع عن الوليد وتبرئته! فبعد ان تحدث عن كيد الحاقدين على الوليد له، ودخولهم عليه وقصة «قطف العنب» الذي وجدوه مخفيا لديه اضاف *«فقالوا:*

الوليد يعكف على الخمر، وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسن الناس. فقال ابن مسعود: من استتر منا بشيء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره.

فأرسل الى ابن مسعود فأتاه فعاتبه في ذلك وقال: يرضى من مثلك بان يجيب أقواما موتورين؟ على أي شيء أستتر به؟ انما يقال هذا للملجلج.

فتلاحيا وافترقا على تغاضب. ولم يكن بينهما أكثر من ذلك»

كما هبّ سيف بن عمر لإنقاذ سمعة عثمان «*كان ابن مسعود قد ترك عطاءه حين مات عمر*[1]*. وفعل ذلك رجال من اهل الكوفة أغنياء. واتخذ ضيعة براذان فمات عن تسعين الف مثقال سوى رقيق وعروض وماشية بالسيلحين. فلما رأى الشر ودنو الفتنة استأذن عثمان فلم يأذن له قرب موته فقدم على عثمان فلم يلبث ان مات. فوليه عثمان وبينهما أشهر*» وواضح مدى التهافت في هذه الرواية التي جعلت من ابن مسعود رجلا غنيا اقطاعيا له ضياع واموال وعبيد وماشية في نواح من العراق بحيث قرر ان يتخلى عن عطائه «حين مات عمر؟»، كما ان الفارق الزمني بين وفاة ابن مسعود وعثمان لم يكن بضعة أشهر بل سنوات. فابن مسعود مات حسْب أغلب الروايات سنة 32 للهجرة بينما قتل عثمان سنة 35 ! وبالتالي يكون قول سيف «*لما رأى الشر ودنو الفتنة*» مردودا عليه بالتأكيد.

وأما ابن كثير في البداية والنهاية فقد أغفل الحديث عن أي خلافات بين ابن مسعود وعثمان في خلال استعراضه لوفاة ابن مسعود. ويبدو التعمد واضحاً في إخفاء المعلومات من طرف ابن كثير: فهو يتحدث عن عيادة عثمان لابن مسعود في مرضه وعرضه عليه عطاءه «*وكان قد تركه سنتين*» وامتناع ابن مسعود عن أخذه ورفضه حتى أن يعطيه لبناته من بعده «*لأنه أوصاهن بقراءة سورة الواقعة التي لن يفقر من يقرأها كل ليلة*». ولم يشر ابن كثير إلى مشاكل ابن مسعود مع الوليد ولا إلى حرق مصحفه. ورغم ذلك يعترف أن ابن مسعود قد أوصى للزبير «*فيقال انه هو الذي صلى عليه ليلاً، ثم عاتب عثمان الزبير على ذلك، وقيل بل صلى عليه عثمان، وقيل عمار، فالله اعلم*». لم يذكر ابن كثير الأسباب.

---

(1) والذهبي أيضاً (في سير أعلام النبلاء) روى عن سيف بن عمر ما يشير الى ان ابن مسعود كان قد ترك عطاءه طواعية «ان ابن مسعود ترك عطاءه حين مات عمر» دون أن يذكر السبب الذي يجعله يأخذ عطاء عمر ويرفضه في زمن عثمان؟

ثالثاً: ما حصل لعمار بن ياسر على أيدي الخليفة عثمان[1]

خلفيات العلاقة بين عمار وعثمان

كان عمار بن ياسر من المشهورين في السبق للإسلام، هو ووالداه. وكانوا من المستضعفين في مكة، من حلفاء بني مخزوم. وبعد دخولهم في الإسلام تعرّضوا لتعذيب فظيع على أيدي جبابرة قريش، وبني مخزوم بالأخص، مما أدى إلى استشهاد أبويه الذين قتلا وهما تحت التعذيب من أبي جهل وأضرابه. وأما عمار فقد عذبه القرشيون حتى اضطرّوه أن يشتم محمداً(ص) لكي ينقذ نفسه من الموت. وقد أقرّه النبي(ص) على ذلك وقال له إنه ما دام قلبه مطمئناً بالإيمان فلا بأس أن يقول للجبابرة ما يرضيهم. فالرسول(ص) كان يحبّه، وكان يؤلمه جداً ما يتعرّض له عمار من اعتداء وحشي بسبب إيمانه.

ونتيجة لتاريخه المجيد والمشرّف منذ بدء دعوة الإسلام في مكة، كان النبي(ص) يحتفظ لعمار بمودّة خاصّة، صادرة من أعماق نفسه الكريمة التي كانت لا ترى في عمار ذلك المولى المستضعف ذي الأصل المتواضع، بل نموذجاً للمسلم المثالي، ويظهر ذلك حتى في اللغة التي كان يستعملها النبي(ص) في وصف عمار، فمثلاً:

«جاء عمار بن ياسر يستأذن على النبي(ص) فقال: ائذنوا له. مرحباً بالطيب المطيب»[2]

---

(1) مصادر هذا البحث: السيرة النبوية لابن هشام (ج2 ص122)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص260)، سنن الترمذي (ص 332 ج5 باب مناقب عمار بن ياسر حديث3888)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص172)، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري (ج3 ص391)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص 50)، العقد الفريد لابن عبد ربه (ج5 ص57)، ترجمة علي بن ابي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص315)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص162) ،شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج3 ص48) و(ج10 ص102)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3ص1091-ص1098 و ص1099-1102)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص420)، تاريخ الطبري (ج3 ص394 و ص 428)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج 2 - ص372- ص373- 393)، الاصابة لابن حجر العسقلاني (ج7 ص259)، تاريخ الإسلام للذهبي (ج 4 - ص 135)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (ص481)، والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص191)

(2) سنن الترمذي باب مناقب عمار بن ياسر

فكان عمار يرى في رسول الله (ص)، ودينه ودعوته، ملاذا له من جبروت عظماء قريش، وطريقا للخلاص من ظلمها. ورغم أن أخوة الاسلام قد جمعته مع الصحابي عثمان بن عفان، خاصة في مراحل الاسلام الاولى، إلا أن كل الدلائل تشير الى أن عماراً كان ينظر بريبة وتوجس الى عثمان، ذلك التاجر الثري، ذي المكانة الرفيعة في قريش، ويعتبره وجهاً آخر، مُحَسّناً، للقبيلة التي لا مكان فيها للضعفاء والفقراء من امثاله.

وهناك مؤشرات على ان العلاقة بين عمار وعثمان لم تكن على ما يرام، حتى أيام النبي(ص).

فمن المفيد التأمل في خبر ورد في السيرة النبوية لابن هشام، ويفيد بأنه أثناء انتداب الرسول (ص) لأصحابه لبناء مسجده بعد وصوله إلى المدينة، وانخراطه هو شخصياً في العمل المرهق لكي يشجعهم ويكون قدوة لهم، كان عمار يعمل بهمة ونشاط شديدين، حتى انه كان يحمل أثقالاً كبيرة من اللبن. وذكر ابن اسحق «*وارتجز علي بن أبي طالب رضي الله عنه يومئذ :*

لا يستوي مَن يعمر المساجدا   يدأبُ فيه قائماً وقاعدا

ومَن يُرى عن الغبار حائدا»

وظاهر سياق الرواية يشير الى أن الامام علياً ارتجز هذه العبارات لأنه رأى البعض من الصحابة يأنف عن العمل الشاق.. فأثار موقفهم ذاك حفيظة عمار بن ياسر، الذي أخذ يردد بصوت عال ما ارتجزة علي بن ابي طالب (وهو يقصد ان يسمعوه).

ويضيف ابن هشام أنه عندئذ «*ظنّ رجلٌ من أصحاب رسول الله(ص) أنه إنما يعرّض به.*

فيما حدثنا زياد بن عبد الله البكائي، عن ابن اسحاق. وقد سمّى ابنُ اسحاق الرجلَ.

فقال: قد سمعتُ ما تقولُ منذ اليوم يا ابن سميّة. والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفكَ ! وفي يده عصا.

فغضب رسول الله (ص) ثم قال: ما لهم وعمار؟! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار. إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي. فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه»

والملاحظة المهمة على هذه الرواية أن ابن هشام قد تدخل فيها بشكل فظ، للتغطية على شخص الصحابي الذي اشتبك مع عمار بن ياسر. (أنا أقول ان عثمان بن عفان كان ذلك الرجل. فكل شيء يشير الى ذلك. ولا عجب أن يتدخل ابن هشام بهذا الشكل الصارخ في الرواية. ففي هذه الحادثة ما لا يتسق مع المقام الرفيع الذي يتمتع به الخليفة الثالث لدى ابن هشام ومن على رأيه. فابن هشام قرر أن يجدّ حلاً للمعضلة مع المحافظة على ذكر الحادثة لكي يرضي ضميره ويقنع نفسه بأنه لم يحذف سيرة النبي(ص) نفسها! فكان الحل عنده أن يروي معظم الرواية دون أن يذكر فيها اسم عثمان، لكي يبقى الرجل الذي أغضب عماراً وتدخل الرسول(ص) ضده، مجهولاً للقارئ. وهكذا فإن ابن هشام قرر أن يبقي اسم عثمان طيّ الكتمان، واستبدله بـ «رجلٌ من أصحاب رسول الله»، رغم أنه اعترف بأن ابن اسحاق، صاحب السيرة الأصلي، قد سمّى ذلك الرجل صراحة.

فيبدو أن عثمان بن عفان، وهو التاجر المرموق، كان يشارك بقية المسلمين مجاراة للرسول(ص) لا أكثر، وليس عن رغبة ولا همة، لأن ذلك النوع من العمل لا يناسب مقامه. ويبدو أنه كان يتثاقل في نقل اللبن ويُظهرُ اهتماماً زائداً بالمحافظة على نظافة ثيابه وأكمامه، فينفضها من الغبار باستمرار. والأرجح أنه شعر بالضيق والاستياء مما ارتجزه علي بن ابي طالب ولكنه كتم مشاعره لمكانة علي من النبي (ص). ولكنه لما سمع عماراً يكررها وعرف أنه المقصود، لم يتمالك نفسه، فغضبَ وهدّد عماراً بالضرب، مما أدى إلى تدخل الرسول (ص) إلى جانب عمار ووقفه لعثمان عند حدّه.

وسوف يأتي الحديث فيما بعد عن الحديث النبوي المتواتر «تقتلك الفئة الباغية» والذي قاله النبي (ص) بحق عمار.

وأما لماذا نقول ان عثمان بن عفان هو عين الصحابي الذي أخفى ابن هشام اسمه؟ فلا دليل لدينا سوى جمع القرائن والترجيح.

فسيرة عمار مع الخليفة عثمان مليئة بالخلافات والصراع.

فبعد انتصار النبي(ص)، بقي عمار كارهاً لعظماء قريش ووجوهها، وإلى آخر يوم في حياته.

وكان عمار متمسكاً بشخص رسول الله(ص)، وآله من بعده. وتمثّل ذلك في ولائه العظيم لعليّ بن أبي طالب من بعده. كان عليّ بنظر عمار امتداداً حقيقياً للنبي(ص) وحكمه، وضمانةً. ومن الواضح أن عماراً كان يشمئز من الحكم القرشي ويرى في عليّ الضمانة الوحيدة دون عودة الوجوه القديمة إلى الصدارة، بقناع جديد.

وعثمان بن عفان، بنظر عمار، هو رمز قريش في حلّتها الجديدة. واختيار قريشٍ لعثمان خليفةً كان اعتداءً على حقّ عليّ وإبعاداً مقصوداً لآل الرسول(ص) عن مقاليد الحكم التي يستحقونها.

وفي عهد عثمان بن عفان، طفحَ الكيلُ بعمار بن ياسر. وأغلب الظن أنه كان كلما رأى الطلقاء من وجهاء بطون قريش يتذكر أمه وأباه وكل المستضعفين من أمثاله الذين كانوا يعانون على أيدي هؤلاء الجبابرة. فكم كان تألمه عظيماً وهو يرى أبناء طلقاء قريش، أعداء الرسول القدماء، وقد تسلموا ولاية امور المسلمين. وحين كان يسمع أبناء ارستقراطية قريش[1] وهم يصفونه تارة ب «العبد الأسود» وتارة بـ«ابن السوداء» وتارة بـ«ابن سمية»، كان يشعر أن كل ما بناه الرسول(ص) في طريقه إلى الانهيار. فسمية هذه التي يعيرونه بها هي أول شهيدة في الإسلام!

وقد تمسّك عمارٌ بموقفٍ شديد العداء تجاه عثمان، وبقي عليه حتى عندما كان عثمان يمر بأحلك الظروف. فلأنّ عثمان يعرف أن عماراً ربما يكون مسموع الكلمة لدى الثوار الذين جاؤوا من مصر وحاصروه، طلب

---

(1) روى الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين حادثة نزاع بين خالد بن الوليد وعمار وصفَ خلالها خالدٌ عماراً بأنه «ابن سمية» وأن رسول الله(ص) أجابه *«يا خالد: لا تسُب عماراً، فإنه مَن يسُب عماراً يسبّه الله ومَن يبغض عماراً يبغضه الله ومَن يسفه عماراً يسفهه الله»*

من سعد بن ابي وقاص أن يذهب لعمار ليطلب منه أن يخرج مع علي بن ابي طالب وغيره من الصحابة الذين حاولوا التوسّط وردّ الثوار الى مصرهم، ولكن عماراً رفض وبكل تصميم! روى الطبري في تاريخه عن الواقدي «وأرسل عثمان الى عمار بن ياسر يكلمه أن يركب مع علي، فأبى!

فأرسل عثمان الى سعد بن ابي وقاص فكلمه أن يأتي عماراً فيكلمه أن يركب مع علي.

قال: فخرج سعد حتى دخل على عمار فقال: يا ابا اليقظان: ألا تخرج فيمن خرج؟ وهذا عليٌّ يخرج فاخرج معه واردد هؤلاء القوم عن إمامك، فإني لأحسب انك لم تركب مركباً هو خير لك منه.....

فكلمه سعد وجعل يفتله بكل وجه.

فكان آخر ذلك أن قال عمار: والله لا أردهم عنه أبداً»

وقد بلغت حدة العداء بين الخليفة وعمار الى درجة ان معاوية بن ابي سفيان قد اختص عماراً بتهديد صريح عام 34 للهجرة في معرض زيارته للمدينة واجتماعه مع عثمان وبقية الولاة. فقد روى ابن شبة في تاريخ المدينة «*حدثنا علي بن محمد، عن أبي دينار – رجل من بني دينار ابن النجار –، عن أبي معبد الأسلمي، عن قيس بن طلحة قال: خرج معاوية رضي الله عنه من عند عثمان رضي الله عنه فمر به نفر من المهاجرين فقال: استوصوا بشيخي هذا خيرا، فوالله لئن قتل لا أعطيكم إلا السيف!*

ثم أتى عمارا فقال: أبا اليقظان، إني تركت بالشام أكثر من عدد أهل الحجاز، كلهم شجاع فارس، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويحج البيت، لا يعرف عمارا ولا سابقته، ولا عليا ولا قرابته، فإياك أن تنجلي الغمة فيقال هذا قاتل عمار!

فقال: أبالقتل تخوفني؟ والله يا بني أمية لا تسبوني ونقول أحسنتم»

واما من الروايات، فيمكن الاشارة الى ما ذكره أبو الغادية الجهني، وهو الشخص الذي قتل عمار بن ياسر في معركة صفين عام 36 للهجرة. فهو كان يفتحر لدى أسياده من بني أمية بأنه شخصياً قد خلصهم من «ابن سمية»! روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن كلثوم بن جبر أن أبا الغادية هذا قال «*إنا كنا*

نعد عمار بن ياسر فينا حنانا. فبينا أنا في مسجد قباء إذ هو يقول ألا إن نعثلا هذا ،لعثمان، فالتفت، فلو أجدُ عليه أعوانا لوطئته حتى أقتله! قال قلت اللهم إنك إن تشأ تمكني من عمار فلما كان يوم صفين...»[1]

وروى ابن سعد أيضا «أخبرنا أبو حفص وكلثوم بن جبر عن أبي غادية قال: سمعت عمار بن ياسر يقع في عثمان يشتمه بالمدينة. قال فتوعدته بالقتل قلت لئن أمكنني الله منك لأفعلن»[2]

وقال الذهبي في تاريخ الاسلام بشأن أبي الغادية «وقال ابن عبد البر: أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام. وقال الدارقطني وغيره: هو قاتل عمار بن ياسر يوم صفين. وقال حماد بن سلمة: ثنا كلثوم بن جبر، عن أبي الغادية قال: سمعت عمار بن ياسر يشتم عثمان، فتوعدته بالقتل، فلما كان يوم صفين طعنته، فوقع، فقتلته»

ورغم أن هناك احتمالاً أن يكون أبو الغادية حريصاً على نيل رضا الأسياد من بني أمية، من اجل الحظوة عندهم، عن طريق التأكيد على انه قتل عماراً «الذي كان يشتم عثمان»، إلا أنه لا يوجد ما يمنع من أن عماراً كان بالفعل يقع في عثمان علناً في المدينة.

وكان ما جرى لأبي ذر الغفاري على يد عثمان سبباً إضافياً لمشكلة كبيرة بين عثمان وعمار، كادت أن تتطور لولا تدخل علي بن ابي طالب، وبني مخزوم. روى اليعقوبي في تاريخه:

«...فلما بلغ عثمانَ وفاة ابي ذر قال: رحم الله ابا ذر!

قال عمار: نعم رحم الله ابا ذر من كل أنفسنا!

فغلظ ذلك على عثمان. وبلغ عثمانَ عن عمار كلام، فأراد أن يسيره ايضاً.

---

(1) وأخرج البلاذري في أنساب الأشراف هذه الرواية بسنده الى كلثوم بن جبر نفسه، وفيها ان أبا الغادية قال هذا الكلام بحضرة عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كريز بواسط القصب.

(2) وقد روى ابن حجر العسقلاني في الاصابة هاتين الروايتين عن ابي الغادية نقلا عن يعقوب بن شيبة واحمد بن حنبل وابن سعد، من طريق كلثوم بن جبر أيضا.

فاجتمعت بنو مخزوم الى علي بن ابي طالب وسألوه إعانتهم فقال علي: لا ندع عثمان ورأيه. فجلس عمار في بيته.

وبلغ عثمانَ ما تكلمت به بنو مخزوم فأمسك عنه»

وقد روى ابن أعثم في كتاب الفتوح هذا الخبر كما يلي:

«وبلغ ذلك عثمان فقال: رحم الله يا أبا ذر!

فقال عمار بن ياسر: فرحم الله أبا ذر من كل قلوبنا!

قال: فغضب عثمان ثم قال: يا كذا وكذا أتظن أني ندمت على تسييره إلى ربذة؟

قال عمار: لا والله ما أرى ذلك!

قال عثمان: ادفعوا في قفاه، وأنت فالحق بالمكان الذي كان فيه أبو ذر ولا تبرحه أبداً ما بقيت وأنا حي.

فقال عمار: والله إن جوار السباع لاحب إلي من جوارك، ثم قام عمار فخرج من عنده.

قال: وعزم عثمان على نفي عمار، وأقبلت بنو مخزوم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقالوا: إنه يا أبا الحسن قد علمت بأنا أخوال أبيك أبي طالب، وهذا عثمان بن عفان قد أمر بتسيير عمار بن ياسر، وقد أحببنا أن نلقاه فنكلمه في ذلك ونسأله أن يكف عنه ولا يؤذينا فيه، فقد وثب عليه مرة ففعل به ما فعل وهذه ثانية، ونخاف أن يخرج معه إلى أمر يندم ونندم نحن عليه، فقال: أفعل ذلك فلا تعجلوا، فوالله! لو لم تأتوني في هذا لكان ذلك من الحق الذي لا يسعني تركه ولا عذر لي فيه.

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه حتى دخل على عثمان فسلم وجلس فقال: اتق الله أيها الرجل وكف عن عمار وغير عمار من الصحابة، فإنك قد سيرت رجلا من صلحاء المسلمين وخيار المهاجرين الأولين حتى هلك في تسييرك إياه غريباً، ثم إنك الآن تريد أن تنفي نظيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم!

فقال عثمان: لانت أحق بالمسير منه، فو الله ما أفسد علي عمارا وغيره سواك!

فقال علي رضي الله عنه: والله يا عثمان! ما أنت بقادر على ذلك ولا إليه بواصل فروم ذلك إن شئت، وأما قولك: إني أفسدهم عليك، فوالله ما يفسدهم عليك إلا نفسك، لأنهم يرون ما ينكروه فلا يسعهم إلا تغيير ما يرون.

قال: ثم وثب علي رضي الله عنه فخرج واستقبله الناس فقالوا له: ما صنعت يا أبا الحسن؟

فقال: صنعت إنه قال لي كذا وكذا وقلت له كذا، فقالوا له: أحسنت والله وأصبت يا أبا الحسن! فو الله لئن كان هذا شأن عثمان ورأيه فينا كلما غضب على رجل منا نفاه إلى بلد غير بلده فلا يموت أحد منا إلا غريبا في غير أهل ولا عشيرة، وإلى من يوصي الرجل عند موته وبمن يستعين فيما ينويه، والله! لئن نموت في رحالنا خير لنا من حياة الأبد بالمكان الذي مات فيه أبو ذر رحمة الله تعالى.

قال: ثم أقبل علي رضي الله عنه على عمار بن ياسر فقال له: اجلس في بيتك ولا تبرح منه، فإن الله تبارك وتعالى مانعك من عثمان وغير عثمان، وهؤلاء المسلمون معك، فقالت بنو مخزوم: والله يا أبا الحسن! لئن نصرتنا وكنت معنا لا وصل إلينا عثمان بشيء نكرهه أبدا.

وبلغ ذلك عثمان فكف عن عمار وندم على ما كان منه»

حادثة ضرب عمار

رغم أن الأخبار بشأن الخلافات الحادة بين عمار وعثمان قد انتشرت حتى بلغت حد التواتر، إلاّ أن شيوخ التاريخ كانوا أكثر تحفظاً في ذكر واقعة الضرب الجسدي الذي تعرض له عمار بن ياسر كعقاب له من الخليفة. فيبدو أن بعضهم قد رأى في هذه الواقعة ما يشين الخليفة عثمان، وبعضهم ربما رأى فيها ما يسيء الى مقام الصحابة عموماً، فقرر الاعراض عنها.

ومع ذلك فيمكن الوصول الى تفاصيل ما حدث من خلال الكثير من المصادر.

ومن أكثر الروايات تفصيلاً في هذا الشان ما جاء في الإمامة والسياسة لابن قتيبة :

«اجتمع ناسٌ من أصحاب النبي (ص)، فكتبوا كتاباً ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله وسنة صاحبيه.

وما كان من هبته خمس افريقية لمروان وفيه حق الله ورسوله، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين.

وما كان من تطاوله في البنيان حتى عدّوا سبع دور بناها بالمدينة: داراً لنائلة وداراً لعائشة وغيرهما من أهله وبناته.

وبنيان مروان القصور بذي خشب، وعمارة الأموال بها من الخمس الواجب لله ورسوله.

وما كان من إفشائه العمل والولايات في أهله وبني عمه من بني أمية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول(ص) ولا تجربة لهم بالأمور.

وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة إذ صلى بهم الصبح وهو أمير عليها سكران أربع ركعات ثم قال لهم: إن شئتم أزيدكم صلاة زدتكم، وتعطيله إقامة الحد عليه وتأخيره ذلك عنه.

وتركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم واستغنى برأيه عن رأيهم .

وما كان من الحِمى الذي حَمى حول المدينة.

وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص)، ثم لا يغزون ولا يذبون.

وما كان من مجاوزته الخيزران إلى السوط، وإنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس، وإنما كان ضرب الخليفتين من قبله بالدرة والخيزران.

ثم تعاهد القوم ليدفعن الكتاب بيد عثمان. وكان ممن حضر الكتاب عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود. وكانوا عشرة.

فلما خرجوا بالكتاب ليدفعوه إلى عثمان والكتاب بيد عمار، جعلوا يتسللون عن عمار حتى بقي وحده. فمضى حتى جاء دار عثمان فاستأذن عليه، فأذِنَ له في يوم شاتٍ.

فدخل عليه وعنده مروان بن الحكم وأهله من بني أمية.

فدفع إليه الكتاب. فقرأه. فقال له: أنت كتبتَ هذا الكتاب ؟

قال: نعم.

قال: ومَن كان معك؟

قال: كان معي نفر تفرقوا فَرَقاً منك.

قال: مَن هم؟

قال: لا أخبرك بهم.

قال: فلِمَ اجترأتَ عليّ من بينهم؟

فقال مروان: يا أمير المؤمنين! إن هذا العبد الأسود (يعني عمارا) قد جرّأ عليك الناس، وإنك إن قتلته نكلتَ به من وراءه.

قال عثمان: اضربوه.

فضربوه وضَرَبه عثمانُ معهم حتى فتقوا بطنه. فغشي عليه، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار.

فأمرت به أم سلمة زوج النبي (ص) فأدخل منزلها»

والرواية هذه أخرجها ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح ضمن سياق إسناد جمعي نقلاً عن شيوخ الاخباريين :

«قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وأبي محصن عن أبي وائل، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال:

حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: حدثني لوط به يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عيينة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلانية .

وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد»

والنص هو:

«واجتمع نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ثم إنهم كتبوا كتابا وذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة إلى ذلك اليوم، ثم إنهم خوفوه في الكتاب وأعلموه [أنه -] إن لم ينزع عما هو عليه خلعوه واستبدلوا به غيره. قال: فكتبوا هذا الكتاب ثم قالوا ننطلق به جميعا حتى نضعه في يده، فإننا إن ذهبنا نكلمه وليس معنا كتاب لم يحضرنا من الكلام ما نريد، ثم أقبلوا على عمار بن ياسر وقالوا له: يا أبا اليقظان ! هل لك أن تكفينا هذا الامر وتنطلق بالكتاب إلى عثمان ؟ فقال عمار: أفعله.

ثم أخذ الكتاب وانطلق إلى عثمان، فإذا عثمان وقد لبس ثيابه وخفيه في رجليه، فلما خرج من باب منزله نظر إلى عمار واقفا والكتاب في يده فقال له: حاجة يا أبا اليقظان ؟

فقال عمار: مالي حاجة ولكنا اجتمعنا فكتبنا كتابا نذكر فيه أمورا من أمورك لا نرضاها لك، قال: ثم دفع إليه الكتاب.

فأخذه عثمان فنظر فيه حتى قرأ سطرا منه، ثم غضب ورمى به من يده!

فقال له عمار: لا ترم بالكتاب وانظر فيه حسنا فإنه كتاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا والله ناصح لك!

فقال له عثمان: كذبت يا بن سمية !

فقال عمار: أنا والله ناصح لك !

فقال عثمان: كذبت يا بن سمية !

فقال عمار: أنا والله ابن سمية وابن ياسر.

قال: فأمر عثمان غلمانه، فضربوه ضربا شديدا حتى وقع لجنبه، ثم تقدم إليه عثمان فوطئ بطنه ومذاكيره، حتى غشي عليه وأصابه الفتق، فسقط لما به لا يعقل من أمر شيئا.

قال: واتصل الخبر ببني مخزوم، فأقبل هشام بن الوليد بن المغيرة في نفر من بني مخزوم فاحتملوا عمارا من موضعه ذلك وجعلوا يقولون: والله لئن مات الآن لنقتلن به شيخا عظيما من بني أمية، ثم انطلقوا بعمار إلى منزله مغشيا عليه، فلم يصل ظهرا ولا عصراً ولا مغربا ولا عشاء حتى ذهب بعض الليل، ثم أفاق بعد ذلك من غشيته فقام فقضى ما فاته من صلواته كلها. قال: فكان هذا من إحداثه الذي نقموا عليه»

كما أورد ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح نصاً يلوم فيه الزبير بن العوام الخليفة عثمان على تصرفاته، وكان مما فيه «فما لك ولعمار بن ياسر أمرتَ بدوسِ بطنِهِ حتى أصابَهُ الفتق؟ فقال: لأنه أراد أن يغري الناسَ بقتلي»

وأخرج ابن عبد ربه في العقد الفريد القصة عن الاعمش كما يلي «كتب أصحاب عثمان عيبه وما ينقم الناس عليه في صحيفة. فقالوا: من يذهب بها اليه؟ قال عمار: انا.

فذهب بها اليه فلما قرأها قال: أرغم الله أنفك!

قال: وبأنف ابي بكر وعمر.

قال: فقام اليه فوطئه حتى غشي عليه.

ثم ندم عثمان وبعث اليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث: إما أن تعفو، وإما أن تأخذ الأرش، وإما أن تقتص.

فقال: والله لا قبلتُ واحدة منها حتى ألقى الله»

وأما البلاذري في أنساب الأشراف فيجعل سبب الضرب اعتراض عمار على سوء تصرف عثمان ببيت المال:

فعن أبي مخنف قال «كان في بيت المال بالمدينة سفط فيه حلي وجوهر، فأخذ عثمانُ ما حلّى به بعض أهله. فأظهر الناسُ الطعنَ عليه في ذلك وكلموه فيه بكلام شديد حتى أغضبوه. فخطب فقال: لنأخذنّ حاجتنا من هذا الفيء وإن رغِمت أنوف أقوام!

فقال له علي: إذاً تُمنَعُ من ذلك ويُحال بينك وبينه .

وقال عمار بن ياسر: أشهدُ الله أن انفي اول راغم من ذلك.

فقال عثمان: أعَليَّ يا ابن المتكاء تجترئ؟! خذوه.

فأخذ، ودخل عثمانُ فدعا به فضربه حتى غُشي عليه. ثم أخرجَ فحُمِلَ حتى أُتي به منزل أم سلمة زوج رسول الله (ص) فلم يصلّ الظهر والعصر والمغرب. فلما أفاق توضّئ وصلى وقال: الحمد لله، ليس هذا اول يوم أوذينا فيه في الله.

وقام هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان عمار حليفاً لبني مخزوم، فقال: يا عثمان، أما عليّ فاتقيتهُ وبني أبيه، وأما نحن فاجترأتَ علينا وضربتَ أخانا حتى أشفيتَ به على التلف. أما والله لئن مات لأقتلنّ به رجَلاً من بني امية عظيم السرة! فقال عثمان: وإنك لها هنا يا ابن القسرية....»

وقد أتبع البلاذري هذه الرواية بأخرى تتحدث عن كتاب الاحتجاج الذي كتبه الصحابة وحمله عمارُ الى عثمان مما اغضبه «ثم ضربه عثمان برجليه وهي في الخفين على مذاكيره فأصابه الفتق»، ولكنه أخرج هذه الرواية بصيغة «ويُقال» مما يشي بتشككه بها.

واضاف البلاذري رواية ثالثة تجعل سبب الضرب هو قيام عمار بكتمان أمر وفاة ابن مسعود عن الخليفة وتوليّ الصلاة عليه مما أدى الى غضبه «فعنفها وطئ عماراً حتى أصابه الفتق». ولكنه أخرج هذه أيضاً بصيغة «وقد قيل».

وأخرج ابن شبة في تاريخ المدينة عدة روايات عن حادثة ضرب عثمان.

أحدها تقول انه ضربه عن قصد وعمد: فعن ابن سمعان «ان عثمان أمر بعمار بن ياسر فضرب في أمر نازعه فيه حتى أغمي عليه. فحمله زياد بن سمعان وناس معه الى بيت أم سلمة زوج النبي(ص) وهو لا يعقل. فصلى الناس الجمعة ثم صلوا العصر ولم يفق عمار ولم يصل حتى دنت الشمس أن تغرب. ثم أفاق قبل أن تغرب الشمس بقليل فصلى الاولى والعصر جميعا». وأيضا عن المغيرة قال «اجتمع ناس فكتبوا عيوب عثمان -وفيهم ابن مسعود- فاجتمعوا بباب عثمان ليدخلوا عليه فيكلموه. فلما بلغوا الباب نكلوا إلاّ عمار بن ياسر فإنه دخل عليه فوعظه. فأمر به فضرب حتى فتق، فكان لا يستمسك بوله...»

وثانية تقول انه أمر بضربه بسبب فورة غضب وندم على ذلك: فعن سالم بن ابي الجعد «دعا عثمان رضي الله عنه ناساً من اصحاب رسول الله(ص) وفيهم عمار فقال: اني سائلكم: أنشدكم الله هل تعلمون ان رسول الله (ص) كان يؤثر قريشاً على سائر الناس ويؤثر بني هاشم على سائر قريش؟ فسكت القوم!

فقال: لو ان مفاتيح الجنة في يدي لأعطيتها بني أمية حتى يدخلوا من عند آخرهم. والله لأعطينهم ولأستعملنهم على رغم أنف من رغم!

فقال عمار: على رغم أنفي؟

قال: على رغم أنفك!

قال: وأنف ابي بكر وعمر؟

فغضب عثمان رضي الله عنه، فوثب اليه فوطأه وطأً شديداً، فأجفله الناس عنه.

ثم بعث الى بني أمية فقال: يا أخابث خلق الله ! أغضبتموني على هذا الرجل حتى أراني أهلكته وهلكتُ.

فبعث الى طلحة والزبير فقال: ما كان نوالي إذ قال لي ما قال إلاّ أن أقول له مثل ما قال، وما كان لي على قسره من سبيل. إذهبا الى هذا الرجل فخيراه بين ثلاث: بين ان يقتص أو يأخذ أرشاً أو يعفو.

فقال: والله لاأقبل منها واحدة حتى ألقى رسول الله(ص) فأشكوه إليه...»

والرواية الثالثة تقول ان عثمان لم يأمر بضرب عمار أصلاً، بل تم ذلك من دون علمه: فعن جهيم الفهري قال «أنا شاهدٌ للأمر: سعد وعمار، فأرسلوا لعثمان ان ائتنا فإنا نريد أن نذاكرك أشياء أحدثتها وأشياء فعلتها.

فأرسل اليهم: أن انصرفوا اليوم فإني مشتغلٌ وميعادكم يوم كذا وكذا حتى أتشوف لكم.

فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف. فتناوله رسول عثمان فضربه.

فلما اجتمعوا للميعاد ومن معهم قال لهم عثمان: ما تنقمون؟

قالوا: ننقم عليك ضربك عماراً.

فقال: جاء سعد وعمار فأرسلتُ اليهما فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف، فتناوله رسولي عن غير أمري. فوالله ما أمرت ولا رضيتُ. فهذي يدي لعمار فليصطبر. قال ابو محصن: يعني ليقتص»

واما ابن عبد البر في الاستيعاب فلم تذكر روايته صراحة أن عثمان قد أمر بضرب عمار، واكتفت بإثبات حادثة الاعتداء وتحميل بني مخزوم المسؤولية لعثمان «وللحلف والولاء اللذين بين بني مخزوم وبين عمار وأبيه ياسر كان اجتماع بني مخزوم الى عثمان، حين نالَ من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انفتق له فتق في بطنه، ورغموا وكسروا ضلعاً من أضلاعه. فاجتمعت بنو مخزوم وقالوا: والله لئن مات لا قتلنا به أحداً غير عثمان»

وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة نقلا عن المرتضى في معرض ردّه على من أنكر ضرب عمار «أما الدفع لضرب عمار، فهو كالإنكار لطلوع الشمس ظهورا وانشاراً وكل من قرأ الأخبار وتصفح السير يعلم من هذا الأمر ما لا تثنيه عنه مكابرة ولا مدافعة، وهذا الفعل -أعني ضرب عمار- لم تختلف الرواة فيه، وإنما اختلفوا في سببه..» ثم تابع ابن أبي الحديد في ذكر الروايات المختلفة التي وردت في سبب ضربه والتي يمكن تلخيصها كما يلي:

- رواية أبي مخنف التي فيها أن عثمان أخذ جواهر وحلياً كانت في بيت المال وحلى بها بعض أهل بيته، فاعترض عليه قومٌ بشدة، وخاصة علي بن أبي طالب وعمار بن ياسر، فغضب عثمان كثيراً وقال لعمار بالذات «أعلي يا بن ياسر تجترأ ؟! خذوه، فأُخذ. فدخل عثمان فدعا به فضربه حتى غشي عليه» وبعدها أخذ وعولج في بيت أم سلمة. وأن هشام بن الوليد المخزومي غضب وقال لعثمان انه اتقى عليا بينما اجترأ على بني مخزوم وحليفهم عمار وهدده بقتل رجل من بني أمية إن مات عمار. وأن عائشة أيضا غضبت لعمار وقالت «ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد»

- «وروى آخرون» ان السبب كان أن عثمان اكتشف أن عماراً قد تولى الصلاة على عبد الله بن مسعود ودفنه دون إبلاغه فغضب لذلك «وعندها وطئ عثمان عمارا حتى أصابه الفتق»

- «وروى آخرون» ان المقداد وعمار وطلحة والزبير وعدة من أصحاب رسول الله (ص) كتبوا كتابا عددوا فيه احداث عثمان وخوفوه وأن عمارا حمل الكتاب لعثمان فأثار غضبه لاجترائه عليه «فأمر عثمان غلمانا له، فمدوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه -وهي في الخفين على مذاكيره- فأصابه الفتق، وكان ضعيفا كبيرا فغشي عليه»

و في موضع آخر روى ابن ابي الحديد نقلا عن الاستيعاب لابن عبد البر «نال من عمار غلمان عثمان ما نالوا من الضرب، حتى انفتق له فتق في بطنه، زعموا، وكسروا ضلعا من أضلاعه»

الروايات المدافعة عن عثمان

بالاضافة الى الرواية التي ذكرها ابن شبة عن جهيم الفهري، والتي تفيد بأن رسول عثمان قد ضرب عماراً بدون إذن،

روى الذهبي في سير اعلام النبلاء نقلاً عن ابي عوانة في مسنده «أن عمارا قال لعثمان: حملتَ قريشا على رقاب الناس. عدوا عليّ فضربوني!

فغضب عثمان ثم قال: مالي ولقريش؟ عدوا على رجل من أصحاب محمد (ص) فضربوه. سمعتُ النبي(ص) يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية. وقاتله في النار»

وقال ان ابا عوانة روى ذلك من طريق الاعمش عن زيد بن وهب، وايضا من طريق سالم بن ابي الجعد عن محمد بن الحنفية.

ولا يخفى طبعا ان هذه الرواية مصممة للدفاع عن عثمان. ولو سلمنا بما فيها جدلا، فلماذا لم ينصف عثمانُ عماراً من قريش الذين اعتدوا عليه؟ ومن هم قريش هؤلاء المشار اليهم؟

وكعادته في الدفاع عن عثمان وسياسته، قام سيف بن عمَر بابتكار سبب لتفسير عداء عمار للخليفة. فقد روى الطبري في تاريخه بشأن عمار «*كان بينه وبين عباس بن عتبة بن ابي لهب كلام.*

فضربهما عثمان. فأورث ذاك بين آل عمار وآل عتبة شراً حتى اليوم»[1]

وهكذا يريد سيف ان يختزل كل مواقف عمار بحقد شخصي ناتج عن عقوبة بحقه قررها الخليفة بسبب مشكلة تشاتم مع عباس بن عتبة!

وقد اعتمد ابن كثير، الأموي الهوى، على هذه الرواية في سياق انتقاده لعمار بن ياسر ومواقفه تجاه عثمان، فقال عن عمار في البداية والنهاية: «*وكان متعصبا على عثمان بسبب تأديبه له فيما تقدم على أمر، وضربه اياه في ذلك، وذلك بسبب شتمه عباس بن عتبة بن ابي لهب، فأدبهما عثمان، فتآمر عمار عليه لذلك وجعل يحرض الناس عليه..*»

الفصل السادس: الاثراء الفاحش في عهد عثمان[1]

قرار اقتصادي خطير

وتنبغي الإشارة إلى قرار مهم اتخذه عثمان، يتعلق بالسياسة المتبعة بشأن أراضي البلاد المفتحة، وكان له تأثير على العرب المقيمين في العراق خاصة: فقد قرر عثمان السماح لمن كان يمتلك أراض في الحجاز أو اليمن باستبدالها بأراض في البلاد المفتحة، بعد أن يتنازل لبيت المال عنها.

ذكر الطبري في تاريخه عن رواية لسيف بن عمر «ان عثمان جمع اهل المدينة فقال: *يا أهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة، وإني والله لأتخلصن لكم الذي لكم حتى أنقله اليكم إن رايتم ذلك، فهل ترونه حتى يأتي من شهد مع اهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده.*

فقام اولئك وقالوا: كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين؟

فقال: نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز.

ففرحوا ...»

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص333)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص221–222 وص136)، صحيح البخاري) ج4 ص)106، سير أعلام النبلاء للذهبي (ج1 ص33)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج25 ص103) و(ج21 ص451 وص114 وص123)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص 278 وص184) و (ج8 ص4)، مسند أحمد بن حنبل (ج6 ص290)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص315–317) و(ج4 ص24)، تاريخ المدينة لعمر بن شبة (ج1 ص219–225)، الاصابة لابن حجر العسقلاني(ج7 ص343) و مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص262)

ورغم أني لم أجد هذه الرواية لدى مصدر آخر غير سيف بن عمر، إلاّ أنه ليس هناك سبب لردها. بل هي تلقي الضوء على طريقة الاثراء الفاحش الذي ميز العديد من كبار الصحابة، كما سيأتي.

وبما أن عددا كبيرا من أبناء قبيلة قريش، بمن فيهم صحابة كبار، وزعماء قبائل أخرى، يمانية وقيسية، كانوا يمتلكون اراض كثيرة في الحجاز واليمن، بعضها موروث، وبعضها مكتسب عن طريق التجارة، وبعضها نصيبهم من الغنائم من أيام الرسول (ص) والخليفتين من بعده (مثلا في منطقة خيبر)، وبعضها من هبات وأعطيات عثمان بن عفان، فقد فتح الخليفة أمامهم آفاقاً هائلة للغنى والثراء الفاحش. فالأراضي في داخل الجزيرة العربية كانت في أغلبها فقيرة وغير منتجة، ولا تقارن أبدا بالأراضي الغنية والخصبة في بلاد الرافدين، حيث البساتين والغابات في ضفاف الفرات ودجلة.

وقام عدد كبير من القرشيين والزعماء القبائليين باستغلال قرار الخليفة إلى الحد الأقصى. فتملكوا مساحات شاسعة من أراضي «السواد» في الكوفة وغيرها من المناطق العراقية. وأصبح عدد من الصحابة من أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين الذين تنهال عليهم الأموال من تلك الممتلكات الجديدة في العراق. وهناك روايات كثيرة جدا تصف مدى الغنى الفاحش الذي صاروا يرفلون فيه، حتى وهم يقيمون في المدينة المنورة، دون الحاجة إلى الإقامة في العراق. وطبعاً كان لبني أمية، من أمثال مروان بن الحكم، وللقرشيين بشكل عام، نصيب الأسد من هذه الامتيازات.

يتابع سيف روايته السابقة «*وكان طلحة بن عبيد الله قد استجمع له عامة سهمان خيبر الى ما كان له سوى ذلك. فاشترى طلحة منه من نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر الى العراق النشاستج بما كان له بخيبر وغيرها من تلك الاموال. واشترى من بئر اريس شيئا كان لعثمان بالعراق.*

واشترى منه مروان بن الحكم بمال كان له، أعطاه اياه عثمان، نهر مروان، وهو يومئذ اجمة

واشترى منه رجال من القبائل بالعراق بأموال كانت لهم في جزيرة العرب من اهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت. فكان ممن اشترى منه الاشعث بمال كان له في حضرموت ما كان له بطيزناباذ»

ولا بد من ملاحظة كيفية اثراء ابن عم الخليفة في قول الراوي عن مروان *«بمال كان له، أعطاه اياه عثمان»*. وهذا يعني ببساطة ان الخليفة أعطى ابن عمه أموالاً، وليس معروفاً تبرير ذلك إلا صلة الرحم، فقام هذا بدوره باستبدالها بمصالح في العراق فأصبح له نهر يعرف باسمه هناك!

ثروات الصحابة في عهد عثمان

ومن أبرز الامثلة على هؤلاء المستفيدين كان طلحة بن عبيد الله، الصحابي الكبير الذي استغل حكم عثمان بن عفان كثيراً، فبلغت ثروته أرقاماً خيالية، فهو استفادَ من حركة الفتوحات ليكتسب قصوراً وضياعاً وأراضي، خاصة في العراق.

ورد في الطبقات الكبرى لابن سعد:

عن الواقدي *«كان طلحة بن عبيد الله يغل بالعراق ما بين اربعمائة ألف الى خمسمائة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أو أكثر. وبالاعراض له غلات. وكان لا يدع أحدا من بني تيم عائلاً إلاّ كفاه مؤونته ومؤونة عياله وزوج أياماهم وأخدم عائلهم وقضى دين غارمهم. ولقد كان يرسل الى عائشة اذا جاءت غلته كل سنة بعشرة آلاف. ولقد قضى عن صبيحة التيمي ثلاثين ألف درهم»*

وعن الواقدي ايضا *«كانت قيمة ما ترك طلحة بن عبيد الله من العقار والاموال وما ترك من الناض ثلاثين ألف ألف درهم، ترك من العين ألفي ألف ومائتي ألف درهم ومائتي ألف دينار، والباقي عروض»*

وعنه أيضاً *«قتل طلحة بن عبيد الله يرحمه الله وفي يد خازنه الفا الف درهم ومائتا ألف درهم. وقومت اصوله وعقاره ثلاثين ألف الف درهم»*

وعنه ايضا *«قال عمرو بن العاص: حدثت ان طلحة بن عبيد الله ترك مائة بهار، في كل بهار ثلاث قناطر ذهب. وسمعتُ ان البهار جلد ثور»*

روى الذهبي في سير أعلام النبلاء :

عن ابن عيينة «كانت غلة طلحة كل يوم ألفٌ وافٍ.»

وعن الحسن البصري «ان طلحة بن عبيد الله باع ارضاً له بسبع مئة ألف. فبات أرقاً من ذلك المال، حتى أصبح ففرقه»

وعن الواقدي «عن موسى بن طلحة أن معاوية سأله: كم تركَ أبو محمد من العين؟

قال: ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم. ومن الذهب مئتي ألف دينار فقال معاوية: عاش حميداً سخياً شريفاً، وقتل فقيداً، يرحمه الله»

والوافي: درهم وأربعة دوانق

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر عن رواية ابن سعد عن الواقدي، عن موسى بن طلحة ان معاوية سأله «كم ترك ابو محمد يرحمه الله من العين؟ قال: ترك الفي ألف درهم ومائتي ألف دينار. وكان ماله قد اغتيل كان يغل كل سنة من العراق مائة ألف سوى غلاته من السراة وغيرها. ولقد كان يدخل قوت أهله بالمدينة ستتهم من مزرعته بقناة كان يزرع على عشرين ناضحاً. وأول من زرع القمح بقناة هو....»

وذكر ابن عساكر ايضا رواية الزبير بن بكار «أتي طلحة بن عبيد الله من النساسق بالعراق خمس مائة ألف درهم. فقسمها حتى أتى على آخرها وهو في حنيف» وروى عن عمرو بن دينار «كان غلة طلحة بن عبيد الله كل يوم ألف واف»

وكذلك كان الزبير بن العوام من كبار الأثرياء والرأسماليين وأصحاب المصالح في عهد عثمان.

وقد جاء في صحيح البخاري تفاصيل ثروة الزبير التي أورثها بعد مقتله، وهي تحتوي على غابة كان الزبير قد اشتراها بسبعين ومائة ألف وباعها ابنه عبد الله بألف ألف وستمائة ألف، بالإضافة إلى إحدى عشرة داراً بالمدينة ودارين

بالبصرة وداراً بالكوفة وداراً بمصر وأنه «.. كان للزبير أربع نسوة، ورُفع الثلث، فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف، فجميعُ ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف»

وقد قدم ابن كثير في البداية والنهاية (ج7 ص278) حسبة تفصيلية أدق من حسبة البخاري لثروة الزبير عند مقتله. فقال عنه «وقد كان الزبير ذا مآل جزيل وصدقات كثيرة جداً. لما كان يوم الجمل أوصى الى ابنه عبد الله فلما قتل وجدوا عليه من الدين ألفي ألف ومائتا ألف فوفوها عنه، وأخرجوا بعد ذلك ثلث ماله الذي أوصى به، ثم قسمت التركة بعد ذلك، فأصاب كل واحدة من الزوجات الاربع من ربع الثمن ألف ألف ومائتا ألف درهم. فعلى هذا يكون مجموع ما قسم بين الورثة ثمانية وثلاثين ألف ألف واربعمائة ألف. والثلث الموصى به: تسعة عشر ألف ألف ومائتا ألف. فعلى هذا يكون جميع ما تركه من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين الف ألف وثمانمائة ألف.

وانما نبهنا على هذا لأنه وقع في صحيح البخاري ما فيه نظر ينبغي ان ينبه له. والله اعلم»

ويبدو ان ابن كثير قد لاحظ مدى ضخامة هذه الثروة وعظمها، فقرر ان يعللها لكي يزيل من ذهن القارئ أي شك بشأن مصدرها، فقال «وقد جمع ماله هذا بعد الصدقات الكثيرة، والمآثر الغزيرة مما أفاء الله عليه من الجهاد، ومن خمس الخمس ما يخص أمه منه، ومن التجارة المبرورة من الخلال المشكورة. وقد قيل انه كان له ألف مملوك يؤدون اليه الخراج. فربما تصدق في بعض الايام بخراجهم كلهم رضي الله عنه وأرضاه»

ولم يشر ابن كثير الى أنه كانت تنهال عليه عطايا بني أمية أيام عثمان بلا حساب. فمثلا ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر، أن الزبير قدم مرةً الكوفة فأعطاه واليها الأموي سعيد بن العاص 700 ألف درهم «فأخذها، فقال له الوالي «لو كان في بيت المال أكثر منها لبعثتُ بها إليك». وأعطاه عثمان مرةً 600 ألف من مال أصبهان.

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى بعض مظاهر ثراء عبد الرحمن بن عوف:

عن الواقدي «ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالبقيع ومائة فرس ترعى بالبقيع. وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحاً، وكان يدخل قوت أهله من ذلك سنة»

وعن حماد بن زيد «ان عبد الرحمن بن عوف توفي وكان فيما ترك ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفا»

وعن الواقدي قال «أصاب ماضر بنت الاصبغ ربع الثمن فأخرجت بمائة ألف وهي إحدى الأربع»

وروى أحمد بن حنبل في مسنده أن عبد الرحمن قال لأم سلمة «قد خفتُ أن يهلكني كثرة مالي. أنا أكثر قريش مالاً»

وقال ابن الأثير في ترجمته في أسد الغابة :

«وكان عظيمَ التجارة، مجدوداً فيها، كثيرَ المال.

قيل أنه دخل على أم سلمة، فقال: يا أمّه، خفتُ أن يُهلكني كثرة مالي»

وقال ايضاً:

«... فكثر ماله حتى قدمت له سبعمائة راحلة تحمل البر وتحمل الدقيق والطعام. فلما دخلت المدينة سمع لأهل المدينة رجة. فقالت عائشة: ما هذه الرجة؟ فقيل لها: عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام. فقالت عائشة: سمعتُ النبي(ص) يقول: يدخل عبد الرحمن بن عوف الجنة حبواً. فلما بلغ ذلك عبد الرحمن قال: يا أمة ! اني أشهدك أنها بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله عز وجل»

وقال عنه ايضاً :

«وخلّف مالاً عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال منه. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة ألف شاة ترعى بالبقيع. وكان له أربع نسوة، أخرجت إمرأة بثمانين ألفاً. يعني صولحت»

وأما ابن كثير في البداية والنهاية، فبعد أن روى عن الزهري واحمد بن حنبل قصة السبعمائة العير المحملة التي تبرع بها في سبيل الله أضاف *«ولما حضرته الوفاة أوصى لكل رجل ممن بقي من أهل بدر بأربعمائة دينار -وكانوا مائة- فأخذوها حتى عثمان وعلي، وقال علي: اذهب يا ابن عوف فقد أدركتَ صفوها وسبقتَ زيفها. وأوصى لكل امرأة من أمهات المؤمنين بمبلغ كثير حتى كانت عائشة تقول: سقاه الله من السلسبيل. وأعتق خلقاً من مماليكه، ثم ترك بعد ذلك كله مالاً جزيلاً، من ذلك ذهبٌ قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدي الرجال. وترك ألف بعير ومائة فرس وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع. وكان نساؤه أربعاً فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفاً»*

وقال عنه المسعودي في مروج الذهب *«ابتنى داره ووسعها. وكان على مربطه مائة فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم. وبلغ بعد وفاته رُبُعُ ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً»*(1)

و«ثروة» علي بن ابي طالب؟!

أنقل هنا بعضا مما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية. وابن كثير كما هو معلوم اموي الهوى، وهو آخر من قد يُتهم بالتشيّع لعلي بن ابي طالب. فما يذكره بشأن فضائل علي يمكن اعتباره الحد الأدنى، أو غيض من فيض.

فهو قال ان علياً لم يبنِ البيوت ولا القصور *«وقال ابو نعيم: سمعتُ سفيان الثوري يقول: ما بنى عليٌّ لبنة ولا قصبة على لبنة»*

وهو ذكر ان علياً ما كان عنده من الثياب ما يقيه برد شتاء العراق *«قال ابو عبيد: حدثنا عباد بن العوام، عن مروان بن عنترة، عن ابيه قال: دخلتُ على عليّ بن ابي طالب بالخورنق، وعليه قطيفة، وهو يرعد من البرد فقلتُ: يا أمير المؤمنين ان الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيباً في هذا المال، وأنت*

(1) ومن المثير فعلًا مقارنة ما تركه طلحة والزبير وعبد الرحمن من أموال، مع ما تركه صحابيٌّ كبير آخر من ذوي الأصل المتواضع. فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن تركة سلمان الفارسي لدى وفاته لم تزد على ثلاثين درهماً !

ترعد من البرد؟ فقال: إني والله لا أرزأ من مالكم شيئاً. وهذه القطيفة هي التي خرجتُ بها من بيتي - أو قال من المدينة»

كما ذكر أنه كان يشتري القميص بثلاثة دراهم! فعن ابن عباس «*اشترى علي قميصاً بثلاثة دراهم وهو خليفة، وقطع كمّه من موضع الرسغين، وقال: الحمد لله الذي هذا من رياشه*»)

بل انه ذكر أن علياً كان ربما يضطر الى بيع سيفه ليشتري بعض ما يرتديه! فعن مجمع بن سمعان التيمي قال «*خرج علي بن ابي طالب بسيفه الى السوق فقال: من يشتري مني سيفي هذا؟ فلو كان عندي أربعة دراهم أشتري بها إزاراً ما بعته*»

وذكر ابن الاثير في اسد الغابة ان الحسن بن علي ذكر ان أباه لم يترك إلاّ 600 درهم، اشترى بها خادماً.

ورغم ذلك، فعلي كان له مال بينبُع، فالمصادر حافلة بالاشارة الى ذهاب علي المتكرر الى «مال له بينبع»، وخاصة تلك التي تتحدث عن حصار عثمان ومقتله. ويبدو ان علياً كان يذهب الى «ماله بينبُع» كلما رغب في الابتعاد عن عثمان لغضبه عليه أو إحباطه من سياسته. وينبع كما هو معلوم تقع الى الشمال من جدة على البحر الاحمر.

ولكن، ماذا كان ذلك المال الذي له بينبع؟

من أكثر المصادر تفصيلاً في هذا الشأن كتاب تاريخ المدينة لعمر بن شبة:

«وكانت أموال علي رضي الله عنه عيونا متفرقة بينبع، منها عين يقال لها «عين البحير» وعين يقال لها «عين أبي نيزر» وعين يقال لها «عين نولا»، وهي اليوم تدعى العدر وهي التي يقال ان عليا رضي الله عنه عمل فيها بيده. وفيها مسجد النبي (ص) متوجهه الى ذي العشيرة يتلقى عير قريش...

وعمل علي رضي الله عنه ايضا بينبع «البغيبغات»، وهي عيون منها عين يقال لها «خيف الاراك» ومنها عين يقال لها «خيف ليلى» ومنها يقال لها «خيف بسطاس» فيها خليج من النخل مع العين»

ويذكر ابن شبة ثلاث روايات بشأن كيفية تملك تلك الأرض في ينبع:

الأولى تقول ان تلك الأرض كان رسول الله (ص) قد أقطعها لابن أخي كشد الجهني فاشتراها منه عبد الرحمن بن سعد بن زرارة الانصاري بثلاثين ألف درهم، ولكنه كرهها بسبب ريحها الشديدة فعرضها على علي بن ابي طالب «*فهل لك أن تبتاعها؟ قال علي: قد أخذتها بالثمن. قال: هي لك. فخرج اليها علي رضي الله عنه. فكان أول شيء عمله فيها البغيبغة، وأنفذها*»

وفي الرواية الثانية «*ان عمر رضي الله عنه قطع لعلي رضي الله عنه ينبع، ثم اشترى علي رضي الله عنه الى قطيعة عمر أشياء، فحفر فيها عيناً*»

وفي الثالثة «*أقطع النبي (ص) علياً رضي الله عنه بذي العشيرة من ينبع، ثم أقطعه عمر رضي الله عنه بعد ما استخلف إليها قطيعة، واشترى علي رضي الله عنه اليها قطعة، وحفر بها عيناً*»

وتجمع راويات ابن شبة ان علياً لم يكن يستفيد هو شخصيا من تلك الاموال بل كان رصدها في سبيل الله. روايتان متشابهتان عن جعفر بن محمد (الامام الصادق)، نص أحدهما «*بشر علي رضي الله عنه بالبغيبغة حين ظهرت فقال: تسر الوارث. ثم قال: هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذي الحاجة الأقرب*»

وتقول أخرى (عن محمد بن كعب القرظي) «*ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، القريب والبعيد، وفي الحياة والسلم والحرب. ثم قال: صدقة لا توهب ولا تورث، حتى يرثها الله الذي يرث الارض ومن عليها، وهو خير الوارثين*»

ويمكن الشك في عبارة «صدقة لا توهب ولا تورث» الواردة في رواية محمد بن كعب القرظي. فربما المقصود منها تأييد الخلفاء (لاحقاً) في حرمان ورثة علي من حقهم فيها.

فالأرجح أن علياً قد وقف ذلك الماء بينبع على الفقراء مع احتفاظه بحق الملكية، أي أنه لم يتنازل عنها لبيت المال. ومما يدل على ذلك ما رواه ابن شبة نفسه «*وكانت البغيبغات مما عمل علي رضي الله عنه وتصدق به. فلم تزل في صدقاته حتى أعطاها حسينُ بن علي ابنَ عبد الله بن جعفر بن ابي*

طالب، *يأكل ثمرها ويستعين بها على دينه ومؤونته، على ألاّ يزوج ابنته يزيد بن معاوية بن ابي سفيان*». ويدعم ذلك رواية لابن حجر العسقلاني تشير الى أن علياً أباح للحسن والحسين بيعها إن دعتهم الحاجة لذلك، ولكن الحسين رفض بيعها لمعاوية رغم عرضه المغري.

فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في الاصابة في ترجمة أبي نيزر، نقلاً عن كتاب الكامل للمبرد أنه «*كان يقوم بضيعتي علي اللتين في البقيع، تسمى أحدهما البغيبغة، والاخرى عين أبي نيزر*» وأضاف ان علياً «*وقفهما على فقراء المدينة وابن السبيل، إلاّ أن يحتاج الحسن أو الحسين فهما طلق*» وأضاف «*وفي آخر الخبر ان الحسين احتاج لاجل دين عليه، فبلغ ذلك معاوية فدفع له في عين أبي ميزر مائة ألف، فأبى أن يبيعها وأمضى وقفها*»

ورواية المبرد هذه ،التي ذكرها ابن حجر، تتكلم عن ممتلكات لعلي في البقيع، أي في المدينة المنورة. ولكن الصحيح والشائع ان «البغيبغة» و«عين أبي نيزر» هي في ينبع.)وذلك مشهور وخاصة فيما يتعلق بالبغيبغة.

على أن الامام علي كان له بعض الممتلكات في مناطق أخرى، سوى ينبع. روى ابن شبة:

«*وكان له ايضا صدقات بالمدينة: «الفقيرين» بالعالية، و«بئر الملك» بقناة، و«الادبية» بالاضم*»

وفي وادي القرى «*عين ناقة*» و«*عين موات*»

وفي مكان وعر بين المدينة والشام يدعى «*حرة الرجلاء*» كان له «*واد يدعى الاحمر، شطره في الصدقة وشطره بأيدي آل مناع من بني عدي، منحة من علي*» و«*واد يقال له البيضاء فيه مزارع وعفا، وهو في صدقته. وله ايضا بحرة الرجلاء أربع آبر يقال لها «ذات كمات» و«ذوات العشراء» و«قعين» و «رعوان» فهذه الآبر في صدقته*»

وقريباً من ذلك المكان، ناحية فدك، له مال يقال له «*القصيبة*» و«*واد بين لابتي حرة يدعى «رعية» فيه نخل ووشل من ماء يجري على سقا بزرنوق، فذلك في صدقته*»

والمتأمل في «ممتلكات» الامام علي هذه، يرى أن معظمها يقع في المناطق التي كانت لليهود، مثل وادي القرى وقرب فدك. ولم يذكر ابن شبة كيفية تملك الامام علي لها. ولكن يبدو أنها كانت من نصيبه من الفتوحات أيام النبي(ص). كما يلاحظ انها في معظمها عيون ماء وآبار. والظاهر أن الامام علي كان يحرص على حفر الآبار ليحيي تلك الارض ويجعلها ذات قيمة وفائدة ثم يتصدق بها. قال ابن شبة «*لما أشرف علي رضي الله عنه على ينبع، فنظر الى جبالها قال: لقد وضعت على نقى من الماء عظيم*»

وبخلاف غيره من كبار الصحابة القرشيين، لم يرد أبداً ما يشير الى ممتلكات لعلي في العراق أو غيره من البلاد المفتتحة. وطبعاً لا يوجد أي حديث عن غابات وأنهار أو آلاف العبيد الذين يؤدون خراجهم له أو يعملون لحسابه، ولا عن ذهب متكدس لديه، ولا عن مئات الجمال ولا قوافل محملة له. كل ما تذكره المصادر هو إشارات متفرقة إلى ممتلكات بسيطة (عيون ماء وآبار استصلحها بنفسه) جلها من العهد النبوي.

ومن المؤكد أن الامام علياً كان معارضاً لسياسة الطبقة الأموية الحاكمة التي تسيطر على ثروات هائلة من موارد الأمصار، وكان الصرف يتم بلا حساب لمن شاء الخليفة وولاته. وكان نصيب كبار الصحابة من عطاياهم وافراً. فتلك التصرفات كانت تثير حفيظة علي بن ابي طالب وغضبه، رغم محاولاتهم استرضاءه. ومن ذلك ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق من رواية ابن سعد «*وقدم سعيد بن العاص المدينة وافداً على عثمان. فبعث الى وجوه المهاجرين والانصار بصلات وكسا. وبعث الى علي بن ابي طالب أيضاً فقبل ما بعث به اليه. وقال علي: ان بني أمية ليفوقوني تراث محمد تفويقاً! والله لئن بقيتُ لهم لأنفضنهم من ذلك نفضَ القصاب التراب الوذمة*»

ويمكن التحفظ على فقرة «*فقبل علي ما بعث به اليه*»، فهي تتناقض مع سياق الرواية نفسها: فكيف يقبل عطايا بني أمية وهو يتوعدهم؟!



الجزء الثالث:

الأمصار تتمرد على الخليفة

الفصل الاول: التمرّد في مصر[1]

الظاهر أن التمرّد ضد حكم الخليفة عثمان كان قد بلغ أشدّه في مصر. فليس فقط أن الوفد المصري الذي ذهب إلى المدينة وانتهى به الأمر إلى المشاركة في قتل عثمان كان هو الأكبر بالقياس إلى وفود البصرة والكوفة، ولكن أيضا قام أعداء عثمان بالسيطرة على مصر وخلع والي الخليفة عبد الله بن سعد، وذلك في الفترة الحرجة التي شهدت الاضطرابات التي انتهت بقتل الخليفة.

دور محمد بن ابي حذيفة

من الغريب حقا أنه كان من أبرز المعارضين لعثمان وحكمه والمحرّضين عليه شخصٌ من أقرب الناس نسَبا إلى عثمان ومعاوية! فمحمد بن أبي حذيفة هو شاب من بني عبد شمس، كان أبوه من المسلمين الأولين في مكة. وأبو

(1) مصادر هذا البحث: ترجمة علي بن أبي طالب من أنساب الأشراف للبلاذري (ص387-389)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص178 و ج8 ص109)، ترجمة عبد الله ابن ابي السرح وترجمة محمد بن ابي حذيفة في الاستيعاب لابن عبد البر (ص 435 وص 644) ، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج52 ص269-273) و (ج29 ص37)، المعجم الكبير للحافظ الطبراني (ج2 ص82-88)، تاريخ الطبري (ج2 ص429 و ج3 ص391 وص 393 و ص379 و ص407 و ج 4 - ص 80 - 81)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص256 و ص259)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج3 ص1117-1121 و ج4 ص1160)، الاصابة لابن حجر العسقلاني (ج6 ص9- 11 و ج4 ص95)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج4 ص61)، الاخبار الطوال للدينوري (ص168)، الإمامة والسياسة (ج1 ص56)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص174)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص164)، الحر العاملي في وسائل الشيعة (ج30 ص455)، و رجال الطوسي (ص82) و تاريخ ابن خلدون (ج 4 - ص 294)، شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد (ج6 ص10-11 و ص101)

حذيفة هو ابن عتبة بن ربيعة، وأخو هند آكلة كبد حمزة، كان قد خالف أباه وقومه، فكان من القلّة القليلة من أبناء بطون قريش العريقة الذين آمنوا بمحمد (ص) وهاجروا إلى الحبشة، فولد ابنه محمد هناك[1]. ولما استشهد ابو حذيفة في معركة اليمامة، تولى عثمان بن عفان رعاية ابنه محمد، بحكم كونه تاجراً غنياً، ومراعاة للقرابة.

وليس معروفاً على وجه الدقة السبب الذي جعل محمد بن أبي حذيفة يكون من أشد الكارهين لعثمان وحكمه والمؤلبين عليه. فمن المنطقي والمتوقع أن يكون ابن أبي حذيفة مثل بقية أقرانه من بني أمية وعبد شمس الذين استفادوا من فترة حكم الخليفة العجوز فحازوا على أعلى المناصب والمراتب. ولكن ذلك لم يحصل. بل ان كل المصادر التاريخية تجمع على أن محمد بن أبي حذيفة، بالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، كانا أبرز النشطاء في مصر المعادين لعثمان والمؤسسة الأموية الحاكمة. وهناك أوجه شبه كثيرة بين المحمدين ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة: فهما شابان من نفس الجيل، واستقرا في مصر، وهما ابنان لاثنين من كبار الصحابة السابقين إلى الإسلام وأخيراً هما من صميم قبيلة قريش. ولعل ابن أبي حذيفة تأثر بشخصية وأفكار ابن أبي بكر الذي كان ربيباً لعليّ بن أبي طالب، وأخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم.

فماذا تقول المصادر عن ابن ابي حذيفة ؟

ذكر البلاذري في أنساب الأشراف جملة من اخبار ابن أبي حذيفة، نقلا عن أبي مخنف وغيره. ويمكن تلخيصها على النحو التالي :

- ان عثمان بن عفان كان كفل محمد بن أبي حذيفة وتولى تربيته بعد استشهاد أبيه يوم اليمامة. وقد قال فيما بعد لما بلغه تمرد محمد بن أبي حذيفة «*اللهم اني ربيته رحمة له وصلة لقرابته، حتى لقد كنتُ أنكث المخ فأخصّه به دون نفسي وولدي*»

(1) هناك اجماع على ذلك، مثلا: الاصابة لابن حجر العسقلاني وكذلك المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري

- شربَ محمد بن أبي حذيفة الخمرَ فأقام عليه عثمانُ الحدّ

- تنسّك محمد بن أبي حذيفة بعدها وأقبل على العبادة، ورغب في أن يغزو البحرَ فاستأذن عثمانَ أن يأتي مصرَ فأذِنَ له. وكان خروجه إليها متزامناً مع خروج عبد الله بن أبي السرح.

- لما وصل مصرَ «*رأى الناسُ عبادته فلزموه وأعظموه ومالوا إليه*»

- كان ابن أبي حذيفة مع ابن أبي السرح في غزوته البحرية عام 34 «*فصلى عبد الله بن سعد بن أبي السرح يوما ،فكبّر محمدُ بن أبي حذيفة من خلفه تكبيرة أفزعته، فنهاهُ وقال: انك حدثٌ أحمق ولولا ذلك لقاربت بين خطاك*».

- «*وكان ابن أبي حذيفة يعيبه ويعيبُ عثمانَ بتوليته إياه، ويقول: استعمل عثمان رجلاً أباحَ رسول الله(ص) دمَهُ يوم الفتح، ونزل فيه: ومَن أظلمُ ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحي إليّ ولم يوحَ إليه شيئ ومَن قال: سأنزل مثل ما انزل الله*»

- كان محمد بن أبي بكر أيضاً من الذين شخصوا مع ابن أبي السرح إلى مصر. فكان يعين ابن أبي حذيفة في الطعن على الوالي. فكتب ابن أبي السرح إلى عثمان شاكياً إياهما «*انهما قد أنغلا عليه المغربَ وأفسداه*».

- أجابه عثمان بكتاب آمرا إياه بالتسامح معهما «*أما محمد بن أبي بكر فإنه يوهب لأبي بكر ولعائشة أم المؤمنين. وأما ابن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وتربيتي، وهو فرخ قريش*» فكتب له ابن أبي السرح «*إن هذا الفرخ قد استوى ريشُهُ ولم يبقَ إلاّ أن يطير*»

- أرسل عثمان إلى ابن أبي حذيفة كسوة وثلاثين ألف درهم، ولكنه جمع ما وصله من عثمان «*فوُضِعَ في المسجد ثم قال: يا معشر المسلمين ألا ترونَ إلى عثمان يخادعني عن ديني ويرشوني عليه!*»

- «*فازداد أهل مصر طعناً على عثمان رضي الله عنه وإعظاماً لابن أبي حذيفة، واجتمعوا إليه فبايعوه على رئاستهم*»

- «فلم يزل ابن أبي حذيفة يحرض أهل مصر ويؤلبهم على عثمان حتى سربهم إلى المدينة، فاجتمعوا إليه مع أهل المصرين، وكانوا أشدهم في أمره، وشخص محمد بن أبي بكر معهم»

ولم يذكر البلاذري مصير محمد بن أبي حذيفة ولا كيف تخلص منه معاوية.

وقال ابن عبد البر في ترجمة محمد بن ابي حذيفة بعد ان ذكر انه ولد في الحبشة في زمن رسول الله(ص) «وكان محمد بن ابي حذيفة أشدّ الناس تأليباً على عثمان.... وكان عثمان قد كفل محمد بن ابي حذيفة بعد موت ابيه ابي حذيفة، ولم يزل في كفالته ونفقته سنين. فلما قاموا على عثمان كان محمد بن ابي حذيفة أحد من أعان عليه، وألب وحرض اهل مصر.»

ولم يوضح ابن عبد البر أسباب عداء محمد لعثمان.

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة مجموعة من أخبار ابن ابي حذيفة. ومنها رواية

عن محمد بن سيرين «قدم محمد بن ابي حذيفة على عثمان رضي الله عنه فأجازه بمائة ألف. ثم طعن عليه بعد ذلك، وقال: ما جعل هؤلاء أحق بالمال مني»

وعلى كل حال، فإن سياق الاحداث وتواتر الروايات يشير الى أن مشكلة ابن ابي حذيفة مع ابن ابي السرح في مصر لم تكن قابلة للحل، بل كانت مسألة مبدأ. فعبد الله بن ابي السرح كان بنظر محمد بن ابي حذيفة مرتدا لعيناً ولم يكن جائزاً لعثمان تعيينه في ذاك المنصب من الأساس.

ورواية ابن كثير في البداية والنهاية عن غزوة ذات الصواري تظهر ذلك «قال الواقدي: فحدثني معمر عن الزهري قال: كان في هذه الغزوة محمد بن ابي حذيفة ومحمد بن ابي بكر. فأظهرا عيبَ عثمان وما غيّر وما خالف أبا بكر وعمر. ويقولان: دمُهُ حلال لأنه استعمل عبدالله بن سعد -وكان قد ارتدّ وكفر بالقرآن العظيم وأباح رسول الله دمَهُ- وأخرج رسول الله (ص)

أقواماً واستعملهم عثمان. ونزع أصحابَ رسول الله (ص) واستعمل سعيدَ بن العاص وعبدَالله بن عامر.

فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال: لا تركبا معنا.

فركبا في مركب ما فيه أحد من المسلمين، ولقوا العدو فكانا أنكلَ المسلمين قتالاً. فقيل لهما في ذلك فقالا: كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكمه؟!

فأرسل اليهما عبد الله بن سعد فنهاهما أشد النهي وقال: والله لولا لا أدري ما يوافق أميرَ المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما»

محمد بن ابي حذيفة مع كعب الأحبار

ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق رواية مثيرة عن ابن سيرين، توضح كيف كان استياء محمد بن ابي حذيفة من الهيئة الحاكمة يمتدّ ليصلَ الى كل المقربين منها والمنظرين لها، ومن هؤلاء كعب الأحبار، اليهودي المسلم الذي كان من خاصة عثمان الذين يستشيرهم ويقربهم. ومن المشروع التخمين أن محمد بن ابي حذيفة كان حاضراً في المدينة حين حصل ذلك الصراع الحادّ بين أبي ذر الغفاري والخليفة عثمان، وربما شاهدَ كيف كان كعب الأحبار يقف الى جانب الخليفة ويُفتي له بأن المسلم بعد دفع زكاة ماله ليس عليه أي حق ملزم تجاه غيره، بخلاف ما ينادي به أبو ذر. فلا شك بأن محمداً كان يزدري كعباً وما يشيعه من «علم» بين المسلمين مستنداً الى توراة اليهود. والرواية تظهر كيف كان محمدٌ يسخر بكعبٍ ورواياته مما استفزه وأثار أعصابه:

«إن محمد بن ابي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وكعباً، ركبا سفينة في البحر. فقال محمد: يا كعب! أما تجدُ سفينتنا هذه في التوراة كيف تجري؟

فقال: لا! ولكن أجدُ فيها رجلاً أشقى الفتية من قريش، ينزو في الفتنة كما ينزو الحمار. لا تكون أنت هو!

فقال ابن سيرين: فزعموا انه كان هو»[1]

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة رواية ابن سيرين والتي فيها حادثة استهزاء محمد بن ابي حذيفة الشديد بكعب الاحبار وهما في السفينة كما يلي *«ركب كعب الاحبار ومحمد بن ابي حذيفة في سفينة قبل الشام –زمن عثمان– في غزوة غزاها المسلمون .*

فقال محمد لكعب: كيف تجد نعت سفينتنا هذه في التوراة تجري غدا في البحر؟

فقال كعب: يا محمد لا تسخر بالتوراة، فإن التوراة كتاب الله.

قال: ثم قال له ذلك ثلاث مرات.

فقال: لا أجد سفينتنا هذه منعوتة في التوراة، ولكني أجد في بعض كتاب الله أن فتنة قد أطلت، ينزو فيها رجل من قريش له سن شاغية نزو الحمار في القيد. فاتقِ ألاّ تكون ذلك الرجل»

وفي رواية أخرى أن جواب كعب كان *«أجد في كتاب الله أن رجلا من قريش اسمه اسمك أشر الثنايا يحجل في الفتنة كما يحجل الحمار في القيد. فاحذر ألاّ تكون أنت»*. وفي رواية ثالثة أن كعبا قال له عن الفتنة *«يثب فيها غلام من قريش أشفى الثنيتين، فيؤخذ فيضرب عنقه. فانظر ألاّ تكون ذاك. فكان هو!»*

كما أخرج رواية السفينة عن الزهري أيضا، ولكن فيها اختلافه مع ابن السرح *«غزا ابن ابي سرح ذات الصواري سنة 34، ومعه محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة، فكانا يعيبان عثمان. فحملهما ابن ابي سرح في سفينة مع القبط، ثم كلم فيهما فحولهما. فلما رجع كتب الى عثمان بما كان منهما. فكتب اليه: أن أشخص إليّ ابن ابي بكر. وقال عثمان: العجب لا بن ابي حذيفة*

---

(1) وتفس هذه الرواية بالحرف وردت في المعجم الكبير للحافظ الطبراني بسند كامل *«حدثنا سليمان بن الحسن العطار ثنا أبو كامل الجحدري ثنا إسماعيل بن ابراهيم ثنا بن عون عن محمد بن سيرين»*.

ا كفلته وربيته، ثم هو يؤلب الناس عليّ. اللهم انه لم يشكر بلائي، فأجرني منه»

وفي رواية أخرى ان عثمان قال «*الا تعجبون لابن ابي حذيفة؟! ضممتُ الرجلَ لرحمه، فكنتُ أجسّ بطنه من الليل، أنظر أجائعٌ هو أم شبعان، ثم هو يسعى في خلعي وسفك دمي. اللهم فأجزه جزاء مَن كفر النعمة وفجر*»

وربما يكون كلام ابن ابي حذيفة لكعب الاحبار، ومشكلته مع ابي ابي السرح، في ذات الغزوة: ذات الصواري. فلا تناقض بالضرورة بين روايتي الزهري وابن سيرين.

ممارسات ابن ابي السرح في مصر

الدلائل تشير إلى أنه بعد تعيينه واليا على مصر، اتجه ابن ابي السرح الى تطبيق سياسة قاسية، ومرتكزة الى جمع الضرائب الباهظة من أهل البلد. والظاهر أن ذلك قد حظى برضى وإعجاب الخليفة. فيمكن القول ان ابن ابي السرح قد صبّ جهده وطاقته في انتزاع الأموال، بكل الوسائل، من أهل البلد، دون ان يراعي ظروفهم وأحوالهم كما ينبغي.

ويبدو أن ابن أبي السرح كان همّه أن يثبتَ لسيّده ووليّ نعمته، عثمان، أنه اتخذَ قراراً صائباً حين ولاّه، بدليل تدفّق الأموال التي يجبيها الوالي ويرسل جزءً كبيراً منها إلى العاصمة.

وبالفعل، فقد بدأ عثمان يرى أن الأموال التي ترد من الاقليم المصري، على يد واليه الجديد، تصل إلى أضعاف تلك التي كان يرسلها عمرو بن العاص. والروايات تذكر أن ذلك أثار إعجاب الخليفة وأرضاه، إلى حد أنه قرر أن يبلّغ ابن العاص بالتغيرات التي تحصل من بعده، وكيف أن واليه الجديد أكثر نفعاً منه. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق أن عثمان قال له:

«يا عمرو: أرى تلك اللقاح قد دَرّت من بعدك!

فقال عمرو: إنما دَرّت لهلاك فِصالها، وإنها قد هزلت

وفي رواية أخرى أن عمراً أجابه: إنكم أعجفتم أولادها»

وفي رواية اليعقوبي انه بعد ان عُيِّن عبد الله بن ابي السرح واليا على مصر:

«اجتبى عبد الله مصرَ اثني عشر ألف ألف دينار.

فقال عثمان لعمرو: درّت اللقاح!

قال: ذاك إن يتم يضر بالفصلان»

وهذه الروايات يمكن قبولها بالتأكيد. وليس هذا الجواب البليغ بمستغرب من شخصٍ كعمرو، وهو لا يخلو من الصواب. فرغم أنه من الممكن أن يكون عمرو بن العاص أثناء ولايته ينتهب جزءً من أموال الخراج والغنائم لنفسه، إلاّ أنه أصاب كبد الحقيقة حين أخبر عثمانَ أن سياسة المبالغة في الضرائب والجباية التي يطبّقها ابن أبي السرح تكاد تؤدّيَ إلى هلاك أهل البلد من كثرة كدحهم لدفع ما يفرضه الوالي.

ورغم أن الضرائب والخراج كانتَ تفرض أساساً على القبط، أهل البلد الأصليين وليس على العرب الفاتحين، وبالتالي فهؤلاء كانوا المتضرر الأول من سياسة الوالي، إلا أن ابن ابي السرح قد تمادى في سوء سياسته وسلوكه حتى طال ذلك مجتمع العرب المستوطنين بمصر.

ويبدو أنه كانت تجاوزات ابن أبي السرح فاحشةً وهائلة إلى درجة أن شيخ المؤرخين الطبري تخلى عن التزامه بتوثيق ما وصله من أخبار، فأعلن أنه «كره ذكرَها» حفاظاً على سمعة الخليفة عثمان كما يبدو. فالطبري قال في تاريخه *«وأما الواقدي فإنه ذكر في سبب مسير المصريين إلى عثمان ونزولهم ذا خشب أموراً كثيرة، منها ما قد تقدم ذكره، ومنها ما أعرضتُ عن ذكره كراهةً مني ذكره لبشاعته»*.

وذكر ابن حبان في كتاب الثقات ضمن أحداث سنة 35 للهجرة *«خرج جماعة من أهل مصر الى عثمان يشكون ابن ابي سرح ويتكلمون منه. فكتب اليه عثمانُ كتاباً وهدّدَه فيه. فأبى ابن ابي السرح أن يقبل من عثمان، وضرب بعضَ مَن أتاه من قبل عثمان متظلماً وقتل رجلاً من المتظلمة»*

وفيما يلي نصٌّ جاء في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلا عن الزهري عن سعيد بن المسيب[1]:

«جاء أهل مصر يشكون ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمانُ رضي الله عنه كتاباً يتهدده فيه، فأبى أن يقبل ما نهاه عنه عثمان رضي الله عنه وضرب بعضَ مَن أتاه من قبل عثمان من أهل مصر يتظلم منه فقتله .

فخرج من أهل مصر سبعمائة إلى المدينة، فنزلوا المسجدَ، وشكوا إلى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن ابي سرْح بهم.

فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان رضي الله عنه بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة فقالت: قد تقدم إليك أصحاب محمد، وسألوك عزلَ هذا الرجل فأبيتَ إلاّ واحدة فهذا قد قتل منهم رجلا فاقضِهم من عاملك. ودخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه -وكان متكلم القوم- فقال: إنما سألوك رجلاً مكان رجل، وقد ادعوا عنه دماً فاعزله عنهم واقضِ بينهم، وإن وَجَب عليه حق فأنصفهم منه. ...»

وفي رواية للطبري في تاريخه عن الواقدي انه لما دخل المتمردون المصريون على عثمان في داره أمام الصحابة تقدم رئيسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي «فذكرَ ما صنع ابنُ سعد بمصر :

وذكر تحاملاً منه على المسلمين

وأهل الذمة

وذكر استئثاراً منه في غنائم المسلمين، فإذا قيل له في ذلك قال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليّ.

ثم ذكروا أشياء مما أحدث بالمدينة وما خالف به صاحبيه

قال: فرحلنا من مصر ونحن لا نريد إلاّ دمك أو تنزع»

(1) ونفس هذا النص بالحرف تقريبا رواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة باسناده الجمعي (ذكروا). وكذلك روى ابن حبان في كتاب «الثقات»

ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري رواية عن عروة بن الزبير:

«كتب أهل مصر إلى عثمان: من الملأ المسلمين إلى الخليفة المبتلى. أما بعد. فالحمد لله الذي أنعم علينا وعليك. واتخذ علينا فيما أتاك الحجة.

وإنا نذكرك الله في مواقع السحاب فإن الله تعالى قال في كتابه (أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق): أن تحل ما شئت منه بقولك وتحرم ما شئت منه بقولك.

ونذكرك الله في الحدود: أن تعطلها في القريب وتقيمها في البعيد، فإن سنة الله واحدة.

ونذكرك الله في أقوام أخذ الله ميثاقهم على طاعة ليكونوا شهداء على خلقه. نصحوا لك فاغتششت نصيحتهم، وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم. وقال الله في كتابه (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون انفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون)

فنذكرك الله وننهاك عن المعصية، فإنك تدعي علينا الطاعة وكتاب الله ينطق: لا طاعة لمن عصى الله. فإن تعطِ الله الطاعة نؤازرك ونوقرك وإن تأبَ فقد علمنا أنك تريد هلكتنا وهلكتك. فمن يمنعنا من الله إن عصيناه وأطعناك، وأنت العبد الميت المحاسب والله الخالق البارئ المصور الذي لا يموت»

وقد روى ابن شبة عن الزهري ان الخليفة بعث لأهل مصر بكتاب عام، لا يحتوى إلاّ على التأكيد على طاعة أولي الأمر والتشديد على الوفاء بالبيعة والتحذير من الفرقة والفتنة.

فاذن استمر عثمان في دعم واليه ابن ابي السرح.

*****

مما تقدم يمكن تلخيص أسباب شكوى أهل مصر والجمع بين الروايات على النحو التالي:

(1) السياسة المالية وتوزيع الأموال والظلم الواقع على اهل البلد سواء العرب منهم أو أهل الذمة.

(2) الانتقائية في تطبيق الحدود الشرعية.

(3) العقوبات الظالمة المطبقة بحق الكثيرين من الناس الصالحين، وخاصة النفي.

(4) التهاون في الواجبات الدينية، وخاصة الصلاة.

تفنيد رواية لسيف بن عمر

ولا بد لسيف بن عمر أن يدلي بدلوه محاولا كعادته الدفاع عن الخليفة وواليه. فهناك روايةٌ غريبة يرويها الطبري في تاريخه، نقلاً عن سيف، تقول أن عثمان بن عفان أرسلَ عمارَ بن ياسر إلى مصر لكي يتحقق مما يجري هناك، وما يرويه الناس عن سوء الحكم وفساد الإدارة فيها. وتذكر الرواية أن عمارا تأخر في العودة إلى المدينة كثيراً إلى أن وصل كتابٌ من الوالي عبد الله بن سعد بن أبي السرح، يُخبر فيه أن عماراً استماله قومٌ من مصر منهم عبد الله بن السوداء، وخالد بن ملجم، وسودان بن حمران وكنانة بن بشر!

ويمكن طرح العديد من علامات التعجب هنا :

- فكيف يمكن تصوّر أن عثمان بن عفان يختار عمار بن ياسر بالذات لمهمة كهذه؟! فعمار بن ياسر كان معروفاً عنه طعنه الدائم في سياسة عثمان وحكمه. وقد مرّ كيف كان عمار من أشد المعارضين للخليفة من البداية، والمعادين للسيطرة الأموية على مقاليد الحكم في الدولة وكيف تعرض إلى عقاب قاسٍ جداً من الخليفة عثمان وصل إلى حد الضرب المبرّح .

فهل لم يجد عثمان شخصاً آخر، غير عمار، ليرسله في المهمة المزعومة للتحقق من انتهاكات وتجاوزات واليه هو؟! وهل يعقل أن يختار عثمان شخصاً معادياً له إلى درجةٍ كبيرة، ليشهدَه على نظافة حكمِه وحُسن سياسة واليه، المشكوك في إسلامه، ابن أبي السرح؟

- وتضع هذه الرواية عبدَ الله بن سعد بن أبي السرح، المرتدّ القديم والحاكم الذي اشتهر فساده وظلمه، في موقع الحريص على مصلحة المسلمين، والناصح الأمين لخليفة الإسلام، الساعي إلى مواجهة المؤآمرة

اليهودية الشريرة التي يقودها ابن سبأ؟! وفي المقابل تضع الرواية عمار بن ياسر، الصحابي العريق الذي طالما تعذّب على رمضاء مكة في سبيل الإسلام ورسوله، في موقع المنساق وراء اليهودي الخبيث، والداخل في دهاليز الخيانة والتآمر مع الأشرار على الخليفة البريء وواليه المسكين؟!

– ويبدو واضحاً مدى التصنّع الظاهر في حشر اسم ابن سبأ بين مجموعة أسماءٍ لأشخاص حقيقيين، كانت لهم مساهمات بقتل عثمان لاحقاً.

تحامُل الرواة على ابن ابي حذيفة

هكذا ورد تفسير عداء المحمدين لعثمان حسب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري:

قال ان محمد بن ابي حذيفة كان يتيما في حجر عثمان «*فسأل عثمانَ العملَ حين ولي. فقال: يا بني، لو كنتَ رضى ثم سألتني العمل لاستعملتك. ولكن لستَ هناك*» فعند ذلك استأذنه محمد في الخروج من المدينة فأذن له وجهزه. فذهب الى مصر وهناك انقلب على عثمان لأنه منعَهُ الولاية.

وأما محمد بن ابي بكر فقال عنه ان «*الغضب والطمع*» دفعاه الى عداء عثمان وفسر ذلك «*كان من الاسلام بالمكان الذي هو به وغرّه أقوامٌ فطمع. وكانت له دالة فلزمه حق. فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن. فاجتمع هذا الى هذا فصار مذمماً بعد أن كان محمداً*»

ويلاحظ هنا مدى الكره الذي يكنه سيف لابن ابي بكر الى حد لجوئه الى استعمال نفس اللقب القديم المشين الذي كانت تطلقه قريش على رسول الله(ص): مذمم!

واما ابن حجر العسقلاني في الاصابة فلم يذكر أسباباً لعداء ابن ابي حذيفة لعثمان ولا تفاصيل حول خلافاته مع ابن ابي السرح بمصر.

ولكنه تحدّث عن قيام ابن ابي حذيفة بتزوير كتب ورسائل على لسان امهات المؤمنين في المدينة موجهة الى أهل مصر تشكو من الخليفة ! فقد روى ان ابا عمر الكندي أخرج من طريق الليث عن عبد الكريم بن الحارث

الحضرمي «ان ابن ابي حذيفة كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبي(ص) في الطعن على عثمان. كان يأخذ الرواحل فيحصرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد ان يبعث بذلك معهم فيجعلهم على ظهور بيت في الحر، فيستقبلون بوجوههم الشمس، ليلوحهم تلويح المسافر، ثم يأمرهم ان يخرجوا الى طريق المدينة، ثم يرسلوا رسلاً يخبروا بقدومهم. فيأمر بتلقيهم. فإذا أتوا الناس قالوا لهم: ليس عندنا خبر، الخبر في الكتب ! فيتلقاهم ابن ابي حذيفة ومعه الناس فيقول لهم الرسل: عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم الكتب من أمهات المؤمنين: إنا نشكو اليكم بأهل الاسلام كذا وكذا من الطعن على عثمان ! فيضج اهل المسجد بالبكاء والدعاء»

وهكذا تصور هذه الرواية ابن ابي حذيفة ككذاب محترف. فهو ليس فقط يخترع أخباراً ملفقة وينسبها زوراً الى أزواج النبي(ص)، بل إنه يعدّ مسرحاً كاملاً من أجل أن تنطلي أباطيله على أهل مصر: فهو يحضر دواباً فيجيعها لكي تهزل فيبدو عليها إعياء السفر الطويل، وهو يرتب مع رجال لكي يلفحوا وجوههم بالشمس فيظهروا بهيئة المسافر، ويتفق معهم على القدوم من طريق المدينة، وأن يرسلوا من يخبر بقرب قدومهم لأجل تشويق الناس، وأخيراً يقرأ كتبهم المزورة على رؤوس الأشهاد في المسجد !!

خلعُ ابن أبي السرح

هناك نوع من الغموض في الروايات التاريخية التي تتحدث عن كيفية سيطرة محمد بن أبي حذيفة وأصحابه على مصر، ومتى حدث ذلك بالتحديد.

فقد روى البلاذري في أنساب الأشراف «فلما حوصر عثمان وثب محمد بن أبي حذيفة على عبد الله بن سعد، فطرده عن مصر، وصلى بالناس وتولى أمر مصر»

وقد أخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق أخبار صراعات محمد بن ابي حذيفة في مصر، فقال عنه ،نقلاً عن طبقات ابن سعد «وهو الذي وثب بعثمان بن عفان وأعان عليه وحرض أهل مصر حتى ساروا اليه»

وروى عن ابي سعيد بن يونس ان محمد بن ابي حذيفة «كان أول من انتزى بمصر. انتزى على عقبة بن مالك، وكان خليفة عبد الله بن سعد بن ابي سرح على مصر حين خرج وافداً الى عثمان. فأخرج عقبة عن الفسطاط، فخلع عثمان بن عفان وتأمر على مصر.... وكان يسمى ميشوم قريش»

ومن هذه الرواية يظهر أن محمداً نجح في استغلال غياب ابن ابي سرح عن مصر، فتغلب على نائبه. كما روى عن شاهد عيان المزيد من التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة «كنتُ مع عقبة بن عامر جالساً قريباً من المنبر يوم الجمعة، فخرج محمد بن ابي حذيفة فاستوى على المنبر فخطب الناسَ، ثم قرأ عليهم سورة من القرآن -وكان من أقرأ الناس- فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله: إني سمعتُ رسول الله(ص) ليقرأن رجالٌ لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية!

زاد ابن عثمان: فسمعها ابن ابي حذيفة فقال: والله لئن كنتَ صادقاً -وانك ما علمتُ لكذوب- إنك منهم»

وهذه الرواية توضح مدى اتقان محمد للقرآن وتأثيره على الناس بما يفوق نائب ابن ابي سرح.

ويروي ابن حجر في الاصابة عن ابي عمر الكندي أن عبد الله بن سعد بن أبي السرح قد خرج من مصر متوجهاً إلى عثمان «لمّا قامَ الناسُ عليه، فطلب أمراء الأمصار، وذلك في رجب سنة 35، واستناب عقبة بن عامر ... فوثبَ محمد بن أبي حذيفة على عقبة بن عامر فأخرجه من مصر، وذلك في شوال من عام 35، ودعا إلى خلع عثمان وأسعر البلاد وحرّض الناس على عثمان»

كما روى عن عبد العزيز بن عبد الملك السليحي عن ابيه بعضَ التفاصيل حول الصراع بين محمد وعقبة «كنتُ مع عقبة بن عامر قريباً من المنبر، فخرج ابن ابي حذيفة فخطب الناسَ، ثم قرأ عليهم سورة -وكان قارئاً- فقال عقبة: صدق رسول الله(ص): ليقرأن القرآن ناسٌ لا يجاوز تراقيهم.

فسمعه ابن ابي حذيفة فقال: إن كنتَ صادقاً إنك منهم»

وهذه تشبه رواية ابن عساكر السابقة التي توضح مدى اتقان محمد للقرآن وتأثيره على الناس

وتابع ابن حجر من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن ابي حبيب «*بايعَ أهلُ مصر محمدَ بن أبي حذيفة بالإمارة إلاّ عصابة منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطاة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان*».

وذكر ابن الأثير في أسد الغابة أن الذي استخلفه ابن ابي السرح هو هشام بن عمرو إلى أن أزاله عنها ابن أبي حذيفة.

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ابن ابي السرح «*وغزا الصواري في البحر من أرض الروم سنة 34، ثم قدم على عثمان. واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمرو العامري، فانتزى عليه محمد بن ابي حذيفة بن عتبة بن ربيعة، فخلع السائبَ وتأمّر على مصر. ورجع عبد الله بن سعد من وفادته فمنعه ابن ابي حذيفة من دخول الفسطاط ...*»

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة موقف ابن ابي حذيفة مع عقبة بن عامر (دون الاشارة الى انه كان الذي استخلفه ابن ابي السرح على مصر). فروى عن حرملة بن عبد العزيز عن ابيه «*كان محمد بن ابي حذيفة يخطب، وكان أقرأ الناس للقرآن. فقال عقبة بن عامر: صدق الله ورسوله! سمعتُ رسول الله (ص) يقول: يقرأ القرآن قوم لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. قال: لئن كنت سمعت هذا من رسول الله (ص) تزعم انك ... لكذوب، انك ما علمتُ لمتهم*»

كما روى عن سلمة بن مخرمة «*لما انتزى ابن ابي حذيفة بمصر، فخلعَ عثمانَ، دعا الناس الى أعطياتهم، فابيتُ أن آخذ منه. قال: ثم ركبتُ الى المدينة فصرتُ الى عثمان فقلتُ: يا أمير المؤمنين ان ابن ابي حذيفة إمام حلا له كما علمتَ. وانه انتزى علينا بمصر فدعانا الى أعطياتنا فأبيتُ أن آخذ منه. فقال: عجزتَ إنما هو حقك. عجزتَ إنما هو حقك*»

والأرجح هو أن ثورة محمد بن أبي حذيفة ومَن معه، وخلعهم لابن أبي

السرح قد حصلت في أثناء فترة الشهور القلائل التي كان فيها عثمان مُحاصَراً إلى أن قتل. ربما كانت الأخبار الواردة من المدينة في تلك الأثناء مضطربة ومشوشة بحيث أثارت اضطراب ابن أبي السرح وأفقدته توازنه. من المحتمل أن ابن أبي السرح قد وصلته أخبار قتل عثمان وبيعة عليّ ففزع وعرف أنه ليس فقط سيفقد منصبه، وإنما قد يصبح مطلوباً للعقاب من قبل الخليفة الجديد على ما اقترفه من تجاوزات أثناء ولايته الطويلة. لا شك أن ابن أبي السرح كان يعرف علياً حق المعرفة، ويعرف صرامته في الحق، وربما قدر أن علياً سيكون كله آذاناً صاغية لكل مَن له شكوى أو مظلمة ضده.

مصير ابن ابي حذيفة

قال الطبري في تاريخه:

«اختلف أهل السير في وقت مقتله فقال الواقدي قتل في سنة 36. قال وكان سبب قتله أن معاوية وعمرا سارا إليه وهو بمصر قد ضبطها فنزلا بعين شمس فعالجا الدخول فلم يقدرا عليه فخدعا محمد بن أبي حذيفة على أن يخرج في ألف رجل إلى العريش فخرج وخلف الحكم بن الصلت على مصر فلما خرج محمد بن أبي حذيفة إلى العريش تحصن وجاء عمرو فنصب المجانيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فأخذوا فقتلوا قال وذلك قبل أن يبعث علي إلى مصر قيس بن سعد .

وأما هشام بن محمد الكلبي فإنه ذكر أن محمد بن أبي حذيفة إنما أخذ بعد أن قتل محمد بن أبي بكر ودخل عمرو بن العاص مصر وغلب عليها وزعم أن عمرا لما دخل هو وأصحابه مصر أصابوا محمد بن أبي حذيفة فبعثوا به إلى معاوية وهو بفلسطين فحبسه في سجن له فمكث فيه غير كثير ثم إنه هرب من السجن وكان ابن خال معاوية فأرى معاوية الناس أنه قد كره انفلاته فقال لأهل الشأم من يطلبه قال وقد كان معاوية يحب فيما يرون أن ينجو فقال رجل من خثعم يقال له عبد الله بن عمرو بن ظلام وكان رجلا شجاعا وكان عثمانيا أنا أطلبه فخرج في حاله حتى لحقه بأرض البلقاء بحوران وقد دخل في غار هناك فجاءت حمر تدخله وقد أصابها المطر فلما رأت الحمر الرجل

في الغار فزعت فنفرت فقال حصادون كانوا قريبا من الغار والله إن لنفر هذه الحمر من الغار لشأنا فذهبوا لينظروا فإذا هم به فخرجوا ويوافقهم عبد الله بن عمرو بن ظلام الخثعمي فسألهم عنه ووصفه لهم فقالوا له ها هوذا في الغار قال فجاء حتى استخرجه وكره أن يرجعه إلى معاوية فيخلي سبيله فضرب عنقه»[1]

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق أن محمد بن ابي حذيفة «*قتل بفلسطين سنة 36، وكان ممن أخرجه معاوية في الرهن من مصر*»

وروى ابن حجر في الاصابة أنه بعدما قتل عثمان:

«فلما علم بذلك من امتنع من مبايعة بن أبي حذيفة اجتمعوا وتبايعوا على الطلب بدمه .فسار بهم معاوية بن حديج إلى الصعيد. فأرسل إليهم بن أبي حذيفة جيشا آخر فالتقوا فقتل قائد الجيش.

ثم كان من مسير معاوية بن أبي سفيان إلى مصر لما أراد المسير إلى صفين فرأى ألا يترك أهل مصر مع ابن أبي حذيفة خلفه فسار إليهم في عسكر كثيف. فخرج إليهم ابن أبي حذيفة في أهل مصر فمنعوه من دخول الفسطاط. فأرسل إليهم إنا لا نريد قتال أحد وإنما نطلب قتلة عثمان.

فدار الكلام بينهم في الموادعة. واستخلف بن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف وخرج مع جماعة منهم عبد الرحمن بن عديس وكنانة بن بشر وأبو شمر بن أبرهة بن الصباح فلما بلغوا به غدر بهم عسكر معاوية وسجنوهم إلى أن قتلوا بعد ذلك.

وذكر أبو أحمد الحاكم أن محمدا بن أبي حذيفة لما ضبط مصر وأراد معاوية الخروج إلى صفين بدأ بمصر أولا فقاتله محمد بن أبي حذيفة بالعريش إلى أن تصالحا وطلب منه معاوية ناسا يكونون تحت يده رهنا ليأمن جانبهم

---

(1) وقد روى ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة نفس الرواية الثانية للطبري، التي تتحدث عن لجوء ابن ابي حذيفة الى الغار وضرب عنقه على يد ابن ظلام، نقلاً عن المدائني. وحسب هذه الرواية يكون محمد بن ابي حذيفة قد بقي لما بعد محمد بن ابي بكر.

إذا خرج إلى صفين فأخرج محمد رهنا عدتهم ثلاثون نفسا فأحيط بهم وهو فيهم فسجنوا

وقال أبو أحمد الحاكم خدع معاوية محمد بن أبي حذيفة حتى خرج إلى العريش في ثلاثين نفسا فحاصره ونصب عليه المنجنيق حتى نزل على صلح فحبس ثم قتل

وأخرج ابن عائذ من طريق ابن لهيعة عن يزيد بن حبيب قال فرقهم معاوية بصفين فسجن ابن أبي حذيفة ومن معه في سجن دمشق وسجن بن عديس والباقين في سجن بعلبك....

واختلف في وفاته فقال ابن قتيبة قتله رشدين مولى معاوية وقال بن الكلبي قتله مالك بن هبيرة السكوني»

فمحمد بن ابي حذيفة ذهب ضحية غدر معاوية حسب أغلب الروايات.

علاقة ابن ابي حذيفة بالامام علي

كان محمد بن ابي حذيفة شيعيا، ولا جدال في ذلك. والمصادر الشيعية تذكره بكل خير وتقول بأن الامام عليا قد أثبته على ولاية مصر لما تولى. فمثلا قال عنه الحر العاملي في وسائل الشيعة «*مشكور. قاله العلامة. وقال الشيخ: كان عامل علي عليه السلام على مصر. وروى الكشي مدحه*». وورد في رجال الطوسي أنه كان عامل الامام علي على مصر

ورغم أن المشهور لدى المؤرخين هو ان الذي عينه الامام علي على ولاية مصر لما تولى كان قيس بن سعد بن عبادة الانصاري، إلا أنه توجد روايات تقول بأنه كان قد أقر ابن أبي حذيفة فترة قليلة قبل ذلك. فمثلا قال ابن كثير في البداية والنهاية ان محمد بن ابي حذيفة «*كان قد تغلب على مصر، وأخرج منها عبد الله بن سعد بن ابي سرح، نائب عثمان بعد عمرو بن العاص. فأقره عليها عليّ مدة يسيرة ثم عزله بقيس بن سعد*»

وقال ابن حجر العسقلاني في الاصابة «... *وذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن عليا لما ولي الخلافة أقر محمد بن أبي حذيفة على إمرة مصر ثم*

ولا ها محمد بن أبي بكر.» وهنا يبدو ابن حجر قد أخطأ بذكر محمد بن ابي بكر مباشرة بعد ابن ابي حذيفة، فهو قد نسي قيس بن سعد.

وأخذا بعين الاعتبار أنه في الفترة المضطربة التي تولى فيها الامام علي الخلافة كان ابن ابي حذيفة متغلبا على مصر بالفعل، لا يمكن الجزم بأنه قد عيّن بالفعل من قبل الامام علي. فلا يوجد ذكر لحادثة توليته ثم عزله عند معظم المؤرخين. كما لا يوجد سبب محدد يدفع الامام عليا لتعيينه لتلك الفترة القصيرة جدا ثم استبداله. ولكن ربما هو قام بدور القائم بتصريف الاعمال في مصر الى حين وصول الوالي الرسمي للامام علي وهو قيس بن سعد.

وبخلاف محمد ابن أبي بكر الذي تربى في بيت عليّ بن أبي طالب وكان أخاً لأبناء جعفر بن أبي طالب من جهة الأم، لا توجد أدلة كثيرة على علاقة مباشرة وتواصل بين الامام علي ومحمد بن ابي حذيفة. بل على العكس من ذلك: فابن ابي حذيفة تربى في بيت عثمان بن عفان.

ولكن ينبغي القول بأن ابن ابي حذيفة لم يكن أول حالة لشخصية «أموية» النسب تتشيع لعلي بن ابي طالب وتتخلى عن انتمائها العائلي في سبيل ذلك. فقبله كان خالد بن سعيد بن العاص.

وفي حالة محمد بن ابي حذيفة انا أرجح أن صداقته لمحمد بن ابي بكر، وقربه منه، جعله يتأثر بافكاره فيقلب انتماءه وولاءه من قريبه وربيبه عثمان الى علي.

وقد وجدتُ نصا يتحدث عن رسالة من محمد بن ابي حذيفة الى الامام علي. فقد روى الطبري في تاريخه عن الواقدي:

«كان محمد بن ابي بكر ومحمد بن ابي حذيفة بمصر يحرّضان على عثمان. فقدِم محمد بن ابي بكر وأقام محمد بن ابي حذيفة بمصر.

فلما خرج المصريون خرج عبد الرحمن بن عديس البلوي في خمسمائة وأظهروا انهم يريدون العمرة. وخرجوا في رجب.

وبعث عبد الله بن سعد رسولاً سارَ إحدى عشرة ليلة يخبر عثمان أن ابن عديس وأصحابه قد وجهوا نحوه، وأن محمد بن ابي حذيفة شيعهم الى عجرود ثم رجع.

وأظهر محمد ان قال: خرج القومُ عُمّاراً. وقال في السر: خرج القومُ الى إمامهم فإن نزعَ وإلاّ قتلوه.

وسار القوم المنازل لم يعدوها حتى نزلوا ذا خشب.

وقال عثمان قبل قدومهم حين جاءه رسول عبد الله بن سعد: هؤلاء قوم من اهل مصر يريدون بزعمهم العمرة، والله ما أراهم يريدونها ولكن الناس قد دخل بهم وأسرعوا الى الفتنة وطال عليهم عمري. أما والله لئن فارقتهم ليتمنون أن عمري كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة مما يرون من الدماء المسفوكة والاحن والاثرة الظاهرة والاحكام المغيرة.

قال: فلما نزل القوم ذا خشب جاء الخبر ان القوم يريدون قتل عثمان إن لم ينزع. وأتى رسولهم الى علي ليلاً، والى طلحة والى عمار بن ياسر. وكتب محمد بن ابي حذيفة معهم الى عليّ كتاباً، فجاؤوا بالكتاب الى عليّ فلم يظهر على ما فيه. فلما رأى عثمان ما رأى جاء علياً فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم: إنه ليس لي مترك وان قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم ان لك عند الناس قدرا وانهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب اليهم فتردهم عني...»

ورغم أن هدف هذه الرواية الظاهر هو إثبات مسؤولية ابن ابي حذيفة وابن ابي بكر عن إرسال المتمردين على عثمان من مصر الى المدينة، إلاّ أنَّ فيها ما يشير الى تواصل مباشر بين ابن ابي حذيفة والامام علي، رغم أنها لم تظهر محتوى الكتاب.

مصير ابن ابي السرح

هناك عدم وضوح فيما يختص بعبد الله بن سعد بن أبي السرح ومصيره عقب مقتل عثمان.

روى البلاذري في انساب الأشراف أنه بعد ان سيطر ابن ابي حذيفة على مصر أثناء حصار عثمان قام بطرد ابن ابي السرح من مصر

«فصار عبد الله بن سعد إلى فلسطين ثم لحق بمعاوية، ثم إنه صار بعد ذلك إلى افريقية فقتل بها. ويقال: مات بفلسطين وكان قد أقام بها. وكان موته في آخر خلافة علي»

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة ابن ابي السرح انه بعد ان منع ابن ابي حذيفة ابنَ ابي السرح من العودة الى مصر».. فمضى الى عسقلان، فأقام بها حتى قتل عثمان رضي الله عنه. وقيل: بل أقام بالرملة حتى مات فاراً من الفتنة»

وقال ابن خلدون في تاريخه:

«وخرج عبد الله من مصر مددا لعثمان فخالفه محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة إلى مصر وانتزى بها ورجع عبد الله من طريقه فمنعه الدخول فسار إلى عسقلان وأقام بها حتى قتل عثمان ثم سار إلى الرملة وكانت من مهماته فأقام بها هربا من الفتنة حتى مات ولم يبايع عليا ولا معاوية»

روى ابن حجر في الاصابة» بايعَ أهلُ مصر محمدَ بن أبي حذيفة بالإمارة إلاّ عصابة منهم معاوية بن حديج وبسر بن أرطأة، فقدم عبد الله بن سعد حتى إذا بلغ القلزم وجد هناك خيلاً لابن أبي حذيفة فمنعوه أن يدخل، فانصرف إلى عسقلان».

وحسب هذه الرواية فإن ابن أبي السرح يكون قد قرر الذهاب إلى معاوية بعد خلعه من مصر. وهذه الرواية ممكنة لأنه لم ترد أية روايات تفيد بوجود مقاومة لدخول والي عليّ المعيّن، قيس بن سعد، إلى مصر بعد فترة قصيرة. إذ لو كان ابن ابي السرح مسيطراً على مصر لما سمح لقيس بن سعد بدخولها بيُسر. ..

وليس لابن ابي السرح ذكرٌ مؤكد في أحداث الصراع الدامي الذي دار بين معاوية وعليّ..رغم أنه يوجد له ذكر لدى الدينوري في الاخبار الطوال ضمن الاشخاص الذين استشارهم معاوية حول التخلية بين جيش العراق وماء الفرات لما وصلوا صفين.

ولكن الأرجح انه مات بفلسطين في بداية تلك الأحداث، خاصة انه ولا شك كان طاعناً في السن، في السبعينات من عمره حتماً. فهو كان قد ارتد في بداية بعثة الرسول(ص)، أي انه كان رجلاً ناضجاً قبل حوالي 55 عاما من سنة 35 للهجرة. وبذلك يكون ولا شك في أواخر عمره عند مقتل عثمان.

ويقول ابن حجر في الاصابة أن ابن أبي السرح مات في عسقلان (وقيل الرملة) سنة 36 للهجرة. رغم أنه ذكر رواية أخرى تفيد أنه عاش إلى سنة 57، وحتى 59، للهجرة. وذكر ابن الأثير في أسد الغابة انه مات بعسقلان سنة 36 أو 37 رغم أن هناك من روى أنه عاش إلى آخر أيام معاوية.

الفصل الثاني: التمرد في العراق[1]

كما في كل مكان وزمان، لا يمكن أن يُعزى التمرد على السلطة والخليفة الى سبب واحد بعينه أو الى حادثة محددة. فالثورة تكون نتاج عوامل كثيرة تتراكم حتى تصل الى نقطة الانفجار. وهذا ما حصل في العراق.

فبالاضافة الى ما ذكرناه بشأن نوعية الولاة الذين عينهم عثمان، والمآخذ الكثيرة على خلفياتهم وسلوكهم الشخصي، تدل كل المؤشرات على أن السياسة الاقتصادية لعثمان وولاته كانت محل نقمة وسبباً لغضب عامة المسلمين. خاصة وأنه كان هناك توجه واضح للاستئثار بالأراضي والمزارع العراقية من قبل الطبقة الأموية الحاكمة وأتباعها كما تقدم. ومن المؤكد أنه لم يكن هناك رضى من الناس عما يرونه من نهب للخيرات تمارسها بطانة الولاة الأمويين.

ومن الطبيعي أن تكون تلك التطورات مثار سخط وغضب لدى قطاع عريض من العرب المقيمين في الكوفة خاصة، منذ فترة طويلة، من أيام الفتح الأول. فأبناء القبائل العربية هناك كانوا يعتبرون أنفسهم، هم دون غيرهم، مَن قاموا بخوض القتال ضد جيوش الفرس حتى حققوا النصر والفتح، بعد أن قدموا التضحيات الجسام في سبيل ذلك. كانوا يرون أنهم بسيوفهم وحوافر

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص12)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص32)، تاريخ الطبري (ج3 ص361-368 و ص369)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1141 و ص1142)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص151-152 و ص153-154و ص155)، كتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص384-385 و ص387-388 و ص391)، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ج7 ص440)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص134 و ص185)

خيلهم، ودماء إخوانهم وآبائهم، هزموا جيوش فارس في القادسية ونهاوند. وهم الآن يرون القرشيين يسيرون باتجاهٍ خطير جداً، ومضرّ بمصالحهم، وهو الهيمنة على ثروات العراق الاستئثار بها، دونهم. فالأموال تجبى من أراضي العراق وترسل إلى كبار الأثرياء القرشيين في المدينة المنورة.

وربما كان عدد من سكان العراق العرب لا يمانعون أن يستفيد من الثروات الناتجة عن الفتوحات أشخاص ذوو ماض إسلامي مجيد، ممن صحبوا رسول الله(ص) وخاضوا الجهاد معه. ولكن لا شك أن قيام أبناء قبيلة قريش، والبطن الأموي خاصة، ممن ليست لهم سابقة ولا فضل في الإسلام، أو ممن امضوا جلّ حياتهم في عداء رسول الله(ص)، بانتزاع الملكيات الضخمة في العراق دون وجه حق ولا أهلية، كان يسبب للمقاتلين المستقرين في العراق ألماً وأسى عظيما. فهم يرون «حقهم» يضيع أمام أعينهم، وكان لا بد لذلك ان يؤدي إلى حركة رفض وتمرد، خاصة وأن الخليفة لا يفعل شيئا ليوقف تلك الموجة، بل كان هو مسببها والمروّج لها.

الكوفة تضطرب

تقييم سعيد بن العاص لأحوال الكوفة

بعد فترة قصيرة من وصوله إلى الكوفة، بعد تعيينه والياً، كتب سعيد بن العاص تقريراً إلى عثمان حول تقييمه لأوضاع أهلها وأحوالها

وفيما يلي رواية سيف بن عمر بشأن قدوم سعيد والياً كما ذكرها ابن عساكر في تاريخ دمشق وفيها يظهر تقييمه لأوضاع الكوفة:

«فصعد سعيد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه

فقال: والله لقد بُعثتُ إليكم وإني لكاره. ولكن لم أجد بداً إذا أُمِرتُ أن أتمر

الا ان الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها. ووالله لأضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تعييني الله. وإني لرائد نفسي اليوم.

ونزل، فسأل عن أهل الكوفة فأقيم على حال أهلها

فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه: ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلِب أهل الشرف فيهم والبيوتات والسابقة والقدمة. والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت

فلو وأحق طاعتنا حتى ما ننظر الى ذي شرف فلا بلاء من نازلتها ولا نابتتها.»

وإذا تجاوزنا شكليات نصوص سيف بن عمر التي هي دائماً موجهة للدفاع عن عثمان وقراراته (كلامه عن الوالي المجتهد الذي يريد أن يقمع الفتنة ...) يمكننا بوضوح أن نتعرف الى رؤية الوالي الأمويّ الجديد لحال الكوفة: علا فيها شأن الأوباش، الذين عبّر عنهم بـ«روادف ردفت وأعراب لحقت»، وهي بالتالي بحاجة إلى سياسة تعيد الأمور إلى نصابها! فلا بد له من وضع حدّ لأولئك «العامة» الذين صاروا «يتطاولون» على الأسياد.

نتابع رواية سيف:

«فكتب اليه عثمان: أما بعد، ففضّل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد. وليكن مَن نزلها بسببهم تبعاً لهم، إلاّ أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء. واحفظ لكل منزلته، وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق. فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل»

وهذا الكلام ليس ببعيد عن عثمان، وخاصة فكرة الحفاظ على المقامات.

يتابع سيف *«فأرسل سعيد الى وجوه الناس من أهل الأيام والقادسية فقال: أنتم وجوه من ورائكم، والوجه ينبئ عن الجسد فأبلغونا حاجة ذي الحاجة وخلة ذي الخلة. وأدخل معه من يحتمل ذلك من اللواحق والروادف.*

وخلص بالقراء والمتسمتين في سمره»

ويستفاد من هذه الفقرة أن سعيداً بدأ يرسي قواعد سياسة جديدة في الكوفة قوامها إعادة الاعتبار الى الزعماء والأشراف والوجهاء وتقريبهم الى السلطة، وذلك على حساب الفئات الهامشية من القادمين الجدد وأهل الذمة وغيرهم ممن قربهم اليه الوليد بن عقبة.

ولكن ينبغي الاشارة الى أن الاختلاف في السياسة بين الواليين الأمويين الوليد وسعيد ناتج عن المسلك الشخصي لكليهما أكثر من كونه تعبيراً عن فكر أو توجه سياسي. فالوليد كان فاسقاً ومتهتكاً ولذلك قرّب اليه فئات من الموالي والخلعاء بعيداً عن صرامة الأشراف والوجهاء. فليس الأمر أن الوليد كان صاحب سياسة متعاطفة مع الطبقات الأدنى أو أكثر عدالة كما قد يتوهم البعض. فلو وجد الوليد ضالته في الأشراف والقراء، ولو سايره هؤلاء في نزواته وسمره، لما تردد في جعلهم خلصائه وخاصته.

ويتابع سيف «*فكأنما كانت الكوفة بيتاً شملته نار فانقطع الى اولئك الضرب ضربهم وفشت القالة والاذاعة.*

وكتب سعيد الى عثمان بذلك. فنادى منادي عثمان: الصلاة جامعة. فاجتمعوا فأخبرهم بالذي كتب اليه سعيد وبالذي كتب به اليه فيهم، وبالذي جاءهم به من القالة والاذاعة.

قالوا: أصبت فلا تعفهم من ذلك ولا تطعمهم فيما ليسوا له بأهل، بأنه إذا نهض في الامور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها

فقال عثمان: يا أهل المدينة استعدوا واستمسكوا فقد دنت اليكم الفتن.

ونزل فأوى الى منزله وتمثل مثله ومثل هذا الضرب الذين أسرعوا في الخلاف

أبني عبيد قد أتى أشياعكم عنكم مقالتكم وشعر الشاعر

فإذا أتتكم هذه فتلبسوا ان الرماح بصيرة بالحاسر»

وأما ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد اختصر الكلام عن مشاكل سعيد لدى تعيينه في الكوفة، فقال :

«*...م صعد المنبر فخطب أهل الكوفة وتكلم بكلام قصر بهم فيه ونسبهم إلى الشقاق والخلاف. فقال إنما هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش!*

فشكوه إلى عثمان، فقال: كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله»

وأضاف ابن سعد عن سياسة الوالي الجديد «ثم انصرف سعيد بن العاص *إلى الكوفة فأضرّ بأهلها إضراراً شديداً*»

ورغم أن رواية ابن سعد هذه لا تفصّل أسباب الخلاف بين الوالي واهل الكوفة، إلاّ انها تفيد في إظهار الدعم الذي تلقاه سعيد من الخليفة الذي رفض الاستجابة لمطالب الكوفيين. ويظهر من جواب عثمان «كلما رأى أحدكم من أميره جفوة أرادنا أن نعزله» نوع من الملل الممزوج بالغضب: فعثمان يجد نفسه مطالباً بعزل سعيد بعد فترة وجيزة من عزله الوليد بن عقبة! وهو لا يستسيغ ذلك.

انما هذا السواد بستانٌ لقريش

يمكن القول ان العبارة الشهيرة لسعيد بن العاص «إنما هذا السواد بستان قريش» هي تلخيص دقيق لمجمل السياسة العثمانية في العراق. وعلى الرغم من أن هذه الكلمة قد صدرت كزلة لسان من الوالي، الاّ انها أثارت استياءً شديداً لدى الكوفيين، وكان لها وقع بالغ السلبية في أوساطهم. ولا شك أنها لامست وتراً حساساً لديهم خاصة وهم يرون واقعاً التطبيق العملي لتلك السياسة «القرشية».

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين حول المشكلة التي حدثت في الكوفة وأدت الى نفي مجموعة من شخصياتها،ضمن أحداث سنة 33 للهجرة. الاولى هي لسيف بن عمر والثانية للواقدي.

وسوف يأتي الحديث عن رواية سيف .

واما رواية الواقدي فهي اصح. تقول «*قدم سعيد بن العاص الكوفة، فجعل يختار وجوه الناس، يدخلون عليه ويسمرون عنده. وإنه سمر عنده ليلة وجوه اهل الكوفة منهم: مالك بن كعب الأرحبي، والاسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الاشتر في رجال.*

فقال سعيد: انما هذا السواد بستان لقريش!

فقال الاشتر: أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك؟! والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلاّ أن يكون كأحدنا.

وتكلم معه القوم.

فقال عبد الرحمن الأسدي -وكان على شرطة سعيد- أتردّون على الأمير مقالته؟ وأغلظ لهم.

فقال الاشتر: من ههنا، لا يفوتنكم الرجل. فوثبوا عليه فوطؤوه وطأً شديداً حتى غشي عليه. ثم جُرّ برجله فألقي، فنضح بماء فأفاق.

فقال له سعيد: أبك حياة؟

فقال: قتلني من انتخبت زعمت للاسلام.

فقال: والله لا يسمر منهم عندي أحدٌ أبداً.

فجعلوهم يجلسون في مجالسهم وبيوتهم، يشتمون عثمانَ وسعيداً. واجتمع الناس اليهم حتى كثر من يختلف اليهم.

فكتب سعيد الى عثمان يخبره بذلك. يقول ان رهطاً من أهل الكوفة سماهم له عشرة يؤلبون ويجتمعون على عيبك وعيبي والطعن في ديننا. وقد خشيتُ إن ثبت أمرهم أن يكثروا.

فكتب عثمان الى سعيد أن سيّرهم الى معاوية. ومعاوية يومئذ على الشام. فسيّرهم وهم تسعة نفر الى معاوية: فيهم مالك الاشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعي وصعصعة بن صوحان»

وفيما يلي رواية ابي مخنف حسب ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:

«كتب سعيد بن العاص الى عثمان رضي الله عنه: ان قِبلي قوماً يدعون القراء، وهم سفهاء، وثبوا على صاحب شرطتي، فضربوه ظالمين له، وشتموني، واستخفوا بحقي. منهم: عمرو بن زرارة، وكميل بن زياد، ومالك بن الحارث، وحرقوص بن زهير، وشريح بن ابي أوفى، ويزيد بن مكنف، وزيد وصعصعة ابنا صوحان[1]، وجندب بن زهير.

(1) وقد وصف الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ج7 ص440) أحد أهم المعارضين، وهو زيد بن صوحان، بأوصاف تنمّ عن شخصية تقية ورعة. فبعد ان ذكر انه فقد يده في الجهاد قال «كان زيد بن صوحان يقوم الليل ويصوم النهار» وقال ان عبادته الشديدة تلك دفعت الصحابي الكبير سلمان الفارسي الى التدخل لكي يقنعه بأن يرفق بنفسه ويؤدي حق زوجته عليه!

فكتب عثمان رضي الله عنه الى الذين سماهم: أن يأتوا الشام، ويغزوا مغازيها.

وكتب الى سعيد: اني قد كفيتكَ مؤونتهم، فأقرأهم كتابي هذا فإنهم لا يخالفون إن شاء الله. وعليك بتقوى الله وحسن السيرة.

فأقرأهم سعيدُ الكتابَ. فشخصوا الى دمشق...»

وكما هو ظاهر تخلو رواية ابي مخنف من ذكر السبب الذي جعل «القراء» يهاجمون صاحب شرطة سعيد.

ونجد عند البلاذري في أنساب الأشراف، من طريق أبي مخنف، رواية أفضل وأوفى مما سبق:

«لما عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه الوليدَ بن عقبة عن الكوفة ولاّها سعيدَ بن العاص وأمره بمداراة أهلها. فكان يجالِسُ قرّاءها ووجوه اهلها ويسامرهم، فيجتمع عنده منهم:

مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان

وحرقوص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عبدة النهدي -وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحبكة، وكان كعب ناسكاً وهو الذي قتله بسر بن أرطاة بتثليث-

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، ويكنى أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع

وقيس بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة

ويزيد بن قيس الأرحبي

وغيرهم»

وقد حرصتُ على إثبات الأسماء هنا. وسوف أخصص فصلاً للحديث بشأنها.

يتابع ابو مخنف «فإنهم لعنده وقد صلوا العصر إذ تذاكروا السوادَ والجبلَ، ففضلوا السوادَ وقالوا: هو ما ينبت الجبل، وله هذا النخل

وكان حسان بن محدوج بن بشر بن حوط بن سعنة الذهلي الذي ابتدأ الكلامَ في ذلك .

فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي، صاحب شرطه: لوددتُ أنه للأمير، وأن لكم أفضل منه.

فقال له الأشتر: تمنّ للأمير أفضلَ منه، ولا تمنّ له اموالنا!

فقال عبد الرحمن: ما يضرّك من تمنيّ حتى تزوي ما بين عينيك؟ فوالله لو شاء كان له!

فقال الأشتر: والله لو رام ذلك ما قدر عليه.

فغضب سعيد وقال: انما السوادُ بستانٌ لقريش.

فقال الأشتر: أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامه أحدٌ لقرع قرعاً يتصاصأ منه!

ووثب بابن خنيس فأخذته الأيدي.

فكتب سعيد بن العاص بذلك الى عثمان وقال: إني لا أملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه الذين يدعون القراء -وهم السفهاء- شيئاً!

فكتب اليه أن سيّرهم الى الشام، وكتب الى الأشتر: إني لأراك تضمر شيئاً لو أظهرته لحلّ دمك! وما أظنك منتهياً حتى تصيبك قارعة لا بُقيا بعدها. فإذا اتاك كتابي هذا فسر الى الشام لإفسادك من قبلك وأنك لا تألوهم خبالاً .

فسيّر سعيدٌ الأشترَ ومن كان وثب مع الأشتر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، من بني حوف بن سبع بن صعب، إخوة السبيع بن سبع بن صعب

ويزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي

وأصعر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني المعقل.»

وبخلاف رواية ابن شبة والطبري تذكر رواية البلاذري هذه السبب الذي جعل سعيد بن العاص يتفوّه بذلك الكلام المتعجرف المتعالي عن هيمنة قريش وبستانها. وتسلسل الكلام في الرواية منطقي ومقبول.

ولكن أتم الروايات وأحسنها نجدها لدى ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح. فقد روى بإسناده الجمعي[1]: *«فبينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده وجوه أهل الكوفة إذ تكلم حسان بن محدوج الذهلي فقال: والله إن سهلنا لخير من جبلنا .*

فقال عدي بن حاتم: أجل، السهل أكثر برا وخصبا وخيرا .

فقال الأشتر: وغير هذا أيضا، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما من فاكهة ينبتها الجبل إلا والسهل ينبتها، والجبل خور وعر يحفي الحافر،

(1) تفاصيل الاسناد الجمعي لدى ابن أعثم سبق ذكرها في هذا الكتاب.

وصخره يعمي البصر ويحبس عن السفر، وبلدتنا هذه لا ترى فيها ثلجا ولا قرا شديدا .

قال: فقال عبد الرحمن بن خنيس الأسدي صاحب شرطة سعيد بن العاص: هو لعمري كما تذكرون، ولوددتُ أنه كله للأمير ولكم أفضل منه !

فقال له الأشتر: يا هذا ! يجب عليك أن تتمنى للأمير أفضل منه ولا تتمنى له أموالنا، فما أقدرك أن تتقرب إليه بغير هذا .

فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر ؟ فوالله ! إن شاء الأمير لكان هذا كله له !

فقال له الأشتر: كذبت والله يا بن خنيس ! والله إن لو رام ذلك لما قدر عليه، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعا يذل ويخشع .

قال: فغضب سعيد بن العاص من ذلك، ثم قال: لا تغضب يا أشتر ! فإنما السوادُ كله لقريش فما نشاء منه أخذنا وما نشاء تركنا ! ولو أن رجلا قدم فيه رجلا لم يرجع إليه، أو قدم فيه يدا لقطعتها .

فقال له الأشتر: أنت تقول هذا أم غيرك ؟

فقال سعيد بن العاص: لا بل أنا أقوله !

فقال الأشتر: أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستانا لك وقومك ؟! والله ! ما يصيبك من العراق إلا كل ما يصيب رجلا من المسلمين.

قال: ثم التفت الأشتر إلى عبد الرحمن بن خنيس فقال: وأنت يا عدو الله ممن يزين له رأيه في ظلمنا والتعدي علينا لكون ولاءك الشرطة. قال: ثم مد الأشتر يده فأخذ حمائل سيف ابن خنيس فجذبه إليه وقال: دونكم يا أهل الكوفة ! هذا الفاسق فاقتلوه حتى لا يكون للمجرمين ظهير.

قال: فأخذته الأيدي حتى وقع لجنبه ثم جروا برجله، فوثب سعيد بن العاص مسرعا حتى دخل إلى منزله. وقام الأشتر فخرج من المسجد وخرجوا معه أصحابه وهم يقولون: وفقك الله فيما صنعت وقلت ! فوالله لئن رخصنا

لهؤلاء قليلا لزعموا أن دورنا ومواريثنا التي ورثناها عن آبائنا في بلادنا لهم من دوننا.

قال: فكتب سعيد بن العاص من ساعته بذلك إلى عثمان كتابا في أوله: (بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من سعيد بن العاص، أما بعد ! فإني أخبر أمير المؤمنين أني ما أملك من الكوفة شيئا مع الأشتر النخعي، ومعه قومٌ يزعمون أنهم القراء وهم السفهاء، فهم يردون علي أمري ويعيبون علي صالح أعمالي. وأن الأشتر كان بينه وبين صاحب شرطي كلام ومراجعة في شيء لا أصل له، فأغرى به الأشترُ سفهاءَ أصحابه وأشرار أهل المصر حتى وثبوا عليه وأنا جالس، فضربوه حتى وقع لجنبه وهو لما به، فكتب إلي أمير المؤمنين برأيه أعمل به إن شاء الله .

كتب إليه عثمان كتابا في أوله: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد ! فقد بلغني كتابك تذكر فيه أنك لا تملك من الكوفة شيئا من الأشتر، ولعمري إنك تملك منها العريض الطويل، وقد كتبتُ إلى الأشتر كتابا وضمنته كتابك فادفعه إليه وانظر أصحابه هؤلاء الذين ذكرتهم فألحقهم به - والسلام - .

قال: ثم كتب عثمان إلى الأشتر: أما بعد ! فقد بلغني يا أشتر أنك تلقح وتريد أن تنبح ! وأيم الله إني لأظن أنك تستر أمرا لو أنك أظهرتَهُ لحلّ به دمُك، وما أراك متهيا عن الفتنة أو يصيبك الله بقارعة ليس معها بُقيا. فانظر إذا أتاك كتابي هذا فقرأته ورأيتَ أن لي عليك طاعة فسِر إلى الشام فتكون بها مقيما حتى يأتيك أمري. واعلم أني إنما أسيّرك إليها لا لشيء إلا لإفسادك على الناس وذلك بأنك لا تألوهم خبالا وضلالا .

قال: فلما ورد كتاب عثمان على الأشتر وقرأه عزم على الخروج عن الكوفة، وأرسل إليه سعيد بن العاص أن أخرج وأخرج من كان معك على رأيك. فأرسل إليه الأشتر: أنه ليس بالكوفة أحد إلا وهو يرى رأيي فيما أظن، لأنهم لا يحبون أن تجعل بلادهم بستانا لك ولقومك، وأنا خارج فيمن اتبعني فانظر فيما يكون من بعد هذا.

قال: ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صعصعة بن صوحان

العبدي وأخوه وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصفر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف، وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم»

كانت هذه أقدم المصادر التي تتحدث عن مشكلات سعيد بن العاص في الكوفة (الشعبي والواقدي وأبو مخنف). وهي رغم اختلافها في التفاصيل تظهر بوضوح أن استبدال الوليد بن عقبة بسعيد بن العاص كوالٍ للكوفة لم يجدِ نفعاً، ولم يهدّئ الأوضاع. فالمشكلة الحقيقية هي في جوهر السياسة القرشية لولاة بني أمية وما اثارته من شعور بالضيم لدى ابناء القبائل العربية. والأسماء التي تذكر كمحركين للتمرد تشهد بذلك. فلا يوجد بينهم من ينتمي لقريش أو للقبائل القريبة منها (كثقيف مثلاً) و المحسوبة عليها. بل هم ينتمون الى عرب الأطراف كالأزد وتميم وعبد القيس بالاضافة الى يمانيين.

نقد رواية سيف بن عمر

تبدو رواية سيف لدى الطبري مصممة لتدافع عن الوالي سعيد بن العاص وللوم المعارضين في الكوفة. ولكنها رغم ذلك تفيد أنه بمرور الوقت أصبح الجو متوتراً في الكوفة إلى درجة أن مجرد كلام تفوّه به أحد الفتيان من أتباع الوالي سعيد بن العاص كان سببا في مشكلة كبرى كادت تثير قتالاً أهلياً!

فحسب الرواية يكون سبب المشكلة أن عبد الرحمن بن خنيس[1]، وهو حَدَث، قد قال لسعيد بن العاص، وهو في مجلس عام:

«*والله لوددتُ أن هذا الملطاط لك، يعني ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذي يلي الكوفة*».

وتمضي الرواية لتقول ان هذه العبارة التي قالها الغلام أثارت هيجاناً عاصفاً من قبل عدد كبير من الكوفيين الذين قالوا «*يتمنى له من سوادنا*!» ثم انهالوا عليه ضرباً هو وأبوه، حتى كادوا يقتلوهما. ويذكر سيف أسماء

(1) تجمع روايات الإخباريين الآخرين على أن عبد الرحمن بن خنيس كان صاحب شرطة سعيد بن العاص، وليس حَدَثاً كما يذكر سيف.

الغاضبين وهم: الاشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابئ. ولما حاول سعيد بن العاص تهدئة الأمور مؤكدا للناس أنها مجرد كلمات تفوه بها غلامٌ جاهل، رفضوا ذلك وقالوا له «*أنت والله أمرته بها*!» وتقول الرواية ان الفتى وأباه بقيا على قيد الحياة مما مكّن سعيد من تجنب الاقتتال القبلي الذي كان سينشب بين أهل الغلام من بني أسد والذين ضربوه.

وتضيف الرواية إن المهاجمين بعد ذلك «*قعدوا في بيوتهم وأقبلوا على الإذاعة*» مما أدّى الى غضب في صفوف أهل الكوفة «*فكتب أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم الى عثمان في إخراجهم*» فأجابهم الخليفة «*إذا اجتمع ملؤكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية*» وتضيف «*فأخرجوهم. فذلوا وانقادوا، حتى أتوه وهم بضعة عشر. فكتبوا بذلك الى عثمان. وكتب عثمان الى معاوية: ان أهل الكوفة قد أخرجوا اليك نفراً خلقوا للفتنة، فرعهم وقم عليهم فإن آنست منهم رشدا فاقبل منهم وإن أعيوك فارددهم عليهم*»

وهكذا فإن سيف بن عمر يحاول ان يظهر الأمور وكأن ما حدث مجرد مشكلة داخلية بحتة بين عائلات من اهل الكوفة، ولا علاقة لها بالوالي سعيد بن العاص ولا بسياسته ولا بالخليفة عثمان من قريب ولا بعيد. ويبدو الوالي فيها كرجل مصلح يحاول التوفيق بين المتنازعين، لا أكثر. ويغيّبُ سيف تماماً القول المشهور عن سعيد بن العاص «انما هذا السواد بستان قريش» والذي كان في الحقيقة السبب المباشر للمشاكل» وليس كلمات ذلك الغلام. والرواية كما لا يخفى تجعل مسؤولية النفي تقع على عاتق أهل الكوفة أنفسهم الذين طالبوا الخليفة بذلك، فاستجاب. ومن اللافت عجز سيف عن ذكر اسم أي شخص من اولئك الذين يصفهم «أشراف اهل الكوفة وصلحاؤهم»، باستثناء ربما طليحة الأسدي الذي يرد ذكره في الرواية على رأس الناس المطالبين بالانتقام للغلام وأبيه. ولكن هل طليحة الأسدي من أشراف أهل الكوفة وصلحائهم؟ لا بد من تذكر ان هذا الرجل ليس فقط كان من المرتدين عن الاسلام بعد وفاة النبي(ص) ولكنه أيضاً كان من الذين ادّعوا النبوة ! هذا عدا عن الاشكال المتمثل في ان طليحة بن خويلد كان قد توفي عام 21 للهجرة

كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية، فلا يمكن ان يكون حضر ذلك الموقف في الكوفة سنة 33 .

المنفيون الى الشام: الجدال مع معاوية

وهناك اختلاف في تفاصيل الكلام المتبادل الذي جرى في الشام بين معاوية والمنفيين العراقيين بين روايتي سيف والواقدي (لدى الطبري)، رغم اتفاقهما على الاطار العام للحوار.

قال سيف[1]:

انه لما قرّعهم معاوية وامتدح قبيلة قريش متعالياً عليهم قائلا لهم «*بلغني أنكم نقمتم قريشاً، وإن قريشاً لو لم تكنْ عدتم أذلة كما كنتم....*»، ردّ عليه أحدهم «*أما ما ذكرتَ من قريش، فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا*»

فأجابه معاوية «*... إن قريشاً لم تعز في جاهلية ولا إسلام إلاّ بالله عز وجل. لم تكن بأكثر العرب ولا بأشدهم، ولكنهم كانوا أكرمهم أحساباً وأمحضهم أنسابا وأعظمهم أخطاراً وأكملهم مروءة. ولم يمتنعوا في الجاهلية -والناس يأكل بعضهم بعضا- إلاّ بالله الذي لا يستذل من أعز ولا يوضع من رفع، فبوّأهم حَرَماً آمنا يتخطف الناس من حولهم.*

هل تعرفون عربا او عَجَماً، أو سوداً أو حمراً، إلاّ قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة، إلاّ ما كان من قريش. فإنه لم يُردهم أحدٌ من الناس بكيد إلاّ جعل الله خدّه الأسفل، حتى أراد الله تعالى أن يتنقذ من أكرم واتبع دينه من هوان الدنيا، وسوء مرد الآخرة. فارتضى لذلك خير خلقه، ثم ارتضى له أصحابا، فكان خيارهم قريشاً. ثم بنى هذا المُلك عليهم، وجعل هذه الخليفة فيهم، ولا يصلح ذلك إلاّ عليهم فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على

(1) وبسبب الكلام المفصّل والحوار الطويل بين معاوية ومنفيي الكوفة، شك الباحث المعاصر هشام جعيط في كتابه الفتنة في صحة رواية سيف بن عمر على اعتبار ان نوعية ذلك الكلام الصادر عن معاوية لا تنسجم مع تلك المرحلة بل انها أقرب الى عقيدة معاوية والأمويين فيما بعد أيام حكمهم.

كفرهم بالله، أفتراه لا يحوطهم وهم على دينه؟»

ثم وجه معاوية كلامه الى صعصعة بن صوحان بالذات فشتمه وقومه بعبارات قاسية *«فإن قريتك شر قرى عربية: أنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً ! لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الاّ سبّ بها وكانت عليه هجنة. ثم كانوا أقبح العرب ألقاباً، وألأمه أصهاراً. نزاع الأمم. وأنتم جيران الخط وفعلة فارس...»*

وهنا يشير معاوية الى قبيلة عبد القيس التي كانت تقطن المناطق الشرقية للجزيرة العربية، وهي بالتالي مجاورة لايران.

ثم أكمل سيف على لسان معاوية *«ان رسول الله (ص) كان معصوماً فولاني وأدخلني في أمره. ثم استخلف ابو بكر رضي الله تعالى عنه فولاني. ثم استخلف عمر فولاني. ثم استخلف عثمان فولاني. فلم آل لأحد منهم، ولم يولني إلاّ وهو راض عني. وإنما طلب رسول الله (ص) للأعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء، ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها...»*

وهنا يشتط سيف بن عمر ويتطرف في دفاعه عن معاوية ! فمتى ولاه رسول الله ؟ ومتى أدخله في أمره؟! بل ومتى ولاه ابو بكر؟ إنما ولى أخاه يزيداً. ثم يقول سيف ان معاوية بعد ان حذرهم وهددهم أطلقهم وأعطاهم حرية الذهاب الى أين شاؤوا، بعد أن كتب الى عثمان ان هؤلاء *«أقوام ليست لهم عقول ولا أديان! أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل! لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم...»*

ثم يقول ان هؤلاء اختاروا ان يذهبوا الى منطقة الجزيرة، لأنهم خشوا إن رجعوا الى الكوفة أن يُشمت بهم. وهنا استدعاهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي كان حاكم حمص القوي. فاستقبلهم بقوله *«يا آلة الشيطان! لا مرحبا بكم ولا أهلا! ....يا معشر مَن لا أعرفُ أعربٌ هم أم عَجَم! لكي لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية. أنا ابن خالد بن الوليد! انا ابن من*

قد عجمته العاجمات، أنا ابن فاقئ الردة.. والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل! أن أحد ممن معي دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى...» ومارس عليهم إذلالا جسديا وإرهاباً معنوياً «... *فأقامهم أشهراً، كلما ركب أشاهم، فإذا مر به قال: يا ابن الخطيئة! أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر...»* حتى أجبرهم أخيراً على إعلان التوبة أمامه. فأرسل الاشتر الى عثمان فأعلن التوبة والندم أمامه *«فقال عثمان للأشتر: احلل حيث شئت. فقال: مع عبد الرحمن بن خالد، وذكر من فضله»*

وهكذا فإنه حتى التنكيل القاسي بالمعارضين وإذلالهم على يد ابن خالد يجعله سيف بن عمر أمراً أختاره هؤلاء طواعية وبإرادتهم! وأن الأشتر بعد كل ذلك يمتدح ابن خالد ويرغب في العيش في كنفه!!

وأما الواقدي فقد ذكر في روايته مجموعة من العبارات المتبادلة بين معاوية والمتمردين، مما لم يرق لسيف فلم يروه. ومن ذلك ان معاوية افتخر امامهم بأبيه *«وقد عرفت قريش ان أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها... وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلاّ حازماً. قال صعصعة: كذبتَ ....»*

ومن ذلك أيضاً طعن المعارضين بأهلية معاوية نفسه لمنصبه الذي يتولاه *«لستَ بأهل ذلك ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله.... فإنا نأمرك أن تعتزل عملك فإن في المسلمين من هو أحق به منك! قال: من هو ؟ قال: من كان أبوه أحسن قدماً من أبيك وهو بنفسه أحسن قدماً منك في الاسلام...»*

وأنا أشك في ان يكون العراقيون – في تلك الظروف – قد طالبوا معاوية باعتزال عمله.

ثم يضيف الواقدي انه في نهاية هذا التبادل الحاد للعبارات بينهم وبين معاوية *«وثبوا عليه فأخذوا برأسه ولحيته»*. وهذا مما يمكن الشك به، لأن معاوية كان دائماً محاطاً بالحرس، إلاّ أن يكونوا قد غافلوه.

ثم يقول ان معاوية كتب الى عثمان «... *فإنك بعثتَ إليّ أقواماً يتكلمون بألسنة الشياطين ... فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرانيهم من أهل الكوفة. ولستُ آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يغروهم بسحرهم*

وفجورهم... فكتب اليه عثمان يأمره أن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة. فردهم اليه. فلم يكونوا إلاّ أطلق ألسنة منهم حين رجعوا. وكتب سعيد الى عثمان يضج منه. فكتب عثمان الى سعيد أن سيّرهُم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد»

واما رواية أبي مخنف فنجدها لدى ابن شبة والبلاذري. وهي في إجمالها تخلو من تفاصيل ذلك الجدال المطوّل بين المنفيين ومعاوية والذي نجده لدى سيف بن عمر، وبدرجة أقل لدى الواقدي.

وفي رواية ابي مخنف لدى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة:

«... فشخصوا الى دمشق، فأكرمهم معاوية. وقال لهم: انكم قدمتم بلداً لا يعرف أهله إلاّ الطاعة. فلا تجادلوهم فتدخلوا الشك قلوبهم.

فقال عمرو بن زرارة، والاشتر: ان الله قد أخذ على العلماء موثقاً أن يبينوا علمهم للناس. فإن سألنا سائلٌ عن شيئ نعلمه لم نكتمه.

فقال معاوية: قد خفتُ أن تكونوا مرصدين للفتنة ! فاتقوا الله ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا فيه.

فحبسهما معاوية رضي الله عنه. فقال له زيد بن صوحان: ما هذا؟ ان الذين أشخصونا اليك من بلادنا لم يعجزوا عن حبسنا لو أرادوا ذلك. فإن كنا ظالمين فنستغفر الله ونتوب اليه، وإن كنا مظلومين فنسأل الله العافية.

فقال معاوية رضي الله عنه: اني لأحسبك امرأ صالحاً، فإن شئتَ أذنتُ لك أن تأتي مصرك، وكتبتُ الى أمير المؤمنين أعلمه إذني لك.

فقال: أخشى أن تأذن لي وتكتب الى سعيد .

فلما أراد الشخوص كلمه في الاشتر وعمرو بن زرارة فأخرجهما. فأقاموا لا يرون أمراً يكرهونه.

وبلغ معاوية ان قوماً يأتونهم، فأشخصهم الى حمص. فكانوا بها حتى اعتزم أهل الكوفة على إخراج سعيد، فكتبوا اليهم فقدموا»

ولدى البلاذري في أنساب الأشراف يشير أبو مخنف أن تسييرهم الى حمص، حيث عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، قم تم بناء على أمر عثمان لما اشتكى له معاوية من ان المنفيين قد يفسدون اهل الشام. ولا تذكر الرواية أنهم بقوا في حمص الى حين عزم أهل الكوفة على اخراج سعيد.

ولا بد من ذكر الرواية المفصلة لذلك الحوار التي أوردها ابن اعثم في كتاب الفتوح بإسناده الجمعي:

«... حتى صاروا إلى كنيسة يقال لها كنيسة مريم، فأرسل إليهم معاوية فدعاهم، فجاؤوا حتى دخلوا ثم سلموا وجلسوا فقال لهم معاوية: يا هؤلاء ! اتقوا الله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات). قال: ثم سكت معاوية.

قال له كميل بن زياد: يا معاوية ! (فهدى الله الذين امنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فنحن أولئك الذين هداهم الله.

فقال له معاوية: كلا يا كميل ! إنما أولئك الذين أطاعوا الله ورسوله وولاة الامر فلم يدفنوا محاسنهم ولا أشاعوا مساوئهم.

فقال كميل: يا معاوية ! لولا أن عثمان بن عفان وفق منك بمثل هذا الكلام وهذه الخديعة لما اتخذك لنا سجنا. فقال له الأشتر: يا كميل ! ابتدأنا بالمنطق وأنت أحدثنا سنا، قال: فسكت كميل وتكلم الأشتر فقال: أما بعد ! فإن الله تبارك وتعالى أكرم هذه الأمة برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فجمع به كلمتها وأظهرها على الناس، فلبث بذلك ما شاء الله أن يلبث، ثم قبضه الله عز وجل إلى رضوانه ومحل جنانه - صلى الله عليه وسلم كثيرا، ثم ولي من بعده قوم صالحون عملوا بكتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وجزاهم بأحسن ما أسلفوا من الصالحات، ثم حدثت بعد ذلك أحداث فرأى المؤمنون من أهل طاعة الله أن ينكروا الظلم وأن يقولوا بالحق فإن أعاننا ولاتنا أعفاهم الله من هذه الاعمال التي لا يحبها أهل الطاعة، فنحن معهم ولا نخالف عليهم، وإن أبوا ذلك فإن الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه وقوله الحق: (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه

فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون) فلسنا يا معاوية ! بكاتمي برهان الله عز وجل ولا بتاركي أمر الله لمن جهله حتى يعلم مثل الذي علمنا، وإلا فقد غششنا أئمتنا وكنا كمن نبذ الكتاب وراء ظهره .

فقال له معاوية: يا أشتر ! إني أراك معلنا بخلافنا مرتضيا بالعداوة لنا، والله لأشدن وثاقك ولأطيلن حبسك. فقال له عمرو بن زرارة[1]: يا معاوية ! لئن حبسته لتعلمن أن له عشيرة كثيرة عددها لا يضام، شدها شديد على من خالفها ونبزها .

فقال معاوية: وأنت يا عمرو تحب أن يضرب عنقك ولا تترك حيا، اذهبوا بهم إلى السجن.

قال: فذهبوا بهم إلى السجن. فقال زيد بن المكفكف[2] فقال: يا معاوية ! إن القوم بعثوا بنا إليك لم يكن بهم عجز في حبسنا في بلادنا لو أرادوا ذلك، فلا تؤذينا وأحسن مجاورتنا ما جاورناك، فما أقل ما نجاورك حتى نفارقك إن شاء الله تعالى .

قال: ثم وثب صعصعة بن صوحان فقال: يا معاوية ! إن مالك بن الحارث الأشتر وعمرو بن زرارة رجلان لهما فضل في دينهم وحالة حسنة في عشيرتهم وقد حبستهم، فأمُر بإخراجهم فذلك أجمل في الرأي .

فقال معاوية: علي بهم، فأتي بهم من الحبس، فقال معاوية: كيف ترون عفوي عنكم يا أهل العراق بعد جهلكم واستحقاقكم الحبس ؟ رحم الله أبا سفيان لقد كان حليماً، ولو ولد الناسَ كلهم لكانوا حلماء !

فقال صعصعة بن صوحان: والله يا معاوية ! لقد ولدهم من هو خير من أبي سفيان، فسفهاؤهم وجهالهم أكثر من حلمائهم !

فقال معاوية: قاتلك الله يا صعصعة ! قد أعطيت لسانا حديدا، اخرجوا واتقوا الله وأحسنوا الثناء على أئمتكم فإنهم جنة لكم .

---

(1) لم يذكر ابن أعثم اسمه ضمن قائمة المنفيين الى الشام في بداية روايته.
(2) يرد اسمه أحيانا «يزيد» بن المكفف

فقال صعصعة: يا معاوية! إننا لا نرى لمخلوق طاعة في معصية الخالق.

فقال معاوية: اخرج عني، أخرجك الله إلى النار! فلعمري أنك خدث.

فخرج القوم من عند معاوية وصاروا إلى منازلهم، فلم يزالوا مقيمين وقد وكل بهم قوم يحفظونهم ألاّ يبرحوا»

سياسة النفي

تحدث ابن كثير في البداية والنهاية بأسلوب مخفف، مصمم للدفاع عن الخليفة، عن سياسة النفي التي طبقها عثمان. وأنا أورد نص كلام ابن كثير كله، لأنه لا يتهم بالتحامل عثمان، من أجل إثبات حصول النفي، بغض النظر عن تبريرات ابن كثير وآرائه. فقال عن أحداث سنة 33 للهجرة:

«وفيها سيّر أمير المؤمنين جماعة من قراء أهل الكوفة الى الشام. وكان سبب ذلك انهم تكلموا بكلام قبيح في مجلس سعيد بن عامر[1] فكتب الى عثمان في أمرهم. فكتب اليه عثمان أن يجليهم عن بلده الى الشام. وكتب عثمان الى معاوية أمير الشام أنه قد أخرج اليك قراء من اهل الكوفة فأنزلهم وأكرمهم وتألفهم.

فلما قدموا أنزلهم معاوية وأكرمهم واجتمع بهم ووعظهم ونصحهم فيما يعتمدونه من اتباع الجماعة وترك الانفراد والابتعاد.

فأجاب متكلمهم والمترجم عنهم بكلام فيه بشاعة وشناعة، فاحتملهم معاوية لحلمه. وأخذ في مدح قريش -وكانوا قد نالوا منهم- وأخذ في المدح لرسول الله (ص) والثناء عليه، والصلاة والتسليم. وافتخر معاوية بوالده وشرفه في قومه. وقال فيما قال: وأظن أبا سفيان لو ولد الناس كلهم لم يلد إلاّ حازماً!

فقال له صعصعة بن صوحان: كذبتَ! قد ولد الناس كلهم لمن هو خير من ابي سفيان، مَن خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا له، فكان فيهم البر والفاجر والاحمق والكيس.

---

(1) هذا وهم. والمقصود سعيد بن العاص

ثم بذل لهم النصح مرة أخرى، فإذا هم يتمادون في غيهم، ويستمرون على جهالتهم وحماقتهم. فعند ذلك أخرجهم من بلده ونفاهم عن الشام، لئلا يشوشوا عقول الطغام! وذلك أنه كان يشتمل مطاوي كلامهم على القدح في قريش كونهم فرطوا وضيعوا ما يجب عليهم من القيام فيه، من نصرة الدين وقمع المفسدين. وإنما يريدون بهذا التنقيص والعيب ورجم الغيب. وكانوا يشتمون عثمانَ وسعيدَ بن العاص. وكانوا عشرة، وقيل تسعة وهو الاشبه، منهم كميل بن زياد، والاشتر النخعي –واسمه مالك بن يزيد– وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي.

فلما خرجوا من دمشق أووا الى الجزيرة، فاجتمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد –وكان نائباً على الجزيرة ثم ولي حمص بعد ذلك– فهددهم وتوعدهم. فاعتذروا اليه وأنابوا الى الإقلاع عما كانوا عليه، فدعا لهم وسيّر مالكاً الاشتر النخعي الى عثمان بن عفان ليعتذر اليه عن أصحابه بين يديه.

فقبل ذلك منهم وكف عنهم وخيرهم ان يقيموا حيث أحبوا. فاختاروا أن يكونوا في معاملة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد. فقدموا عليه حمص، فأمرهم بالمقام في الساحل، وأجرى عليهم الرزق.

ويقال: بل لما مقتهم معاوية كتب فيهم الى عثمان، فجاءه كتاب عثمان أن يردهم الى سعيد بن العاص بالكوفة. فردهم اليه. فلما رجعوا كانوا ازلق ألسنة، وأكثر شراً. فضجّ منهم سعيد بن العاص الى عثمان، فأمره أن يسيرهم الى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بحمص، وأن يلزموا الدروب.

وفي هذه السنة سير عثمان بعض أهل البصرة منها الى الشام، والى مصر، بأسباب مسوغة لما فعله رضي الله عنه.

فكان هؤلاء ممن يؤلب عليه ويمالىء الأعداء في الحط والكلام فيه. وهم الظالمون في ذلك، وهو البار الراشد رضي الله عنه.»

ويبدو ان النفي كان من اساليب العقاب المفضلة عند الخليفة عثمان! ولم يكن مقصوراً على حالات بعينها. وأحياناً كان النفي يحصل لأسباب غير سياسية. وقد روى الطبري في تاريخه عن سيف بن عمر حادثة نفي حمران

بن ابان من المدينة الى البصرة لأنه تزوج امرأة في عدتها. وكذلك حادثة نفي عامر بن عبد قيس من البصرة الى الشام بسبب ما أشيع عنه من رفضه أكل اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة.

كما تقدم الحديث عن حادثة نفي ابي ذر الغفاري الى الربذة، وحادثة نفي عبد الرحمن بن حنبل الى خيبر.

أهل الكوفة يخاطبون الخليفة مباشرة

وقد أثار أسلوب سعيد بن العاص، وقراراته، ومجمل نهج عثمان، وخاصة سياسة النفي بحق المعارضين، استياء وغضب عدد كبير من أهل الكوفة مما دفعهم الى المغامرة بإرسال كتاب احتجاج للخليفة، رغم خوفهم من ردة فعله، طالبوه فيه بالاصلاح. وليس هناك ما يحول دون تصديق الخبر. فحتى تلك اللحظة لم يكن نظام الحكم قد تحول الى ملكيّ بعد. وكان الناس لا يزالون يعتبرون أن من حقهم التواصل المباشر مع الخليفة وتقديم النصح له بشأن مصلحة المسلمين، وكان لذلك سوابق في عهد عمر. ويمكن اعتبار ذلك محاولة لوقف السياسات الخاطئة للخليفة بطريقة شرعية، عن طريق مخاطبته مباشرة وتجاوز ولاته الذين كانوا هم من أسباب الشكوى.

روى ابن شبة النميري في تاريخ المدينة عن يونس بن ابي اسحق الهمذاني «*كتب ناسٌ من وجوه أهل الكوفة ونساكهم، منهم: معقل بن قيس الرياحي، ومالك بن حبيب، وعبد الله بن الطفيل العامري، وزياد بن حفص التميمي، ويزيد بن قيس الارحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي، الى عثمان -ولم يسمّ أحدٌ نفسَه في الكتاب إلاّ كعب- أن سعيد بن العاص كثر عندك على قوم من أهل الفضل والدين، فحملك من أمرهم على ما لا يحل. وإنا نذكرك الله في أمة محمد: فإنك قد بسطتَ يدك فيها وحملتَ بني أبيك على رقابها. وقد خفنا أن يكون فساد هذه الأمة على يديك. فإن لك ناصراً ظالماً، وناقماً عليك مظلوماً ! فمتى نقم عليك النقم، ونصرك الظالم تباين الفريقان واختلفت الكلمة. فاتقِ الله فإنك أميرنا ما أطعتَ الله واستقمتَ.*

ويعثوا بالكتاب مع ابي ربيعة العنزي. فقال له عثمان رضي الله عنه: مَن كتب هذا الكتاب؟

قال: صلحاء أهل المصر.

قال: سمّهم لي.

قال: ما أسمّي لك إلاّ مَن سمّى نفسه.

فكتب عثمان رضي الله عنه الى سعيد: انظر ابن ذي الحبكة فاضربه عشرين سوطاً وحوّل ديوانه الى الري. فضربه سعيد عشرين سوطاً وسيّره الى جبل دنباوند.....»[1]

وأسماء الأشراف الذين كانوا وراء الكتاب الى عثمان، حسب هذا النص، تختلف عن تلك المجموعة التي تصادمت مع سعيد بن العاص ونُفيت الى الشام. وهذا يعطي النص مصداقية، ويدل على مدى اتساع دائرة المعارضة للوالي الأموي. فالرواة لا يجدون أدنى صعوبة في ذكر الكثير من الأسماء.

وقد أورد ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح الخبر الذي ذكره ابن شبة بتفصيل أكثر. وفيه ان وجهاء أهل الكوفة قد ارسلوا كتابين للخليفة: واحد بصيغة الجمع دون ذكر أسماء المرسلين «*من الملأ المسلمين من أهل الكوفة*» والثاني من كعب بن عبيدة النهدي الذي أصر على التوقيع باسمه الصريح. وقد حمل الكتابين رجل من قبيلة عنزة بعد نقاش جرى بينهم يشير الى خوفهم من سطوة الخليفة «*والله ما يبلغ هذا الكتاب إلا رجل لا يبالي أضُربَ أم حُبِسَ أم قتِلَ أم نفِيَ أم حُرِمَ، فأيكم عزم على أن يصيبه خصلة من هذه الخصال فليأخذه. فقال القومُ ما ههنا أحدٌ يحب أن يبتلي بخصلة من هذه الخصال. فقال العنزي: هاتوا كتابكم، فوالله إني لا عافية [لي]، وإن ابتليت فما أنا بائس أن يرزقني ربي صبرا وأجرا، قال: فدفعوا إليه كتابهم*»

وانا هنا اورد نص كتاب كعب بن عبيدة النهدي لأنه يلخص بتركيز

(1) ويمكن مقارنة هذه الرسالة بتلك التي ارسلها اهل مصر لعثمان (رواية عروة بن الزبير) وملاحظة التشابه في المضمون الى حد كبير.

أسباب النقمة على عثمان «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عثمان أمير المؤمنين من كعب بن عبيدة، أما بعد ! فإني نذير لك من الفتنة، متخوف عليك فراق هذه الأمة، وذلك أنك :

قد نفيتَ خيارهم

ووليتَ أشرارهم

وقسمتَ فيأهم في عدوهم

واستأثرتَ بفضلهم

ومزقتَ كتابهم

وحميتَ قطرَ السماء ونبتَ الأرض،

وحملتَ بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عداوتهم،

ولعمري لئن فعلت ذلك فإنك تعلم أنك إذا فعلت ذلك وتكرمت فإنما تفعله من فيئنا وبلادنا، والله حسيبك يحكم بيننا وبينك، وإن أنت أبيتَ وعنيت قتلنا وأذانا ولم تفعل فإننا نستعين الله ونستجيره من ظلمك لنا بكرة وعشيا- والسلام»

ويشير ابن أعثم الى مصير كعب بن عبيدة بعد أن ثار عليه غضب الخليفة فأمر بإحضاره من الكوفة، فأدخلوه عليه «فلما سلم عليه جعل عثمان ينظر إليه ثم قال: (تسمع بالمعيدي خير من أن تراه) ! أنت تعلمني الحق وقد قرأتُ القرآن وأنت في صلب أبٍ مشرك؟!

قال كعب: على رسلك يا بن عفان، فإن كتاب اللهِ لو كان للأول دون الاخر لم يبق للآخر شيء، ولكن القرآن للأول والآخر.

فقال عثمان: والله ما أراك تدري أين ربك !

قال: بلى يا عثمان ! هو لي ولك بالمرصاد .

فقال مروان: يا أمير المؤمنين ! حلمك على مثل هذا وأصحابه أطمع فيك الناس.

فقال كعب: يا عثمان! إن هذا وأصحابه أغمروك وأغروا بك!

قال عثمان: جرّدوه! فجرّدوه، وضربهُ عشرين سوطاً، ثم أمرَ به فرُدّ إلى الكوفة» [1]

ويجب ملاحظة رد الفعل من جانب عثمان: فخلافاً لما عرف عنه من هوادة ولين، هو هنا يتصف بالنزق والعصبية. وهذا يشير الى حالة التوتر التي سيطرت عليه في مرحلة الاضطراب تلك في العراق، الى الحد الذي جعله لا يحتمل سماع المزيد من الشكاوى خاصة اذا جاءته عن طريق شخص يعتبره «نكرة»!

وتتفق رواية أبي مخنف لدى البلاذري مع ما رواه ابن شبة وابن أعثم في أن الرجل من قبيلة عنزة قد حمل كتابي الشكوى الى عثمان: أحدهما من وجوه أهل الكوفة الذين لم يرغبوا بتسمية أنفسهم للخليفة، والآخر من كعب بن عبدة النهدي. وسأورد هنا الجزء الأخير من الرواية لأنه يظهر مدى اتزان ورصانة شخص الشاب كعب بن عبدة في مقابل توتر عثمان وحدّته:

فتقول الرواية أن عثمان بعدما قرأ الرسالة أمر سعيداً بإشخاص كعب الى المدينة، ففعل ذلك وأرسله مع أعرابيّ *«فلما قدم به على عثمان قال عثمان: لأن تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه!*

وكان شاباً حديث السن نحيفاً.

ثم أقبل عليه فقال: أأنتَ تعلمني الحق وقد قرأتُ كتاب الله وأنت في صلب رجل مشرك؟!

فقال له كعب: إن إمارة المؤمنين انما كانت لك بما اوجبته الشورى حين عاهدتَ الله على نفسك لتسيرنّ بسيرة نبيّه لا تقصّر عنها. وإن يشاورونا فيك ثانية نقلناها عنك! يا عثمان: إن كتاب الله لمن بلغه وقرأه، وقد شركناك في قراءته ومتى لم يعمل القارئ بما فيه كان حجة عليه»

---

(1) وقد أشار ابن أعثم الى ان عثمان لاحقا شعر بتأنيب الضمير تجاه ما صنعه بكعب بن عبيدة فامر سعيد بن العاص برده، واعتذر منه وعرض عليه أن يقتاد منه، فرفض.

فقال عثمان: والله ما أظنك تدري أين ربّك!

قال: هو بالمرصاد.

فقال مروان: حلمك أغرى مثل هذا بك وجرّأه عليك.

فامر عثمان بكعب فجرّد وضُرب عشرين سوطاً وسيّره الى دباوند، ويقال الى جبل الدخان ...»

إن ما قاله الشاب كعب منطقي ومُفحِم: فهو يرفض أن يعيّره الخليفة بصغر سنّه ويقول له: كتاب الله بيننا وبينك. وهذا الجواب الصادم كان السبب وراء فورة دم عثمان ومعاقبته للكوفي النحيف (التي ندم عليها فيما بعد كما تضيف الرواية).

الكوفة تنتفض: خلعُ سعيد بن العاص[1]

للأسف يعتمد الطبري في ذكره لأحداث الجرعة[2] على روايات سيف بن عمر، وهي ضعيفة جدا وتتكلم عن اتباع ابن السوداء ومعارضة القعقاع لهم في الكوفة وحديث عن الفتنة وتنقلات عجيبة للأشتر وغير ذلك مما يجعلها غير جديرة بالبحث الجدي.

ولذلك سنعتمد على ما رواه غير الطبري.

فابن سعد قدم روايته في الطبقات الكبرى بشأن تفاصيل التمرد في الكوفة والذي أدى إلى خلع الوالي سعيد بن العاص في أواخر عهد عثمان، سنة 34 للهجرة.

فقال :

---

(1) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص33)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج21 ص116)، تاريخ خليفة بن خياط (ص124)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص265-266)، تاريخ الطبري (ج3 ص371)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص157-159)،

(2) الجرعة مكان مشرف قرب القادسية يمر به القادمون الى الكوفة. وقد اشتهرت به أحداث خلع سعيد لأن المتمردين انتظروه هناك ليردوه الى المدينة.

«ورَحَلَ من الكوفة إلى عثمان مالك الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصغر بن قيس الحارثي، يسألونه عزلَ سعيد بن العاص عنهم»

وهنا لدينا اشكالية: فهذه الأسماء التي يذكرها ابن سعد (مجموعة الأشتر) هي ذاتها التي سبق لعثمان عقابهم ونفيهم وإذلالهم قبل حوالي سنة، وعلى يد معاوية وعبد الرحمن بن خالد، بسبب صراعهم الأول مع سعيد بن العاص. فلا يعقل أنهم الآن قد عادوا ثانية الى عثمان وبهذه السرعة ولنفس الغاية! بل ان بعضهم (جندب وأبو زينب) كانوا ممن انخرطوا في الصراع القديم مع الوليد بن عقبة.

فالأصح عندي انه لم يذهب أي وفد جديد من الكوفة الى عثمان سنة 34.

يتابع ابن سعد *«ورحل سعيدٌ وافداً على عثمان فوافقهم عنده فأبى عثمان أن يعزله وأمره أن يرجع إلى عمله»*

والصحيح أن عثمان قد رد سعيداً الى عمله بعد انتهاء مؤتمر القمة بين عثمان وولاة الأمصار، وان ذلك كان سبب سَفر سعيد الى المدينة (وليس ليواجه الشكاة عند عثمان).

نتابع الرواية *«فخرج الأشتر من ليلته في نفر من أصحابه، فسارَ عشرَ ليال إلى الكوفة، فاستولى عليها وصعد المنبر فقال:*

هذا سعيد بن العاص قد أتاكم يزعم أن هذا السواد بستان لأغيلمة من قريش! والسواد مساقط رؤوسكم ومراكز رماحكم، وفيؤكم وفيء آبائكم.

فمَن كان يرى لله عليه حقاً فلينهض إلى الجرعة. فخرج الناس فعسكروا في الجرعة، وهي بين الكوفة والحيرة»

الدور التحريضي الكبير والقيادي لمالك الاشتر أمر مؤكد. ويبدو أن الأخبار قد وصلته ومجموعته بأن الخليفة جدد ثقته بالوالي سعيد فقدروا بأنه

قادم بمزيد من التشدد تجاههم فكان لا بد لهم أن يتصرفوا قبل أن ينالهم تنكيلٌ جديد.

تتابع الرواية «*وأقبل سعيد بن العاص حتى نزل العذيب.*

فدعا الأشتر يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي، وكانا محربين، فعقد لكل واحد منهما خمسمائة فارس.

وقال لهما: سيرا إلى سعيد بن العاص، فأزعجاه وألحقاه بصاحبه، فإن أبى فاضربا عنقه وإئتياني برأسه»

ينبغي تجاهل كلمات «ضرب العنق» و«الاتيان بالرأس»! ولكن الفكرة هي منع الوالي بالقوة من دخول الكوفة.

تتابع «*فأتياه فقالا له: ارحل إلى صاحبك.*

فقال: إبلي انضاء أعلفها أياماً، ونقدم المصرَ فنشتري حوائجنا ونتزود، ثم أرتحل.

فقالا: لا والله! ولا ساعة! لترتحلنّ أو لنضربنّ عنقك.

فلما رأى الجد منهما ارتحل لاحقاً بعثمان.

وأتيا الأشتر فأخبراه. وانصرف الأشتر من معسكره إلى الكوفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

والله يا أهل الكوفة ما غضبتُ إلاّ لله ولكم. وقد ألحقنا هذا الرجل بصاحبه. وقد وليتُ أبا موسى الأشعري صلاتكم وثغركم، وحذيفة بن اليمان على فيئكم»

لا ينبغي التوقف كثيراً عند قيام الاشتر «بتعيين» ابي موسى وحذيفة – كما هو ظاهر النص. فالواقع أن الاشتر لم يزد على إعلان الرغبة العامة بين اهل الكوفة في العودة الى سياسة ما قبل عثمان، في التخلص من أقرباء عثمان جملة وتفصيلاً. وأبو موسى هو من رموز عهد عمر.

يتابع ابن سعد «*ثم نزل وقال: يا أبا موسى اصعد*

فقال ابو موسى: ما كنتُ لأفعل. ولكن هلمّوا فبايعوا لأمير المؤمنين عثمان، وجدّدوا له البيعة في أعناقكم. فأجابه الناس إلى ذلك، فقبل ولا يتهم. وجدّد البيعة لعثمان في رقابهم»

وهذا التصرف متوقع تماماً من رجل كأبي موسى. فهو يريد الاصلاح وليس الانشقاق. ولذلك كان حريصا على إعلان الطاعة للخليفة عثمان وقام بتجديد البيعة العامة له، واستجاب الناس لذلك. وهذا يدل على أن التمرد الذي حصل في الكوفة لم يكن انشقاقاً عن جَسَد الأمة، ولا رفضاً لمؤسسة الخلافة. كان ما جرى هو تصويبٌ لأوضاع تدهورت وساءت، ولسياسةٍ انحرفت وفشلت، بعد أن طفح الكيل بعموم الكوفيين بسبب رفض الخليفة، أو عجزه، عن اتخاذ أي إجراء تجاه واليه المرفوض.

تتابع الرواية «*وكتب إلى عثمان بما صنع، فأعجب ذلك عثمان وسرّه*.

فقال عتبة بن الوغل شاعر اهل الكوفة:

تصدق علينا يا ابن عفان واحتسب   وأمّر علينا الأشعريّ لياليا

فقال عثمان: نعم، وشهوراً وسنين إن بقيتُ»

وهذا ليس صحيحاً. فعثمان لم يسر بما حصل. وحتى لو قبل بأبي موسى، فهو قبل بأمر واقع فرضته عليه الأحداث.

وتختتم رواية ابن سعد «*وكان الذي صنع أهل الكوفة بسعيد بن العاص أول وهْن دخل على عثمان حين اجترئ عليه.*

ولم يزل أبو موسى والياً لعثمان على الكوفة حتى قتل عثمان

ولم يزل سعيد بن العاص حين رجع عن الكوفة بالمدينة حتى وثب الناس بعثمان فحصروه فلم يزل سعيد في الدار معه يلزمه فيمن يلزمه لم يفارقه ويقاتل دونه»[1]

ابن سعد مصيبٌ تماماً في وصفه لما جرى بأنه «أول وهن دخل على

(1) وقد نقل ابن عساكر في تاريخ دمشق هذا النص بالحرف عن ابن سعد.

عثمان»، لأن قيام الكوفة بفرض إرادتها على الخليفة قد يصير مثلاً يُحتذى في أماكن أخرى. ولا يغير من حقيقة الأمر تظاهُر عثمان بقبول والي الكوفة الجديد وبيعته.

وأظن أن عثمان قد بدأ يفكر في طريقة لإعادة فرض واليه المخلوع، من أجل استعادة هيبته في الكوفة. ومن المرجح أن يكون الخليفة قد بدأ مداولات مع مستشاريه حول ما ينبغي عمله لمعاقبة هؤلاء الذين أصروا على تحديهم له، وبالأخص مالك الأشتر ومجموعته. فلا بد من أسلوب آخر معهم.

ولكن التطورات المتسارعة لم تمهل عثمان ليفعل أي شيء. إذ سرعان ما تعرض إلى ما هو أخطر بكثير: تمرّد ضخمٌ اجتاح عاصمته وصار يهدده في منصبه وحياته.

وبالعودة الى الروايات، فالبلاذري في أنساب الأشراف قدم رواية طويلة وغنية بالتفاصيل، بإسناد جمعي (قالوا) ،سأتناولها بتمامها لأنها تبدو لي الأفضل. فيقول انه عندما استدعى عثمان عماله لاجتماع القمة :

«وكان علباء بن الهيثم السدوسي قد شخص مع سعيد بن العاص ليقرظه ويثني عليه لأنه سأله ذلك. وأحب علباء أيضاً أن يلقى علياً ويعلم حال عثمان وما يكون منه. فلما رأى أن عثمان قد عزم على رد عماله تعجّل الى الكوفة على ناقة له، فلما قدمها قال: يا اهل الكوفة هذا اميركم الذي يزعم أن السواد بستان له قد أقبل»

وهكذا يكون الرجل الكوفي، علباء، قد انقلب على اميره سعيد، وبدلاً من أن يمتدحه لدى الخليفة وييسر له أموره يعود مسرعاً الى الكوفة حاملاً لها الأخبار السيئة ومحرضاً أهلها على الوالي.

تتابع الرواية *«واغتنم أهل الكوفة غيبة معاوية عن الشام، فكتبوا الى إخوانهم الذين بحمص مع هانئ بن خطاب الأرحبيّ يدعونهم الى القدوم ويشجعونهم عليه ويعلمونهم انه لا طاعة لعثمان مع إقامته على ما ينكر منه»*

وهذا يدل على امرين: ان الأشتر ومجموعته الذين تم نفيهم الى الشام

قد بقوا هناك حتى تلك اللحظة (سنة كاملة) ولم يعودوا الى الكوفة قبل ذلك كما تذكر بعض الروايات. والثاني أن دوائر المعارضة في الكوفة واسعة جداً ولا تقتصر على الأشتر ومجموعته.

تتابع الرواية «*فسار اليهم هانئ بن خطاب مغذا للسير راكبا للفلاة، فلما قرأوا كتاب أصحابهم أقبل الأشتر والقوم المسيّرون حتى قدموا الكوفة، فأعطاه القراء والوجوه جميعاً مواثيقهم وعهودهم ألاّ يدعوا سعيد بن العاص يدخل الكوفة واليا أبداً*»

ثم يذكر البلاذري الأسماء «*وكان الذين كتبوا مع هانئ بن خطاب :*

مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

ويزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن سنان الأسدي

وحرقوص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن قفل البكري ثم التيمي

وزياد بن نضر الحارثي

وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

في رجال أشباههم»

تتابع الرواية «*وقام مالك بن الحارث الأشتر يوما فقال: ان عثمان قد غيّر وبدّل. وحضّ الناس على منع سعيد من دخول الكوفة. فقال له قبيصة بن جابر بن وهب الأسدي، من ولد عميرة بن جدار: يا أشتر، دام شترك، وعفا*

اترك، أطلت الغيبة وجئت بالخيبة! أتأمرنا بالفرقة والفتنة ونكث البيعة وخلع الخليفة؟

فقال الأشتر: يا قبيصة بن جابر وما انت وهذا؟ فوالله ما أسلم قومك الاّ كرهاً ولا هاجروا الاّ فقراً. ثم وثب الناس على قبيصة فضربوه وجرحوه فوق حاجبه. وجعل الأشتر يقول: لا حرّ بوادي عوف، من لا يذد عن حوضه يهدّم»

وهذا النص يُحسب للبلاذري ولمصادره. فهو لم يخفِ وجود نوع من المعارضة الداخلية في الكوفة للأشتر ومجموعته، كما هي حال قبيصة هذا، على الرغم من الصورة الشائعة عن الكوفة كمعقل للمعارضين للولاة الأمويين.

يتابع البلاذري «*ثم صلى بالناس الجمعة وقال لزياد بن النضر: صلّ بالناس سائر صلواتهم والزم القصر.*

وأمر كميل بن زياد فأخرج ثابت بن قيس بن الخطيم الأنصاري من القصر، وكان سعيد بن العاص خلفه على الكوفة حين شخص الى عثمان.

وعسكر الأشتر بين الكوفة والحيرة وبعث عائذ بن حمَلة في خمسمائة الى أسفل كسكر مسلحة بينه وبين البصرة.

وبعث جمرة بن جنان الأسدي في خمسمائة الى عين التمر ليكون مسلحة بينه وبين الشام.

وبعث هانئ بن ابي حية بن علقمة الهمذاني ثم الوداعي الى حُلوان في الف فارس ليحفظ الطريق في الجبل، فلقي الأكراد بناحية الدينور وقد أفسدوا فأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة

وبعث الأشتر أيضاً يزيد بن حجيّة التيمي الى المدائن وأرض جوخى

وولى عروة بن زيد الخيل الطائي ما دون المدائن

وتقدم الى عماله ألاّ يجبوا درهما وأن يسكنوا الناس وأن يضبطوا النواحي»

وهذه الصورة التي يقدمها البلاذري لمالك الأشتر غير حقيقية. فلا يمكن تصديق ان الأشتر يستطيع تنظيم قوات على شكل جيوش وفيالق ويوزعها جغرافياً بما يجعل للكوفة حدود وتحصينات دفاعية «مسالح» من كل الجهات بما فيها البصرة والشام! فالأشتر القادم من النفي والعزلة لا يمكن ان يصدر الأوامر الى «عماله» كما تشير الرواية! هناك مبالغة شديدة في هذه الصورة.

تتابع الرواية *«وبعث مالك بن كعب الأرحبي في خمسمائة فارس ومعه عبد الله بن كباثة أحد بني عائذ الله بن سعد العشيرة بن مالك بن ادد بن زيد الى العذيب ليلقى سعيد بن العاص ويردّه.*

فلقي مالك بن كعب الأرحبي سعيداً فردّه وقال: لا والله لا تشرب من ماء الفرات قطرة! فرجع الى المدينة.

فقال له عثمان: ما وراءك؟ قال: الشر!

فقال عثمان: هذا كله عمل هؤلاء، يقصد علياً والزبير وطلحة»

ويلاحظ هنا سهولة استسلام سعيد بن العاص. فهو لم يحاول الإصرار على دخول الكوفة، بل اكتفى بالرجوع الى عثمان. وهذا مدهش، لأن سعيداً كان في منصبه منذ 4 سنوات على الأقل فلماذا لم يحاول أن يستنفر رجاله داخل الكوفة؟ واين جهازه الأمني؟ التفسير الوحيد هو أن سعيداً قد فقد السيطرة كلياً وكان مدركاً لحقيقية وضعه المنهار في الكوفة.

ومن المستبعد أن يكون عثمان قد اتهم كبار الصحابة بالوقوف وراء مشاكل الكوفة.

يتابع البلاذري *«وانهبَ الأشترُ دار الوليد بن عقبة وكان فيها مال سعيد ومتاعه حتى قلعت ابوابها»*

وربما المقصود دار الامارة، لأن العلاقة بين الوليد وسعيد لم تكن حسنة ولا يمكن ان يكون مال سعيد في دار الوليد.

«ودخل الأشتر الكوفة فقال لأبي موسى: تولّ الصلاة بأهل الكوفة، وليتولّ حذيفة السوادَ والخراج.»

الصحيح أن الأشتر «اقترح» على ابي موسى تولي مسؤولية الامارة ولم «يأمره».

نتابع «وكتب عثمان الى الأشتر وأصحابه مع عبد الرحمن بن ابي بكر والمسور بن مخرمة يدعوهم الى الطاعة ويعلمهم أنهم أول من سنّ الفرقة ويأمرهم بتقوى الله ومراجعة الحق والكتاب اليه بالذي يحبون.

فكتب اليه الأشتر: من مالك بن الحارث الى الخليفة المبتلى الخاطئ الحائد عن سنة نبيّه، النابذ لحكم القرآن وراء ظهره. اما بعد: فقد قرأنا كتابك، فانهَ نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين نسمح لك بطاعتنا. وزعمتَ أننا قد ظلمنا أنفسنا، وذلك ظنك الذي أرداكَ فأراكَ الجور عدلاً والباطلَ حقاً! واما محبتنا فأن تنزعَ وتتوبَ وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا وتسييرك صلحاءنا وإخراجك إيانا من ديارنا وتوليتك الأحداثَ علينا، وان تولي مصرَنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعري وحذيفة فقد رضيناهما. واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك اليه الهوى من أهل بيتك ان شاء الله. والسلام»

ولا بد طرح العبارات القاسية المنسوبة الى الأشتر جانباً وخاصة «الحائد عن سنة نبيه النابذ لحكم القرآن» ليس لأن الأشتر لا يؤمن بها ولكن لأن مستوى مخاطبة الخليفة لم يكن قد انحدر الى تلك الدرجة بعد. ولكن يجب ملاحظة الشكوى المرة من تعيينات آل عثمان والتي عبر عنها الأشتر بقوله «وليدك وسعيدك»!

يتابع البلاذري «وخرج بكتابهم يزيد بن قيس الأرحبي ومسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن ابي سبرة الجعفي، واسم ابي سبرة يزيد، وعلقمة بن قيس أبو شبل النخعي وخارجة بن الصلت البرجمي من بني تميم في آخرين. فلما قرأ عثمان الكتاب قال: اللهم اني تائب! وكتب الى أبي موسى وحذيفة: انتما لأهل الكوفة رضىً، ولنا ثقة، فتوليا أمرهم وقوما به بالحق، غفر الله لنا ولكما. فتولى أبو موسى وحذيفة الأمر، وسكّن أبو موسى الناس»

وقد أخرج خليفة بن خياط في تاريخه حادثة خلع سعيد ضمن أحداث عام 34 وباختصاره المعهود فذكر «*فيها أخرج أهل الكوفة سعيد بن العاص، وولوا ابا موسى الأشعري، وكتبوا إلى عثمان يسألونه أن يولي أبا موسى فولاّه. وفيها يوم الجدعة، وكان عثمان ردّ سعيد بن العاص إلى الكوفة فخرج اهل الكوفة فمنعوه*»

وأما المسعودي في مروج الذهب فتبدو روايته لأحداث خلع سعيد بن العاص وقد حوت جملة من الأخبار المتنوعة ووضعها في سياق واحد. فهي تبتدئ بخبر سواد قريش المشهور :

«*فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة، فاستبد بالأموال، وقال في بعض الايام أو كتب به عثمان: انما هذا السواد قطين لقريش! فقال له الاشتر، وهو مالك بن الحارث النخعي: أتجعل ما أفاه الله علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك؟!*»

ولكن الرواية هنا – بخلاف رواية الوقدي- لا تتحدث عن صاحب شرطة سعيد الذي تم الاعتداء عليه من قبل الاشتر ومجموعته الغاضبة، ولا تذكر مراسلات سعيد وشكاواه للخليفة مما أدى الى قرار نفي هؤلاء الى الشام، بل تتابع الحديث عن الاشتر:

«*ثم خرج الى عثمان في سبعين راكباً من أهل الكوفة فذكروا سوء سيرة سعيد (بن العاص)، وسألوا عزله عنهم*»

ثم تنتقل الرواية لذكر قدوم عمال عثمان عليه ونقاشه معهم مما أسفر عن قراره بتثبيت سعيد بن العاص على عمله مع توصية بتكثيف الحملات العسكرية لاشغال أهل الكوفة، وأن كل ذلك تم والاشتر ومجموعته لا يزالون في المدينة ينتظرون قرار الخليفة. ثم تنفرد الرواية بالاشارة الى أن طلحة والزبير قاما بتحريض الاشتر على التمرد وخلع سعيد بن العاص!

فقاما باقراضه مائة الف درهم حتى يتمكن من شراء احتياجات ولوازم العودة السريعة الى الكوفة قبل أن يصلها سعيد بن العاص[1]. ثم تقول :

«وخرج الى الكوفة فسبق سعيداً وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ثم قال: أما بعد: فان عاملكم الذي أنكرتم تعدّيه وسوء سيرته قد ردّ عليكم، وأمر بتجهيزكم في البعوث، فبايعوني على أن لا يدخلها. فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة. وخرج[2] راكباً متخفياً يريد المدينة أو مكة، فلقي سعيداً بواقصة فأخبره بالخبر فانصرف الى المدينة. وكتب الاشتر الى عثمان: انا والله ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك (ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه، فابعث الى عملك) من أحببتَ. فكتب اليهم: انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه[3]. فنظروا فاذا هو أبو موسى الاشعري. فولوه»

وختاماً نقول انه لا شك أن نجاح المتمردين في السيطرة على الكوفة، وخلع واليها الأموي، يشير إلى مدى التدهور الذي وصلت إليه الأمور فيها. فلا يمكن تصوّر أن مجموعة محدودة النفوذ، أو بدون قاعدة اجتماعية صلبة، تنجح في خلع والٍ راسخ في منصبه منذ سنواتٍ طويلة، ومدعوم مباشرة من الخليفة. والنصوص تبرز الشخصية القيادية لمالك الأشتر والدور المهم الذي لعبه في تطورات الأحداث: فهو الذي يأخذ المبادرة في منع والي عثمان من العودة للكوفة وهو الذي يختار والياً بديلاً.

ودور مالك الأشتر سوف يستمر في التعاظم في قادم الأيام: فهو سيكون من قيادات الثوار التي حاصرت عثمان قبيل مقتله، وهو سيكون من أهم قيادات الخليفة علي بن أبي طالب السياسية والعسكرية والمقربين له.

---

(1) وهذا لا يمكن تصديقه. بل هو يدخل في اطار الروايات التي تحاول ان تحمل كبار الصحابة مسؤولية التحريض على قتل عثمان. وسيأتي الحديث لاحقاً عن الروايات المصممة لبيان تهافت موقف طلحة والزبير وعائشة في حرب الجمل عن طريق القول انهم كانوا وراء التحريض على الثورة على عثمان بينما هم الآن يطلبون بدمه.

(2) لم أعرف على من يعود ضمير الغائب هنا. فلا يمكن أن يكون المقصود بالراكب المتخفي هو الاشتر.

(3) توحي الرواية أن تولية أبي موسى خلفاً لسعيد كانت بمبادرة من عثمان. ولكن الأرجح أن عثمان قد استجاب لمطلب المتمردين من أهل الكوفة.

وسوف نتطرق بالتفصيل الى شخصية مالك الأشتر.

دراسة في الأسماء: الثائرون في الكوفة[1]

سوف نستقصي اسماء الشخصيات التي وردت في المصادر وكان لها دور في القلاقل في الكوفة خلال ولاية سعيد بن العاص.

الذين قاموا بضرب صاحب شرطة سعيد بن العاص:

ذكر الواقدي (لدى الطبري) أسماء كل من:

«مالك بن كعب الأرحبي، والاسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيان، وفيهم مالك الاشتر في رجال»

واما أبو مخنف فروايته لدى البلاذري تذكر الأسماء التالية:

«مالك بن الحارث الأشتر النخعي

وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان

وحرقوص بن زهير السعدي

وجندب بن زهير الأزدي

وشريح بن أوفى بن يزيد بن زاهر العبسي

وكعب بن عبدة النهدي – وكان يقال لعبدة بن سعد ذو الحبكة

وعدي بن حاتم الجواد بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي، ويكنى أبا طريف

وكدام بن حضرمي بن عامر، أحد بني مالك بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص361-365 وص371)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص152-153)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1141-1142)، كتاب الفتوح لابن اعثم (ج2 ص386-390)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص185)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج5 ص33) و كتاب اللباب في تحرير النساب لابن الأثير.

ومالك بن حبيب بن خراش، من بني ثعلبة بن يربوع

وقيس بن عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم

وزياد بن خصفة بن ثقف، من بني تيم الله بن ثعلبة بن عكابة

ويزيد بن قيس الأرحبي

وغيرهم»

واما روايته لدى ابن شبة فالاسماء فيها مختلفة. فهي تغفل ذكر سبعة ممن ذكرهم الطبري (كعب بن عبدة، عدي بن حاتم، كدام بن حضرمي، مالك بن حبيب، قيس بن عطارد، زياد بن خصفة ويزيد بن قيس) بينما تضيف أسماء آخرين: عمرو بن زرارة، وكميل بن زياد، ويزيد بن مكنف.

واما ابن أعثم في إسناده الجمعي فيتحدث بإسهاب عن دور مالك الأشتر «وأصحابه» في المشكلة التي حصلت بمحضر سعيد. ويرد ذكر عدي بن حاتم الطائي كأحد الموجودين في ذلك الموقف.

ولا بأس في ذكر الأسماء التي أخرجها سيف بن عمر (لدى الطبري)، وهم «الأشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابىء»

المنفيون الى الشام:

في رواية أبي مخنف لدى البلاذري نقرأ: «فسيّرَ سعيدٌ الأشترَ ومن كان وثب مع الأشتر وهم:

زيد وصعصعة ابنا صوحان

وعائذ بن حملة الطهوي، من بني تميم

وكميل بن زياد النخعي

وجندب بن زهير الأزدي

والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، من بني حوف بن سبع بن صعب، إخوة السبيع بن سبع بن صعب

ويزيد بن المكفف النخعي

وثابت بن قيس بن المنقع بن الحارث النخعي

وأصعر بن قيس بن الحارث بن وقاص الحارثي، من بني المعقل.»

وذكر الواقدي في روايته التي اخرجها الطبري أن المنفيين كانوا «تسعة نفر... فيهم مالك الاشتر وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد النخعي وصعصعة بن صوحان»

وفي رواية ابن اعثم، بإسناده الجمعي، يرد ذكر الأسماء التالية:

«ثم خرج الأشتر من الكوفة ومعه أصحابه وهم صعصعة بن صوحان العبدي وأخوه وعائذ بن حملة الظهري، وجندب بن زهير الأزدي والحارث بن عبد الله الأعور الهمداني، وأصفر بن قيس الحارثي ويزيد بن المكفف، وثابت بن قيس بن منقع وكميل بن زياد ومن أشبههم من إخوانهم»

وأما العلامة ابن كثير فقد قال عن المنفيين «وكانوا عشرة، وقيل تسعة وهو الاشبه، منهم كميل بن زياد، والاشتر النخعي – واسمه مالك بن يزيد– وعلقمة بن قيس النخعيان، وثابت بن قيس النخعي، وجندب بن زهير العامري، وجندب بن كعب الأزدي، وعروة بن الجعد، وعمرو بن الحمق الخزاعي.»

رسالة الاحتجاج الغاضبة الى عثمان:

تذكر رواية يونس بن ابي اسحق الهمذاني لدى ابن شبة «كتب ناسٌ من وجوه أهل الكوفة ونساكهم، منهم: معقل بن قيس الرياحي، ومالك بن حبيب، وعبد الله بن الطفيل العامري، وزياد بن حفص التميمي، ويزيد بن قيس الارحبي، وحجر بن عدي الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وسليمان بن صرد، وزيد بن حصن الطائي، وكعب بن عبدة النهدي»

ويذكر أبو مخنف كما ينقل البلاذري الأسماء التالية :

«معقل بن قيس الرياحي

عبد الله بن الطفيل العامري

مالك بن حبيب التميمي

يزيد بن قيس الأرحبي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحمق الخزاعي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجبة الفزاري

زيد بن حصن الطائي

كعب بن عبدة النهدي

زياد بن النضر بن بشر بن مالك بن الديان الحارثي

مسلمة بن عبد القاريّ (من القارة من بني الهون بن خزيمة بن مدركة)»

ويذكر ابن أعثم بإسناده الجمعي أسماء كل من :

يزيد بن قيس الأرحبي

مالك بن حبيب اليربوعي

حُجر بن عدي الكندي

عمرو بن الحمق الخزاعي

زياد بن حفيظة التميمي

وعبد الله بن الطفيل البكائي

زياد بن النضر الحارثي

كرام بن الحضرمي المالكي

معقل بن قيس الرياحي

زيد بن حصن السنبسي

سليمان بن صرد الخزاعي

المسيب بن نجبة الفزاري

ورجال كبير من قرى أهل الكوفة ورؤسائهم»

بالاضافة طبعاً الى كتاب كعب بن عبيدة النهدي

أحداث خلع سعيد بن العاص:

ترد الأسماء التالية لدى ابن سعد في طبقاته «مالك الأشتر ويزيد بن مكفف وثابت بن قيس وكميل بن زياد النخعي وزيد وصعصعة ابنا صوحان العبديان والحارث بن عبد الله الأعور وجندب بن زهير وأبو زينب الأزديان وأصغر بن قيس الحارثي» وأيضاً «يزيد بن قيس الأرحبي وعبد الله بن كنانة العبدي» بالاضافة الى الشاعر عتبة بن الوغل.

والبلاذري، بإسناده الجمعي (قالوا)، يذكر أسماء وجهاء أهل الكوفة الذين كتبوا يستدعون إخوانهم المنفيين من الشام:

مالك بن كعب بن عبد الله الهمداني ثم الأرحبي

ويزيد بن قيس بن ثمامة الأرحبي

وشريح بن أوفى العبسي

وعبد الله بن شجرة السلمي

وجمرة بن سنان الأسدي

وحرقوص بن زهير السعدي

وزياد بن خصفة التيمي

وعبد الله بن قفل البكري ثم التيمي

وزياد بن نضر الحارثي

وعمرو بن شرحبيل أبو ميسرة الهمداني

وعلقمة بن قيس النخعي

وأضاف ان هناك آخرين «في رجال أشباههم». وكان حامل الرسالة هانئ بن خطاب الأرحبي.

ثم بدأ يتحدث عن النشاطات العسكرية لمالك الأشتر واستعداداته لرد الوالي. ويذكر في هذا السياق الأسماء التالية:

زياد بن النضر، كميل بن زياد، جمرة بن جنان الأسدي، عائذ بن حملة، هانئ بن أبي حية بن علقمة الهمداني، يزيد بن حجية التيمي، عروة بن زيد الخيل الطائي، مالك بن كعب الأرحبي، وعبد الله بن كباثة (أحد بني عائذ الله بن سعد العشيرة)

كما يذكر أسماء مسروق بن الأجدع الهمداني وعبد الله بن ابي سبرة الجعفي، وخارجة بن الصلت البرجمي (من بني تميم) من ضمن مساعدي مالك الأشتر.

يمكن إحصاء أسماء 45 شخصاً ممن ورد لهم ذكر في أحداث التمرد في الكوفة بمراحله المختلفة ابتداء من قدوم سعيد بن العاص والياً وانتهاء بخلعه عنها. وتتكرر أسماء البعض بشكل لافت بينما يرد ذكر غيرهم عرضاً. ويتفق الإخباريون والمؤرخون على كامل الأسماء والألقاب لكثير من هؤلاء ويختلفون بشأن عدد منهم، وهذا أمر مفهوم ولا يضير.

ولا بد من دراسة الانتماء القبلي لهؤلاء الناشطين الذين تحدوا سلطة الخليفة وواليه، لأن ذلك قد يكون مدخلاً لفهم تطور الأحداث.

ومن هؤلاء الأشخاص ال 45 الذين يرد ذكرهم :

يوجد 24 ينتمون الى قبائل يمانية

و19 يتحدرون من قبائل عدنانية

واثنان من خزاعة، وهي قبيلة يمانية من حيث الأصل ولكنها سكنت الحجاز.

يمكن الخروج بالاستنتاجات التالية:

1 - اتساع قاعدة المعارضة لسياسة الخليفة عثمان وحكمه. ومما يثير الدهشة قدرة الإخباريين والمؤرخين على ذكر 45 شخصاً، بأسمائهم ونسبهم، في سياق تلك الأحداث. وهذا عدد كبير. فغالباً ما يعالج المؤرخون احداثاً كبيرة دون أن يوردوا مثل هذا العدد من الأسماء، بل لا تصلهم سوى أسماء القادة والزعماء والشخصيات المؤثرة. ولذا يمكن القول بقدر كبير من الثقة بأن المعارضة في الكوفة كانت واسعة ولها طابع شعبي.

2 - التنوع القبلي الواضح لمعارضي السلطة يعني ببساطة عدم صحة الاعتقاد بأن اتجاهاً قبلياً بعينه كان مسؤولاً عن الأحداث. وهذا يدحض الفكرة الموجودة لدى بعض الباحثين بأن المتمردين ينتمون أساساً الى القبائل اليمانية بينما تؤيد القبائل العدنانية (المضرية) بمجملها سلطة قريش. وهذه الفكرة الخاطئة ربما تكون أتت من تطور الأحداث فيما بعد، خلال حكم معاوية وبني أمية الذي اعتمد على رجال القبائل العربية الشمالية. ولكن في هذه الفترة المبكرة، خلال حكم عثمان، لم يكن هذا الفرز قد حصل بدليل وجود 19 اسماً من أصل 45 ممن انخرطوا في معارضة فعّالة للحكم القرشي وهم ينتمون الى قبائل عربية نزارية.

3 - وحتى ضمن ذلك التقسيم العريض (يمانية / عدنانية) يُلاحظ تنوّع كبير أيضاً. فال 19 اسماً المشار اليهم منهم 5 من قبائل ربيعة (3 من عبد القيس واثنان من بكر بن وائل) و 14 من قبائل مضر (7 من تميم و 4 من قيس عيلان و3 من خزيمة بن مدركة). وكذلك الحال مع الشخصيات اليمانية: فمن بين ال 24 اسماً يوجد 10 من قبائل مذحج، 8 من قبائل همدان، 3 من طيء، اثنان من الأزد وواحد من كندة.

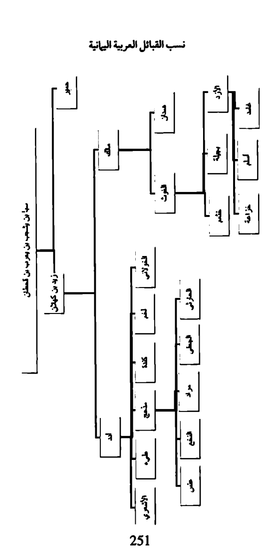
4 - ويلاحظ أيضاً الغياب التام لأي اسم ينتمي لقبيلة قريش وحليفتها الرئيسية ثقيف. وهذا يؤكد فكرة محاولة تمرّد القبائل العربية على هيمنة قريش.

5 – رغم التنوع الواضح والعدد الكبير لأبناء القبائل العربية المعارضين لحكم عثمان وواليه، إلاّ أنه لا بد من ملاحظة غياب الشخصيات ذات الوزن القبلي الأبرز. فلا نجد ذكراً لشيوخ القبائل الكبار. فزعماء القبائل من العيار الثقيل لم يكونوا منخرطين بشكل واضح في حركة المعارضة. فيمكن القول أن المعارضين لم يكونوا في مجملهم من قادة القبائل، وربما كان الكثيرون منهم من العناصر الثانوية في عشائرهم. وحتى الاسماء ذات الشهرة منهم لم تكن على الأرجح تتمتع بثقل قبلي كبير وإنما اكتسبت شهرتها فيما بعد بحكم نشاطها في تلك الأحداث. وذلك حال مالك الأشتر وكميل بن زياد (وهما من عشيرة النخع – فرع من مذحج) وصعصعة بن صوحان وأخيه زيد (وهما من قبيلة عبد القيس – فرع من ربيعة) وحجر بن عدي (من كندة). وربما يكون الوحيد الذي له ثقل قبلي هو سليمان بن صرد، ولكن بروزه كأحد زعماء خزاعة كان في الواقع بعد أكثر من ربع قرن من تلك الفترة، أي في الأحداث التي تلت مقتل الامام الحسين في ستينات القرن الهجري الأول.

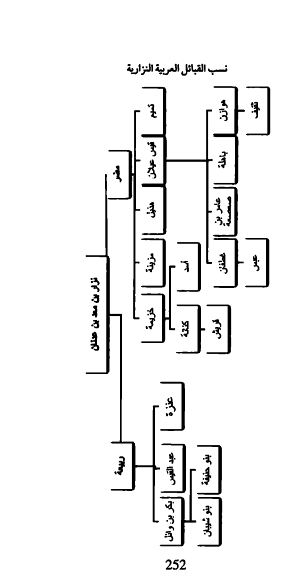
6 – وأما كبار زعماء القبائل في الكوفة، وبالذات الأشعث بن قيس[1] الذي كان زعيم قبيلة كندة بلا منازع ويمتد تأثيره في ذات الوقت الى بقية القبائل اليمانية فالمؤكد أنه لم يكن معارضاً للسلطة. وكذلك حال جرير بن عبد الله البجلي. ولا غرابة في ذلك لأن عثمان كان يراعي أمثال هؤلاء ولا يغفل عن منحهم مناصب وامتيازات تضمن له ولاءهم. وعلى الرغم من تحفظي على مجمل روايات سيف بن عمر إلاّ أنني أجدني أقبل أساس فكرته التي احتوتها روايته[2] التي يذكر فيها أن سعيد بن العاص كان قد بعث الزعماء القبليين في الكوفة حكاماً لمناطق تابعة لولاية الكوفة: الاشعث بن قيس على آذربيجان، وسعيد بن قيس على الري، والسائب بن الأقرع على اصبهان، وجرير بن عبد الله على قرقيسياء وغيرهم، ويختتم سيف روايته «*وخلت الكوفة من الرؤساء إلاّ منزوع او مفتون*»!.

(1) سيلعب دوراً مهماً خلال عهد الامام علي، وسوف يأتي الحديث عنه بالتفصيل.
(2) تاريخ الطبري (ج3 ص371)

نسب القبائل العربية اليمانية



نسب القبائل العربية النزارية



مالك الاشتر [1]

فيما يلي ترجمته كاملة كما رواها الذهبي في سير اعلام النبلاء :

«ملك العرب، مالك بن الحارث النخعي، أحد الأشراف والأبطال المذكورين.

حدث عن عمر، وعن خالد بن الوليد. وفقئت عينه يوم اليرموك. وكان شهما مطاعا زعرا. ألّب على عثمان وقاتله. وكان ذا فصاحة وبلاغة.

شهد صفين مع علي، وتميز يومئذ، وكاد أن يهزم معاوية، فحمل عليه أصحاب علي لما رأوا مصاحف جند الشام على الأسنة يدعون الى كتاب الله. وما أمكنه مخالفة علي، فكف.

قال عبد الله بن سلمة المرادي: نظر عمر الى الأشتر، فصعد فيه النظر وصوبه ثم قال: ان للمسلمين من هذا يوما عصيبا.

ولما رجع علي من موقعة صفين، جهز الاشتر واليا على ديار مصر، فمات في الطريق مسموماً. فقيل: إن عبداً لعثمان عارضه، فسمّ له عسلاً.

وقد كان علي يتبرم به لأنه كان صعب المراس، فلما بلغه نعيه قال: إنا لله! مالك وما مالك؟ وهل موجود مثل ذلك؟ لو كان حديداً لكان قيداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، على مثله فلتبك البواكي.

وقال بعضهم: قال علي: للمنخرين والفم.

وسر بهلاكه عمرو بن العاص وقال: ان لله جنودا من عسل.

وقيل: ان ابن الزبير بارز الاشتر، وطالت المحاولة بينهما حتى ان ابن الزبير قال: اقتلوني ومالكاً. واقتلوا مالكاً معي»

وقد ساهم الاشتر في الفتوحات وكان له دور بارز في فتوح دمشق

---

(1) مصادر هذا البحث: سير اعلام النبلاء للذهبي (ج4 ص34)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج56 ص380 وص390 وص378 و ص389)، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ج6 ص78 و ص75 و ج15 ص101)، رجال النجاشي (ص203)، أعيان الشيعة للسيد محسن الامين (ج9 ص39).

والشام تحت إمرة خالد بن الوليد. وقد تحدث ابن عساكر في تاريخ دمشق عن قتال بطولي خاضه الاشتر مع فرسان الروم في اليرموك وخروجه منتصراً من تلك المنازلات الخطرة.

ولأمير المؤمنين علي بن ابي طالب شهادة عظيمة بحقه. فقد كتب لأهل مصر حين أرسله والياً عليهم:

روى ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة من طريق المدائني أن عليا كتب لأهل مصر لما أرسل الأشتر عليهم والياً «أما بعد.. *فقد وجهتُ إليكم عبداً من عباد الله لا ينام في الخوف، ولا ينكل من الأعداء حذار الدوائر. أشدّ على الكافرين من حريق النار، وهو مالك بن الحارث الأشتر، أخو مذحج. فاسمعوا له وأطيعوا، فإنه سيف من سيوف الله، لا نابي الضريبة ولا كليل الحد. فإن أمركم أن تقيموا فأقيموا، وإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تحجموا فاحجموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري. وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه..*»[1]

ورواها أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق الشعبي:

«*بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى الملأ الذين غضبوا لله من بعدما عصي الله في الأرض وضرب الجور بأرواقه على البر والفاجر، فلا حق قال يتريع إليه ولا منكر يتناهى عنه. سلامٌ عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو أما بعد: فإني قد بعثتُ إليكم عبداً من عباد الله لا نائي الضريبة ولا كليل الحد ولا ينام على الخوف ولا ينكل عن الأعداء حذار الدوائر. أشدّ على الفجّار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج. وإنه سيفٌ من سيوف الله فإن استنفركم فانفروا إن أمركم بالإقامة فأقيموا، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلاّ بأمري وقد آثرتكم به على نفسي لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم ...*»[2]

---

(1) وروى ابن ابي الحديد هذه الرواية أيضا عن الشعبي وبألفاظ قريبة من هذه، بل وفيها إضافة «وأبعد الناس من دنس أوعار»

(2) وقد أخرجت المصادر الشيعية هذا النص بنفس هذه العبارات تقريباً. ومنها رجال النجاشي الذي أورد مخاطبة الامام علي لأهل مصر عن طريق الشعبي عن صعصعة ابن صوحان.

وكتب عنه ابن ابي الحديد في شرح النهج «فأما ثناء أمير المؤمنين عليه السلام عليه في هذا الفصل فقد بلغ مع اختصاره ما لا يبلغ بالكلام الطويل، ولعمري لقد كان الأشتر أهلا لذلك، كان شديد البأس، جوادا رئيسا حليما فصيحا شاعراً، وكان يجمع بين اللين والعنف، فيسطو في موضع السطوة، ويرفق في موضع الرفق»

وللأشتر مكانة رفيعة لدى الشيعة. وهكذا ورد وصفه في كتاب أعيان الشيعة للسيد محسن الامين:

«كان من زعماء العراق الأشداء، فارسا صنديدا لا يشق له غبار، شديد البأس رئيس أركان الجيش لعساكر أبي الحسن (ع) في معاركه. وهو من لهاميم مذحج الابطال المغاوير وسيد قروم النخع وشجعانها المساعير. ومن رواسي الجبل في الحلم ومن السحاب الثقل في الكرم والسخاء. وكان الأشتر بالكوفة اسود من الأحنف بالبصرة. اما في السياسة فكان من الأكياس الحازمين، يجمع بين اللين والعنف فيسطو في موضع سطو ويرفق في موضع الرفق. وقد شهد له بذلك أمير المؤمنين (ع) فقال عنه: انه ممن لا يخاف وهنه ولا سقطته، ولا بطؤه عما الاسراع اليه أحزم ولا اسراعه إلى ما البطء عنه أمثل. وهو خطيب منبر وقائد عسكر وشاعر ناثر. وقد استطاع ان يخمد بذلاقة لسانه من الفتن العمياء ما أعيا السيف اطفاؤه في كثير من المواقف والمشاهد التي نصر فيها الحق وحارب الباطل.

كان أمير المؤمنين (ع) حين رجع عن صفين رد الأشتر إلى عمله بالجزيرة، فلما اضطربت مصر على محمد بن أبي بكر استدعى أمير المؤمنين (ع) الأشتر اليه وهو يومئذ بنصيبين وارسل إليه هذا الكتاب: أما بعد فإنك ممن استظهر به على إقامة الدين واقمع به نخوة الأثيم وأسد به الثغر المخوف. إلى أن يقول: فأقدم علي للنظر فيما ينبغي واستخلف على عملك اهل الثقة والنصيحة من أصحابك والسلام. فاقبل الأشتر إلى علي فلما دخل عليه حدثه حديث مصر وخبره خبر أهلها، وقال له: ليس لها غيرك فاخرج إليها رحمك الله فاني لا أوصيك اكتفاء برأيك واستعن بالله على ما أهمك واخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعزم على الشدة حين لا يغنى عنك الا شدة.....

ولما بلغ عليا موت الأشتر، قال: انا لله وانا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين، اللهم إني احتسبه عندك فإن موته من مصائب الدهر، ثم قال: رحم الله مالكا فقد كان وفيا بعهده وقضى نحبه ولقي ربه. مع انا قد وطنا أنفسنا ان تصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله، فإنها من أعظم المصائب. وحدث أشياخ النخع قالوا: دخلنا على أمير المؤمنين حين بلغه موت الأشتر فوجدناه يتلهف ويتأسف عليه، ثم قال: لله در مالك وما مالك ؟ ! والله لو كان من جبل لكان فندا ولو كان من حجر لكان صلدا، اما والله ليهون موتك عالما وليفرحن عالما، على مثل مالك فلتبكِ البواكي، وهل موجود كمالك ؟!

قال علقمة بن قيس النخعي: فما زال يتلهف ويتأسف حتى ظننا أنه المصاب به دوننا، وعرف ذلك في وجهه أياما. ومن أقوال أمير المؤمنين فيه: كان لي كما كنت لرسول الله .

وسئل بعضهم عن الأشتر فقال: ما أقول في رجل هزمت حياته اهل الشام وهزم موته اهل العراق .»

وبحكم قربه من الامام علي، ولكونه من أهم الشخصيات التي اعتمد عليها علي في فترة حكمه وإدارته، فقد كان نصيبه كبيرا من الافتراءات والتهم التي كان وراءها بنو امية ومن شايعهم. ويمكن ملاحظة عدد وافر من الروايات الملفقة المتعلقة به. ومن ذلك الرواية الواردة اعلاه لدى الذهبي والتي تقول ان عمر بن الخطاب نظر اليه وتنبأ بأن «للمسلمين من هذا يوماً عصيبا»، فبعد أن أوردها ابن عساكر في تاريخ دمشق أردف بأن يحيى بن معين قد جزم بعدم صحة سندها.

ومن ذلك أيضاً ما يرويه ابن عساكر عن الشعبي من أن علياً كان غاضباً عليه الى حد أنه قال حين بلغه خبر وفاته «لليدين وللفم»! فكيف يكون عليٌ قالياً له ثم يرسله في تلك المهمة الشديدة الصعوبة والأهمية (انقاذ مصر من السقوط)؟

الفصل الثالث: حالُ البصرة[1]

كانت البصرة قد شهدت في عهد عثمان نموا كبيرا، نتج أساسا عن تزايد حركة الفتوحات في ايران، والتي لعبت البصرة فيها دورا كبيرا، فاق دور جارتها الأهم: الكوفة.

وفي ظل ولاية أبي موسى الأشعري تمكن مقاتلة البصرة من فتح اقليم الاحواز، وفتح قم، وقاشان وأصبهان والمساهمة مع مقاتلة جبهة البحرين في فتح أجزاء من اقليم فارس. وأسفر ذلك عن غنائم كثيرة ساعدت على اجتذاب أعداد جديدة من المقاتلين العرب، وأدى ذلك إلى زيادة عدد سكان البصرة.

وفي ولاية عبد الله بن عامر ازدادت أهمية البصرة الإدارية، واتسعت مهامها العسكرية في المنطقة الواقعة شرق خليج فارس، مما أدى إلى زيادة هجرة قبائل عبد القيس والأزد إليها، وبالتالي تضخمت اعداد السكان فيها، وتمكن مقاتلوها من فتح اقليم فارس وكرمان وسجستان وخراسان. وازدادت موارد البصرة كثيرا وأخذت المدينة تنمو بسرعة، فاستوطن فيها تجار وأصحاب مهن من العرب والأعاجم.

سياسة ابن عامر في البصرة

فكما هو متوقع من شاب قرشي مترف، قريب القرابة من الخليفة، لم

(1) مصادر هذا البحث: اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص191)،تاريخ الطبري (ج4 ص12) و (ج3 ص373)، كتاب المنمق في اخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادي (ص390)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص172) و كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص393)

يكن يرى بأساً في الاستمتاع بالثروات التي كانت تنهال من غنائم الفتوحات، ومن ذلك ما ذكره ابن الاثير في ترجمته في اسد الغابة «*وهو أول مَن لبس الخز بالبصرة. لبسَ جُبة دكناء فقال الناس: لبس الأميرُ جلد دُب، فلبسَ جُبة حمراء*»

وربما كان يبالغ في نفقاته وعطاياه من بيت المال الى حد التبذير. وربما لذلك وصفه ابن الاثير «*وكان أحد الأجواد الممدوحين*». ولا بد من التساؤل عن صفة الجود هذه لدى ابن عامر: فإن كان المرء يجود بحرّ ماله، الذي تعب من أجل كسبه بالكدح الحلال؛ فذاك هو الجود. وأما إن كان يتصرف بالمال العام، ويستغل ولايته في التحكم بأموال الدولة، فذاك ليس جوداً ولا كرماً. وقد أشار ابن عامر في معرض اقتراحه على الزبير وطلحة بالمسير الى البصرة الى أن من أسباب ذلك ان له بها «*صنائع*»، كما سيأتي في موضعه.

وقد روى الطبري في تاريخه عن ابي مخنف ان يزيد بن قيس الارحبي، وهو من قيادات جيش علي في صفين، ذكر بعضاً من مساوئ ابن عامر في معرض خطبة ألقاها لحث العراقيين على القتال «*... وعبد الله بن عامر، السّفيه الضال، يُجيز أحَدَهم في مجلسه بمثل ديته ودية أبيه وجدّه، يقول: هذا لي ولا إثم عَليّ! كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمّه! وانّما هو مال الله عز وجل، أفاءه علينا بأسيافنا وأرماحنا..*»

وقد ذكر ابن حبيب البغدادي حادثة طريفة يظهر منها مدى الاستهتار بولاية أمر الناس الذي كان يظهره بعض افراد عائلة عثمان احياناً:

«*استأذن عامرُ بن كريز عثمانَ في زيارة ابنه عبد الله في البصرة، فأذن له. فشخص إليه.*

فلما صعد عبد الله المنبر وكان خطيباً، أخذ عامر يذكر نفسه وجعل يقول لمن يليه: أترونَ أميرَكم هذا؟ مِن هذا خرَج، وأشارَ إلى متاعِهِ!

فلم يدعه عبد الله يقيم، وأحسنَ جهازه وسَرّحَه إلى المدينة خوفَ الفضيحة»

ولا شك بأن الكثيرين من الرعية كانوا يراقبون ذلك النوع من التصرفات بتركيز شديد.

ورغم تلك المثالب التي خالطت سلوكه الشخصي، إلاّ أن ابن عامر لم يكن خاملاً ولا كسولاً. وقد سبق وذكرنا أنه تابع بكل همة وحماس تنفيذ السياسة الاستراتيجية للدولة، وهي الفتوحات والمزيد منها. قال ابن الأثير في ترجمته في اسد الغابة «*افتتح خراسان كلها، وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان، وهي أعمال غزنة. أرسل الجيوش ففتح هذه الفتوح كلها. وفي ولايته قتل كسرى يزدجرد*» كما يبدو أنه كانت له قرارات إدارية وتنظيمية مهمة في البصرة. يضيف ابن الاثير «*وهو الذي اتخذ السوق بالبصرة. اشترى دوراً فهدمها وجعلها سوقاً*»

وقد كانت بوادر التذمّر والرفض لسياسة عثمان وواليه، عبد الله بن عامر، موجودة في البصرة، فقد تذاكرَ مجموعة من أهل البصرة أعمالَ عثمان، وقرروا إرسال أحدهم اليه ليكلمه في مآخذ الناس عليه. فلما وصل المدينة دار بينه وبين الخليفة حوار قاس!

روى الطبري في تاريخه عن جعفر بن عبد الله المحمدي :

«*اجتمع ناسٌ من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع. فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا إليه رجلا يكلمه ويخبره بأحداثه. فأرسلوا اليه عامر بن عبد الله التميمي ثم العنبري، وهو الذي يدعى عامر بن عبد قيس.*

فأتاه فدخل عليه فقال له: إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك، فوجدوك قد ركبتَ أموراً عظاماً. فاتّقِ الله عز وجل وتب إليه.

قال عثمان: انظر إلى هذا ! فإن الناس يزعمون انه قارئ، ثم يجيء فيكلمني في المحقرات. فوالله ما يدري أين الله!

قال عامر: أنا لا أدري أين الله؟!

قال: نعم ! والله ما تدري أين الله.

قال عامر: بلى والله إني لأدري أن الله لك بالمرصاد»[1]

---

(1) ويلاحظ هنا تشابه العبارات وسياق الحديث مع النص الذي اوردناه من كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص393)، والذي يتحدث عن كعب بن عبدة النهدي من اهل الكوفة والذي تجرّأ وأرسل لعثمان كتاباً استعرض فيه مخالفاته ودعاه الى الكف عنها.

والظاهر ان عثمان قام بنفي عامر هذا الى الشام. ولكن أسباب الخلاف بين عامر هذا وبين الخليفة عثمان والتي تتحدث عن مطالبته الخليفة بتقوى الله ومعارضته لسياساته يبدو انها لم ترق لسيف بن عمر! فذكر سيف ان عامراً (كما مر سابقا) تم نفيه من البصرة الى الشام لأنه كان يرفض أكل اللحم والزواج وحضور صلاة الجمعة!

وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة باختصار، في معرض ترجمته لعبد الله بن عامر «*وهو الذي سيّر عامرَ بن عبد القيس العبدي من البصرة الى الشام*»

وأما رواية البلاذري في أنساب الأشراف فتقول ان قدوم عامر هذا كان بسبب وشاية تعرض لها وأن عثمان قد عفا عنه لما رآه من صلاحه. فقال نقلاً عن أبي مخنف «*كان عامر بن عبد قيس التميمي ينكر على عثمان امره وسيرته. فكتب حمران بن ابان مولى عثمان، الى عثمان بخبره. فكتب عثمان الى عبد الله بن عامر بن كريز في حمله فحمله.*

فلما قدم عليه فرآه، وقد أعظم الناسُ إشخاصَهُ وإزعاجه عن بلده لعبادته وزهده، ألطفه وأكرمه ورده الى البصرة»

وهناك إشارات تدل على أن سياسة عثمان وولاته في التركيز على الفتوحات الجديدة والمتواصلة، خاصة في إيران، أدت إلى نوع من الإنهاك لمقاتلي القبائل العربية. فعلى الرغم من أن الفتوحات كانت تؤدي إلى غنائم ضخمة جدا، وهو ما كان يحفّز أبناء قبائل العرب على الانخراط في «الجهاد» الذي غدا مصدر الدخل الرئيسي للدولة الإسلامية كلها منذ أيام عمر، إلاّ أن ذلك كان له ثمنه المتمثل في ضرورة المحافظة على تواجد عسكري عربي في المناطق المفتتحة، أو «الثغور». وكان ذلك يعني وجود حاميات مقاتلة عربية في أعماق إيران. ومن المحتمل أن يكون المقاتلون العرب واجهوا صعوبات في التأقلم مع طبيعة المناطق الايرانية المختلفة عن جزيرة العرب تماما. وربما كان المقاتلون غير مرتاحين لوجودهم ضمن بيئة محلية معادية لهم. وكان على والي البصرة أن ينظم مسألة الحاميات العربية داخل بلاد فارس، أعدادها ومواقعها، وخطوط الامداد والاتصال، وأيضا التبديل الدوري

للأفراد في تلك الثغور. وبالاجمال، كان المقاتلون الموكلون بمهمة السيطرة على مناطق داخل ايران، يستبدلون مرة واحدة كل 4 سنوات. وهذه فترة طويلة جدا بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا يتوقون للعودة إلى أهلهم وقبائلهم في البصرة. وهذه ستكون إحدى مصادر الشكوى التي سيعبّر عنها بالقول «تجمّر البعوث». ويبدو أن عبد الله بن عامر كان ينتهج سياسة متعمدة في المبالغة في النشاط العسكري وإطالة مدة إقامة العسكر في المناطق المفتتحة.

ولكن من المؤكد أن معارضة الخليفة عثمان في البصرة كانت أقل حدة بكثير من تلك الموجودة في شقيقتها الكوفة. وسوف يظهر ذلك بجلاء في قادم الأيام حيث ستنقسم البصرة بين مؤيد للإمام علي ومؤيد لخصومه المطالبين بدم عثمان قبيل معركة الجمل، بخلاف الكوفة التي منحت علياً تأييداً تاماً.

الفصل الرابع: عثمان يشعر بالخطر

اجتماع القمة بين عثمان وعمّاله [1]

لما كثرت الشكايات والاضطرابات في عدة ولايات، وتحت العديد من العناوين، صار لا بد أن يتحرك الخليفة قبل فوات الأوان. كان عليه أن يتخذ القرارات ويحدد السياسات ليواجه الموقف المتأزم. ولذلك قرر عثمان عقد اجتماع على أعلى مستوى مع قياداته وأركان حكمه. والاجتماع كان مهماً جداً لأنه كان الفرصة الاخيرة للخليفة لمنع الانهيار الشامل. كان متوقعاً من عثمان في ذلك الاجتماع أن يقوم بمحاسبة ولاته على تقصيرهم وأخطائهم. كان الوقت وقت تغيير خاصة وأن هؤلاء كانوا في مناصبهم منذ سنوات عديدة وقد تسببوا في تدهور الامور وأساؤوا الى سمعة الخليفة ومكانته. ولكن عثمان أظهر فشلاً جديداً! لقد أسفر الاجتماع المنتظر عن إعادة الثقة بنفس هؤلاء الولاة! لم يحاسب مقصراً ولم يعزل أحداً ولم يبدل شيئاً. قرر الخليفة الاستمرار على نفس النهج، وبكل بساطة!

ذكر ابن شبة النميري في تاريخ المدينة «*حدثنا هارون بن عمر قال، حدثنا أيوب بن سويد قال، حدثنا مطرف بن أبي بكر الهذلي، عن أبيه، عن الزهري قال، كان أمراء الأجناد يقدمون على عثمان في كل عام، فقدِم عليه ابن أبي سرح من مصر، ومعاوية من الشام، وعبد الله بن عامر من البصرة، وسعيد بن العاص من الكوفة.*

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1096)، تاريخ الطبري (ج3 ص373-374 و ص379-381)، الكامل لابن الأثير (ص 389 ص391)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص143) وكتاب الفتوح لابن أعثم (ج2 ص388-389)

فقال لهم عثمان: يا بني أمية! أنتم بطانتي دون ظاهري. وقد أكثر الناسُ شكايتي حتى تناولني بها البعيد، وآذاني بها القريب. فأشيروا عليّ.

فأشار عبد الله بن عامر -وكان امرءً سخياً- فقال: يا أمير المؤمنين. إن الناس إنما يرضيهم ما أسخطهم. وهي هذه الأموال، فأعطهم منها، تستل بذلك سخائم صدورهم وضغائن قلوبهم وضبابها.

ثم تكلم ابن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين. إن لك عليهم حقاً ولهم عليك حقاً. فأعطهم حقهم عليك وخذهم بحقك عليهم. واتبع سنة الذين قبلك يجتمعوا عليك بالرضى.

ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين. إن الناس قد أمروا وجموا حتى كبرت كبراهم. فابعثهم جيوشا وجمّرهم في المغازي، حتى تكون دبرة دابة أحدهم أهم إليه من التفكر في أمر الأمة.

ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين: إنك قد بلغتَ من صلتنا ما يبلغه كريم قوم من صلة قوم. حملتنا على رقاب الناس وجعلتنا أوتاد الأرض. فليكفِكَ كل رجل منا مصرَهُ. وسأكفيكَ الشامَ. فلن تؤتى من الشام أبدا.

فأخذ عثمان بقول معاوية ورد عماله إلى أمصارهم»

إلاّ أن معاوية كان يستشعر الخطر الداهم على حياة الخليفة وكان يدرك أنه ليس بالامكان الاستمرار في تجاهل ما كان يحصل على ارض الواقع من تطورات خطيرة. أدرك معاوية أن الزمان قد تجاوز الخليفة العجوز.

يتابع ابن شبة الرواية ويتحدث عن اقتراحات عرضها معاوية على الخليفة

«فقال له معاوية رضي الله عنه: اخرج معي إلى الشام فهم شيعتك وأنصارك.

فقال: ما كنت لا فارق مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسجده ومنازل أزواجه .

قال: فإذ أبيت فإذن لي أجهز إليك جيشا من الشام تطأ بهم من رابك .

قال: لا أكون أول من أذل المهاجرين. قال: فلا تخرج ولا تأذن لي أوجه إليك جيشا ؟ ! أنت مقتول. ثم خرج إلى المسجد وفيه نفر من المهاجرين فقال: أوصيكم بشيخي هذا خيرا، والله لئن أحدثتم فيه حدثنا لا أعطيكم إلا السيف. فقال بعضهم: ألا تسمعون لما يقول هذا ؟ فرد عليهم آخرون: لا تلوموه أن يتكلم في ابن عمه»

وفي رواية اخرى لدى ابن شبة، عن الليث بن سعد، كانت اقتراحات معاوية على الصيغة التالية :

«فقام فدخل على عثمان رضي الله عنه، فقال: معاوية ؟

قال: نعم

قال: ما جاء بك ؟

قال: الذي بلغني من أمرك وأمر أصحابك، ثم أخبره بما كلم به عليا وأصحابه، وما أجابه به علي[1]، ثم قال له: إني قد جئت معي بظهر فاركب الآن فأقدم على أهل الشام، فإنك أحب الناس إليهم حتى ترى رأيك .

فقال: ما أريد أن أفر.

قال: فأذن للناس في القتال.

قال: لا أريد أفتح سنة السور

قال: فبقيت أخرى، إن رأيت أن تردني إلى عملي فافعل.

قال: نعم، ولاك من هو خير مني: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاخرج إلى عملك .

فركب ثم قال لمن حضره: يا أهل المدينة دونكم جزوركم – يريد عثمان – وستعلمون كيف العاقبة»

وهذه الاقتراحات يمكن الشك فيها، بل واستبعادها. فمعاوية ولا شك

(1) وسيأتي الحديث عن كلام معاوية لعلي وكبار الصحابة

يدرك مدى ارتباط الخليفة العجوز بمدينة رسول الله(ص) واستحالة انتقاله منها. واما طلبه الاذن في القتال أو قوله «دونكم جزوركم» فمما لا يمكن قبوله. إلاّ أن ذلك لا ينفي إمكانية أن يكون معاوية اقترح على عثمان ارسال قوة حراسة لحمايته ولردّ أي اعتداء عليه. فمعاوية رجل دولة محنك ولا يقبل عقله فكرة ان يكون قائد الدولة كسائر الناس بلا حرس.

وقد أخرج الطبري في تاريخه روايتين متشابهتين عن جعفر المحمدي بشأن اجتماع القمة، ضمن أحداث سنة34:

«فأرسل عثمان الى معاوية بن ابي سفيان والى عبد الله بن سعد بن ابي سرح والى سعيد بن العاص والى عمرو بن العاص بن وائل السهمي والى عبد الله بن عامر، فجمعهم ليشاورهم في أمره وما طلب اليه وما بلغه عنهم .

فلما اجتمعوا عنده قال لهم: ان لكل امرء وزراء ونصحاء، وانكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي. وقد صنع الناس ما قد رأيتم وطلبوا الي أن أعزل عمالي وأن أرجع عن جميع ما يكرهون الى ما يحبون. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا عليّ.

فقال له عبد الله بن عامر: رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمّرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همة أحدهم إلاّ نفسه وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.

ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له: ما رأيك؟

قال: يا أمير المؤمنين إن كنتَ تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف، واعمل برأيي تُصِب.

قال: وما هو؟

قال: ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر.

فقال عثمان: ان هذا الرأي لولا ما فيه .

ثم أقبل على معاوية فقال: ما رأيك؟

قال: أرى لك يا أمير المؤمنين أن تردّ عمّالك على الكفاية لما قبلهم. وأنا ضامنٌ لك قبلي.

ثم أقبل على عبد الله بن سعد فقال: ما رأيك؟

قال: أرى يا أمير المؤمنين ان الناس أهل طمع فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم.

ثم أقبل على عمرو بن العاص فقال له: ما رأيك؟

قال: أرى أنك ركبتَ الناسَ بما يكرهون. فاعتزم أن تعتدل فإن أبيتَ فاعتزم أن تعتزل. فإن أبيتَ فاعتزم عزماً وامضِ قدماً

فقال عثمان: مالكَ قملَ فروُكَ؟ أهذا الجد منك؟

فأسكت عنه دهراً حتى إذا تفرق القوم قال عمرو: لا والله يا أمير المؤمنين، لأنتَ أعزّ عليّ من ذلك. ولكن قد علمتُ أن سيبلغ الناسَ قول كل رجل منا فأردتُ أن يبلغهم قولي فيثقوا بي، فأقود اليك خيراً أو أدفع عنك شراً» (1)

وفي الرواية الثانية عن جعفر المحمدي ذكر نتيجة مباحثات عثمان مع قياداته العليا، وهي: قرارٌ منه بمزيد من التشدد تجاه رعيته :

«فردّ عثمان عماله على أعمالهم. وأمَرهم بالتضييق على مَن قِبلهم. وأمَرهم بتجمير الناس في البعوث. وعزَمَ على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه»

وفيما يلي رواية ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح ضمن سياق إسناده الجمعي نقلاً عن شيوخ الاخباريين:

«قال أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وأبي محصن عن أبي وائل، وعلي بن مجاهد عن أبي إسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال: حدثني أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي الأسلمي قال: وحدثني إسحاق بن يوسف الفزاري قال: حدثني أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب

(1) وقد روى ابن خلدون في تاريخه نفس هذه الرواية تقريبا، مع اختصار قليل ودون ذكر كلام عمرو بن العاص، وذلك من ضمن أحداث العام 34.

قال: حدثني لوط به يحيى بن سعيد الأزدي عن الحارث بن الحصين بن عبد الرحمن بن عبيدة والنضر بن صالح بن حسين بن زهير قال: وحدثني عمران بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف عن عبد الله بن يزيد عن صالح بن إبراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة بن أسعد الشامي وغير هؤلاء ذكروا هذا الحديث سرا وعلانية .

وقد جمعت ما سمعتُ من رواياتهم على اختلاف لغاتهم فألفته حديثا واحدا على نسق واحد»

«ذكر قدوم عمال عثمان عليه لما كثرت شكاية الناس منهم .

قال: فأرسل عثمان إلى جميع عماله فأشخصهم إليه من جميع البلاد، ثم أقبل عليهم فقال: يا هؤلاء ! إنه قد كثرت شكايات الناس منكم، فأما القريب فقد بادهني وأما البعيد فما نالوا جهدا، فماذا عندكم من الرأي؟

قال: فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز وقال: يا أمير المؤمنين ! إنه ليس يرضي الناس عنك إلا ما أسخطهم عليك، فإن الناس إنما نقموا عليك لأجل هذا المال، فأعطهم إياه حتى يرضوا به عنك ولا يشكوك أحد بعد ذلك. قال: ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال: يا أمير المؤمنين ! إن لك على الناس حقا في كتاب الله ولهم عليك مثل ذلك، فادفع إليهم حقوقهم واستوف منهم حقك، فإنه قد ولي أمر هذه الأمة من قبلك رجلين خيرين فاضلين أبا بكر وعمر فسارا بسيرة، فسر بسيرتهما واستسن بسنتهما واعمل بعملهما، يرضى الناس عنك ولا يشكوك أحد.

قال: ثم تكلم سعيد بن العاص فقال: لا والله يا أمير المؤمنين ! ما دعا الناس أن نقموا عليك إلا الحمام والفراغ من الحروب، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل وتحدثت بالأحاديث، فاشغل العرب بالغزو وقاتل بهم العدو حتى لا يرجع أحدهم، إذا رجع إلى منزله قد أهمته نفسه لا يتفرغ لعيب الامراء.

قال: ثم تكلم معاوية فقال: يا أمير المؤمنين ! إنك قد جمعتنا وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا وأنت قد ملكتنا رقاب الناس وجعلتنا أوتادا في

الأرض، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى نكفيك ما قبله ولا يكون ههنا شكاية أحد ولا ينقم أحد عليك .

قال: فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية، فعزم على أن يرد عماله إلى بلادهم وأعمالهم، ثم أوصاهم وعهد إليهم وحذرهم الشكايات، فرجع معاوية إلى الشام، وعبد الله بن عامر إلى البصرة، وسعيد بن العاص إلى الكوفة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح إلى مصر، فلم يزدادوا على الناس إلا غلظة وجنفا وجورا في الاحكام وعدولا عن السنة .»

ومن المؤكد أن البطانة الأموية للخليفة، مروان بن الحكم بالذات، كان لها الدور الأبرز في إقناع عثمان بأن الاستجابة لمطالبات عامة الرعية أنما هو ضعفٌ لا يليق بالخليفة بل إنه سيؤدي إلى المزيد من المطالب، وأن الأنسب هو مزيدٌ من الشدّة والحزم والمزيد من التفويض والصلاحيات لولاته ذاتهم، بعد تجديد الثقة بهم.

وقد ورد في الكامل لابن الاثير خبر اجتماع عثمان بولاته مرتين: واحدة ضمن أحداث عام 34 والثانية في عام 35. ولكن من المستبعد أن يكون حصل اجتماع قمة في عام 35 لأنه كان العام الذي حوصر فيه الخليفة وقتل وهو وحيد.

سيف بن عمر ينفي وجود أسباب حقيقية للشكوى من عثمان وولاته!

كما أخرج الطبري في تاريخه رواية سيف بن عمر بشأن اجتماع القمة، وهو المتخصص في الدفاع عن عثمان، وقد جعل الاجتماع ضمن أحداث سنة 35.

واستبق سيف روايته بخبر عن إرسال عثمان مجموعة من الصحابة الى الأمصار (الكوفة والبصرة ومصر والشام) لكي يتحققوا من اوضاعها وما يصله من شكايات ضد ولاتها. فرجعوا كلهم بأخبار تمتدح ولاة الأمصار «*ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم .... ان أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم*» باستثناء عمار بن ياسر.

وأتبع سيفٌ خبر عودة الصحابة بأحسن الأخبار عن أوضاع الأمصار برواية تفيض مدحاً للخليفة الذي كتب لأهل الأمصار قائلاً لهم «*أما بعد، فإني آخذُ العمال بموافاتي في كل موسم. وقد سلطتُ الأمة منذ وليتُ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يرفع علي شيئ ولا على أحد من عمالي إلاّ أعطيته. وليس لي ولعيالي حق قِبل الرعية إلاّ متروكٌ لهم. وقد رفع الى أهل المدينة أن أقواماً يشتمون وآخرون يضربون. فيا من ضرب سراً وشتم سراً من ادّعى شيئاً من ذلك فليوافِ الموسمَ فليأخذ بحقه حيث كان، مني أو من عمالي، أو تصدّقوا فإن الله يجزي المتصدقين .*

فلما قرئ في الأمصار أبكى الناسَ ودعوا لعثمان وقالوا ان الأمة لتمخض بشر»

وبعد هذه المقدمة يروي سيف خبر اجتماع القمة بصياغة مدروسة بكل عناية للدفاع عن الخليفة وكل ولاته: فعثمان يسألهم «*ويحكم ! ما هذه الشكاية؟ وما هذه الاذاعة؟ اني والله لخائف أن تكونوا مصدوقاً عليكم، ولا يعصب هذا إلاّ بي*» فيجيبوه «*ألم تبعث؟ ألم نرجع اليك الخبر عن القوم؟ ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء؟ لا والله ما صدقوا ولا برّوا ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، وما كنتَ لتأخذ به احداً فيقيمك على شيء. وما هي إلاّ إذاعة لا يحل الأخذ بها ولا الانتهاء اليها*» ثم أكد سيف، على لسان سعيد بن العاص أن الأمر لا يعدو كونه مؤامرة دبرت في الظلام «*هذا أمرٌ مصنوع، يصنع في السر، فيلقي به غير ذي المعرفة فيخبر به فيتحدث به في مجالسهم*». ويستمر سيف الى أن ينهي روايته بخطبة جميلة لعثمان «*... وقد علم الله أني لم آلُ الناسَ خيراً ولا نفسي، ووالله ان رحى الفتنة لدائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها. كفكفوا الناسَ، وهَبوا لهم حقوقهم، واغتفروا لهم، وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها*»

وهكذا يريد سيف أن نصدّق أن الأمر كله كذب في كذب: فلا ظلم في الأمصار بل ولاة عادلون رائعون. والمشكلة كلها إشاعات خبيثة يطلقها بعض راغبي الفتن. ولما تأكد الخليفة من ذلك ثبّت ولاته ذاتهم في مناصبهم، لأنهم وبكل بساطة: مُفترى عليهم.

معاوية يُحذر كبار الصحابة [1]

وتوجد الكثير من الروايات التي تتحدث عن قيام معاوية بالحديث مباشرة الى أهل الشورى وكبار الصحابة محذرا إياهم بشكل صريح من مغبة التخلي عن الخليفة العجوز. وليس هناك ما يمنع من قبول مجمل تلك الروايات لأنها تنسجم مع خط معاوية وأسلوبه. ويمكن اعتبار تاريخ المدينة لابن شبة النميري من أكثر المصادر استعراضا لتحذيرات معاوية. والظاهر أن تحذيرات معاوية تلك حصلت بعيد اجتماع القمة بين عثمان وعماله في موسم الحج سنة 34 للهجرة.

وفي اولى الروايات لابن شبة قال

«حدثنا محمد بن سعيد الدمشقي قال، حدثنا عبد الكريم ابن يزيد، عن موسى بن محمد بن طلحة، عن أبيه قال: إني لمع أبي في المنزل حين أتاه رسول عثمان يدعوه، فقام يلبس ثوبه، ثم أتاه رسول ثان، ثم أتاه رسول ثالث، فانطلق وانطلقت معه فإذا عثمان جالس وعنده المهاجرون وعيون الأنصار وفي قدمة قدمها مع معاوية» ثم يذكر كلاما لعثمان يدافع فيه عن سياساته الى أن يصل الى كلام معاوية.

«فقال معاوية رضي الله عنه: إنكم معشر المهاجرين قد علمتم أنه ليس منكم إلا قد كان في عشيرته من هو أشرف منه، بعث الله رسوله فأسرعتم إلى الله، وأبطأوا عنه، فسدتم عشائركم حتى إنه ليقال بنو فلان، رهط فلان، وإن هذا الامر ثابت لكم ما استقمتم، فإني قد أراكم وما تصنعون، وإني والله لئن لم تتركوا شيخنا هذا يموت على فراشه ليدخلن فيكم من ليس منكم.

فقال علي رضي الله عنه: وما أنت وهذا يا ابن اللخناء ؟

فقال معاوية رضي الله عنه: مهلا أبا حسن، فوالله ما هي بأخس نسائكم،

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج 3 - ص 1091 - 1098)، تاريخ الطبري (ج3 ص382)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص46-48)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج39 ص308).

ولقد أسلمتُ وأتتْ رسول الله صلى الله عليه وسلّم فبايعته وصافحته، وما رأيته صافح امرأة قط غيرها

قال: فنهض علي رضي الله عنه مغضباً، فقال له عثمان رضي الله عنه: اجلس. قال: لا أجلس. قال: عزمت عليك. فأبى، فأخذ عثمان رضي الله بطرف ردائه، فتركه من يده وخرج».

وهذا نص مثير للغاية: فمعاوية يقول اذا انحرفتم ايها الصحابة فسوف تخسرون كل شيء! لقد وصلتم الى مكانتكم الرفيعة بفضل سبقكم الى رسول الله (ص) وعليكم ان تحافظوا على العهد وإلاّ «سيدخل فيكم من ليس منكم» ويقصد نفسه طبعا.

و ثاني روايات ابن شبة تقول «حدثنا أحمد بن معاوية قال، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: أرسل عثمان إلى طلحة رضي الله عنهما يدعوه، فخرجت معه حتى دخل على عثمان رضي الله عنه -قال وعنده علي وسعد والزبير ومعاوية-

فحمد الله معاوية وأثنى عليه وقال: أنتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخيرة الأرض، وولاة أمر هذه الأمة، لا يطمع في ذلك أحد غيركم، اخترتم صاحبكم من غير غلبة ولا طمع، وقد كبرت سنه وولى عمره، ولو انتظرتم به الهرم - وكان قريبا - مع أني أرجو أن يكون أكرم على الله من أن يبلغ به ذلك، ولقد فشت قالة خفتها عليكم، فما عتبتم فيه من شئ فهذه يدي به لكم، ولا تطمعوا الناس في أمركم، فوالله لئن طمعوا في ذلك لا رأيتم منها أبدا إلا إدبارا.

فقال علي رضي الله عنه: مالك ولذاك لا أم لك .

فقال: دعْ أمي فهي ليست بشرّ أمهاتكم، قد أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأجبني فيما أقول لك.

فقال عثمان رضي الله عنه: صدق ابن أخي ....»[1]

(1) وجدير بالذكر ان هذه الرواية، بالحرف تقريبا، أوردها الطبري في تاريخه (ج3 ص382)

وهنا يظهر معاوية كمن «يضمن» الخليفة عثمان أمام كبار منتقديه من الصحابة «*فهذه يدي به لكم*»! وهذا الكلام من معاوية يعكس مدى إحساسه بقوته هو وإدراكه بانه قد غدا العمود الفقري لنظام حكم عثمان.

وفي رواية ثالثة قال ان معاوية قد أقبل من الشام خصيصا لتحذير الصحابة «*حدثنا هارون بن عمر المخزومي قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثني الليث بن سعد :*

أن معاوية رضي الله عنه لما سمع الذي كان من معاتبة - أو كلمة تشبهها - أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على عثمان أقبل من الشام بغير إذن، فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عليا وطلحة والزبير رضي الله عنهم في ناحية المسجد يتحاورون، فسلم عليهم ثم قال: أيإذن منكم؟

قالوا: نعم يا معاوية.

فقعد فقالوا: ما جاء بك؟

قال: الذي دخل بينكم، فإن الناس قد رأوا أن هذا الامر ميراث لكم أيها النفر، ليس لأحد فيه حق معكم، حتى إنهم ليقولون فلان بعد فلان، وفلان بعد فلان كأنه ميراث، وإن تصلح ذات بينكم لا يطمع أحد في منازعتكم، وإن تختلفوا يدخل عليكم غيركم. قالوا: ومن ذاك؟

قال: أنا أولهم! فوقع به علي فضعف من أمره ....»

ورواية رابعة تقول ان معاوية قد وجه خطابه وتحذيره الى عموم اهل المدينة ومكة في موسم الحج «*حدثنا علي بن محمد، عن عيسى بن يزيد، عن صالح ابن كيسان قال: حج عثمان ومعاوية - رضي الله عنهما - معه، فأمره عثمان رضي الله عنه،*

فتكلم فقال: يا أيها الناس، إنكم قد اجتمعتم في أعظم حرمة لله، والله لا أقول في مقامي هذا إلا حقا هيبة لله وحرمته، وخيفة من الله

وذكر السند كما يلي «حدثني عبد الله بن أحمد بن شبويه قال حدثني أبي قال حدثني عبد الله عن اسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة قال ...»

وعقوبته، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين قد أنعم الله عليهم في أنفسهم، وأنعم على المسلمين بهم، فهم ولاة هذا الامر ما بقي منهم إنسان، وهذان البلدان - المدينة ومكة - خير البلدان، فالتابعون ينظرون إلى السابقين، والبلدان ينظرون إلى هذين البلدين، وإني قد رأيتكم بطرتم نعمكم، ونشبتم في الطعن على إمرتكم، وإني والله ان صفقت إحدى يدي على الأخرى لم يقم السابقون للتابعين، ولا البلدان على البلدان وما هم في الناس إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، فلا ينزعن أمركم من أيديكم، ولا يخرجن من بين أظهركم، فإياكم إياكم، فرب أمر يستأنى فيه وإن كره خيفة لما في عاقبته»

وفي رواية اخرى عن الهيثم بن عدي ان معاوية خاطب أهل المدينة *«فقال معاوية: يا أهل المدينة إن قولكم اليوم سنة على من سواكم، وحكم على من خالفكم، وقد خلى الناس بينكم وبين أمركم في هذا الرجل، فإن تركتموه حتى يمضي قام الامر فأقمتم به، وكان لكم وإليكم، وإن أمضيتموه وأقمتم أنهمكم الناس على حكمكم وحكموا عليكم، وإن الفتنة تنبت على ثلاث: على التنخون ثم السكون ثم الخلع وهي العظمى، وفيها يصير الصغير كبيرا والشريف وضيعا، ويقول فيها من لم يكن يسمع منه فيسمع له، ولا يقال معه»*

ويلاحظ في عموم الروايات مدى انزعاج الامام علي وغضبه من كلام معاوية، ورفضه الشديد الدخول في مناقشات معه تتعلق بمستقبل الخلافة وشؤونها. والروايات تجمع أن الامام عليا كان يواجه معاوية بكلام حاد جارح.

وهناك رواية لدى ابن شبة تفيد بأن معاوية لجأ الى استفزاز الإمام علي *«حدثنا محمد بن حاتم قال، حدثنا نعيم بن محمد قال، حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت قال:*

قال معاوية لعلي رضي الله عنهما: لو تنحيتَ ؟ فإن هذا الرجل إن أصيب اتهموك!

فقال علي رضي الله عنه: يا قاص كذا وكذا، مالك وما هناك؟.

فقال معاوية رضي الله عنه: لا تشتم أمي فإنها ليست بدون أمهاتكم»

وتوجد رواية أخرى تذكر مواجهة بين الامام علي ومعاوية امام القيادات الأموية كلها «حدثنا أحمد بن معاوية قال، حدثنا الهيثم بن عدي، عن ابن عياش قال، قال عبد الله بن عباس: قدم سعيد بن العاص من الكوفة حاجا فمرض بمكة، فدخل عليه (علي رضي الله عنه) يعوده وعنده معاوية، وعبد الله بن عامر، وعبد الله بن خالد بن أسيد، فأوسعوا له عند رأسه، فسأله، فلما فرغ قال له معاوية: أبا حسن، إني قائل لك قولا فإن كرهته فاصبر على ما تكره منه فإن من ورائه ما تحب، إنه والله ما صاحبنا غيرك، ولو سكتّ عنا ما نطق من قال معك، وما يغضب أمرنا إلا بك، وإن الذين معك اليوم لعليك غدا، ولئن لا يشنأك لنكونن أحب إليهم منك، وباطلنا أحب إليهم من حقك، إنك والله ما أنت بقوي على ما تريد، ولا نحن بضعفاء عما نطالب.

فقال علي: يا معاوية أفتراني أقعد أقول وتقول! ! ثم خرج.

قال ابن عباس، فلقيته فعرفت الغضب في وجهه، فدخلت على سعيد بن العاص فسألته، ثم قلت لهم: كأنكم أنفرتم شيخكم! فقال معاوية: أردنا تسكينه فنفر. فقلت: ولم؟ فوالله إنه لوقور غيور يسبق بغير مضغ، فإياكم يا بني أمية. لا تمثلوا به فيمثل بكم.»

كما اهتم ابن قتيبة في الامامة والسياسة بخطاب معاوية التحذيري.

فروى اولا «قدم معاوية بن أبي سفيان على إثر ذلك من الشام، فأتى مجلساً فيه علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعمار بن ياسر.

فقال لهم: يا معشر الصحابة! أوصيكم بشيخي هذا خيراً. فوالله لئن قتل بين أظهركم لأملأنها عليكم خيلاً ورجالا!،

ثم أقبل على عمار بن ياسر فقال: يا عمار! إن بالشام مئة ألف فارس، كلٌ يأخذ العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون علياً ولا قرابته،

ولا عماراً ولا سابقته، ولا الزبير ولا صحابته، ولا طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله، ولا يتقون سعداً ولا دعوته!

فإياك يا عمار أن تقعد غداً في فتنة تنجلي، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي»[1]

وقد أورد ابن قتيبة الرواية على نحو آخر. وفيه أن عثمان قد دعا كبار الصحابة بعدما عاتبوه وطلب منهم أن يسمعوا إلى معاوية «*فإن ابن عمي معاوية هذا قد كان غائباً عنكم وعما نلتم مني، وما عاتبتكم عليه وعاتبتموني. وقد سألني أن يكلمكم وأن يكلمه مَن أراد.*

فقال سعد بن أبي وقاص: وما عسى أن يُقال لمعاوية أو يقول، إلاّ ما قلتَ أو قيل لك؟

فقال علي: ذلكم تكلم يا معاوية.»

فذكر معاوية كلاما طويلاً عن الرسول وأبي بكر وعمر وعثمان إلى أن وصل إلى بيت القصيد وهو التهديد وتذكير الصحابة بأن الزمان قد تغيّر «*مهلاً مهلاً معشر المهاجرين! فإن وراءكم مَن إن دفعتموه اليوم اندفعَ عنكم، ومَن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفَعَكم بأشدّ من ركنكم وأعدّ من جمعكم، ثم استنّ عليكم بسنّتكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي...*

فقال علي بن أبي طالب: كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء! لستَ كذلك»

ثم استمر معاوية فذكر كلاماً حول مكة والمدينة وكيف أن الأمصار تشخص ببصرها إليهما إلى أن قال «*وليُسلبنّ أمركم وليُنقلنّ المُلكُ من بين أظهركم. وما أنتم في الناس إلاّ كالشامة السوداء في الثور الابيض. فإني رأيتكم نشبتم في الطعن على خليفتكم وبطرتم معيشتكم وسفّهتم أحلامكم*»

واضحٌ من موقف وكلام عليّ بن أبي طالب، وكذلك سعد بن أبي وقاص، أن كبار الصحابة حتى تلك اللحظة لم يكونوا يعتبرون أن من حق

(1) وربما ورد اسم عبد الرحمن بن عوف بين كبار الصحابة على سبيل الخطأ من الراوي، لأنه كان متوفياً في ذلك الوقت.

معاوية حتى أن يثير مواضيع الخلافة والحكم للنقاش. ولم يعتبروه مؤهلا أصلاً للكلام بهذه الأمور بوجود عثمان ووجودهم.

وقد أخرج الطبري في تاريخه خطبة معاوية هذه بروايتين: الاولى تم ذكرها

والثانية هي رواية سيف بن عمر وفيها ان معاوية قبيل عودته الى الشام خاطب نفراً من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي فقال «*انكم قد علمتم ان هذا الأمر كان إذا الناس يتغالبون الى رجال، فلم يكن منكم أحد إلاّ وفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الأمر دونه ولا يشهده ولا يؤامره*

حتى بعث الله جل وعز نبيه (ص) وأكرمَ به مَن اتّبعه، فكانوا يرأسون مَن جاء من بعده، وأمرهم شورى بينهم، يتفاضلون بالسابقة والقدمة والاجتهاد. فإن أخذوا بذلك وقاموا عليه كان الأمر أمرهم، والناس تبعٌ لهم، وإن أصغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك، وردّه الله الى مَن كان يرأسهم، وإلاّ فليحذروا الغير، فإن الله على البدل قادر وله المشيئة في ملكه وأمره .

إني قد خلفتُ فيكم شيخاً فاستوصوا به خيراً وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك .

ثم ودعهم ومضى.

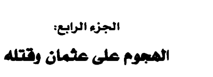
فقال علي: ما كنتُ أرى أن في هذا خيراً . فقال الزبير: لا والله ما كان قط أعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة»[1]

وتكمن اهمية خطاب معاوية التحذيري في كونه يوضح بجلاء أن معاوية كان يتوقع تلك النهاية المأساوية لعثمان ويستعد لها. وهو يفسر فلسفة معاوية: إن أصبح الأمرُ أمرَ غلبة فأنا لها!

(1) وهذه الرواية أخرجها ابن عساكر في تاريخ دمشق عن سيف بن عمر بسنده وقد قال الطبري وابن عساكر في ذكر السند «*وشاركهم من هذا المكان أبو حارثة وأبو عثمان عن رجاء بن حياة وغيره*»

فلم يكن بإمكان معاوية، الذكي واللمّاح، والذي أصبح رجلَ النظام القوي في عهد عثمان، ألاّ يلاحظ خطورة التطورات التي كانت تجري في السنوات الأخيرة من خلافة عثمان. كان معاوية يستشعر جدّية الاضطرابات التي أخذت تعصف بعدّة أقاليم من دولة الخلافة ومدى التهديد الذي تمثله مشاعر الاستياء والغضب الشعبي من سياسة الخليفة والتي تجتاح عرض البلاد وطولها. وفوق ذلك، كان معاوية يشعر أن عثمان قد خلق حاجزاً معيناً بينه وبين طبقة كبار الصحابة بسبب اعتماده الكلي على عائلته هو بالذات، وأن الخليفة بالتالي لم يعد يتمتع بالتأييد المناسب من هؤلاء. وربما قدّر معاوية أن الصحابة من جماعة الشورى يتوقعون أن يأتيهم الدور في خلافة العجوز عثمان، إن وافاه الأجل أو حصل له مكروه. فقرر معاوية أن يضع النقاط على الحروف ويُطلق إشارة تحذير لمن يهمه الأمر.

إن معاوية، الواقعي والعارف بتحولات مراكز القوى، أراد أن يذكّر الصحابة من ذوي الشرعية الإسلامية، أن الزمان تغير، وأن عليهم أن يعوا ذلك ويراعوا المستجدات على الأرض. وفي خطاب معاوية ذاك تصريحٌ بأنه سيحترم الشرعية فقط إن هي استمرّت على هواه، وأنه لن يسمح بالمسّ بامتيازات بني أمية التي تأصّلت في عهد عثمان على يد مجموعةٍ أصبحت «كالشامة السوداء في الثور الأبيض» !



الجزء الرابع:

الهجوم على عثمان وقتله

الفصل الاول: الهجوم على الخليفة

كان الأمر في البداية أشبه بمسيرة منظمة، إحتجاجية، ومسلحة. في موسم الحج من عام 35، كان من ضمن الوفود التي أمّت المدينة المنورة لأداء المناسك مجموعاتٌ من الذين جاؤوا وقد قرروا أن يستغلوا الموسم بهدف الاحتجاج المباشر على ما يَرَونه سياسات منحرفة للخليفة.

من هم الثوار[1]؟

كان هؤلاء المحتجون من عدة أمصار: البصرة، الكوفة ومصر. وكانوا أساساً من الذين طفح بهم الكَيل ولم يقدروا على الاستمرار في تحمّل ما اعتبروه ظلماً صارخاً وفساداً مفضوحاً يمارسه الجهاز الحاكم. وكان البارزون منهم قد سبق وتعرّضوا إلى عقوباتٍ بشكل أو بآخر على يد ولاة عثمان.

ويلاحظ أن هؤلاء الثوار كانوا ينتمون الى طيف واسع من ابناء القبائل العربية. ومن الصعب ملاحظة تكتل كبير لقبيلة بعينها في صفوفهم، بل على العكس فهم كانوا ينحدرون من مناطق وقبائل متباينة ومتباعدة. فقد كان بينهم اليمانيون والعدنانيون، البدو والحضر، بل ضموا حتى عناصر من قريش وخزاعة.

---

(1) مصادر البحث: الاستيعاب لابن عبد البر (ص 130+451+503+647)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج6 ص25 و ج3 ص65+71)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص309 و ج4 ص100)، تاريخ الطبري (ج3 ص386-405)، انساب الاشراف للبلاذري (ج6 ص174)، تاريخ خليفة بن خياط (ص124)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص 256+260)، الاصابة لابن حجر (ج1 ص622) ،الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص55-57)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج1 ص89 و ج3 ص350) و تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175).

وكان بعضهم ممن يمكن القول انه ينتمي الى الطبقة العريضة لصحابة النبي(ص)

مثل جهجاه الغفاري الذي قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «*يقال: انه شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة. وكان قد شهد مع رسول الله(ص) غزوة المريسيع، وكان يومئذ أجيراً لعمر بن الخطاب، ووقع بينه وبين سنان بن وبرة الجهني في تلك الغزاة شر فنادى جهجاه الغفاري: يا للمهاجرين! ونادى سنان: يا للأنصار ! وكان حليفاً لبني عوف بن الخزرج، فكان ذلك سبب قول عبد الله بن ابي بن سلول في تلك الغزوة (لئن رجعنا الى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل).... مات بعد عثمان رضي الله عنه بيسير*»[1]

وأضاف يقول عنه «*وروي أن جهجاه هذا هو الذي تناول العصا من يد عثمان وهو يخطب. فكسرها يومئذ. فأخته الأكلة في ركبته، وكانت عصا رسول الله(ص)*»

وكذلك عمرو بن الحَمِق الخزاعي. فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «*هاجر الى النبي(ص) بعد الحديبية، وقيل: بل أسلم عام حجة الوداع. والأول أصحّ.*

صحبَ النبي(ص) وحفظ عنه أحاديث، وسكن الشام، ثم انتقل الى الكوفة فسكنها.

.... وكان ممن سار الى عثمان. وهو أحد الأربعة الذين دخلوا عليه الدار فيما ذكروا....»[2]

وقال عنه ابن سعد في الطبقات الكبرى «*صحِبَ النبي(ص) ونزل الكوفة. وشهد مع علي رضي الله عنه مشاهده. وكان فيمن سار الى عثمان وأعان على قتله...*»

---

(1) وذكر ابن حجر العسقلاني في الاصابة نفس هذه المعلومات حول جهجاه بن سعيد الغفاري، وذكر قيامه بالاعتداء على عثمان وانتزاع عصاه من يده وهو على المنبر وكسرها، ولكن دون أن يقول انها «عصا رسول الله»

(2) وأكد ابن الاثير في اسد الغابة نفس هذه المعلومات وأضاف عنه «*صحب النبي(ص) وحفظ عنه أحاديث*»

وكذلك عبد الرحمن بن عديس البلوي. قال عنه ابن الأثير في أسد الغابة «*له صحبة. وشهد بيعة الرضوان وبايع فيها.*

وكان امير الجيش القادمين من مصر لحصر عثمان بن عفان رضي الله عنه لما قتلوه...»[1]

وايضا محمد بن ابي بكر الصديق. فقد قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب انه ولد عام حجة الوداع وانه نشأ في حجر علي بن ابي طالب بعد ان تزوج امّه أسماء بنت عميس «*وكان علي بن ابي طالب يثني على محمد بن ابي بكر، ويفضله، لأنه كانت له عبادة واجتهاد. وكان ممن حضر قتل عثمان*»[2]

الثوار المصريون: عند البحث عن أسمائهم نجد أن الطبري في تاريخه يخرج ثلاث روايات :

فعن ابن اسحق «*وكان أهل مصر الذين ساروا الى عثمان 600 رجل على أربعة ألوية، لها رؤوس أربعة، مع كل رجل منهم لواء. وكان جماع أمرهم جميعاً الى عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي -وكان من أصحاب النبي(ص)- والى عبد الرحمن بن عديس التجيبي*»[3]

وذكر الواقدي عن المصريين «*وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي -وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحمق- وابن النباع*»

وأما سيف بن عمر فقال «*خرج أهل مصر في اربع رفاق على اربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة، والمكثر يقول ألف. على الرفاق: عبد الرحمن*

---

(1) وكذلك ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب

(2) وقد كان من المقربين من الامام علي بن ابي طالب، وسيأتي الحديث عن دوره خلال فترة حكمه. وهناك شهادات قيمة جدا بحقه من الامام علي، ومنها ما قاله لما بلغه خبر مقتله (كما في نهج البلاغة، بشرح محمد عبده) فقال: «*.. فإن مصر قد افتتحت ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فعند الله نحتسبه ولدا ناصحاً وعاملا كادحاً وسيفا قاطعاً وركنا دافعاً ..*» وقال في مناسبة أخرى عنه (نهج البلاغة، بشرح محمد عبده): «*.. ولقد كان إليّ حبيباً وكان لي ربيبا*»

(3) يخطئ ابن اسحق حين ينسب عبد الرحمن بن عديس بقوله «التجيبي» لأن هناك اجماعاً بين كل من سواه على أنه «البلوي».

بن عديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي، وسودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني. وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترؤوا ان يعلموا الناس بخروجهم الى الحرب وإنما أخرجوا كالحجاج، ومعهم ابن السوداء»

وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري فتقول «*وجاء أهل مصر وهم 400، ويقال 500، ويقال 700، ويقال 600. عليهم أربعة امراء: أبو عمرو بن بديل بن ورقاء بن عبد العزى الخزاعي على ربع، وعبد الرحمن بن عديس البلوي على ربع، وكنانة بن بشر التجيبي على ربع، وعروة بن شييم بن البياع الكناني ثم الليثي على ربع*»

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن جابر بن عبد الله ان القادمين من مصر :

«*كان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وابن البياع، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق)*»

وفي رواية أخرى له عن الواقدي عن ابي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال «*كان المصريون الذين حصروا عثمان 600، رأسهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وعمرو بن الحمق الخزاعي*»

وقال اليعقوبي في تاريخه عن الثوار المصريين «*وكان من يأخذون عنه محمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، وكنانة بن بشر، وابن عديس البلوي*»

وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «*فخرج من اهل مصر 700 رجل*» ثم يتحدث بالتفصيل عن نشاطهم في المدينة بقيادة محمد بن ابي بكر وجدالهم مع الخليفة وساطة الصحابة ثم رجوعهم الى مصر، حتى اكتشفوا رسول عثمان الى عامله بمصر وعودتهم للمدينة مرة أخرى، ثم أضاف «*وأقبل ابن ابي حذيفة من مصر في 400 رجل*»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه «*قدم أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي*»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «*فخرج من اهل مصر 700 رجل فيهم اربعة من الرؤساء: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وكنانة بن بشر بن عتاب الكندي، وسودان بن حمران المرادي*»

وبشأن ثوار الكوفة :

قال الواقدي (الطبري) «*وقدم الاشتر في اهل الكوفة*»

قال سيف بن عمر (الطبري) «*وخرج أهل الكوفة في اربع رفاق، وعلى الرفاق: زيد بن صوحان العبدي، والاشتر النخعي، وزياد بن النضر الحارثي، وعبد الله بن الاصم -أحد بني عامر بن صعصعة- وعددهم كعدد أهل مصر. وعليهم جميعاً عمرو بن الاصم*»

وأما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقال «*ثم أقبل الاشتر النخعي من الكوفة في الف رجل*»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «*وخرج من الكوفة عدي بن حاتم الطائي والاشتر مالك بن الحارث النخعي في 200 رجل*»[1]

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «*وأهل الكوفة فيهم الاشتر مالك بن الحارث النخعي*»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن ابي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال «*والذين قدموا من الكوفة 200، رأسهم مالك الاشتر النخعي*»

---

(1) وسياق روايته يشير الى قدوم هؤلاء بعد ان كان الثوار المصريون قد عادوا للمدينة بسبب كتاب عثمان لعامله. فكأن هؤلاء جاؤوا لمؤازرتهم. والرواية تذكر اسم عدي بن حاتم الطائي، وهذا خطأ من ابن حبان لأن عدياً لم يشارك في الهجوم على عثمان ولا في حصاره وقتله.

وبشأن الثوار البصريين :

قال الواقدي (الطبري) «وقدم حكيم بن جبلة من البصرة في ركب»

قال سيف بن عمر (الطبري) «وخرج اهل البصرة في اربع رفاق، وعلى الرفاق: حكيم بن جبلة العبدي، وذريح بن عباد العبدي، وبشر بن شريح الحطم بن ضبيعة القيسي، وابن المحرش بن عبد بن عمرو الحنفي. وعددهم كعدد أهل مصر. وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي»

وقال أبو مخنف (البلاذري) «وخرج حكيم بن جبلة العبدي في 100 ولحق به بعد ذلك 50 فكان في 150»

وفي رواية لابن سعد في الطبقات الكبرى عن الواقدي عن ابي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي قال «والذين قدموا من البصرة 100 رجل رأسهم حكيم بن جبلة العبدي»

وقال ابن حبان في كتاب الثقات «وخرج من البصرة حكيم بن جبلة العبدي في 100 رجل، حتى قدموا المدينة يريدون خلع عثمان»

وقال خليفة بن خياط في تاريخه عن الثوار «وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدي»

ومن اجمالي الروايات يمكن القول ان العناصر القيادية الفاعلة في صفوف الثوار كانت محمد بن ابي بكر، والاشتر النخعي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي وحكيم بن جبلة العبدي. فهؤلاء كانوا يتصدرون النقاشات والجدالات ويعرضون المطالب ويبرمون التفاهمات بالنيابة عن عموم الثوار.

ولا يصح وصف الثوار بأنهم مجموعات من الأوباش والأوغاد والعبيد الآبقين، كما سيرد وصفهم على لسان السيدة عائشة والزبير بن العوام أو في روايات سيف بن عمر.

هل كانت هناك مؤآمرة يهودية؟!

تذهب روايات سيف بن عمر في تاريخ الطبري الى أن التمرد الذي

حصل في الأمصار ضد الخليفة عثمان وأدى في نهاية المطاف الى مقتله كان نتيجة لمؤامرة يهودية خبيثة حبك خيوطها شخص اسمه عبد الله بن سبأ. وابن السوداء هذا – كما يشار له احياناً – كان يهودياً من اليمن فأظهر الاسلام نفاقاً في عهد عثمان من أجل الكيد للإسلام وأهله. وتقول روايات سيف أن ابن سبأ هذا قد تنقل ما بين المدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وبث الاشاعات والأباطيل حول الخليفة وولاته وأنه نجح في تكوين أتباع كثر له في كل مكان بمن فيهم صحابة كبار كعمار بن ياسر وأبي ذر الغفاري، وبالتالي أثار القلاقل وأشعل الفتنة في ديار الاسلام بعد ان كان الناس في خير ووئام. والنظرية الكامنة وراء قصة ابن سبأ هي أنه ليست هناك أسباب موضوعية للتمرد والثورة بل ان كل ما حصل لا يعدو كونه تآمر شيطاني على الخليفة الراشد عثمان.

وانا ارى ان هذا الكلام يبلغ من السخافة حداً يجعله غير جدير بالبحث الجدي. وقد استعرضنا في الفصول السابقة العوامل الموضوعية التي سببت الاضطراب في مصر والعراق بتفاصيلها. كما يمكن الرجوع الى فصل مشكلة ابي ذر الغفاري من هذا الكتاب للاطلاع على نموذج من روايات سيف عن ابن سبأ وتفنيدنا لها. كما قمنا بتفنيد مجموعة أخرى من روايات سيف بن عمر تتعلق بالوليد بن عقبة وابن ابي السرح وعمار بن ياسر وابن مسعود وسعيد بن العاص وغيرهم من الشخصيات وما يتعلق بها من أحداث.

ولن استرسل هنا في الحديث عن روايات المؤآمرات التي حاكها ابن سبأ في الأمصار لأنها ببساطة مضيعة للوقت وإهانة للعقل. فلم تكن هناك مؤآمرة يهودية ولا ابن سبأ، وكل ذلك وهمٌ وخرافة.

ولكن هذا لا ينفي إمكانية حصول نوع من التنسيق العملي بين صفوف المتمردين القادمين من الأمصار الثلاثة. فذلك طبيعي لأن الجميع لهم مطالب متشابهة وهم قد جاؤوا ولديهم قضية واحدة وهي الاصلاح والتغيير. بل إنني أسمح لنفسي بقبول رواية لأبي مخنف تشير الى حصول نوع من التنسيق المسبق بين نشطاء من المعارضين قبل سنة من الهجوم على الخليفة.

روى البلاذري في أنساب الأشراف «*حدثني عباس بن هشام الكلبي عن أبيه عن أبي مخنف في إسناده قالوا :*

التقى اهل الأمصار الثلاثة، الكوفة والبصرة ومصر، في المسجد الحرام قبل مقتل عثمان بعام. كان رئيس أهل الكوفة كعب بن عبدة النهدي، ورئيس اهل البصرة المثنى بن مخربة العبدي، ورئيس أهل مصر كنانة بن بشر بن عتاب بن عوف السكوني ثم التجيبي.

فتذاكروا سيرة عثمان وتبديله وتركه الوفاء بما اعطى من نفسه وعاهد الله عليه. وقالوا: لا يسعنا الرضى بهذا ! فاجتمع رأيهم على أن يرجع كل واحد من هؤلاء الثلاثة الى مصره فيكون رسولً من شهد مكة من اهل الخلاف على عثمان الى من كان على مثل رأيهم من اهل بلده. وأن يوافوا عثمانَ في العام المقبل في داره فيستعتبوه، فأن اعتبَ وإلاّ رأوا رأيهم فيه. ففعلوا ذلك»

وهذه رواية مثيرة للاهتمام وأنا أقبلها رغم تحفظي على الاسماء: فقد مر بنا أن كعبَ بن عبدة كان شاباً صغير السن حين كتب رسالته الى عثمان فلا يصح وصفه بـ«رئيس اهل الكوفة» إلاّ إذا كان المقصود مندوباً عن نشطاء أهل الكوفة. وكذلك مندوب البصرة «المثنى بن مخربة» لم أجد له ذكراً واضحاً في تطورات الأحداث.

وفي هذا السياق هناك رواية مثيرة أخرى لدى البلاذري (أنساب الأشراف)، عن الواقدي هذه المرة. تقول *«لما كانت سنة 34 كتب بعض أصحاب رسول الله (ص) الى بعض، يتشاكون سيرة عثمان وتغييره وتبديله، وما الناسُ فيه من عماله، ويُكثرون عليه، ويسأل بعضهم بعضاً أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد»*

ولم توضح هذه الرواية من هم هؤلاء الصحابة الذين يتبادلون الرسائل للشكوى من عثمان. ويبدو السياق وكان نوعاً من الاستنجاد يصدر من داخل المدينة الى الأمصار من أجل التحرك ضد الخليفة. وأنا أستبعد أن يكون كبار الصحابة القرشيين (طلحة، الزبير، سعد) أو الامام علي أو زوجات النبي لهم علاقة بتلك الكتب. فربما تكون شخصيات ثانوية من الصحابة، من الأنصار بالذات، بادروا بالكتابة والتحريض ضد عثمان.

وعلى كل حال، تشير الرواية الى نوع من الحراك والتململ كان يحدث حتى في عاصمة الخلافة.

مطالب الثائرين[1]

وبدأ الثوار العمل بحذر وعلى مراحل. ومن المرجح أن هدفهم في البداية لم يكن قتل عثمان ولا حتى خلعه، بل تقديم مطالبهم وعرض مطاعنهم والطلب منه بحزم أن يغير سياسته والحصول على ضمانات بذلك. وعلى الرغم من أن وفد المحتجين لم يكن سلمياً، إلاّ أنه يمكن القول أنه لم تكن هناك نية مسبقة باستخدام القوة ضد الخليفة. فلو أنهم كانوا قد جاؤوا لقتل الخليفة لفعلوا ذلك من اليوم الأول لوصولهم لأنه لم يكن هنالك عائق مادي مؤثر يحول دون ذلك. فليس الأمر اغتيالاً أو جريمة قتل لفرد.

وهناك في المصادر نصوص كثيرة تذكر مطالب المتمردين من عثمان. ولكنها متداخلة جدا ومبعثرة. والظاهر أيضا ان الثائرين أنفسهم كانت مطاليبهم كثيرة ومتنوعة، وأن المفاوضات مع عثمان كانت شاقة للغاية بسبب كثرة النقاط المثارة.

وفي الاجمال لم يكن عثمان يصرّ كثيراً على صوابية مواقفه ولم يكابر كثيرا، بل كان يقرّ بأخطائه ويطلب المغفرة من الله عليها! والنص التالي من الامامة والسياسة مثال على ذلك:

«فقام إليه رجلٌ من المهاجرين فقال له: يا عثمان، أرأيتَ ما حميتَ من الحمى: آلله أذِنَ لكم أم على الله تفترون (يونس 59)؟

فقال عثمان: إنه قد حَمى الحِمى قبلي عمرُ لإبل الصدقة. وإنما زادت فزدت.

فقام عمرو بن العاص فقال: يا عثمان: إنك ركبتَ بالناس نهابير من الأمر فتب إلى الله يتوبوا.

---

(1) مصادر البحث: الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص52)، نهج البلاغة، شرح محمد عبده(ج2 ص212)، تاريخ خليفة بن خياط (ص -124-125)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج3 ص1136-1137)، البداية والنهاية لابن كثير (ج 7 - ص 191 - 192-193) وتاريخ الطبري (ج3 ص393، 391، 396، 403، 404 و408) وأنساب الاشراف للبلاذري (ج6 ص180)

فرفع عثمان يديه وقال: توبوا من كل ذنب، اللهم إني أول تائبٍ إليك.

ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا عثمان! ما بال هؤلاء النفرَ من أهل المدينة يأخذون العطايا ولا يغزون في سبيل الله؟! وإنما هذا المال لمن غزا فيه وقاتل عليه، إلاّ مَن كان من هذه الشيوخ من أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام.

فقال عثمان: فأستغفر اللهِ وأتوب إليه. ثم قال: يا أهل المدينة! مَن كان له منكم ضرعٌ فليلحق بضرعه، ومَن كان له زرع فليلحق بزرعه، فإنا والله لا نعطي مال الله إلاّ لمن غزا في سبيله، إلاّ مَن كان من هذه الشيوخ من الصحابة.

قال: فما بال هذا القاعدِ الشارب لا تقيم عليه الحد (يعني الوليد بن عقبة)؟

فقال عثمان لعليّ: دونك ابن عمك فأقم عليه الحد...»[1]

ولدى خليفة بن خياط في تاريخه ورد النص عن ابي سعيد مولى ابي اسيد الانصاري :

«سمع عثمان ان وفد أهل مصر قد أقبلوا فاستقبلهم فقالوا: ادعُ بالمصحف. فدعا به.

فقالوا: افتح السابعة. وكانوا يسمون سورة يونس السابعة.

فقرأ حتى أتى هذه الآية (قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون) فقالوا له: قف! أرأيتَ ما حميتَ من الحمى؟ آلله أذن لك أم على الله تفتري؟ قال: امضِه. نزلت في كذا وكذا. أما الحمى فإن عمر حماه قبلي لإبل الصدقة فلما وليتُ زادت إبل الصدقة فزدتُ في الحمى لما زاد من ابل الصدقة. امضه.

قال فجعلوا يأخذونه بالآية فيقول: امضه. نزلت في كذا فما يريدون؟

---

(1) وما قاله الرجل من المهاجرين والاخر من الانصار، هو انعكاس لما يقوله ويطالب به الثوار، وإن جاء على لسانهما حسب هذه الرواية. وهنا يبدو صاحب الامامة والسياسة وقد جمع بين روايات من أزمان مختلفة في سياق واحد. فإقامة الحد على الوليد بن عقبة حصلت قبل عدة سنوات من المجادلات التي رافقت الهجوم على عثمان.

فأخذوا ميثاقه وكتبوا عليه ستاً، وأخذ عليهم ألاّ يشقوا عصا ولا يفارقوا جماعة ما أقام لهم شرطهم.

ثم رجعوا راضين...»[1]

وفي بعض الأحيان كان الخليفة ينجح في الدفاع عن نفسه وتفسير بعض قراراته مثلما حصل حين أثار بعضهم قضية حرق المصاحف.

والنص التالي من تاريخ المدينة لابن شبة مثال على ذلك :

«.. *عن عروة بن الزبير قال: قدم المصريون فلقوا عثمان رضي الله عنه*

فقال: ما الذي تنقمون ؟

قالوا: تمزيق المصاحف.

قال: إلى الناس لما اختلفوا في القراءة خشي عمر رضي الله عنه الفتنة فقال: من أعرب الناس ؟ فقالوا: سعيد بن العاص. قال: فمن أخطهم ؟ قالوا: زيد بن ثابت. فأمر بمصحف فكتب بإعراب سعيد وخط زيد، فجمع الناس ثم قرأه عليهم بالموسم فلما كان حديثا كتب إلي حذيفة: إن الرجل يلقى الرجل فيقول: قرآني أفضل من قرآنك حتى يكاد أحدهما يكفر صاحبه، فلما رأيت ذلك أمرت الناس بقراءة المصحف الذي كتبه عمر رضي الله عنه، وهو هذا المصحف، وأمرتهم بترك ما سواه، وما صنع الله بكم خير مما أردتم لأنفسكم.

وما تنقمون ؟

قالوا: حميتَ الحمى. وذكروا أهل البوادي وما يلقون من نعم الصدقة.

فقال: إن وجدتم فيه بعيرا لآل أبي العاص فهو لكم.

وما تنقمون أيضا ؟

قالوا: تعطيل الحدود.

---

(1) ويلاحظ أن هذه الرواية متعاطفة مع عثمان، وتشير الى قدرته على تفنيد كل التهم بنجاح حتى «رجعوا راضين» ! كما تتجاهل ذكر الشروط الستة التي كتبها الثائرون على عثمان.

قال: وأي حد عطلت ؟ ! ما وجب حد على أحد إلا أقمته عليه، وأنا أستغفر الله من كل ذنب وأتوب إليه ..»

ويمكن تلخيص المطالب التي عرضها الثوار على النحو التالي[1]:

• مواضيع تتعلق بالسياسات المحلية المتبعة في الأقاليم

وقف ممارسات الولاة القمعية وظلمهم

وقف اجراءات النفي والطرد بحق أفاضلهم

عزل ولاتهم، وخاصة ابن أبي السرح في مصر، واستبدالهم بأشخاص يفضلونهم

• مواضيع تتعلق بالسياسات العامة على مستوى الدولة

وقف ابتزاز ونهب بيت المال

ضرورة تطبيق العدالة في العطاء، وإنصاف الفئات المحرومة

وقف تعيين أقرباء عثمان وأبناء عائلته على الأعمال

رفض الاعتداء على صحابة ذوي فضل وسابقة ومعاقبتهم[2]

وهنا لا بد من التعليق والقول إن المطالب التي عَرَضها المتمردون تعبيرٌ حقيقيٌ عن روحية الإسلام الصافية. وبغضّ النظر عن صفاء نواياهم أو مدى صدقهم، فأن طروحاتهم كانت إسلامية تماماً. ولا يمكن لأحدٍ أن يجادل في حق الرعية في وجود ولاة صالحين لإدارة الدولة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ضرورة المحافظة على المال العام. والذي يشكو منه هؤلاء المتمردون من مظالم كان حقيقياً وملموساً. وفي كل المفاوضات التي جرت مع الخليفة،

(1) يمكن مراجعة فصل «التمرد في مصر» و«ممارسات ابن ابي السرح» للوقوف على مجموعة من النصوص التي أوردناها من تاريخ الطبري وابن شبة وابن قتية وابن حبان المتعلقة بالتهم الموجهة الى عثمان ومطالب المعترضين على سياسته.

(2) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الثوار قالوا لعثمان وهو محاصر «إنك *ضربتَ رجالاً من أصحاب النبي(ص) وغيرهم حين يعظونك ويأمرونك بمراجعة الحق عند من يستكرون من أعمالك، فأقد من نفسك من ضربته وانت له ظالم. فقال: الامام يخطئ ويصيب فلا أقيد من نفسي...»*.

كان عثمان إعتذارياً في خطابه معهم ولم يكن يجادل في صوابية مطالبهم من حيث المبدأ.

فباختصار كان المتمردون يطالبون بالإصلاح، وبتعديل المسيرة، والعودة إلى زمن الزهد والعدل. وكانوا باحتجاجهم القوي ذاك يعلنون أنهم لن يقبلوا أن تستمر الأحوال على ما هي عليه.

ماذا كتب ابن كثير؟

قال في البداية والنهاية :

«...فانطلق علي بن أبي طالب إليهم وهم بالجحفة، وكانوا يعظمونه ويبالغون في أمره، فردهم وأنبهم وشتمهم. فرجعوا على أنفسهم بالملامة، وقالوا: هذا الذي تحاربون الأمير بسببه، وتحتجون عليه به ؟!

ويقال إنه ناظرهم في عثمان، وسألهم ماذا ينقمون عليه، فذكروا أشياء منها أنه حمى الحمى، وأنه خرق المصاحف، وأنه أتم الصلاة وأنه ولى الاحداث الولايات وترك الصحابة الأكابر وأعطى بني أمية أكثر من الناس.

فأجاب عليٌّ عن ذلك: أما الحمى فإنما حماهُ لابل الصدقة لتسمن، ولم يحمِهِ لابلِه ولا لغنمِهِ وقد حماهُ عمرُ من قبله. وأما المصاحف فإنما حرق ما وقع فيه اختلاف، وأبقى لهم المتفق عليه، كما ثبت في العرضة الأخيرة. وأما إتمامه الصلاة بمكة، فإنه كان قد تأهل بها ونوى الإقامة فأتمها. وأما توليته الاحداث فلم يولّ إلا رجلا سويا عدلا، وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة وهو ابن عشرين سنة، وولى أسامة بن زيد بن حارثة. وطعن الناس في إمارته فقال إنه لخليق بالامارة. وأما إيثاره قومه بني أمية، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤثر قريشا على الناس، ووالله لو أن مفتاح الجنة بيدي لأدخلت بني أمية إليها!

ويقال إنهم عتبوا عليه في عمار ومحمد بن أبي بكر، فذكر عثمان عذره في ذلك، وأنه أقام فيهما ما كان يجب عليهما. وعتبوا عليه في إيوائه الحكم بن

أبي العاص، وقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد نفاه إلى الطائف ثم ردّه، ثم نفاه إليها، قال فقد نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ردّه، وروى أن عثمان خطب الناس بهذا كله بمحضر من الصحابة، وجعل يستشهد بهم فيشهدون له فيما فيه شهادة له. ويروي أنهم بعثوا طائفة فشهدوا خطبة عثمان هذه، فلما تمهدت الاعذار وانزاحت عللهم ولم يبق لهم شبهة، أشار جماعة من الصحابة على عثمان بتأديبهم فصفح عنهم، رضي الله عنه. وردهم إلى قومهم فرجعوا خائبين من حيث أتوا، ولم ينالوا شيئاً مما كانوا أملوا وراموا»

وهذا نصٌ عجيبٌ غريبٌ يورده ابن كثير دون ذكر مصدره (ويُقال). ومؤلف هذا النص يصرّ على ان علياً بن ابي طالب بالذات هو مَن يقوم بالدفاع عن كل سياسات الخليفة عثمان، ويفند المآخذ عليه واحداً تلو الآخر، بما في ذلك دفاعه عن تعيينات عثمان لأقربائه الشبان من بني أمية! ولم يرض مؤلف هذا النص إلاّ بالقول على لسان عليّ بالذات إن الولاة الأمويين الذين عينهم عثمان كانوا رجالاً أسوياء عادلين! وأن عثمان كان مقتدياً برسول الله(ص) في سياسته هذه لأنه «كان يؤثر قريشاً على سائر الناس»، وبالتالي فلا لوم عثمان لأنه يؤثر بني أمية على سائر الناس!

ولا داعي في الاسهاب في تفنيد هذا النص، فهو متهافتٌ وهزيلٌ بما يحول دون جدارته بنقاش جدي. فسيرة علي بن ابي طالب ومواقفه المجمع عليها، ووقائع التاريخ، تؤكد انه يستحيل أن تصدر عنه تلك المدائح في حق عثمان ورجاله من طلقاء قريش وبني أمية.

ولا يمكنني إحسان الظن بابن كثير هنا. فهو العلامة العارف، وهو المتخصص بالتاريخ وهو الاستاذ الذي لا يمكن أن يكون جاهلاً بعلاقة علي ببني امية. ولذلك أقول ان ما كتبه ابن كثير هنا دليلٌ يثبت تعصبه المذهبي الصارخ، والذي أخرجه من توازنه ودفعه الى هذا المستوى الهابط من الروايات. فكرهُهُ للشيعة وحرصُهُ على تفنيد حججهم جعله يقول لهم: ان علياً كان يحب بني أمية رغم أنفكم! ورغم أنف الحقيقة ومسار التاريخ.

عثمان يستجيب لوساطة علي: اتفاقٌ مكتوب

وقد دامت المرحلة الأولى من التمرد لمدة شهر. وهذه المرحلة «السلمية» كانت فترة طلب حسابات، وعرض مطالبات، وشرح تظلمات، ومناظرات ونقاشات ومفاوضات ووساطات، انتهت في الآخر إلى موافقة عثمان على طلبات الوفود وتوصل الطرفان إلى اتفاق مكتوب.

لم يُظهر كبار الصحابة انحيازاً واضحاً إلى أحد الفريقين[1]، بل لعبوا دور الوسيط بين الخليفة والمحتجين وكانوا كفلاء للاتفاق، وأبرزهم عليّ.

وقد كان عثمان يعلم أن علياً بن أبي طالب هو الشخص الأكثر قبولاً لدى أوساط المحتجين، وأنه الذي يمكن أن يمارس نفوذه لديهم فيردعهم عن إلحاق الأذى بالخليفة. ولذلك كان عثمان يلجأ إليه، وبإلحاح، لكي يخرج إليهم ويتفاهم معهم.

روى الطبري:

«فلما رأى عثمان ما رأى، جاء علياً، فدخل عليه بيته فقال: يا ابن عم! إنه ليس لي مترك، وإن قرابتي قريبة، ولي حقّ عظيمٌ عليك. وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم، وهم مصبحي. وانا أعلم أن لك عند الناس قدراً وأنهم يسمعون منك. فأنا أحب أن تركب إليهم فتردّهم عنّي فإني لا أحب أن يدخلوا عليّ، فإن ذلك جرأة منهم عليّ، وليسمع بذلك غيرهم.

فقال: عليّ: علامَ أردّهم؟

قال: على أن أصير إلى ما أشرتَ به عليّ ورأيته لي. ولستُ أخرج من يديك»

ويمكن قبول هذا النص الذي يعطي فيه عثمان تفويضاً مفتوحا لعلي بالتفاهم مع الثوار بلا شروط من طرفه على أساس رغبته في التخلص من الأزمة الخطيرة التي تواجهه والتي باتت تهدده مباشرة.

(1) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن مواقف الصحابة أثناء الأزمة

وبعد هذا الطلب المباشر من الخليفة، استعمل عليٌ ثِقله كله، وبذل جهدَه مع المتمردين من أجل التوصّل إلى تفاهم يُنهي المشكلة. ونجح عليٌ في مسعاه.

والكثير من المصادر تذكر التوصل الى اتفاق ولكن دون ذكر تفصيلي لشروطه، أو تذكرها مجملة أو مختصرة. ولكن النص التالي لدى ابن شبة هو أفضل ما يوضح أساس التفاهم الذي توصل إليه علي بن أبي طالب لحل الأزمة مع الثوار :

«فأصلح عليّ بينهم، وكتبوا كتابا اشترطوا فيه خمساً:

أن المنفي يُقلب

وأن المحروم يُعطى

وأن الفيء يوفر

وان يُعدل في القسم

وأن يُستعمل أولو القوة والأمانة»[1]

وتتحدث رواياتٌ أخرى عن «العمل بكتاب الله وسنة نبيه» و «وأن يؤمن الخائف» و «رفع المظالم» و «وأن لا تجمّر البعوث «وكذلك «*ألاّ يأخذ أهل المدينة عطاءً، فإنما هذا المال لمن قاتل عليه، ولهؤلاء الشيوخ من*

---

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. وكذلك وردت هذه الشروط الخمسة في تاريخ خليفة بن خياط ولكن مع إضافة في نهايتها *«وأن يرد ابن عامر على البصرة وأبو موسى الاشعري على الكوفة»*

وهذا السطر الاخير في رواية خليفة بن خياط لا بد وأنه أضيف اليها قسراً، فلا يمكن قبوله. فعبد الله بن عامر كان لا يزال والياً على البصرة ولم ينزع، فلا معنى للمطالبة بإرجاعه. وأما ابو موسى الاشعري فقد كان أهل الكوفة قد عينوه بالفعل عليهم بعد خلعهم لسعيد بن العاص وأقرّه عثمان. كما ان سياق راوية خليفة يتحدث عن الثوار المصريين بالتحديد وبالتالي فمن المستبعد ان تكون المطالبة بأبي موسى على الكوفة من أولوياتهم.

والمهم في روايتي ابن شبة وخليفة أنهما تتفقان على تحديد خمسة شروط واضحة ومحددة للاتفاق.

أصحاب رسول الله(ص)[1]» ولا تناقض في هذه الروايات. بل يجب النظر اليها بالاجمال على أنها تتكامل لتوضح نوعية مطالب الثوار وموافقة الخليفة على تنفيذها.

واعترف عثمان بأخطائه وتعهد بالإقلاع عن سياسته السابقة بعد تلك السجالات الطويلة. بل وتضيف الروايات أنه قام وأعلن توبته علانيةً وعلى المنبر بعد أن طلب منه علي بن ابي طالب أن يُشهد الناسَ ويُشهد الله على ما في قلبه من النزوع والانابة. روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي :

«.... *فقام فحمد الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد أيها الناس!*

فوالله ما عابَ مَن عابَ منكم شيئاً أجهله وما جئتُ شيئاً إلاّ وأنا أعرفه.

ولكني منّتني نفسي وكذّبتني، وضلّ عني رشدي.

ولقد سمعتُ رسول الله(ص) يقول: مَن زلّ فليتب، ومَن أخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة. إن مَن تمادى في الجور كان أبعد من الطريق.

فأنا أول مَن اتعظ. أستغفر الله مما فعلتُ. وأتوب إليه.

فمثلي نزَعَ وتاب.....

فرقّ الناسُ له يومئذ وبكى مَن بكى منهم»

وبدوره أخذ عثمان على المحتجين شرطاً: «*ألاّ يشقوا عصاً ولا يفارقوا جماعةً، ما قام لهم بشرطهم*»[2].

والصحابة كانوا الشهود والكفلاء للإتفاق.

فإذن وافق المحتجون على الاستمرار بالاعتراف بسلطة الخليفة وقبلوا وعد التغيير. ورجع المحتجون إلى أمصارهم. وبدت الأزمة وكأنها انتهت.

ولا بد لنا، قبل متابعة تسلسل الاحداث، من تامل النص الطويل التالي الذي أخرجه الطبري في تاريخه عن ابن اسحق. فهو يوضح مدى الاضطراب

(1) تاريخ الطبري، (ج3 ص391) من رواية يعقوب بن ابراهيم
(2) المصدر السابق

الذي كان سائداً في المدينة أثناء فترة المفاوضات والوساطات. والرواية يظهر منها «عدة عودات» للثوار المصريين الى الخليفة بعد «عدة اتفاقيات» تم إبرامها بتوسّط من علي الذي كان عثمان يطالبه مرة بعد أخرى بالمساعدة في ردّ الثوار. تبتدأ الرواية بالقول ان أهل مصر:

«كتبوا اليه: بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد. فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. فالله الله ثم الله الله! فإنك على دنيا فاستتم معها اليها آخرة ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا. واعلم أنا والله لله نغضب وفي الله نرضى. وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلجة. فهذه مقالتنا لك وقضيتنا اليك والله عذيرنا منك والسلام.

وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبداً حتى يقتلوه أو يعطيهم ما يلزمه من حق الله.

فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته فقال لهم: قد صنع القوم ما قد رأيتم فما المخرج؟ فأشاروا عليه أن يرسل الى علي بن ابي طالب فيطلب اليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليطاولهم حتى يأتيه أمداد.

فقال: إن القوم لن يقبلوا التعليل وهي محملي عهداً. وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان، فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به.

فقال مروان بن الحكم: يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب. فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فإنما هم بغوا عليك فلا عهد لهم.

فأرسل الى علي فدعاه. فلما جاءه قال: يا ابا حسن انه قد كان من الناس ما قد رأيتَ، وكان مني ما قد علمتَ. ولستُ آمنهم على قتلي، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعتبهم من كل ما يكرهون وأن اعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في ذلك سفك دمي

فقال له علي: الناس الى عدلك أحوج منهم الى قتلك. واني لأرى قوماً لا يرضون إلاّ بالرضى. وقد كنتَ أعطيتهم في قدمتهم الاولى عهداً من الله لترجعن عن جميع ما نقموا. فرددتُهم عنك. ثم لم تفِ لهم بشيئ من ذلك. فلا تغرني هذه المرة من شيئ فإني معطيهم عليك الحق.

قال: نعم! فأعطهم. فوالله لأفينّ لهم!

فخرج علي الى الناس فقال: ايها الناس! انكم انما طلبتم الحق فقد أعطيتموه. إن عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره، وراجعٌ عن جميع ما تكرهون، فاقبلوا منه ووكدوا عليه

قال الناس: قد قبلنا فاستوثق منه لنا، فإنا والله لا نرضى بقول دون فعل

فقال لهم: عليّ ذلك لكم

ثم دخل عليه فاخبره الخبر فقال عثمان: اضرب بيني وبينهم أجلاً يكون لي فيه مهلة فإني لا اقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد

قال له علي: ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب أجله وصول أمرك

قال: نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام.

قال علي: نعم. فخرج الى الناس فأخبرهم بذلك. وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن: يردّ كل مظلمة ويعزل كل عامل كرهوه.

ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما اخذ الله على احد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والانصار. فكفّ المسلمون عنه ورجعوا الى ان يفي لهم بما اعطاهم من نفسه»

الفصل الثاني: انهيار الاتفاق وحصار عثمان[1]

تراجع عثمان

لم يصمد الاتفاق طويلاً ولم يأخذ طريقه الى حيز التنفيذ.

وتجمع الروايات أنّ مروان بن الحكم كان سبب ذلك وأنه استغل موقعه من الخليفة ليفسد كل التفاهمات التي توصل لها علي والصحابة مع الثوار وعثمان.

فمروان، بعد أن بدا له أن الخطر المباشر قد زال برجوع الثوار، بدأ في تنفيذ سياسة انتقامية كان يراها ضرورية من أجل الحفاظ على استقرار الحكم الأموي. فهو لا يرضى بأن يمرّ هذا الأمر مرور الكرام. فهؤلاء تمرّدوا على الخليفة ولا بد أن يعاقبوا، إن لم يكن في المدينة على يد عثمان، ففي غيرها من الأمصار وعلى يد غيره من الحكام. فبنظر مروان، إن تركَ هؤلاء بلا عقاب، فسوف تزيد جرأتهم وسوف يرفعون من سقف مطالباتهم في قادم الأيام، وسوف يجرؤ غيرهم.

كما أن مروان كان يعرف أن نجاح وساطة الصحابة، وعليّ بالذات، بين

(1) مصادر البحث: نهج البلاغة بشرح محمد عبده (ج2 ص212)، تاريخ الطبري (ج3 ص395+ ص397+ ص399+ ص403-404 + ص408)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1160 + ص1155)، الامامة والسياسة (ج1 ص56)، الثقات لابن حبان (ج2 ص259)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص188-189)، الاصابة لابن حجر (ج4 ص379)، أنساب الاشراف للبلاذري (ج6 ص180)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص65)، تاريخ خليفة بن خياط (ص124)، أسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص382) والبداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص2-7 وص193).

الخليفة والمتمردين، سيكون شؤماً عليه. وقد ذكرنا كيف كان عليّ يلح على عثمان ويضغط عليه باستمرار لكي يتخلّص من أقربائه من بني أميّة الذين اتخذهم بطانة فاستغلّوا سلطانه وسيطروا على مفاصل الحكم. ومروان، مستشاره المقرّب والمؤتمن كان على رأس هؤلاء. وقد قال عليٌّ لعثمان مرة:

«... فلا تكوننّ لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السنّ وتقضّي العمر ...»[1]

ومروان كان يدرك أن أي تفاهم بين الخليفة والثائرين سيكون حتماً على حسابه هو بالذات، وأضرابه من بني أمية. ولا يمكن لمروان أن يسمح بذلك. فالخليفة، بنظره، مُلكٌ لبني أمية، وهو ليس لديه استعداد لأن «يفقده»!

وبدأ مروان العمل[2].

فكانت الخطوة الأولى بنظره هي نزع الشرعية عن الثوار ومطالبهم. وذلك يتم عن طريق الإعلان أن كل ما أثاروه من قضايا هو باطل وغير صحيح! وبالتالي إنكار أن الخليفة قدم تنازلات أو أقر بأخطائه.

ونجح مروان في إقناع عثمان بأن يقوم على الملأ فيعلن ذلك. يروي الطبري في تاريخه من طريق الواقدي : *«... حتى اذا كان الغد جاءه مروان فقال له: تكلم وأعلم الناسَ أن أهل مصر قد رجعوا، وأن ما بلغهم عن إمامهم كان باطلاً. فإن خطبتك تسير في البلاد قبل أن يتحلب الناس عليك من أمصارهم، فيأتيكَ مَن لا تستطيع دفعَه*

فأبى عثمان أن يخرج. فلم يزل به مروان حتى خرج فجلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن إمامهم أمرٌ، فلما تيقنوا أنه باطل ما بلغهم عنه رجعوا إلى بلادهم.»

(1) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، (ج2 ص212)
(2) روايات الواقدي لدى الطبري هي الأكثر تفصيلًا فيما يتعلق بتراجعات عثمان ودور مروان في ذلك.

وفي رواية أخرى للواقدي لدى الطبري:

«...قال مروان: بأبي أنت وأمي! والله لوددتُ أن مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيعٌ فكنتُ أول من رضي بها وأعان عليها. ولكنك قلتَ ما قلتَ حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطى الخطة الذليلة الذليل! والله لإقامةٌ على خطيئةٍ تستغفر الله منها أجملُ من توبةٍ تخوف عليها! وإنك إن شئتَ تقربت بالتوبة ولم تقرب بالخطيئة. وقد اجتمع إليك على الباب مثل الجبال من الناس.

فقال عثمان: فاخرج إليهم فكلمهم فإني أستحيي أن أكلمهم.

قال فخرج مروان إلى الباب والناس يركب بعضهم بعضا فقال: ما شأنكم؟ قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب! شاهت الوجوه! كل إنسان آخذ بإذن صاحبه ألا من أريد. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا! اخرجوا عنا. أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمرٌ لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم. ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا»[1]

ومن الطبيعي أن تؤدي خطبة مروان هذه الى إستثارة غضب علي الشديد. وكيف لا وهو يرى جهده يضيع سدى. تتابع الرواية «فرجع الناس وخرج بعضهم حتى أتى عليا فأخبره الخبر.

فجاء علي عليه السلام مغضبا حتى دخل على عثمان فقال: أما رضيتَ من مروان ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يُقاد حيث يُسار به؟! والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه. وأيم الله إني لأراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك. أذهلتَ شرفك وغلبتَ على أمرك»[2]

---

(1) ذكرها ايضاً ابن كثير في البداية والنهاية

(2) وأما رواية أبي مخنف لدى البلاذري (أنساب الاشراف) فتذكر انه بعد خطبة عثمان الرقيقة التي اعتذر فيها واستغفر «... فسُرّ الناس بخطبته واجتمعوا الى بابه مبتهجين بما كان منه. فخرج اليهم مروان فزبرهم وقال: شاهت وجوهكم! ما اجتماعكم؟ أمير المؤمنين مشغول عنكم، فإن احتاج الى أحد منكم فسيدعوه فانصرفوا. وبلغ علياً الخبر فاتى عثمانَ وهو مغضب فقال: اما رضيتَ من مروان ولا رضي منك إلاّ بإفساد دينك

وروى الطبري في تاريخه عن الواقدي ان علياً قد غضب كثيراً على عثمان بسبب تراجعاته المتكررة عن الاتفاقات التي يبرمها هو مع الثوار، ونكوصه عن تعهداته بسبب تأثير مروان بن الحكم، حتى قال علي «*إني إن قعدتُ في بيتي قال لي: تركتني وقرابتي وحقي، وإني إن تكلمتُ فجاء ما يريد يلعبُ به مروان، فصار سيقة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله(ص)*» وقرر علي أن يوقف تدخلاته ووساطته وقال لما جاءه رسول عثمان يدعوه «*فقال علي بصوت مرتفع عال مغضب: قل له ما انا بداخل عليك ولا عائد*». ولكن لما تعرض عثمان الى الاعتداء وهو على المنبر وسقط مغشياً عليه ذهب علي يزوره «*ودخل علي بن ابي طالب على عثمان رضي الله عنهما وهو مغشي عليه، وبنو امية حوله .*

فقال: مالك يا أمير المؤمنين؟

فأقبلت بنو أمية بمنطق واحد فقالوا: يا علي أهلكتنا وصنعتَ هذا الصنيع بأمير المؤمنين. أما والله لئن بلغتَ الذي تريد لتمرّن عليك الدنيا.

فقام عليٌ مغضباً»[1]

الكتاب المزوّر وبدء حصار عثمان

ولم يكتفِ مروان بن الحكم بالضغط على عثمان للتراجع عن اتفاقاته مع المتمردين، مما أضرّ جدا بمصداقية الخليفة أمام الناس ،بل انتقل إلى ما هو أهم وأخطر. أصدر مروان أوامره، مستغلاً ضعف عثمان وثقته به، إلى ابن أبي السرح في مصر بقتل هؤلاء الثوار حالما يصلون أرض مصر ا أصدرَ الأمرَ باسم عثمان وطبع الكتابَ بخاتم الخليفة وأرسله على وجه السرعة مع غلام إلى مصر ليسبق الوفد المصري العائد. وكانت النتيجة أن ضُبط الغلام والكتاب. فكانت تلك القشة التي قسمت ظهر البعير.

وخديعتك عن عقلك؟! واني أراه سيوردك ثم لا يصدرك، وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك»

(1) سوف يأتي الحديث بالتفصيل عن موقف علي من مقتل عثمان

وتكاد تجمع المصادر على مسؤولية مروان عن ذلك الكتاب المزور.

وفيما يلي نصّ طويل من تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري نقلا عن الزهري عن سعيد بن المسيب، وفيه انه لما قدم أهل مصر يشكون واليهم، وبعد تدخل كبار الصحابة طالبين من عثمان انصافهم

«... فقال لهم: اختاروا رجلاً أوليه عليكم مكانه. فأشار الناس عليهم بمحمد بن أبي بكر فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر.

فكتب عهده وولاّه وخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهل مصر وبين ابن أبي سرح.

فخرج محمد ومَن كان معه، فلما كانوا على مسيرة ثلاث ليال من المدينة إذا هم بغلام أسود على بعير يخبط خبطا كأنه رجل يَطلب أو يُطلب.

فقال له أصحاب محمد: ما قصتك وما شانك؟ كأنك هاربٌ أو طالب.

فقال: انا غلام أمير المؤمنين. وجّهني إلى عامل مصر.

قال له رجل: هذا عامل مصر معنا.

قال: ليس هذا أريد.

واخبروا بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه رجالاً فأخذوه فجاؤوا به إليه.

فقال له: يا غلام مَن أنت؟

فأقبل مرة يقول غلام أمير المؤمنين ومرة يقول غلام مروان. حتى عرفه رجل أنه لعثمان.

فقال له محمد: إلى مَن أرسلتَ؟

قال: إلى عامل مصر.

قال: بماذا؟

قال: برسالة.

قال: أمعك كتاب؟

قال: لا.

ففتشوه فلم يجدوا معه كتاباً. وكانت معه إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل. فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح.

فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه: إذا أتاك محمد بن أبي بكر وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابه وقرّ على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك. واحبس مَن يجيء إلي يتظلم منك ليأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله تعالى.

قال: فلما قرأوا الكتاب فزعوا ورجعوا إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتيم نفر كانوا معه ودفع الكتاب إلى رجل منهم فقدم المدينة.

فجمعوا طلحة والزبير وعلياً وسعداً ومَن كان من أصحاب رسول الله ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم واخبروهم بقصة الغلام وأقرأوهم الكتاب. فلم يبْقَ أحدٌ من أهل المدينة إلاّ حنق على عثمان. وزاد ذلك مَن كان غضب لابن مسعود وأبي ذر وعمار حنقاً وغيظاً.

وقام أصحاب محمد فلحقوا بمنازلهم.

وحاصر الناس عثمان وأجلب عليه محمد بن أبي بكر ببني تيم وغيره وأعانه على ذلك طلحة بن عبيد الله. وكانت عائشة رضي الله عنها تقبحه كثيراً.

فلما رأى ذلك علي، بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب النبي كلهم بدري. ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والبعير والغلام.

فقال له علي: هذا الغلام غلامك؟

قال: نعم.

قال: فالبعير بعيرك؟

قال: نعم.

قال: وأنت كتبتَ هذا الكتاب؟

قال: لا! وحلف بالله: ما كتبتُ هذا الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجهتُ هذا الغلام إلى مصر.

فأما الخط فعرفوا انه خط مروان. وشكوا في أمر عثمان رضي الله عنه، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى -وكان مروان عنده في الدار- فخرج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من عنده غِضاباً وشكوا في أمره. وعلموا أنه لا يحلف بباطل.

إلاّ أن قوماً قالوا: لا يبرأ عثمان من قلوبنا إلاّ أن يَدفع إلينا مروان حتى نبحثه، ونعرف حال الكتاب. فكيف يُؤمَرُ بقتل رجل من أصحاب محمد صلّى الله عليه وسلم بغير حق؟ فإن يكن عثمان كتَبَه عزلناه وإن يكن مروان كتبه على لسان عثمان، نظرنا ما يكون منا في أمر مروان.

ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل. وحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء»[1]

وأما في تاريخ اليعقوبي فتبدو الرواية مبتسرة وفيها بعض اختلاف. فهو يبتدئ بالقول «*وقدم عليه أهل البلدان فتكلموا. وبلغ عثمانَ أن أهل مصر قدموا عليهم السلاح. فوجّه اليهم عمرو بن العاص وكلمهم*» وبعد أن ذكر عمرو كلاماً مدح فيه النبي (ص) وخليفتيه قال للمصريين «*ثم ولي عثمان، فقلتم، وقال، تلومونه ويعذر من نفسه، أفليس ذلك كذلك؟ قالوا: بلى. قال: فاصبروا له، فإن الصغير يكبر والهزيلَ يسمن، ولعل تأخير أمر خير من تقديمه. ثم نزل.*

(1) تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري. ونفس هذا النص بالحرف تقريبا جاء في الإمامة والسياسة باسناده الجمعي (ذكروا). وكذلك روى ابن حبان في كتاب «الثقات». وأيضاً روى السيوطي في تاريخ الخلفاء نفس رواية الزهري هذه عن سعيد بن المسيب بالحرف تقريباً نقلاً عن ابن عساكر. وروى ابن حجر العسقلاني في الإصابة نفس القصة باختصار.

فدخل أهل عثمان عليه فقالوا له: هل عابك أحدٌ بمثل ما عابك به عمرو؟

فلما دخل عليه عمرو قال: يا ابن النابغة! والله ما زدتَ ان حرّضتَ الناسَ عليّ!

قال: والله لقد قلتُ فيك أحسن ما علمتُ. ولقد ركبتَ من الناس، وركبوها منك، فاعتزل إن لم تعتدل!

فقال: يا ابن النابغة! قمُلَ درعك[1] مذ عزلتك عن مصر!»

ثم أضاف «*وسار الركبُ الذين قدموا من مصر، فلما صاروا في بعض الطريق إذا براكب على جمل، فأنكروه ففتشوه، فوجدوا معه صحيفة من عثمان الى خليفته عبد الله بن سعد: اذا قدم عليك النفر فاقطع أيديهم وأرجلهم.*

فقدموا واتفقوا على الخروج. وكان من يأخذون عنه محمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، وكنانة بن بشر، وابن عديس البلوي، فرجعوا الى المدينة»

وأما رواية ابن سعد في الطبقات الكبرى فقد كانت عن جابر بن عبد الله «*ان المصريين لما أقبلوا من مصر يريدون عثمان ونزلوا بذي خشب، دعا عثمان محمد بن مسلمة فقال: اذهب إليهم فارددهم عني وأعطهم الرضى وأخبرهم أني فاعل بالأمور التي طلبوا، ونازعٌ عن كذا بالأمور التي تكلموا فيها.*

فركب محمد بن مسلمة إليهم إلى ذي خشب. قال جابر: وأرسل معه عثمان خمسين راكبا من الأنصار انا فيهم.

وكان رؤساؤهم أربعة: عبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران المرادي، وابن البياع، وعمرو بن الحمق الخزاعي (لقد كان الاسم غلب حتى يقال: جيش عمرو بن الحمق)

---

(1) ورغم انه لا يمكن استبعاد احتمالية ان يكون عمرو بن العاص قد خرج ليكلم المصريين، نظراً لخبرته في الشؤون المصرية، إلاّ أنه يبدو ظاهراً حرص اليعقوبي الكبير على إبراز العبارات الحادة والقاسية المتبادلة بين عثمان وعمرو.

فأتاهم محمد بن مسلمة فقال: ان أمير المؤمنين يقول كذا ويقول كذا، وأخبرهم بقوله فلم يزل بهم حتى رجعوا.

فلما كانوا بالبويب رأوا جملا عليه ميسم الصدقة فأخذوه فإذا غلامٌ لعثمان فأخذوا متاعه ففتشوه فوجدوا فيه قصبة من رصاص فيها كتاب في جوف الادارة في الماء، إلى عبد الله بن سعد: أن افعل بفلان كذا وبفلان كذا، من القوم الذين شرعوا في عثمان

فرجع القوم ثانية حتى نزلوا بذي خشب. فأرسل عثمان إلى محمد بن مسلمة فقال: اخرج فارددهم عني. فقال: لا أفعل.

فقدموا فحصروا عثمان»

ويلاحظ ان هذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة، ولكنها تختلف بعدم ذكر علي بن أبي طالب ولا غيره من الصحابة الذين تفاوضوا مع الثوار باستثناء محمد بن مسلمة، كما انها لا تذكر مروان بن الحكم ولا اتهامه بتزوير الكتاب. وهي أيضا تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر ودوره في قيادة المتمردين المصريين.

وقد روى خليفة بن خياط في تاريخه عن ابي سعيد مولى ابي اسيد الانصاري أنه بعد أن رجع الوفد المصري:

«فبينا هم بالطريق إذا راكب يتعرض لهم ويفارقهم، ثم يرجع اليهم ثم يفارقهم.

فقالوا: مالك ؟ قال: انا رسول أمير المؤمنين الى عامله بمصر. ففتشوه فإذا هم بالكتاب على لسان عثمان عليه خاتمه الى عامل مصر أن يصلبهم أو يقتلهم أو يقطع ايديهم وأرجلهم.

فأقبلوا حتى قدموا المدينة فأتوا علياً فقالوا: ألم تر الى عدو الله كتب فينا بكذا وكذا؟ وان الله قد أحل دمه، فقم معنا اليه.

قال: والله لا أقوم معكم

قالوا: فلمَ كتبتَ الينا ؟

قال: والله ما كتبتُ اليكم كتاباً.

فنظر بعضهم الى بعض، وخرج علي من المدينة.

فانطلقوا الى عثمان فقالوا: كتبتَ فينا بكذا وكذا .

قال: انهما اثنتان: أن تقيموا رجلين من المسلمين أو يمين بالله الذي لا إله إلاّ هو ما كتبتُ ولا أمللتُ ولا علمتُ. وقد يكتب الكتاب على لسان الرجل وينقش الخاتم على الخاتم .

قالوا: قد احل الله دمك، ونقض العهد والميثاق وحصروه في القصر رضي الله عنه»

وهذه الرواية في مجملها تتفق مع تلك المفصلة لابن شبة، ولكنها تذكر علي بن أبي طالب وليس محمد بن مسلمة كمفاوض، كما انها لا تذكر مروان بن الحكم ولا اتهامه بتزوير الكتاب. وهي أيضا تخلو من ذكر محمد بن أبي بكر ودوره في قيادة المتمردين المصريين. كما ان فيها إشارة الى كتاب غامض يحرض على عثمان وصل الى الثوار من علي، ونفي علي لذلك.

ولا تختلف رواية ابن اسحق التي أخرجها الطبري في تاريخه في اطارها العام عما سبق من روايات:

«...فأرسلوا الى عثمان: ألم نفارقك على أنك زعمتَ انك تائب من أحداثك وراجعٌ عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه؟

قال: بلى. انا على ذلك .

قال: فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبتَ به الى عاملك؟

قال: ما فعلتُ ولا لي علم بما تقولون

قالوا: بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك

قال: أما الجمل فمسروق، وقد يشبه الخط الخط واما الخاتم فانتقش عليه

قالوا: فإنا لا نعجل عليك وإن كنا قد اتهمناك. اعزل عنا عمالك الفساق، واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا.

قال عثمان: ما أراني إذن في شيئ إن كنتُ أستعمل من هويتم وأعزل من كرهتم. إذن الأمر أمركم!

قالوا: والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن، فانظر لنفسك أو دع.

فأبى عليهم وقال: لم اكن لأخلع سربالاً سربلنيه الله.

فحصروه اربعين ليلة، وطلحة يصلي بالناس»

وفي رواية الواقدي لدى الطبري أنه لما أجابهم عثمان بأنه لا يدري مَن الذي كتب الكتاب باسمه، لم يقتنعوا بذلك فقالوا له:

«أفيجترأ عليك، فيبعث غلامك، وجمل من صدقات المسلمين، وينقش على خاتمك، ويكتب إلى عاملك بهذه الأمور العظام، وأنتَ لا تعلم؟!

قال نعم.

قالوا: فليس مثلك يلي. اخلع نفسك من هذا الامر كما خلعك الله منه

قال لا أنزع قميصا ألبسنيه الله عز وجل»

وهكذا فأنه بعد أن يئس الناسُ تماماً من وعود الخليفة لم يعد هناك سوى واحد من احتمالين لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتجنب القتل: إمّا أن يعزل الخليفة نفسه، أو يسلّم مروان بن الحكم. هذان كانا المطلبين الأخيرين للثوار ولم يكن ممكناً التنازل فيهما. كان واضحاً أن أهل المدينة – والأنصار خصوصاً – قرروا التخلّي عن الخليفة. لقد تملّك الناسَ شعورٌ من اليأس من إمكانية إصلاح سياسة عثمان. كان هناك شعور جَمْعيّ بأن الخليفة لا يعدو كونه ألعوبة بأيدي بني أمية الذين يسيّرون كل شيء في الدولة، وأن نجاح محاولات التغيير يعتمد على مدى استعداد الخليفة للاستغناء عن بطانته الفاسدة. ولم يكن عثمان ليوافق على التخلي عن

أقربائه الأمويين لعدة أسباب: فهو أولا يحبهم من ناحية فطرية، وحتى حين كان بمكة مع الرسول(ص) وبعدها في المدينة، لم تتدهور علاقته مع قومه وبقي الودّ موجوداً حتى في ذروة فترات الصراع النبوي مع قريش بقيادة بني أمية. وكذلك فإن عثمان بسياسته المنحازة لعائلته قد أغضب عليه كبار الصحابة الذين كانوا يرون أنه قد مال عن سياسة أبي بكر وعمر والتي كانت قائمة على أسس قرشية عامة، وانحرف بها لتصبح سياسة عائلية أموية محضة. وبما أن عموم الأنصار وبني هاشم هم في المعسكر المعارض لسياسة الخليفة، فإن عثمان في حقيقة الأمر لم يكن يملك عملياً خيار الاستغناء عن بطانته الأموية. فبدون عائلته، على ماذا يتكئ عثمان في حكمه؟

وقد أخرج ابن شبة في تاريخ المدينة ثلاث روايات فيها اتهامٌ صريح من عثمان لعلي بأنه وراء ذلك الكتاب المختوم باسمه! وهذا إن صحّ يعكس مدى الانحدار في مستوىٰ علاقتهما وطغيان الشك وسوء الظن بينهما: «*فقال له علي رضي الله عنه: أتتهم أحداً من اهل بيتك؟ قال: نعم. قال: من تتهم؟ قال: أنت أول من أتهم!*

فغضب علي رضي الله عنه فقام وقال: والله لا أعينك ولا أعين عليك حتى ألتقي أنا وأنت عند رب العالمين»

وفي الرواية الثانية ان عثمان قال لعلي «*أظن كاتبي غدر، أو أظنك به يا علي!*

قال علي: فلم تظنني؟

قال: لأنك مطاع في القوم فلم تردهم عني»

ويبدو أن هذا الموقف كان نهاية محاولات عليّ للتوسط بين عثمان والمهاجمين. فبعد هذا الاتهام الصريح له بالتآمر عليه، كيف يمكن لعلي أن يستمر في مساعيه؟!

وروى ابن شبة أيضا عن الشعبي أن أهل مصر لما عادوا وحصبوا عثمان

وهو على المنبر، وجّه اتهاماً صريحاً آخر لعلي *«فقال عثمان رضي الله عنه: يا علي! قد نصبتَ القدر على أثاف[1]»*

ورغم أن الباحث يميل الى عدم ترجيح أن يكون عثمان قد وجه مثل ذلك الاتهام المباشر لعلي بانه كان وراء ذلك الكتاب المزور، إلاّ أنه لا يمكن استبعاد ذلك تماماً، خصوصا بالنظر الى خلفية العلاقة الطويلة من الشقاق بين الرجلين، واخذاً بعين الاعتبار الوضع الحرج والظرف الصعب الذي كان عثمان يمر به مما قد يفقده اعصابه وتوازنه.

وهكذا بدا الحصار الأخير للخليفة عثمان في بيته. ولا يعرف على وجه الدقة كم دام ذلك، ولكنه كان طويلاً جداً حسب كل الروايات. وبالاضافة الى قول ابن اسحق انه كان 40 ليلة، ذكر ابن الاثير في اسد الغابة *«قال الواقدي: حصروه 49 يوماً، وقال الزبير: حصروه شهرين وعشرين يوماً»*

تأييد ابن كثير لمروان وعثمان

أعلن ابن كثير في البداية والنهاية معارضته لقيام مروان بن الحكم بتزوير ذلك الكتاب على لسان الخليفة وإرساله الى عامل مصر دون علمه أو إذنه، ولامه على ذلك. ولكنه في ذات الوقت دافع عنه وأوجد تبريراً لتصرفه: الاجتهاد والتأويل! فقال:

«ان المصريين لما وجدوا ذلك الكتاب مع البريد الى أمير مصر، فيه الأمر بقتل بعضهم وصلب بعضهم وبقطع ايدي بعضهم وأرجلهم، وكان قد كتبه مروان بن الحكم على لسان عثمان متأولاً قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع ايديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب أليم) -المائدة 33-

وعنده ان هؤلاء الذين خرجوا على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

(1) والاثاف جمع أثفية، وهي حجر من ثلاثة توضع عليها القدر. يريد أن علياً دبّر كل ذلك.

من جملةِ المفسدين في الارض -ولا شك أنهم كذلك- لكن لم يكن له أن يفتات على عثمان ويكتب على لسانه بغير علمه ويزور على خطه وخاتمه ويبعث غلامه على بعيره، بعدما وقع الصلح بين عثمان وبين المصريين.....»

ثم دافع ابن كثير عن عثمان فقال ان المهاجمين لما قالوا له «*ان كنت قد كتبته فقد خنتَ، وإن لم تكن قد كتبته بل كُتب على لسانك وأنت لا تعلم فقد عجزتَ. ومثلك لا يصلح للخلافة: إما لخيانتك وإما لعجزك*» لم يكن لهم الحق في ذلك «*وهذا الذي قالوا باطل على كل تقدير: فإنه لو فرض انه كتب الكتاب، وهو لم يكتبه في نفس الأمر، لا يضرّه ذلك، لأنه قد يكون رأى ذلك مصلحة للأمة في إزالة شوكة هؤلاء البغاة الخارجين على الامام. وأما إذا لم يكن قد علم به فأي عجز ينسب اليه اذا لم يكن قد اطلع عليه وزور على لسانه؟*

وليس هو بمعصوم بل الخطأ والغفلة جائزان عليه رضي الله عنه. وانما هؤلاء الجهلة البغاة متعنتون خونة، ظلمة مفترون»

حديث نبوي باثر رجعي: لا أخلع قميصاً ألبسنيه الله[1]

ومن المفيد هنا ملاحظة كيفية تطوّر قول لواحد من الصحابة، صدر عنه في موقف معين، وفي أثناء ظرف محدد، الى حديث منسوب الى الرسول (ص). فالذي يجري هنا هو لجوء أطراف منخرطة في الصراع الى «استدعاء» رسول الله (ص)، قسراً، لدعم مواقفها في الفتنة.

فأمام مطالبات الثوار له بأن يخلعَ نفسه من الحكم، لأنه غير صالح لأن يكون خليفة ولأنهم عجزوا عن التوصّل إلى حلٍ مقبول معه، أعلن عثمانُ موقفه النهائي، وهو أن الخلافة منحةٌ إلهيةٌ له ولن يتنازل عنها أبداً وأطلق قوله المشهور «*لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل*»[2]

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ خليفة بن خياط (ص126)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص66)، تاريخ المدينة المنورة لابن شبة (ج4 ص1286)، سنن ابن ماجه (ج1 ص42)، سنن الترمذي (ج5 ص292)، صحيح ابن حبان (ج15 ص346)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص182 + 194)، تاريخ الطبري (ج3 ص407)

(2) تاريخ الطبري (ج3 ص407)

فلنرَ كيف طُوّر كلامُه؟

فقد روى خليفة بن خياط في تاريخه" عن ام يوسف بنت ماهك عن أمها قالت «*دخلتُ على عثمان وهو محصور، وفي حجره المصحف، وهم يقولون: اعتزلنا! وهو يقول: لا أخلع سربالاً سربلنيه الله*»

وهناك رواية أخرى لدى خليفة تفيد بأن صاحب فكرة القميص الالهي هو عبد الله بن عمر. فعن نافع قال «*دخل ابن عمر على عثمان وعنده المغيرة بن الاخنس فقال: انظر ما يقول هؤلاء، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك!*

فقال ابن عمر: اذا خلعتها أمخلدٌ أنت في الدنيا؟

قال: لا.

قال: فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك؟

قال: لا

قال: فهل يملكون لك جنة أو ناراً؟

قال: لا.

قال: فلا أرى لك ان تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سنة: كلما كره قومٌ خليفتهم أو امامهم قتلوه[1]»

وهاتان الروايتان عن ام يوسف بنت ماهك ونافع أخرجهما ابن سعد في الطبقات الكبرى مع اختلاف يسير: ففي الاولى قول عثمان «*لا انزع سربالاً سربلنيه الله، ولكن انزع عما تكرهون*»، وفي الثانية قول ابن عمر «*لا ارى ان تسنّ هذه السنة في الاسلام: كلما سخط قوم على اميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمصكه الله*»

وكذلك لدى البلاذري (أنساب الأشراف).

فعن أبي مخنف أن المصريين لما حاصروه قالوا له «*...ما مثلك يلي أمور المسلمين، فاختلع من الخلافة!*

فقال: ما كنت لأنزع قميصاً قمّصنيه الله -أو قال سربلنيه الله»

وعن نافع عن ابن عمر «قال عثمان وهو محصور: ما تقول فيما أشار به عليّ المغيرة بن الاخنس؟

(1) وربما يكون الاصح ان الكلمة الاخيرة هي «خلعوه» وليس «قتلوه»

قلتُ: وما هو؟

قال: ان هؤلاء القوم يرون خلعك، فإن فعلتَ وإلاّ قتلوك! فدع امرهم اليهم.

قلت: أرأيت ان لم تخلع هل يزيدون على قتلك؟

قال: لا

فقلت: فلا أرى أن تسن هذه السنة في الاسلام، فكلما سخط قوم اميرهم خلعوه. لا تخلع قميصاً قمّصكه الله»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة «*حدثنا أحمد بن معاوية قال: حدثنا اسماعيل بن مجالد، عن الشعبي أن عثمان رضي الله عنه لما حصر أياما طلبوا اليه أن يخلع نفسه فأبى وقال: لا أخلع سربالا سربلنيه الله، ولا اخلع قميصا كسانيه الله.*

فقالوا: ان الله سربلك امة محمد جميعا، تسلط على اموالهم وتستعمل اخوتك وأقربتك. عليك التوبة من هذا القول لأن هذا ليس بميراث عن ابيك، ولا عهد من رسول الله (ص) ...»

وهذه العبارة الصادرة عن عثمان، بصيغها المختلفة سواء (لا انزع قميصا) أو (لا اخلع سربالا)، مشهورة ومتواترة في جميع كتب التاريخ. وهي تنسجم مع وقائع الأحداث ومع فلسفة الخليفة ونظرته للخلافة كمنحة له من الله. وليس هناك ما يدعو الى الشك في صدورها عنه.

ورغم ان الروايات لا تشير الى أن عثمان نفسه قد نسب هذه العبارة الى رسول الله (ص)، ولا ادّعى أنها وصية نبوية قديمة، إلاّ أن النعمان بن بشير، وهو رجل معاوية المخلص، قد أصرّ على ان عبارة عثمان انما هي عهدٌ قديمٌ له من النبي (ص) ذاته، وليست من لدن الخليفة!

ورد في سنن ابن ماجه عن النعمان بن بشير عن عائشة قالت «*قال رسول الله (ص): يا عثمان، إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً، فأرادك المنافقون أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله، فلا تخلعه. يقول ذلك ثلاث مرات.*

قال النعمان: فقلتُ لعائشة: ما منعك أن تعلمي الناسّ بهذا؟ قالت: أنسيته»

وورد في سنن الترمذي عن النعمان بن بشير عن عائشة ان رسول الله (ص) قال «*يا عثمان: انه لعل الله يقمصك قميصاً، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم*»

وجاء في صحيح ابن حبان عن النعمان بن بشير قال «*انه أرسله معاوية بن ابي سفيان بكتاب الى عائشة، فدفعه اليها. فقالت: ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله؟*

قلت: بلى

قالت: اني عنده ذات يوم أنا وحفصة فقال رسول الله(ص): لو كان عندنا رجل يحدثنا.

فقلتُ: يا رسول الله أبعثُ الى أبي بكر يجيئ فيحدثنا؟ قالت: فسكتَ.

فقالت حفصة: يا رسول الله أبعث الى عمر فيجيئ فيحدثنا؟ قالت: فسكت(ص)

فدعا رجلاً فأسرّ اليه بشيئ دوننا.

فذهب فجاء عثمان فأقبل عليه بوجهه. فسمعته (ص) يقول: يا عثمان إن الله لعله يقمصك قميصاً فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه. ثلاثاً.

قلتُ: يا أم المؤمنين فأين كنتِ عن هذا الحديث؟

قالت: يا بني أنسيته. كأني لم أسمعه قط»

فهكذا حسب «حديث» النعمان هذا، فإنه كان يقوم بدور المرسال بين خصمي الامام علي، معاوية وعائشة، وأنه أثناء قيامه بمهمته تلك قامت ام المؤمنين عائشة «بتذكر» حديث نبوي كانت قد «نسيته»!

ولا تخفى على اللبيب مقاصد النعمان من ترويج هذا «الحديث»: فالدفاع عن عثمان، وتبرير مواقفه أثناء الفتنة، سيؤدي بالتاكيد الى نيل رضا سيده معاوية، ونيل الحظوة عنده. وهو ما كان، فعيّنه معاوية واليا على الكوفة مكافأة له على ذلك «الحديث» النبوي المفصل على مقاس عثمان، وعلى أدواره الأخرى.

الفصل الثالث: مواقف من الهجوم على عثمان

اقتلوا نعثلاً![1]

تميل الكثير من المصادر الى توجيه اللوم الى ام المؤمنين عائشة وتحميلها مسؤولية التحريض على قتل الخليفة عثمان والتأليب عليه. وهنا بعض الأمثلة على ذلك:

روى اليعقوبي في تاريخه «*وكان بين عثمان وعائشة منافرة، وذلك انه نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله. ونادت: يا معشر المسلمين! هذا جلباب رسول الله لم يبل، وقد أبلى عثمان سنته*» وأضاف انه أثناء حصار عثمان في داره «*وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة*» ثم قال «*وصار مروان الى عائشة فقال: يا أم المؤمنين! لو قمتِ فأصلحتِ بين هذا الرجل وبين الناس؟*

قالت: قد فرغت من جهازي، وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع اليك بكل درهم أنفقته درهمين.

قالت: لعلك ترى اني في شك من صاحبك؟ اما والله لوددتُ أنه مقطع في غرارة من غرائري، وأني أطيق حمله، فأطرحه في البحر!»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد «*وأرادت عائشة الحج*

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص258)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص 421-422)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص77)، كشف الغمة لابن ابي الفتح الاربلي (ج1 ص239)، الايضاح للفضل بن شاذان (ص257-263).

وعثمان محصور. فأتاها مروان ويزيد بن ثابت وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن ابي العاص فقالوا: يا أم المؤمنين لو أقمتِ ! فإن أمير المؤمنين كما ترين محصور، ومقامك مما يدفع الله به عنه.

فقالت: قد خليتُ ظهري وعريتُ غرائري ولستُ أقدر على المقام

فأعادوا عليها الكلام وأعادت عليهم مثلما قالت لهم. فقام مروان وهو يقول:

حرق قيس علي البلاد   حتى إذا استعرت أجذما

فقالت عائشة: أيها المتمثل عليّ بالأشعار، وددتُ والله أنك وصاحبك هذا الذي يعنيك أمره في رجل كل واحد منكما رحى، وأنكما في البحر! وخرجت الى مكة»

وورد في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي:

«خروج عائشة إلى الحج لما حوصر عثمان وأشرف على القتل ومقالها فيه:

قال: وعزمت عائشة على الحج، وكان بينها وبين عثمان قبل ذلك كلام، وذلك أنه أخر عنها بعض أرزاقها إلى وقت من الأوقات فغضبت، ثم قالت: يا عثمان! أكلت أمانتك وضيقت رعيتك وسلطت عليهم الأشرار من أهل بيتك، لا سقاك الله الماء من فوقك وحرمك البركة من تحتك ! أما والله لولا الصلوات الخمس لمشى إليك قوم ذو ثياب وبصائر يذبحوك كما يذبح الجمل.

فقال لها عثمان: (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين).

قال: وكانت عائشة تحرض على قتل عثمان جهدها وطاقتها وتقول: أيها الناس ! هذا قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وبليت سنته، اقتلوا نعثلا، قتل الله نعثلا!

قال: فلما نظرت عائشة إلى ما قد نزل بعثمان من إحصار القوم له قربت راحلتها وعزمت على الحج، فقال لها مروان بن الحكم: يا أم المؤمنين! لو أنك أقمت لكان أعظم لاجرك، فإن هذا الرجل قد حوصر فعسى الله تبارك وتعالى أن يدفع بك عن ذمه!

فقالت: الآن تقول هذا وقد أوجبت الحج على نفسي، لا والله لا أقمت.

*وجعل مروان يتمثل بهذا البيت: ضرم قيس على البلاد دما * إذا اضطرمت يوم به أحجما.*

فقالت عائشة: قد فهمت ما قلت يا مروان!

فقال مروان: قد تبينت ما في نفسك.

فقالت: هو ذاك.

ثم إنها خرجت تريد مكة، فلقيها ابن عباس فقالت له: يا بن عباس، إنك قد أوتيت عقلا وبيانا فإياك أن ترد الناس عن قتل هذا الطاغي عثمان! فإني أعلم أنه سيشأم قومه كما شأم أبو سفيان قومه يوم بدر.

ثم إنها مضت إلى مكة وتركت عثمان على ما هو فيه من ذلك الحصار والشدة»

ومثل هذه الروايات لا بد من تجاهلها واعتبارها خارجة عن السياق المرجح للأحداث: فالسبب الذي تستند اليه في غضب عائشة هو تقاعس عثمان عن أداء حقوقها المالية وقيامه بالانتقاص من عطائها الذي كان في زمان عمر. وهذا مستبعد تماما لأن عثمان كان يتصف بالسخاء في المنح والعطاء، وخصوصا لكبار الصحابة ولقريش عموما. وما هو مشهورٌ ومسلمٌ به أن عمر كان «ممسكا بحلاقيم قريش» بينما جاء عثمان ليريحها من أسلوب عمر الشديد ويفتح لها آفاق الإثراء. فلا يصحّ أن عثمان ينقص من عطاءٍ لعمر، بل العكس هو الصحيح. وعدا عن شخصية عثمان المتسامحة فيما يتعلق بالأموال فإن فوائد الفتوحات العظمى التي حصلت في زمن عمر قد ظهرت وتجلت في عهد عثمان الذي تدفقت فيه الأموال والغنائم الهائلة مما أدى

بالضرورة الى تضاعف العطاءات لعموم الناس، ولقريش وكبار الصحابة خصوصا.

كما أن خروج عائشة من المدينة الى مكة في ذلك الوقت المضطرب لا يعني بالضرورة أنها كانت غاضبة من الخليفة، بل العكس هو الأرجح. فهي كانت مستاءة من الهجوم الذي تعرضت له المدينة من قبل من تصفهم ب «الأعراب ونزاع القبائل» والذي رأت فيه تطاولا على مقام الخليفة وجرأة على سلطة قريش. وهذا ظاهر تماما في سيرتها ومواقفها وكلامها في مكة والبصرة .فخروجها كان بسبب عجزها عن التأثير على مجريات الأحداث ولو كانت تدعو الى قتل «نعثل» لبقيت بين الثوار المسيطرين في المدينة.

كما أن اللغة المستخدمة على لسان عائشة: وصفه بنعثل، وتمنيها أنه يطرح في قعر البحر ودعوتها الى قتل الطاغية ... وما شابه ذلك مستبعدة تماما، ولم تكن مما يجري في أوساط كبار الصحابة وأمهات المؤمنين.

والمصادر الشيعية فيها نفس هذه الروايات، ولكن مع المزيد من التعابير القاسية التي تقترب من الشتائم:

ومن ذلك ما ذكره الشيخ المفيد في كتاب الجمل أن عائشة كانت على خلاف شديد مع عثمان، وكانت تستخدم معه أقسى العبارات ومنها أنها قالت له مرة «*هذا قميص رسول الله لم يتغير وقد غيرتَ سنته يا نعثل*» ومرة أخرى «*يا غدر يا فجرا أخفرتَ أمانتك وضيّعت رعيتك، ولولا الصلاة الخمس لمشى اليك الرجال حتى يذبحوك ذبح الشاة*» وأضاف أن عائشة لما أيقنت أن عثمان مقتول لا محالة رفضت طلبا من مروان بالدفع عنه وخرجت تريد الحج فلقيها ابن عباس وهو عائد للمدينة فقالت له «*يا ابن عباس، إنك قد أوتيتَ عقلاً وبياناً. وإياكَ أن تردّ الناس عن قتل الطاغية!*»

وروى ابن ابي الفتح الاربلي في كشف الغمة «*ان عائشة حرضت الناس على قتل عثمان بالمدينة وقالت: اقتلوا نعثلاً قتل (الله) نعثلاً ! فلقد أبلى سنة رسول الله وهذه ثيابه لم تبل*»

وروى الفضل بن شاذان في الايضاح انه حصل خلاف شديد بين عائشة وحفصة وبين عثمان بسبب قراره تخفيض العطاء لأزواج النبي(ص) عما كان

عليه الحال أيام عمر. ولما أصرّ عثمان على قراره طالبتاه بميراثهما من رسول الله(ص)! وأنه عند ذلك «... *وكان عثمان متكئاً فجلس، وكان علي بن ابي طالب (ع) جالساً عنده، فقال: ستعلم فاطمة (ع) أني ابن عم لها اليوم! ثم قال: ألستما اللتين شهدتما عند ابي بكر ولفقتما معكما أعرابياً يتطهر ببوله مالك بن الحويرث بن الحدثان فشهدتم أن النبي(ص) قال: إنا معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة. فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزت شهادتكما على انفسكما، وإن كنتما شهدتما بباطل فعلى من شهد بالباطل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فقالتا له: يا نعثل! والله لقد شبهك رسول الله(ص) بنعثل اليهودي. فقال لهما: ضرب الله مثلا (للذين كفروا) امرأة نوح وامرأة لوط. فخرجتا من عنده.*»

وأضاف انه لما نقم الناس على عثمان، وكان يخطب على المنبر «*رفعت عائشة قميصاً لرسول الله(ص) على قصبة أو جريدة من جرائد النخل فقالت: يا عثمان قميص رسول الله(ص) لم يبل وقد غيرت سنته*»

ورواية الفضل بن شاذان هذه لا يمكن قبولها على الاطلاق. فهل يمكن تخيل عثمان وهو يتهم أبا بكر وعائشة وحفصة بإحضار شاهد زور «أعرابي يتطهر ببوله» من اجل منع توريث فاطمة ؟ ومتى كان عثمان من المدافعين عن حق فاطمة في وراثة ابيها؟! ومسائل من قبيل تشبيه رسول الله (ص) لعثمان «بنعثل اليهودي» وتشبيه عثمان لعائشة وحفصة بامراتي نوح ولوط هي من قبيل الشتائم ليس إلاّ.

ورغم ذلك لا يمكن اتهام المصادر الشيعية بأنها وراء تلفيق هذه الروايات، بل هي موجودة بكثرة في غيرها. ولكن المصادر الشيعية أكثر استفاضة في ذكرها وتوسعاً في تفاصيلها وأشد تركيزا على الغريب منها.

طلحة هو زعيم المتمردين: يمنع عثمانَ الماءَ ويشرف على إطلاق النبال![1]

ولم تكتفِ المصادر بتحميل عائشة مسئولية التحريض على «نعثل»، بل

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1202-1199)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص57)، تاريخ الطبري (ج3 ص411)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص76)

انتقلت الى طلحة بن عبيد الله لتجعله يبدو في صورة القائد الميداني لجموع الثوار المحاصرين لعثمان! ومن ذلك :

روى ابن شبة في تاريخ المدينة عن الكلبي أن عثمان وهو محصور أرسل الى علي بن ابي طالب يشكو اليه طلحة لأنه «*قد قتلني بالعطش، والقتل بالسلاح أجمل من القتل بالعطش!*» وأن علياً بناءً على تلك المناشدة تدخل فذهب الى طلحة وطالبه بإدخال الماء الى عثمان فرفض وأجابه «*لا والله! ولا نعمة عين. لا نتركه يأكل ويشرب!*» وغير ذلك من روايات تقول ان عثمان بعث لعلي يقول له ان طلحة التيمي يريد أن يبتز بني عبد مناف ملكهم! ويقول له «*إن كنتُ مأكولاً فكُن خيرَ آكل. ولا تخلّ بينها وبين ابن فلانة - يريد طلحة*»

وذكر اليعقوبي في تاريخه «*وحصر ابن عديس البلوي عثمانَ في داره، فناشدهم الله. ثم نشد مفاتيح الخزائن، فأتوا بها الى طلحة بن عبيد الله، وعثمان محصور في داره*»

وروى ابن قتيبة في الامامة والسياسة «*ثم أقبل الأشتر النخعي من الكوفة في ألف رجل، وأقبل ابن أبي حذيفة من مصر في أربع مئة رجل. فأقام أهل الكوفة وأهل مصر بباب عثمان ليلاً ونهاراً، وطلحة يحرّض الفريقين جميعاً على عثمان. ثم إن طلحة قال لهم: ان عثمان لا يبالي ما حصرتموه ؟ وهو يدخل اليه الطعام والشراب فامنعوه الماء أن يدخل عليه*» وأضاف ان عثمان خاطب طلحة فرفض فك حصاره وقال له «*لأنك غيرت وبدّلتَ*» وعندها استنجد بعلي بعدما مُنِعَ الماء فاستجابَ وأرسل له ثلاث قرب مملوءة بالماء فلما وصلته احتجّ طلحة على عليّ «*وكان بينهما في ذلك كلامٌ شديد*».

وذكر الطبري في تاريخه في رواية عن الواقدي أنه عندما كان عثمان محاصراً في داره «*مَرّ طلحة بن عبيد الله فوقف فقال: أين ابن عديس؟*

فقيل: ها هو ذا.

قال فجاءه ابن عديس، فناجاه بشيء ثم رجع ابن عديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ولا يخرج من عنده.

قال: فقال لي عثمان: هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله. ثم قال عثمان: اللهم اكفني طلحة بن عبيد الله فإنه حمل علي هؤلاء وألبهم. والله اني أرجو أن يكون منها صفراً، وأن يسفك دمه. انه انتهك مني ما لا يحل له ...»

وطبعاً المصادر الشيعية لا تقل تاكيداً على اتهام طلحة مما أوردناه. فالشيخ المفيد في كتاب الجمل يضيف الزبير الى طلحة فيمن يتحملون مسؤولية قتل الخليفة. فيقول :

«ولما أبى عثمان أن يخلع نفسه تولى طلحة والزبير حصاره والناس معهما على ذلك فحصروه حصرا شديدا ومنعوه الماء.

وأنفذ إلى علي يقول: إن طلحة والزبير قد قتلاني من العطش، والموت بالسلاح أحسن!

فخرج معتمدا على يد المسور بن مخرمة الزهري حتى دخل على طلحة بن عبيد الله وهو جالس في داره يسوي نبلا وعليه قميص هندي فلما رآه رحب به ووسع له على الوسادة. فقال له علي عليه السلام: إن عثمان قد أرسل إلي إنكم قد هلكتموه عطشا وإن ذلك ليس بالحسن والقتل بالسلاح أحسن وكنت آليت على نفسي أن لا أرد عنه أحدا بعد أهل مصر وأنا أحب أن تدخلوا عليه الماء حتى تروا رأيكم فيه.

فقال طلحة: لا والله لا ننعمه عينا ولا نتركه يأكل ولا يشرب !

فقال علي (ع): ما كنت أظن أن أكلم أحدا من قريش فيردني. دعْ ما كنت فيه يا طلحة.

فقال طلحة: ما كنت أنت يا علي في ذلك من شيء .

فقام علي (ع) مغضبا وقال: ستعلم يا بن الحضرمية أكون في ذلك من شيء أم لا . ثم انصرف.

وروى أبو حذيفة بن إسحاق بن بشير القرشي أيضا قال حدثني/ يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: والله إني لأنظر إلى طلحة وعثمان محصور وهو على فرس أدهم وبيده الرمح يجول حول الدار وكأني أنظر إلى بياض ما وراء الدرع .

وروى أبو إسحاق قال: لما اشتد الحصار بعثمان عمد بنو أمية على إخراجه ليلا إلى مكة وعرف الناس فجعلوا عليه حرسا وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان.

قال: وأطلع عثمان وقد اشتد به الحصار وظمأ من العطش فنادى أيها الناس اسقونا شربة من الماء واطعمونا مما رزقكم الله! فناداه الزبير بن العوام: يا نعثل لا والله لا تذوقه!

وروى أبو حذيفة القرشي عن الأعمش عن حبيب بن ثابت عن تغلبة بن يزيد الحماني قال أتيت الزبير وهو عند أحجار الزيت فقلت له: يا أبا عبد الله قد حيل بين أهل الدار وبين الماء. فنظر نحوهم وقال: وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب»

وقد اوضح الشيخ المفيد فلسفته في رواية هذه الأخبار حين قال:

«فهذه الأحاديث في جملة كثيرة في هذا المعنى وهي كاشفة عما ذكرناه من أدخال القوم من التظاهر بطلب دم عثمان وهم تولوا سفكه ولم يظهر أحد منهم إلا الذم عليه، ولما بايع الناس عليا أظهروا الندم على ما فرط منهم وقرفوا بما صنعوا وأثاروا الفتنة التي رجع عليهم ما كانوا آملوه فيها منه وهو الظاهر منهم والباطن كان مخالفا للظاهر منهم فيما ادعوه بعثمان»

وهذه الروايات، من أي مصدر جاءت، ينبغي ردها وعدم الالتفات لها. فطلحة بن عبيد الله لم يكن زعيم الثوار المتمردين على عثمان، ولم يكن مسيطراً على تحركاتهم، ولم يكن آمراً ولا ناهياً. فهؤلاء لم يأتوا من الأمصار من أجل قتل عثمان وتأمير طلحة. بل وأكثر من ذلك: إن طلحة بنظر اولئك الثائرين صِنوٌ لعثمان ولا يختلف عنه كثيراً. فهو قرشيٌ مثله، ومن طبقة كبار الصحابة الذين استفادوا من حكمه وسياسته فأثرى ثراءً فاحشاً، فهو وجهٌ آخر لقريش فلمَ يضعون أنفسهم بتصرفه؟ وهل يستحق طلحة بنظر الثائرين تحمّل مشاق ومخاطر الثورة على الخليفة؟ وهل يمثل طلحة أصلاً أي أمل بسياسة مختلفة، وهو الذي ينتمي الى نفس النظام القرشي الذي أنتج عثمان؟

ثم ما الذي سيجنيه طلحة نفسه من الانضمام الى صفوف هؤلاء المتمرّدين القادمين من الأمصار؟ أي أمل يرجوه طلحة من هؤلاء المنتمين الى شتى قبائل العرب، الحانقين على قريش وحكمها؟ ولماذا يساهم طلحة في هدم نظام الحكم الذي أسسه عمر بن الخطاب، والذي هو شخصياً من كبار أعمدته ومرجعياته؟

ولستُ أنكر ان خلافاً أو اختلافاً قد ينشأ بين الرجلين، عثمان وطلحة. فهذا امرٌ مألوفٌ وطبيعي. وربما يكون طلحة مستاءً، أو حتى غاضباً، بسبب بعض قرارات عثمان. ولكن الاختلاف في الرأي بشأن مواقف معينة شيء، والمشاركة في قتل الخليفة وزعزعة نظام الحكم شيء آخر تماماً.

ولذلك أقول ان هذه الاخبار عن قيام طلحة بمنع الماء عن عثمان، أو برمي النبال تجاه بيته لا أساس لها من الصحة. وهدفُ مؤلفيها هو القدح بطلحة عن طريق القول ان انخراطه بحرب الجمل ضد الامام علي لم يكن له أي مسوّغ وأنه كان كاذباً في سعيه بالطلب بدم عثمان. وربما أراد مؤلفو هذه الاخبار الدفاع عن الامام علي في وجه التهم التي وجهت اليه بالتواطؤ بسبب انضمام قاتلي عثمان الى صفوفه، فكانت هذه وسيلتهم. فكأنهم أرادوا أن يقولوا لخصومهم: ليس عليٌّ المسؤول عن مقتل عثمان، بل هم رجلكم طلحة! ودليلنا هذه الاخبار.

الصحيح بشأن موقف كبار الصحابة الغاضبين على عثمان والخاذلين له[1]

من المفيد التأمل في الروايات التالية :

ورد في تاريخ المدينة لابن شبة عن عائشة انها قالت «*كان القوم يختلفون إليّ في عيب عثمان رضي الله عنه، ولا أراه إلاّ أنها معاتبة. فأما دمه فأعوذ بالله من دمه! والله لوددتُ اني عشتُ برصاء في الدنيا سائما وأني لم أذكر عثمان بكلمة قط*»

(1) مصادر البحث: الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص87)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1226)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص71)، تاريخ الطبري (ج3 ص410)، وترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص227).

روى ابن سعد في الطبقات الكبرى عن ابي جعفر القارئ مولى ابن عباس المخزومي، بعد ان ذكر المتمردين القادمين من مصر والكوفة والبصرة ومن انضم اليهم من الناس «*وكان أصحاب النبي(ص) الذين خذلوه كرهوا الفتنة وظنوا ان الأمر لا يبلغ قتله. فندموا على ما صنعوا في أمره. ولعمري لو قاموا، أو قام بعضهم فحثا في وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين*»

روى الطبري في تاريخه عن الواقدي عن ابي حبيبة قال «*نظرت الى سعد بن ابي وقاص يوم قتل عثمان دخل عليه ثم خرج من عنده وهو يسترجع مما يرى على الباب .*

فقال له مروان: الآن تندم أنت أشعرته

فأسمع سعدا يقول: أستغفر الله. لم أكن أظن الناس يجترؤون هذه الجرأة ولا يطلبون دمه. وقد دخلت عليه الآن فتكلم بكلام لم تحضره أنت ولا أصحابك فتزع عن كل ما كره منه وأعطى التوبة وقال: لا أتمادى في الهلكة. ان من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق فأنا أتوب وأنزع.....»

هذه النصوص الثلاثة هي خير ما يوضح حقيقة موقف كبار الصحابة من محنة عثمان. فهؤلاء كان لهم مآخذ على عثمان وسياساته، وكانوا يعارضون بعض قراراته ويطالبونه بالعودة عنها، ويريدون منه سلوكاً كعمر بن الخطاب. وكانوا بحكم منزلتهم الرفيعة في الدولة يتمتعون بجرأة وثقة بالنفس تدفعهم الى مواجهة الخليفة بالنقد، والنقد الشديد احيانا، مباشرة. وبحكم مكانتهم وشهرتهم كان الكثيرون من الرعية يلجؤون اليهم لتوصيل صوتهم الى الخليفة.

ولكن ذلك كله كان يجري في إطار نظام الحكم الذي أرسى دعائمه عمر بن الخطاب. فالمهاجرون القرشيون من كبار الصحابة هم قادة الدولة وهم الطبقة الحاكمة وهم الذين يتداولون الخلافة فيما بينهم.

ذاك هو الاطار الذي يحكم علاقتهم. وهم حين يختلفون يدركون أن العامة يتطلعون اليهم كقدوة وموجهين، وبالتالي يحلون خلافاتهم فيما

بينهم دون ان يسمحوا لغيرهم أن يندسوا فيما بينهم. أو هكذا ينبغي أن تكون الأمور. ولذلك كانت مفاجاتهم كبيرة حين وجدوا ان خلافاتهم قد خرجت عن نطاقهم وتوسعت لتصل الى العامة، وبالتالي أضحى من الصعب السيطرة عليها. ومن هنا نفهم معنى كلام عائشة «*لا أراه إلاّ انها معاتبة*» وقولها في مناسبة اخرى «*والله ما بلغ من ذنب عثمان أن يُستحل دمه*[1]» وقول سعد «*لم أكن أظن الناس يجترؤون هذه الجرأة*» وطلحة «*إن عثمان بن عفان كان من أهل السابقة والفضيلة من المهاجرين الأولين. وأحدث أحداثاً نقمناها عليه فباينّاه ونافرناه، ثم اعتب حين استعتبناه*[2]»، وغير ذلك من كلام يفهم منه أن كبار الصحابة لم يكونوا يتوقعون أن معارضتهم لعثمان ستساهم في تدهور الأمور بتلك الصورة الكارثية. فلم يكن يخطر ببال كبار الصحابة أن طعنهم في بعض سياسات وقرارات عثمان سيستخدمه آخرون كذريعة لقتل الخليفة. وقد سبق وأشرنا كيف ان معاوية بن ابي سفيان، بحسّ رجل الدولة الخبير والماهر، استشعر خطورة ذيوع الخلافات بين كبار الصحابة فوجه تحذيره لهم بضرورة الالتفاف حول عثمان والتوقف عن الطعن فيه.

موقف علي بن ابي طالب من مقتل عثمان[3]

التباسٌ وشبهات

يتميز موقف الامام علي من مقتل عثمان بالتعقيد الشديد، الى حدٍ أثار اللبس لدى الكثيرين من الماضين والحاضرين:

فنَسَبَهُ بعض الناس إلى الرضا بما صنعه الثائرون بعثمان ،

واتهمه آخرون بالتواطؤ والتأليب عليه،

---

(1) الإمامة والسياسة لابن قتية
(2) ترجمة علي بن أبي طالب في أنساب الأشراف للبلاذري (ص227)
(3) مصادر البحث: الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص58)، تاريخ الطبري (ج3 ص417+447+410 و ج4 ص4)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1221+1259+1263+1260+1262+1268+1267)، كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص285+ 263-265)، كتاب الجمل للشيخ المفيد (ص 106)، مروج الذهب للمسعودي (ج2 ص272)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص191)، وقعة صفين لنصر بن مزاحم(ص103)، نهج البلاغة بشرح محمد عبده، (ج1 ص62)، كتاب سليم بن قيس الهلالي (ج2 ص666)

وقال آخرون انه كان مقصراً فيما كان يجب لعثمان عليه،

وأكد آخرون انه كان كارهاً لكل ما جرى لعثمان من حصار وقتل، وأنه كان له مواليا وبأعماله راضيا ولكن العجز عن نصرته أقعده عنها .

والسبب في هذا اللبس والاضطراب في فهم حقيقة موقف علي ناجمٌ في الاساس عن أفعاله المختلفة مع عثمان:

فتارة ينكر عليه ما أنكره المسلمون، أشد الانكار

وتارة يدفع عنه وينهي عن قتله[1] القاصدين إلى ذلك من أهل الأمصار،

وتارة ينكر على مَن منعَهُ الماءَ ويغلظ لذلك ويغضب أشد الغضب[2] ،

وتارة يجلس في بيته وهو يرى الناس يهرعون إلى قتله ويطلبون دمه فلا يكون منه تدخل ولا نهيٌ عن ذلك، رغم أنه في ظاهر الحال مُطاعٌ مُعظمٌ مسموعُ الأمر مُتبعُ الرأي

كما أنه تولى الصلاة بالناس يوم النحر وعثمان محصورٌ ولم يستأذنه في ذلك[3]

---

(1) روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة (ج1 ص58):
«فبلغ عليا ان عثمان يراد قتله فقال :انا أردنا مروان، فأما قتل عثمان فلا . ثم قال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ولا تدعا احدا يصل اليه» وروى في موضع آخرأن عليا لما أرسل ابنه الى عثمان المحاصر«... دخل عليه الحسن بن علي فقال: مُرني بما شئت، فإني طوع يديك... فقال له عثمان: ارجع يا ابن اخي. اجلس في بيتك حتى يأتي الله بأمره»

(2) ذكر الطبري في تاريخه من طريق سيف «جاء علي في الغلس فقال: يا أيها الناس إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين! لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحلون حصره وقتله؟ قالوا: لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب! فرمى بعمامته في الدار بأني قد نهضت فيما أنهضتني فرجع»

(3) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي روايتين، تقول أولاهما «جاء المؤذن إلى عثمان فآذنه بالصلاة. فقال: لا أنزل أصلي، اذهب إلى من يصلي. فجاء المؤذن إلى علي، فأمر سهل بن حنيف فصلى اليوم الذي حصر فيه عثمان الحصر الآخر، وهو ليلة رؤي هلال ذي الحجة، فصلى بهم حتى إذا كان يوم العيد صلى عليّ العيدَ ثم صلى بهم حتى قتل رضي الله عنه» وتقول الثانية «جاء المؤذن سعد القرظ إلى علي بن أبي طالب في ذلك اليوم فقال: مَن يصلي بالناس ؟ فقال علي: نادِ خالدَ بن زيد، فنادى خالدَ بن زيد فصلى بالناس فإنه لأول يوم عرف أن أبا أيوب خالد بن زيد، فكان يصلي بهم أياما ثم صلى عليٌ بعد ذلك بالناس»

هذا مع هجره لعثمان أحيانا ومنازعته له حينا وصلحه أحيانا ومسالمته له حينا وتغليظ القول عليه أحيانا وسعيه في الصلح بينه وبين الناس زمانا وترك ذلك إلى الكف عنه زماناً آخر

ومما فاقم اللبس لدى الكثيرين ما روي عن الامام علي من أقوال عديدة بعد قتل عثمان مما تختلف ظواهرها وتشتبه معانيها .

كقوله مرة:: «*اللهم إني أبرأ إليك من دمه أن أكون قتلت أو مالأت على قتله*»[1].

وقوله حينا: «*الله قتل عثمان وانا معه*»[2]، وكذلك «*ألا ان الله قتله وأنا معه*»[3]

وقوله وقتا آخر: «*ما أمرتُ ولا نهيتُ ولا سرّني ولا ساءني قتل عثمان*»[4]

وقوله حيناً آخر: «*لقد نهيتُ عنه ولقد كنت له كارها ولكن غلبتُ*»[5]

وقوله: «*اللهم اكبب اليوم قتلة عثمان لمناخرهم*»[6]، وكذلك «*اللهم جلّل قتلة عثمان اليومَ خزياً*»[7]

وقوله عندما طالبه وفد الشام بقتلة عثمان: مَن قتل عثمانَ فليقُم، فقام أربعة آلاف من الناس المتحيزين إليه، فقال: هؤلاء قتلة عثمان!

وقوله في مناسبة أخرى: اللهم اقتل قتلة عثمان في برّ الأرض وبحرها، وكذلك «*اللهم العن قتلة عثمان في البر والبحر والسهل والجبل - ثلاثاً*»[8]

---

(1) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق كثير بن هشام
(2) روى ذلك ابن حبان في كتاب الثقات
(3) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة(ج4 ص1221) من طريق مجالد بن سعيد وفي (ص1259) من طريق عبد الله بن فضالة
(4) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق ابي خلدة الحنفي
(5) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق ابن عباس
(6) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق محمد بن الحنفية
(7) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق اسماعيل بن ابي خالد
(8) روى ذلك ابن شبة في تاريخ المدينة من طريق سالم بن ابي الجعد

وقوله «لا أقول انه قتل مظلوما ولا أقول انه قتل ظالما»[1]

والشبهة التي أثارها خصوم الامام علي حين قذفوه بدم عثمان ليست من فراغ:

فهو أخذ نجائب عثمان وأدراعه[2] بعد مقتله.[3]

كما لم يروَ أن علياً قد بادر الى محاولة الصلاة على عثمان أو تكفينه أو دفنه[4].

وهو طبعاً تصدى للخلافة وتقبل البيعة من بعده.

---

(1) روى ذلك الطبري في تاريخه (ج4 ص4)

(2) وقد اعترف الشيخ المفيد في كتاب الجمل بذلك، ولكنه قدم دفاعاً وجيهاً وحاراً عن الامام علي حين قال: *«وذلك أنه لو لم يقبض ذلك عليٌّ (ع) لأسرع إلى قبضه ونهبه وتملكه مَن ليس له ذلك بحق من الرعية واحتاط بقبضه وإحرازه لأربابه. وقد كان هو الإمام باتفاق الجمهور بعد عثمان وللأمام أن يحتاط لأموال المسلمين وتركات من قضى بينهم ليصل إلى مستحقيه دون غيرهم.*

وليس إذا التمس الوليد بن عقبة ما لا يستحق فمنع منه كان ذلك لغلول المانع له بما التمسه ولا لتغلبه عليه ولا قول الوليد أيضا مسموع ولا شهادته مقبولة مع نزول القرآن بتفسيقه...

وبعدُ فلو كانت الأدراع والنجائب التي قبضها أمير المؤمنين (ع) بعد قتل عثمان ملكاً له، لكان أولاده وأزواجه أحق بها من الوليد وكان ارتباط علي (ع) ليوصلها إلى ورثته أولى من تسليمها للوليد وأمثاله من بني أمية اللذين ليس لهم من تركة عثمان نصيب على حال، فكيف وقد ذكر الناس في هذه الأدراع والنجائب إنها من الفيىء الذي يستحقه المسلمون فغلب عليها عثمان واصطفاها لنفسه، فلما بايع الناس عليا انتزعها (ع) من موضعها ليجعلها في مستحقيها فما في ذلك من تهمة بقتل عثمان لولا العمى والخذلان»

(3) وفي ذلك شعرٌ مشهور للوليد بن عقبة بن ابي معيط يخاطب بني هاشم ويتهمهم عند قتل عثمان:

«بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ✽ ولا تنهبوه لا تحل مناهبُه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا ✽ وعند عليّ درعُه ونجائبُه
بني هاشم كيف التودد بيننا ✽ وتبر ابن أروى فيكم وجوائبه
بني هاشم إنا وما كان منكم ✽ كصدع الصفا ما يومُض الدهر شاعبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه ✽ كما غدرت يوما بكسرى مرازبُه
فإن لم تكونوا قاتليه فإنه ✽ سواء علينا مسلموه وسالبُه»

وقد ورد هذا الشعر، باختلافات يسيرة، في عدة مصادر منها مروج الذهب للمسعودي.

(4) سوف يأتي الحديث عن دفن عثمان بالتفصيل.

كما أن السيرة العملية لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب توضح أنه لم يبعد نفسه بما فيه الكفاية عن أوساط الثائرين القادمين من الأمصار والذين كان قاتلوا عثمان من بينهم. لقد بَدا عليٌّ قريباً جداً منهم، فلم يبعدهم عنه، وكانوا من الدائرة المحيطة به.

وينبغي التنويه الى أنه عند التدقيق في سيرة الإمام علي، يمكن التأكيد على أنه لم يصدر عنه، طوال فترة حكمه، ما يشير إلى أي جديةٍ في اتخاذ أي خطواتٍ عقابية تجاه مجمل الثائرين على عثمان. فلم يقم بأي إجراءات عملية لمحاسبتهم.[1]

كما يلاحظ أن علياً قام، عن علمٍ وإرادة، بتعيين عدد من الأشخاص المتهمين بقتل عثمان في مناصب مهمّة في حكومته، واعتمد عليهم في إدارته. وطبعاً كان الثائرون يرون في سياسة الخليفة عليّ تلك إقراراً منه لهم على تصرفاتهم.

كما كان لدى علي رأي ايجابيٌّ بحق بعض الشخصيات القيادية التي تزعمت الثورة على عثمان[2]

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أنه كان هناك ارتباط عاطفيّ وثيقٌ لمجمل الثائرين على عثمان بشخص عليّ بن أبي طالب.[3]

---

(1) فمثلًا روى السيوطي في تاريخ الخلفاء أنه بعد بيعته

«جاء علي الى امراة عثمان فقال لها: من قتل عثمان؟

قالت: لا أدري! دخل رجلان لا أعرفهما، ومعهما محمد بن ابي بكر. وأخبرت علياً والناس بما صنع محمد.

فدعا عليٌّ محمداً، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان؟

فقال محمد: لم تكذب. قد والله دخلتُ عليه وأنا أريد قتله، فذكرني أبي، فقمتُ عنه وانا تائبٌ الى الله تعالى. والله ما قتلته ولا أمسكته.

فقالت امرأته: صدق! ولكنه أدخلهما»

فحسب هذه الرواية اكتفى عليٌّ بجواب محمد، ولم يقم بسؤاله عن شركائه في الاقتحام، ولم يقم بأي بتحقيق جدي حول الأمر.

(2) وقد سبق وذكرنا الكتاب الذي أرسله عليٌّ الى اهل مصر عندما ولى عليهم الأشتر وكيف وصفه فيه بأروع الأوصاف التي لا يمكن أن تصدر إلاّ عن رأي بالغ الإيجابية بحقه. والاشتر كما هو معروف من أبرز قادة الثائرين على عثمان.

(3) فمثلًا روى نصر بن مزاحم في وقعة صفين نصاً يعبّر فيه عمرو بن الحمق الخزاعي،

وقد ظهر من عليّ، أثناء توليه الخلافة، ما يشير إلى تهوينه من موضوع قتل عثمان بجملته. فالأمر هامشيٌ بنظره وليس له الأولوية، ولا بأس بتأجيل النظر فيه إلى ما بعد أن تستتب أموره في الحَكم. (1)

وهذه الأمور مجتمعة، وهي بالتعبير الامني والقضائي الحديث «ظروف تجلب الشبهة»، مكّنَت خصوم علي الكثر من القول إنه متورّطٌ بقتل عثمان عن طريق الإيعاز بذلك إلى أتباعه هؤلاء. وعلى أقل تقدير إنه زعيم القتلة والغوغاء الذين هاجموا عثمان.

فما حقيقة موقف عليّ؟

من مجمل القرائن والادلة، المستندة الى عموم الروايات والاخبار والى وقائع الاحداث، يمكن الاستنتاج انه :

- اتخذ عليٌ موقفاً سلبياً من عثمان. والسلبية هنا لا تعني اللامبالاة تجاه شؤون الحكم والخلافة التي تهم كل المسلمين، ولكن تعني أنه نأى بنفسه عن الخليفة وحرص على تأكيد عدم إرتباطه بسياساته وقراراته. فعليٌ لم ينصر عثمان، أي أنه لم ينافح عنه، لم يبرر أخطاءه، لم يتصدّ لجموع المتمردين لثنيهم عن مطالبهم ولم يحاول اقناع المتمردين بأن الخليفة مظلومٌ أو ان ما وصلهم عنه باطل. ويعبّر هذا الموقف

وهو من المتهمين بقتل عثمان، عن أسباب ولائه لعليّ بأسلوب عاطفيّ أخّاذ. فقال له أثناء الاستعداد للسير إلى صفين *«إني والله يا أمير المؤمنين ما أحِبّكَ ولا بايعتكَ على قرابةٍ بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينيه، ولا التماس سلطان يُرفع ذكري به. ولكن أحبّك لخصالٍ خمسٍ: أنك ابن عم رسول الله(ص) وأول مَن آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد(ص)، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله(ص)، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد. فلو أني كلفتُ نقلَ الجبال الرواسي، ونزحّ البحور الطوامي، حتى يأتي على يومي في أمرٍ أقوى به وليّك، وأوهن به عدوّك، ما رأيتُ أني قد أديتُ فيه كل الذي يحق عليّ من حقك»*

(1) هناك بعض الإشارات إلى أن علياً كانت لديه النية في إجراء نوع من المحاكمة للأشخاص الضالعين مباشرة بقتل عثمان، ولكن حسب الأصول الشرعية تماماً، وأولها أن يتقدم ذوو عثمان بطلب له، بوصفه الخليفة المسؤول، بالقصاص من هؤلاء الذين قتلوا عثمان بدون قاضٍ ولا محكمة. وهذا ما لم يحصل. والمحكمة بنظر عليّ يجب أن تقوم على الأدلة والقرائن والشهود، وأن يتم تحديد كل متهم بذاته.

السلبي من عثمان عن إحباطٍ شديد من جانب عليّ تجاه سياسات الخليفة على مدى سنين طويلة، وعجزه عن التأثير الإيجابي عليه.

- كان عليٌّ يؤيد مطالب المتمردين ويراها محقة وعادلة[1].
- كان عليٌّ يرى أن أساس المشكلة يكمن في عثمان نفسه، لا في المتمردين. والحل هو بيد عثمان لا غيره.
- بذل عليٌّ جهده للوساطة بين المتمردين والخليفة. ولكنه لم يكن محايداً تماماً بل كان أقرب الى المتمردين في مسعاه ذاك. فوساطة علي كانت تنصب على التوصل الى اتفاق يلتزم فيه عثمان بالاستجابة للمطالب العادلة للمتمردين مقابل عودتهم الى ديارهم. وقد نجح عليٌّ في التوصل الى اتفاق لحل الأزمة ولكن جهوده في النهاية ضاعت سدى بسبب تراجعات عثمان وتصرفات البطانة الأموية المحيطة به. ولا شك أن الإخلال بالإتفاق الذي توسّط به من طرف عثمان جعل علياً يرفع يديه تماماً ويعتزل الأمرَ. فهو قد عمل الذي عليه، وأراح ضميره ولا يمكنه فعل المزيد ما دام الخليفة مسلماً زمام أمره الى مروان بن الحكم وامثاله.[2]
- كان عليٌّ يستند الى الاسس الشرعية تماماً في موقفه. فهو يرى ضرورة المحاكمة قبل اصدار أي حكم. والمحاكمة لا بد أن تستند الى القرائن والحجج والأدلة ولا بد أن يتاح فيها للمتهم الفرصة العادلة للدفاع عن نفسه.[3]

---

(1) وقد تطرقنا في فصل «علاقة علي بعثمان» الى خلفيات وتفاصيل مآخذ علي على الخليفة التي تراكمت على مدى سنوات حكمه.

(2) روى الطبري في تاريخه من طريق الواقدي أن الامام عليا أجاب سعد بن ابي وقاص حين طالبه بنصرة عثمان :
«يا أبا إسحاق والله ما زلت أذبّ عنه حتى إني لاستحي ا ولكن مروان ومعاوية وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص هم صنعوا به ما ترى فإذا نصحته وأمرته أن ينحيهم استغشني حتى جاء ما ترى»

(3) روى ابن حبان في كتاب الثقات أن الامام عليا لما سمع بخبر مقتل عثمان توجه الى بيته فوجده مقتولاً

- وبناء على ذلك عارض عليٌّ الاتجاه المتطرف في صفوف المتمردين والذي بدأ يجنح الى التخلص من الخليفة بأي وسيلة حتى لو كانت القتل[1]. فكما سبق لعلي أن عارض ما فعله عبيد الله بن عمر من قتل لمن اشتبه بتآمرهم على اغتيال والده دون دليل، هو الآن يعارض أن يقوم البعض بقتل عثمان دون حكم شرعي.
- رفض عليٌّ التصرفات القاسية التي مارسها المتمردون في المرحلة الاخيرة من هجومهم على عثمان، وبالأخص مسألة حرمانه من الماء. وقد أصرّ عليٌّ على ايصال الماء الى عثمان، ولو كان في ذلك مخاطرة عليه أو على ابنائه.

وقد لخّص عليٌّ، فيما بعد وهو خليفة، موقفه من عثمان بقوله[2]: «*لو أمرتُ به لكنتُ قاتلاً، أو نهيتُ عنه لكنتُ ناصراً. غير أن مَن نَصَرَهُ لا يستطيع أن يقول خذلهُ مَن أنا خيرٌ منه، ومَن خذله لا يستطيع أن يقول نصرَهُ من هو خيرٌ مني.*[3]

وأنا جامعٌ لكم أمره: استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع، ولله حكمٌ واقع في المستأثر والجازع»

«... *ثم خرج وهو غضبان يسترجع.*
فلقيه طلحة بن عبيد الله فقال ما لك يا أبا الحسين؟
فقال علي: يقتل أمير المؤمنين رجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من غير أن تقوم عليه بينة ولا حجة؟!
فقال له طلحة لو دفعه مروان إليهم لم يقتلوه.
فقال علي لو خرج مروان إليكم لقتلتموه قبل أن يثبت عليه حكومة...»

(1) روى ابن حبان في كتاب الثقات انه لما تسوّر المتمردون الدار وقتلوا عثمان ثم خرجوا، خرجت زوجته وأخبرت الناس فكان «*أول من دخل عليه الحسن والحسين فزعين وهما لا يعلمان بالكائنة، وكانا مشغولين على الباب ينصرانه ويمنعان الناس عنه. فلما دخلوا وجدوا عثمان مذبوحا ...*» وأضاف انه لما بلغ الخبرُ علياً غضب ولام ابنيه قائلاً لهما «*كيف قتل أمير المؤمنين وانتما على الباب؟ قالا: لم نعلم.....*»

(2) نهج البلاغة، بشرح محمد عبده

(3) وقد شرح الشيخ محمد عبده هذه الجملة كما يلي «*أي أن الذين نصروه ليسوا بأفضل من الذين خذلوه، لهذا لا يستطيع ناصرُه أن يقول إني خيرٌ من الذي خذله ولا يستطيع خاذله أن يقول إن الناصر خيرٌ مني. يريد أن القلوب متفقة على أن ناصريه لم يكونوا في شيء من الخير الذي يفضلون به على خاذليه*»

وهذا النص يوضح اعتقاد علي أن عثمان قد أودى به سوء عمله وفساد سياسته، وذلك ظاهرٌ من قوله: استأثر فأساء الاثرة، ولذلك لم يستحق النصرة بنظره. وقوله «جزعتم فأسأتم الجزع» يشير الى انتقاد علي لحالة الهيجان التي صار عليها جموع الثائرين والتي أدت الى قتل عثمان بتلك الطريقة القاسية.

وختاماً من المفيد ايراد نص من كتاب سليم بن قيس الهلالي وفيه أن الامام علياً قال:

«إن عثمان لا يعدو أن يكون احد رجلين:

إما أن يكون دعا الناسَ الى نصرته فلم ينصروه

وإما أن يكون القوم دعوهُ الى ان ينصروه فنهاهم عن نصرته.

فلم يكن يحلّ له أن ينهى المسلمين عن أن ينصروا إماماً هادياً مهتدياً لم يحدث حدثاً ولم يُؤوِ مُحدثاً. وبئس ما صنع حين نهاهم! وبئس ما صنعوا حين أطاعوه!

وإما أن يكون جوره وسوء سريرته قضى أنهم لم يروه أهلاً لنصرته لجوره وحكمه بخلاف الكتاب والسنة»

موقف المدينة المنورة: الأنصار[1]

لم تكن أعداد الثوار القادمين من الأمصار بالغة الضخامة. ومن المرجح أنه لو كانت لعثمان قاعدة معقولة من التأييد في داخل المدينة لكان بالإمكان صدّ الثوار وردّهم عن الخليفة. ولكن الذي حصل أن المدينة تركت عثمان يواجه مصيره وهو شبه وحيد.

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج3 ص400–414 + ص438–440+ ص452 + ص307)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج45 ص477 + ج50 ص180)، تاريخ ابن خلدون (ج2 ص143)، الاستيعاب لابن عبدالبر (ص123+ ص169+ص230 + ص550)، اسد الغابة لابن الاثير (ج1 ص382 و ج2 ص178)، التاريخ الصغير للبخاري (ج1 ص101)، سير اعلام النبلاء للذهبي (ج2 ص435)، مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (ج2 ص262+ ص272)، تاريخ خليفة بن خياط (ص128–129)، البداية والنهاية لابن كثير (ج7 ص197)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص68 +ص70)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص174–175)، كتاب العلل لأحمد بن حنبل (ج2 ص5)، وتاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري (ج3 ص1005).

فالمدينة المنورة، بالإجمال، بقيت تراقب الخليفة وما يتعرّض له من تهديد خطير، دون أن تبدي حراكاً، ودون أي جهدٍ يُذكر للدفاع عنه أو حمايته. وحتى عندما قام الثوار بإنزال عثمان عن المنبر وشتموه وطردوه من مسجد رسول الله(ص) وحصروه في بيته لأكثر من أربعين يوماً، لم تقم المدينة بأي شيء عمليّ للتخفيف من محنته.

ويمكن القول أن عموم الانصار من اهل المدينة قد نظروا الى الخليفة نظرة هي مزيجٌ من التشفي (بالحاكم الظالم) والشفقة (على الرجل العجوز) واللامبالاة (أودى به سوء عمله).

كما يمكن القول ايضا ان استياء أهل المدينة من الخليفة يرجع في جزء كبير منه إلى السياسة القرشية العامة، والأموية الخاصة، التي كان ينتهجها عثمان، والتي أخذت ترجمتها العملية في تهميش عموم الأنصار وإبعادهم عن مراكز التأثير والقرار. وكان ما يرونه من فساد ماليّ وإداري، وانحراف عن مبادئ العدالة، والتمييز في تطبيق الحدود الشرعية[1]، مما يفاقم من المشاعر السلبية لأهل مدينة الرسول تجاه عثمان. وقد كانت بطانة الخليفة من الأسباب الرئيسية لغضب أهل المدينة، حتى صار إقصاءُ الفاسدين الذين وضعهم عثمان في أغلى المناصب مطلباً عاماً للناس، وللأنصار منهم بالتحديد، وهم الذين شعروا بالتمييز ضدهم في مدينتهم هم بالذات. ويضاف الى ذلك كله ايضا رواسب ما جرى يوم السقيفة من جدالات عاصفة خاضها زعيم الانصار سعد بن عبادة، مع رؤساء مهاجري قريش، أسفرت في النهاية عن انفرادهم بالحكم. ويلاحظ أن الفرع الخزرجي من الأنصار، وهم قوم سعد بن عبادة، كانوا أكثر تشدداً بمواقفهم تجاه الخليفة. وربما كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعيمهم القديم من نفيٍ قاسٍ الى الشام ووفاة غامضة هناك.

---

(1) وقد مر بنا كيف أن عبد الرحمن بن عديس البلوي (تاريخ الطبري ج3 ص307)، وهو أحد المتهمين الرئيسيين بقتل عثمان، قال في معرض شرحه لأسباب الثورة على عثمان «..... *ثم ذكروا أشياء مما أحدث في المدينة وما خالف به صاحبيه*» مما يدل على اشتهار انحرافات عثمان ومخالفاته حتى لسياسات ابي بكر وعمر.

شخصيات الانصار الذين انضموا الى صفوف الثوار

وتذكر المصادر أسماء شخصياتٍ من الانصار ممن لم يكتفوا بالمراقبة والمتابعة السلبية لتطورات الهجوم على عثمان، بل انتقلوا الى المساهمة الفعلية في نشاطات الثوار ومساعدتهم والتحريض على الخليفة.

وفي تاريخ الطبري ترد أسماء ثلاثة منهم :

فعن ابن اسحق انه بعد وساطة علي بن ابي طالب بين الخليفة والثوار «فلما مضت الايام الثلاثة وهو على حاله لم يغير شيئا مما كرهوه ولَم يعزلَ عاملاً، ثار به الناسُ وخرج عمرو بن حزم[1] الانصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خشب فأخبرهم الخبرَ وسارَ معهم حتى قدموا المدينة»

وعن جعفر المحمدي «فلم يزل الناس يقتلون حتى فتح عمرو بن حزم الانصاري باب داره، وهو الى جنب دار عثمان بن عفان، ثم نادى الناسَ عليهم من داره فقاتلوهم في جوف الدار»

وعن الواقدي «كان أول مَن اجترأ على عثمان بالنطق السيء جبلة بن عمرو[2] الساعدي، مرّ به عثمان وهو في نادي قومه، وفي يد جبلة بن عمرو جامعة. فلما مرّ عثمان سلم فرَدّ القومُ. فقال جبلة: لِمَ تردّون على رجل فعل كذا وكذا؟ ثم أقبل على عثمان فقال: والله لأطرحنّ هذه الجامعة في عنقك أو لتتركنّ بطانتك هذه!

فقال عثمان: أي بطانة؟ فوالله اني لا أتخير الناس .

(1) وبشأن خلفية هذه الشخصية الانصارية، يمكن الرجوع الى ما ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ان عمرو بن حزم الانصاري، وهو من بني مالك بن جشم بن الخزرج، كان من صغار الصحابة وانه شهد مع النبي(ص) الخندق وأضاف «استعمل رسول الله(ص) عمرو بن حزم على نجران وبني الحارث وهو يومئذ ابن 17 سنة. فخرج مع وفدهم يفقههم ويعلمهم السنة ومعالم الاسلام ويأخذ منهم صدقاتهم. وكتب لهم كتاباً عهد اليه فيه وأمره بأمره كتاباً مشهوراً عند اهل العلم»

ولم يشر ابن عساكر في ترجمته الى موضوع حصار عثمان ومقتله.

(2) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «كان جبلة بن عمرو فاضلًا من فقهاء الصحابة. وشهد جبلة بن عمرو صفين مع علي رضي الله عنه. وسكن مصر»

فقال: مروان تخيّرته، ومعاوية تخيّرته، وعبد الله بن عامر بن كريز تخيّرته، وعبد الله بن سعد تخيرته. منهم مَن نزل القرآن بلعنه، وأباح رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه.

قال: فانصرف عثمان. فما زال الناس مجترئين عليه إلى هذا اليوم»[1]

وعن جعفر المحمدي انه أثناء الهجوم على عثمان« *حمل رفاعة بن رافع*[2] *الانصاري، ثم الزرقي، على مروان بن الحكم فضربه فصرعه، فنزل عنه وهو يرى انه قد قتله»*

وكذلك يجب الاشارة الى الحجاج بن عمرو[3] الانصاري، فهو قد شارك الثوار في الهجوم الفعلي على الخليفة واقتحام بيته.

فقد ذكر ابن الاثير وابن عبد البر في ترجمته «*وهو الذي ضرب مروان يوم الدار حتى سقط، وحمله ابو حفصة مولاه وهو لا يعقل*»[4]

واما البلاذري في أنساب الأشراف فقد ذكر أربعة أسماء من اهل المدينة انضموا الى صفوف المهاجمين. فقال نقلاً عن ابي مخنف أن الثوار لما اتوا دار عثمان «*وثب معهم رجال من اهل المدينة منهم: عمار بن ياسر العنسي، ورفاعة بن رافع الأنصاري -وكان بدرياً- والحجاج بن غزية -وكانت له صحبة- وعامر بن بكير أحد بني كنانة، فحصروا عثمان الحصار الأول»*

---

(1) وورد ذلك أيضا بنصّه في البداية والنهاية لابن كثير .

(2) قال عنه ابن عبد البر في الاستيعاب «*شهد بدراً وأحداً وسائر المشاهد مع رسول الله(ص). وشهد معه بدراً أخواه خلاد ومالك ابنا رافع، شهدوا ثلاثتهم بدراً، واختلف في شهود ابيهم رافع بن مالك بدراً. وشهد رفاعة بن رافع مع علي الجمل وصفين*»
ورفاعة بن رافع بن مالك كان أبوه من النقباء الاثني عشر في بيعة العقبة. وجاء في ترجمته في أسد الغابة لابن الأثير أنه شهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان والمشاهد كلها مع الرسول(ص).

(3) ذكر ابن الاثير في اسد الغابة ان اسمه الحجاج بن عمرو بن غزية الانصاري الخزرجي، من بني مازن بن النجار.
وأضاف «*قال البخاري: له صحبة. روى عنه عكرمة مولى ابن عباس وكثير بن العباس وغيرهما... وشهد مع علي صفين. وهو الذي كان يقول عند القتال: يا معشر الانصار: أتريدون أن نقول لربنا اذا لقيناه إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا*»
وروى ابن عبد البر في الاستيعاب مثل هذه المعلومات، دون الجزء الأخير الذي يتحدث فيه عن كلامه للأنصار. وقال ابن عبد البر انه روى حديثين عن النبي(ص).

(4) ولكني لم أجد ذكره في احداث مقتل عثمان لدى الطبري ولا في الكامل لابن الاثير .

كما ورد ذكر لاسمين آخرين من الأنصار ممن قاموا بمنع دفن الخليفة عثمان في مقبرة البقيع، وهما أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني، وقالوا «*لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً*». روى ذلك الطبري من طريق الواقدي.

وذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى رواية نقلا عن مجاهد يبدو فيها وكأنه يبرر المذبحة التي تعرض لها أهل المدينة عام 62 للهجرة على أساس أنها انتقام عادل لموقفهم تجاه عثمان قبل 27 سنة «*وبعث يزيد إلى أهل المدينة عشرين ألفاً، فأباحوا المدينة ثلاثاً يصنعون ما شاؤوا لمداهنتهم*»

وأهمية هذا النص أنه يشير الى شيوع خبر تخلي المدينة المنورة عن عثمان ورسوخ تلك القناعة لدى الحكام من بني أمية، بل ولدى المؤرخين اجمالاً. فذلك صار من المسلمات.

التيار العثماني في صفوف الانصار:

ولكن عثمان لم يعدم من يتعاطف معه في المدينة. وقد كان هناك تيار صغير في صفوف الانصار ممن يمكن وصفهم بـ«العثمانية».

وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه أسماء أشهر هؤلاء:

«*... ولما كثر هذا الطعن في الأمصار وتواتر بالمدينة وكثر الكلام في عثمان والطعن عليه وكان له منهم شيعة يذبون عنه مثل زيد بن ثابت[1] وأبي أسيد الساعدي و كعب بن مالك[2] وحسان بن ثابت فلم يغنوا عنه...*»

---

(1) كان زيد بن ثابت على علاقة ممتازة مع عثمان إلى درجة أن عثمان قد عهد له بمهمة في غاية الخطورة، وهي نسخ المصحف. وقد سبق وناقشنا كيف كان اختيار عثمان لزيد، على صغر سنّه ومنزلته في الإسلام، قد أثار غضب القارىء الشهير عبد الله بن مسعود الذي قال «*يا معشر المسلمين! أعزل عن نسخ كتاب المصاحف فيولاها رجل والله لقد أسلمتُ وإنه لفي صُلب رجل كافر*» كما ورد في تاريخ المدينة المنورة لابن شبة النميري .

(2) وكعب بن مالك هذا كان من الثلاثة الذين تخلفوا عن الرسول(ص) يوم تبوك، فنزلت فيهم الآية القرآنية. ذكر ذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق.

وربما أخذ ابن خلدون معلوماته من البلاذري الذي قال في رواية عن الواقدي (أنساب الأشراف ج6 ص175) «*ولم يكن احد من أصحاب رسول الله (ص) يدفع عن عثمان ولا ينكر ما يقال فيه إلاّ زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعدي، وكعب بن مالك بن أبي كعب من بني سلمة من النصار، وحسان بن ثابت الأنصاري*»

وقد ذكر الإمام البخاري في التاريخ الصغير عن ابن شهاب قال «*بلغني ان كعب بن مالك قال: يا معشر الانصار كونوا أنصار الله مرتين، يعني في أمر عثمان*»

وهؤلاء الذين تعاطفوا مع عثمان كانوا في الواقع من القلّة من أهل المدينة الذين استفادوا من عثمان وحُكمِه.

فزيد بن ثابت مثلاً كان من المستفيدين البارزين من حكم عثمان. فقد ذكر الطبري أن عثمان بن عفان كان قد ولّى زيد بن ثابت الديوان وبيت المال، كما ذكر أحمد بن حنبل عن قتادة «*إن زيد بن ثابت ترك ذهباً وفضة كسر بالفؤوس*»[1].

وقد حاول زيدٌ جهده لاقناع قومه من الانصار بتأييد عثمان في محنته، دون جدوى. روى الذهبي في سير اعلام النبلاء عن الواقدي «*لما حصر عثمان، أتاه زيد بن ثابت، فدخل عليه الدار. فقال له عثمان: أنت خارج الدار أنفع لي منك ها هنا، فذبّ عني!*

فخرج، فكان يذب الناس، ويقول لهم فيه، حتى رجع أناس من الانصار. وجعل يقول: *يا للأنصار! كونوا أنصارا لله مرتين، انصروه والله ان دمه لحرام*»[2]

---

(1) كتاب العلل لاحمد بن حنبل وتاريخ الطبري. كما تحدث المسعودي في مروج الذهب ومعادن الجوهر عن ثرائه فقال «*وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الاموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار*»

(2) وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن زيد بن ثابت قال لعثمان وهو محصور «*هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئتَ كنا أنصار الله مرتين*» وكذلك ذكر ابن سعد في طبقاته (ج3 ص70) في رواية لابن سيرين.

والانتماء العثماني لحسان بن ثابت امر لا يرقى اليه الشك. وقد شاعت وانتشرت قصائده التي يرثي فيها عثمان. وقد ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أن حسانا روى عدة قصائد فيها رثاء حارّ لعثمان وتحريض على الثأر له .

ومن ذلك قصيدة حسان المشهورة التي يقول فيها :

من سرّه الموت صرفاً لا مزاج له فليأتِ مأدبة في دار عثمانا

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به يقطّع الليل تسبيحاً وقرآنا

الى أن يقول محرضاً أهل الشام على الثأر لعثمان:

لتسمعنّ وشيكاً في دياركُمُ الله أكبرُ يا ثارات عثمانا

وذكر قصائد أخرى لحسان منها :

قتلتم وليّ الله في جوف داره وجئتم بأمرٍ جائرٍ غير مهتدِ

فلا ظفرت أيمانُ قومٍ تعاونوا على قتل عثمان الرشيد المسددِ

وكذلك الانتماء العثماني لكعب بن مالك أمرٌ مسلمٌ به. وقد ذكر ابن عبد البر أنه رثاه بشعر كثير ومنه قصيدة يقول فيها :

إني رأيتُ قتيلَ الدار مضطهداً عثمانُ يُهدى الى الأجداث في كفنِ

يا قاتل الله قوماً كان أمرُهُمُ قتل الإمام الزكيّ الطيب الردنِ

ما قاتلوه على ذنبٍ ألمّ به إلاّ الذي نطقوا زوراً ولم يكنِ

وفي تاريخ الطبري أن عبد الله بن الحسن قد فسّر الموقف العثماني لثلاثة من هؤلاء بقول :

«أما حسان فكان شاعرا لا يبالي ما يصنع.

وأما زيد بن ثابت فولاه عثمان الديوان وبيت المال فلما حصر عثمان قال: يا معشر الأنصار كونوا أنصار الله مرتين. فقال أبو أيوب (الانصاري): ما تنصره إلا أنه أكثر لك من العضدان!

فأما كعب بن مالك، فاستعمله على صدقة مزينة وترك ما أخذ منهم له»

وأنا أضيف الى كلام عبد الله بن الحسن بشأن حسان بن ثابت: إنه رغم شهرة حسان في الذب عن رسول الله(ص) بشعره تجاه قصائد الهجاء التي كانت تنهال على رسول الله(ص) من شعراء قريش، مما كان يدخل السرور الى نفسه(ص)، إلاّ أن ذلك لا يغيّر من حقيقة كون حسان شاعراً محترفاً ممن أجادوا البيان واستخدام الأوزان والكلمات لا غير. فلم يكن حسان ممن اشتهر بالورع والتقوى، ولا بالجهاد والبطولة، ولا بحسن السيرة والسلوك. بل على العكس: فقد كان معروفاً بجبنه الشديد الذي كان يجعله يقبع مع النساء والاطفال حين يخرج الرجال ليجاهدوا مع رسول الله(ص) في أيامه، وكان ممن تورط في حادثة الافك حين قذفوا زوجة النبي(ص) عائشة فأقيم عليه الحد. وكان الرسول (ص) يعلم ذلك ولكنه يكتفي منه بما يجيده ويتقنه: الشعر، لحاجته اليه. وشخصٌ من هذا النوع يمكن بكل سهولة للحاكم ان يستميله ويسترضيه بأيسر الأثمان. ويبدو أن عثمان كان يصله ويقربه، فذاك ليس غريباً على خليفة كعثمان ممن فاضت عطاءاته على الكثيرين.

ولذلك ليس غريباً على حسان ان يوجه ذلك الاتهام الصريح لعلي بن ابي طالب بقتل عثمان حين قال في قصيدته المشهورة[1]:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن عليّ وابن عفانا[2]

وقد تلقف معاوية هذا البيت واستخدمه كثيرا في حربه الدعائية ضد الامام علي.

ولم يكن للعثمانية هؤلاء دَورٌ فعال في الدفاع الفعلي عن عثمان. فهم حاولوا إقناع الثوار بالكف عن الخليفة، وإقناع أهل المدينة بعدم التعاطف معهم. ولم يتجاوزوا ذلك إلى خطوات عملية لحماية عثمان.

---

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي

(2) وقد استكر العلامة ابن عبد البر هذا الاتهام للامام علي. ولذلك عندما تطرق الى قصيدة حسان المشهورة قال وهو يومئ الى هذا البيت *«وزاد فيه أهل الشام أبياتاً لم أر لذكرها وجها»* - الاستيعاب (ص550).

وسوف نتطرق اكثر الى المزيد من الشخصيات ذات الميول العثمانية في الجزء الثاني من الكتاب عند الحديث عن بيعة علي بن ابي طالب والمتخلفين عنها.

****

لماذا لم يقاوم الخليفة؟ موقف عثمان من الذين حاولوا الدفاع عنه[1]

أجمعت روايات المؤرخين (منهم: البلاذري وخليفة بن خياط وابن سعد وابن شبة وابن قتيبة وابن عبد البر) على أن الخليفة قد رفض مقاومة المهاجمين وأصرّ على الذين عرضوا عليه النصرة ألاّ يشهروا سلاحهم للدفاع عنه. وتم التعبير عن ذلك الموقف بعبارات مختلفة، منها: «*عزمتُ على من رأى لنا عليه سمعاً وطاعة أن يلقي سلاحه*»[2] و«*قال لجميع من في الدار: انتم في حلّ من بيعتي. لا احب ان يقتل فيّ احد.*»[3] و«*إن أعظمكم عني غناءً رجلٌ كفّ يَدَهُ وسلاحَه*»[4] وما يشبهها من كلمات قالها عثمان لمن أرادوا أن يتصدّوا للذين يحاصرون الخليفة ويوشكون على الفتك به.

وهذا الموقف قد صدر بالفعل عن عثمان. ولا شك بانه قد قرر عدم المقاومة وطلب ممن ناصروه ألاّ «*تهراق فيه محجمة دم*»[5]. ولكن لماذا؟ وكيف يمكن للخليفة أن يجعل من نفسه لقمة سائغة لجموع المهاجمين ؟

تحاول بعض الروايات أن توحي بان السبب هو رأفة الخليفة بأتباعه وشفقته عليهم. وبعضها يرد الأمر الى إيمان عثمان بقضاء الله وقدره. وغيرها تتحدث عن معرفة عثمان بانتهاء أجله اعتماداً على كلام قاله له النبي (ص) بأنه يقتل مظلوماً.

---

(1) مصادر هذا البحث: أنساب الاشراف للبلاذري (ج6 ص191+ص195)، الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص58 وص54)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص70)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1194-1206-1208-1211)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 549)، تاريخ خليفة بن خياط (ص128-129)، وكتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص263-265).

(2) أنساب الاشراف للبلاذري

(3) الامامة والسياسة لابن قتيبة

(4) الطبقات الكبرى لابن سعد، وقريب منه لدى ابن شبة في تاريخ المدينة.

(5) الامامة والسياسة لابن قتيبة

لننظر الى هذه الرواية عن ابن سيرين[1]: *(كان مع عثمان يومئذ في الدار سبعمائة لو يدعهم لضربوهم ان شاء الله حتى يخرجوهم من أقطارها ....)*

فهل هذا معقول؟ لماذا يروي ابن سيرين مثل ذلك الكلام الذي لا يمكن لعاقل أن يصدقه؟ من الواضح ان هذه الرواية التي تتحدث عن 700 رجل كانوا مع عثمان نابعة من الاحساس بالحرج الذي انتاب ابن سيرين (وكثيرين آخرين) من مدى العزلة التي وجد بها عثمان نفسه بعد تخلي عموم الصحابة واهل المدينة عنه، فأراد ان يحفظ ماء الوجه «للخليفة الراشد» عن طريق القول انه لم يكن منبوذا. وإلاّ فكيف يسمح هؤلاء ال 700 مناصر للمتمردين بالدخول وقتل الخليفة حتى على فرض أنه أمرهم بالكف؟ ذلك أمر غير ممكن[2].

فما الحقيقة؟ وما السبب الذي جعل عثمان يتخذ ذلك الموقف السلبي؟

الجواب يتلخص في كلمة واحدة: اليأس. لقد فقد عثمان الأمل وأيقن أن مناصريه كانوا من القلة والضعف الى الحد الذي يجعل من العبث أن يطلب منهم القيام دونه في وجه المهاجمين. ولنا على ذلك شواهد عديدة. ومنها ما رواه ابن قتيبة في الامامة والسياسة من أن عثمان كتب كتابا موجها الى عموم المسلمين وأرسله مع نافع بن طريف الى مكة فقرأه على الناس في موسم الحج وفيه *«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عثمان أمير المؤمنين الى من حضر الحج من المسلمين. أما بعد: فإني كتبت اليكم كتابي هذا وأنا محصور، أشرب من بئر القصر، ولا آكل من الطعام ما يكفيني، خيفة ان تنفد ذخيرتي، فأموت جوعا انا ومن معي. لا أدعى إلى توبة أقبلها، ولا تسمع مني حجّة أقولها. فأنشد الله رجلا من المسلمين بلغه كتاب إلاّ قدم عليّ، فأخذ الحق في، ومنعني من الظلم والباطل»*

وهكذا فإن الخليفة يطلب النصرة والعون من عامة الناس، البعيدين،

---

(1) رواها عنه كل من ابن سعد في الطبقات الكبرى والبلاذري في انساب الأشراف.

(2) وهل تسع دار عثمان أصلاً لهذا العدد؟ واما ابن قتيبة في الامامة والسياسة فقد روى «*وكان معه في الدار مئة رجل ينصرونه*». ولكن حتى رقم ال 100 هذا لا يمكن تصديقه.

ويدعوهم اليه. فكيف يستقيم انه يأمر المحيطين به والراغبين في القيام دونه أن يكفوا؟ إلاّ أن يكون عثمان قدر أنه لا يجديه نفعا تأييد بضعة أشخاص وانه يلزمه تأييد عدد كبير من الناس. ظاهرٌ أن عثمان يئس من أهل المدينة لما رأى ان أشخاصا معدودين فقط مستعدون للدفاع عنه.

والرواية التالية للبلاذري[1] (أنساب الأشراف) توضح كذلك أن عثمان كان يأمر بالكف عنه يأساً من القدرة على صد المهاجمين، وأنه لو كان يرى أن له مناصرين حقيقيين لأمرهم بالقتال:

قال له الزبير بن العوام *«ان في مسجد رسول الله(ص) جماعة يمنعون من ظلمك ويأخذونك بالحق. فاخرج فخاصم القومَ الى أزواج النبي(ص). فخرج معه فوثب الناس عليه بالسلاح. فقال: يا زبير ما أرى احداً يأخذ بحق ولا يمنع من ظلم.*

ودخل، ومضى الزبير الى منزله»

ولنا ملاحظة أخرى حول الأشخاص الذين ناصروا عثمان في محنته وأعربوا عن استعدادهم للقتال في سبيله. فمعظم هؤلاء – على قلتهم – لم يكونوا جديين في إعلانهم عن الجاهزية للدفاع المسلح عن الخليفة. بل يبدو لي أنهم كانوا بصدد تسجيل موقف ليس إلاّ. وذلك بيّنٌ من طريقة كلامهم ومواقفهم الاستعراضية لإشهار السيف بوجه من يهددون عثمان. وإلاّ لماذا يصرّ هؤلاء على «الاستئذان» من عثمان ؟! الموقف لا يحتمل، والرجل مهددٌ في حياته بين لحظة وأخرى، ثم يأتي من «يسأله»: هل ندافع عنك ام لا؟! فلا يمكن أن يكون السائلُ جدياً، بل انه في الحقيقة يأتي وهو يعرف بأن جواب عثمان الأكيد سيكون أمراً بالكفّ، لأن عثمان لا يمكن أن يلقي بمحبّيه الى التهلكة. والنتيجة أن السائل يعطي نفسه عذراً بالقعود، ويُريح ضميره، عن طريق ذلك «الاستئذان» من عثمان ! وفي ذات الوقت يقول انه عمل ما عليه وكان مستعداً للتضحية لولا أن الخليفة منعه من ذلك!

---

(1) روى مثلها أيضاً ابن شبة في تاريخ المدينة .

ومن هؤلاء أبو هريرة.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب:

«وروى سعيد المقبري، عن ابي هريرة قال: إني لمحصور مع عثمان رضي الله عنه في الدار. قال: فرُمي رجلٌ منا فقلتُ: يا أمير المؤمنين، الآن طاب الضراب! قتلوا منا رجلاً.

قال: عزمتُ عليك يا أبا هريرة إلاّ رميتَ سيفك، فإنما ترادُ نفسي، وسأقي المؤمنين بنفسي.

قال أبو هريرة: فرميتُ سيفي لا أدري أين هو حتى الساعة»[1]

ومن هؤلاء ايضا عبد الله بن الزبير.

فقد ذكر ابن سعد في طبقاته رواية ابن أبي ملكية عن ابن الزبير*«قلتُ لعثمان: إن معك في الدار عصابة مستنصرة ينصر الله بأقل منهم فأذن لي فلأقاتل»*

وفي رواية أخرى -عن عروة بن الزبير- أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان *«قاتلهم! فوالله لقد أحل الله لك قتالهم»* وأنه *«قد كان عثمان أمّرَ عبد الله بن الزبير على الدار وقال عثمان: من كانت لي عليه طاعة فليُطع عبدَ الله بن الزبير»*[2]

وأما عبد الله بن عمر، فرغم ان هناك روايات تشير الى استعداده للقتال[3] إلاّ أن ذلك مستبعد لأنه لم يكن من نوعية الرجال المقاتلين أولاً، ولأن تلك الروايات وردت من طريق نافع مولاه الذي ربما أراد رفع شأن سيده. والأصح

---

(1) كلام أبي هريرة هنا وقوله *«الآن طاب أم ضراب»* وسيفه الذي ألقاه فلم يجده بعدها رواه بصيغ متباينة خليفة بن خياط في تاريخه و ابن سعد في طبقاته و ابن قتية في الامامة والسياسة و ابن شبة في تاريخ المدينة.

(2) وتظهر في الرواية محاولة عروة بن الزبير تعظيم شأن أخيه عبد الله أثناء حصار عثمان. وجزء من كلام ابن الزبير هذا نجده لدى خليفة بن خياط في تاريخه.

(3) ذكر خليفة بن خياط في تاريخه عن نافع *«ان ابن عمر كان يومئذ متقلداً سيفه حتى عزم عليه عثمان أن يخرج مخافة أن يقتل»* وذكر ايضا عن نافع ان ابن عمر «لبس الدرعَ يوم الدار مرتين»

أن ابن عمر اكتفى بإسداء النصح للخليفة بأن يتمسك بمنصبه ويرفض الاعتزال، كما مر معنا. كما روى ابن قتيبة[1] أن ابن عمر سأل عثمان «*يا امير المؤمنين: مع من تأمرني أن اكون ان غلب هؤلاء القوم عليك؟ قال: عليك بلزوم الجماعة...*» وذلك السؤال ليس ببعيد على ابن عمر.

وقد تلقى عثمان اقتراحات بتهريبه خلسة الى خارج المدينة، فرفضها. فقد روى ابن قتيبة[2] أن المغيرة بن شعبة دخل على عثمان فاقترح عليه ان يتم تهريبه عن طريق باب يُخرق له الى مكة او الى الشام.

وروى ابن شبة[3] ان اسامة بن زيد بعث مولاته ربطة الى عثمان ليقترح عليه أن يثقبوا له الدار ليخرج «*حتى تلحق مأمنك. حتى يقاتل من أطاعك من عصاك*» ولكن عثمان رفض. وفي رواية أخرى «*ودخل اسامة على عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، إن عندي ظهراً ظهيراً ورجالاً جلداً من قومي من هذا الحي من كلب. فاخرج معي حتى أقدم بك الشام على أنصارك. فيضرب المقبل المدبر*» ولكن عثمان رفض أيضاً.

وأما حديث بعض المؤرخين عن «فتية من قريش» دافعوا عن عثمان وخرجوا من بيته وقد تلطخوا بالدماء فلا يعدو كونه مبالغات هدفها القول بأن كبار الصحابة لم يتخلوا عن عثمان وأنهم إن لم يقوموا هم بأنفسهم بالدفاع عنه فقد أرسلوا أبناءهم. روى ابن حبان في كتاب الثقات «*قال عليٌّ للحسن والحسين: إذهبا بسيفكما حتى تقفا على باب عثمان ولا تدعا أحداً يصل إليه. وبعث الزبير ابنه، وبعث طلحة ابنه، وبعث عدة من أصحاب رسول الله(ص) أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا على عثمان.*

ورماه الناس بالسهام حتى خضب الحسن بالدماء، وتخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى علي»[4]

---

(1) الامامة والسياسة لابن قتيبة.
(2) الامامة والسياسة وايضا ابن شبة في تاريخ المدينة.
(3) تاريخ المدينة.
(4) وروى مثل ذلك ابن قتيبة في الامامة والسياسة وهنا يوجد تناقض لدى ابن قتيبة فهو نفسه روى في موضع آخر من كتابه ان طلحة كان يحرض الثوار على عثمان، فكيف يرسل ابنه للدفاع عنه معرضا حياته للخطر؟!

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب عن كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب قال «*شهدتُ مقتل عثمان. فأخرج من الدار أمامي أربعة من شبان قريش ملطخين بالدم محمولين، كانوا يدرؤون عن عثمان رضي الله عنه: الحسن بن علي*[1]*، وعبد الله بن الزبير، و محمد بن حاطب و مروان بن الحكم*»[2]

وتذكر بعض المصادر أسماء شخصيات أخرى، غير مشهورة، ممن عرضوا النصرة على عثمان. فمثلاً ذكر خليفة بن خياط في تاريخه اسمي «سليط بن سليط» و«عبد الله بن عامر بن ربيعة»[3] من ضمن هؤلاء.

دفاع ابن سلام عن عثمان: نبوءات من التوراة والقرآن ![4]

والمتتبع لأخبار المدافعين عن عثمان خلال تلك الأيام العصيبة يستطيع ان يميز موقف الصحابي عبد الله بن سلام عن غيره. فخلافاً للآخرين كان ابن سلام يتحدث بلهجة العارف اللبيب بما ستصير اليه الأمور، ويذكر أخباراً ونبوءات فيها تفاصيل مثيرة عن الله والملائكة ويوم القيامة لا يعرفها غيره.

---

(1) تبالغ بعض المصادر في إظهار مدى الدعم الذي تلقاه عثمان من الحسن بن علي بالذات. ومن ذلك رواية ابن شبة في تاريخ المدينة التي يبدو فيها الحسن محرضاً عثمانَ على القتال: قال له الحسن بن علي *فيا امير المؤمنين علام تمنع الناس من قتالهم؟ فقال: أقسمتُ عليك يا ابن اخي لما كففتَ يديك ولحقتَ باهلك. فلا حاجة لي في هراقة الدماء*»

(2) وأما ابن شبة في تاريخ المدينة فيذكر أسماء رجال بني أمية من ضمن «فتيان قريش» الذين دخلوا معه داره وهو محصور: «الحسن بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن زمعة، وولي سعيد بن ابي البختري، ومروان والحارث وعبد الرحمن بنو الحكم، وعبد الله بن داد بن أسيد، وعتبة بن ابي سفيان». ولنا حديث سيأتي بشأن مروان وبقية بني أمية أثناء تلك الأحداث.

(3) وايضا روى ابن سعد في طبقاته: قال عبد الله بن عامر بن ربيعة (*قال عثمان يوم الدار: إن أعظمكم عني غناءً رجلٌ كفّ يَدَهُ وسلاحَه*)

(4) مصادر هذا البحث: الامامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص58)، تاريخ الطبري (ج3 ص 421و ص264)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص 194)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص81)، كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ج2 ص420)، تاريخ المدينة لابن شبة النميري (ج4 ص1175-1185)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج44 ص335)، فتح الباري لابن حجر العسقلاني (ج13 ص42).

وفيما يلي استعراضٌ لبعضها:

ففي متابعة لروايات ابن قتيبة (الامامة والسياسة) حول المدافعين عن عثمان يقول: ان عبد الله بن سلام، الذي كان مع عثمان في الدار، أطلّ على المتمردين فوعظهم ونصحهم وألقى عليهم خطبة طويلة قال فيها ان الله سيغضب واثني عشر الفا من الملائكة سيتفرقون من حول المدينة إن قتل عثمان، وانه يجد في التوراة التي انزلت على موسى ان عثمان هو *«الخليفة المظلوم الشهيد»* ! فأجابه الناس *«يا يهودي: أشبع بطنك وكسا ظهرك»*

ويلاحظ كيف يحدد ابن سلام بدقة عدد الملائكة الذين سيتفرقون من حول المدينة! وكيف يؤكد على أن التوراة الحقيقية التي انزلت على موسى تتحدث عن عثمان المظلوم.

روى الطبري في تاريخه من طريق سيف:

«فأقبل عبد الله بن سلام حتى قام على باب الدار ينهاهم عن قتله وقال: يا قوم لا تسلوا سيف الله عليكم فوالله إن سللتموه لا تغمدوه. ويلكم إن سلطانكم اليوم يقوم بالدرة فان قتلتموه لا يقم إلا بالسيف. ويلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله والله لئن قتلتموه لتتركنها !

فقالوا يا ابن اليهودية! وما أنت وهذا؟ فرجع عنهم»

ورواية الطبري هذه أهون قليلا من رواية الامامة والسياسة. فهي لا تحدد عدد الملائكة الذين سيتركون المدينة إن قتل عثمان، رغم تأكيدها على الغضب الالهي.

وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء عن عبد الرازق في مصنفه *«كان عبد الله بن سلام يدخل على محاصري عثمان فيقول: لا تقتلوه، فوالله لا يقتله رجل منكم إلاّ لقى الله أجذم لا يد له، وان سيف الله لم يزل مغموداً، وانكم والله إن قتلتموه ليسلنه الله ثم لا يغمده عنكم أبداً. وما قتل نبي قط إلاّ قتل به سبعون ألفاً، ولا خليفة إلاّ قتل به خمسة وثلاثون ألفاً قبل أن يجتمعوا»*

وهنا يؤكد ابن سلام معرفته بعقاب قاتل عثمان يوم القيامة وكيف ستكون هيئته! كما يحدد أعداد الضحايا الذين سيسقطون من الأمة إن قتل الخليفة.

وقد روى ابن سعد بأسانيده في الطبقات الكبرى أقوال ابن سلام:

«قال أخبرنا أبو معاوية الضرير قال أخبرنا الأعمش عن أبي صالح قال :سمعت عبد الله بن سلام يوم قتل عثمان يقول: والله لا تهرقون محجما من دم إلا ازددتم به من الله بعدا

قال أخبرنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس قال: سئل عبد الله بن سلام حين قتل عثمان كيف يجدون صفة عثمان في كتبهم ؟ قال: نجده أميرا يوم القيامة على القاتل والخاذل.

قال أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الأسدي عن ليث عن طاوس قال قال عبد الله بن سلام: يحكم عثمان يوم القيامة في القاتل والخاذل»

فعثمان، كما تذكر التوراة التي لدى ابن سلام، سيكون يوم القيامة حاكماً فيمن قتلوه وخذلوه.

وروى ابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح أن عبد الله بن سلام خاطب الثائرين فقال لهم:

«.... فأنشدكم الله أن لا تطردوا جيرانكم من الملائكة وأن لا تسلوا سيف الله المغمود، فإن الله عز وجل سيفا لم يسله قط على قوم حتى يسلوه على أنفسهم، فإذا سلوه لم يغمده عنهم إلى يوم القيامة .

فإياكم وقتل هذا الشيخ ! فإنه خليفة، ووالله ! ما قتل نبي قط إلا قتل به سبعون ألفا من أمته عقوبة لهم، ولا قتل خليفة من بعده إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا، فاتقوا الله ربكم في هذا الشيخ .

قال: فنادوه من كل جانب: كذبت يا يهودي !

فقال عبد الله بن سلام: بل كذبتم أنتم، لست بيهودي ولكني تركت اليهودية وتبرأت منها واخترت الله ورسوله...»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة أخبار ابن سلام أثناء حصار عثمان، وكيف أنه بذل مجهوداً في التأكيد للمهاجمين بضرورة الكف عن عثمان وعدم قتله- رغم أنه متأكد أنهم سيقتلونه – لأنه على يقين أنه بكل الأحوال لن يعيش أكثر من أربعين يوما! وقال لهم ان من يقتل عثمان سيلقى الله يوم القيامة ويده مشلولة مقطوعة، أو سيلقاه وهو أجذم! وأن عثمان سيحكم يوم القيامة في

القاتل والخاذل. وأعلن ابن سلام أنه «*في كتاب الله المنزل: انه ليس من قوم يقتلون خليفتهم إلاّ قتل الله به خمسة وثلاثين ألفاً، ولا قوم يقتلون نبيهم إلاّ قتل الله به سبعين ألفاً. والذي نفسي بيده: لا ترجع الخلافة الى أرض الحجاز أبداً. ولا يجاوز خاتم النبوة فيها إلاّ حاجاً أو معتمراً*». وتقول الروايات ان عثمان نفسه قد أرسل لابن سلام يسأله عما يرى فأجابه «*إنك لفي كتاب الله الخليفة المقتول المظلوم*»

ومن الواضح أن ابن سلام يقصد التوراة بقوله «كتاب الله المنزل» لأن القرآن موجود ومعروف وليس به كلام عن القوم الذين يقتلون خليفتهم فيقتل منهم 35 ألفاً، ولا عن ان عثمان هو الخليفة المظلوم!

والملاحظ في هذه الروايات ان المهاجمين لم يزدهم كلام ابن سلام إلاّ غضبا وهياجاً، فاتهموه بأنه يهودي وقد أشبع عثمان بطنه، وحصبوه. وظاهرٌ من رد فعل الثائرين أنهم لم يكونوا يعترفون بجدية اسلام عبد الله بن سلام، بل يردونه دوماً الى مرجعيته اليهودية الاصلية.

وانا لا أستبعد صحة الروايات عن موقف ابن سلام وما قاله. فهو، وغيره من اليهود الذين أسلموا، كانوا كثيرا ما يميزون أنفسهم عن العرب المسلمين بإظهار معرفتهم بالتوراة وما بها، فيحدثون من أخبارها وروایاتها ويتكلمون عن موسى ودينه. وكان البعض يستمع لهم باعتبارهم اهل العلم والكتاب الاول. ولكن لسوء حظ ابن سلام لم يلق كلامه قبولا لدى المتمردين «فحصبوه وشجوه».

وجديرٌ بالذكر انه كانت لابن سلام تنبؤات من التوراة بخصوص الخليفة عمر بن الخطاب أيضاً ! ومن ذلك

ما رواه ابن عساكر بسنده في تاريخ دمشق أن ابن سلام قال مخاطباً الخليفة عمر بن الخطاب «*أخبرني أبي عن آبائه عن موسى بن عمران عن جبريل عليه السلام أنه قال يكون في أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) رجل يقال له عمر بن الخطاب أحسن الناس دينا وأحسنهم يقينا ما دام بينهم الدين عالي والدين فاش واستمسك بالعروة الوثقى من الدين فجهنم مقفلة فإذا مات عمر يرق الدين ويقل اليقين وتقل أعمار الصالحين وافترق الناس على فرق من الأهواء وفتحت أقفال جهنم فيدخل في جهنم من الآدميين كثير*»

وبالاضافة الى ابن سلام فإن كعب الاحبار قد تميز برواياته الاسرائيلية الكثيرة التي اختلطت بكلام النبي (ص) عن طريق صديقه أبي هريرة.

وكان هؤلاء اليهود الذين أسلموا ناجحين في التقرب الى الحاكمين. فكانوا يروون لهم نبوءات وأخبار من توراة اليهود. وكعب الاحبار كان مقرباً من الخليفة عمر بن الخطاب ويروي له انه يجد صفته في التوراة!

ومن ذلك ما رواه ابن حجر في فتح الباري «ان عمر دخل على ام كلثوم *بنت علي فوجدها تبكي فقال: ما يبكيكِ؟*

قالت: هذا اليهودي -لكعب الاحبار- يقول انك باب من أبواب جهنم.

فقال عمر: ما شاء الله! ثم خرج فأرسل الى كعب فجاءه.

فقال: يا أمير المؤمنين. والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة.

فقال: ما هذا؟ مرة في الجنة ومرة في النار؟

فقال: إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناسّ أن يقتحموا فيها، فإذا مِتّ اقتحموا!»

ومن ذلك أيضاً ما رواه الطبري في تاريخه في سياق حديثه عن اغتيال الخليفة عمر بن الخطاب :

«جاءه كعب الاحبار فقال له: يا أمير المؤمنين اعهد! فإنك ميت في ثلاثة أيام.

قال: وما يدريك؟

قال: أجده في كتاب الله عز وجل التوراة!

قال عمر: آلله إنك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟

قال: اللهم لا ، ولكني أجد صفتك وحليتك، وانه قد فنى أجلك!

قال وعمر لا يحس وجعاً وألماً

فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين، ذهب يوم وبقي يومان.

قال ثم جاءه من غد الغد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة، وهي لك الى صبيحتها

قال فلما كان الصبح خرج عمر الى الصلاة ....»

ومن بعد عمر، كان كعب الاحبار من بطانة عثمان الذي كان يقربه ويستشيره حتى في القضايا الشرعية. وقد سبق وذكرنا قصة الصدام الذي جرى بين أبي ذر الغفاري وكعب الأحبار بحضرة عثمان بشأن تركة عبد الرحمن بن عوف.

هل كان معاوية متواطئا؟[1]

وهنا من المفيد التطرق الى موضوع موقف معاوية أثناء حصار عثمان.

فالكثير من المصادر التاريخية تشير إلى أن معاوية قد تباطأ في نجدة عثمان، وتلمح أو تصرح إلى أنه بشكل أو بآخر تواطأ من أجل أن يقتل عثمان وتحمله مسؤولية ترك الخليفة يواجه مصيره دون مَدَد.

فمثلاً روى اليعقوبي في تاريخه ان عثمان «*كتب الى معاوية يسأله تعجيل القدوم عليه. فتوجه اليه في اثني عشر ألفا، ثم قال: كونوا بمكانكم في أوائل الشام، حتى آتي أمير المؤمنين لأعرف صحة أمره. فأتى عثمانَ فسأله عن المدة. فقال: قد قدمتُ لأعرف رأيك وأعود اليهم فأجيئك بهم.*

قال: لا والله. ولكنك أردتَ أن أقتل فتقول: أنا ولي الثأر! ارجع فجئني بالناس.

فرجع فلم يعد اليه حتى قتل»

ولكن هل يعقل أن معاوية، حسب هذه الرواية، يترك قواته على حدود الشام ثم يذهب منفرداً الى الخليفة المحصور فيجتمع اليه ثم يعود لاستقدامهم؟! ولا يوجد أي خبر عن هذا الاجتماع المزعوم بين عثمان ومعاوية في تلك الفترة العصيبة في أي مصدر تاريخي. وهل يمكن أصلاً تخيّل أن معاوية يدخل المدينة وهو بلا قوات ثم يخرج منها سالماً، وهي التي كانت تعج بالثائرين على عثمان والذين كان معاوية من أبرز مطاليبهم؟

وورد في تاريخ المدينة لابن شبة عن جويرية «*أرسل عثمان رضي الله*

---

(1) مصادر هذا البحث: تاريخ اليعقوبي (ج2 ص175)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1289)، تاريخ الطبري (ج3 ص402)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص54 وص57)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 160) و أسد الغابة لابن الاثير (ج1 ص357).

عنه الى معاوية رضي الله عنه يستمدّه. فبعث معاوية رضي الله عنه يزيد بن أسد -جد خالد القسري- وقال له: إذا اتيتَ ذا خشب فأقم بها (ولا تتجاوزها ولا تقل الشاهد يرى ما) لا يرى الغائب. قال: أنا الشاهد وأنت الغائب.

فأقام بذي خشب حتى قتل عثمان رضي الله عنه.

فقلتُ لجويرية: لِمَ صنع هذا؟

قال: صنعه عمداً ليقتل عثمان رضي الله عنه فيدعو الى نفسه».

ولم توضح هذه الرواية لماذا يتجشم معاوية عناء ارسال جيش من الشام ليقف على تخوم المدينة (بذي خشب) ثم لا يدخلها لحماية الخليفة؟! فلو كان يريد التقاعس عن نصرة عثمان لكان أجدر به ألاّ يرسل قواتٍ أصلاً.

ووردت رواية أخرى يتهم فيها المسور بن مخرمة معاوية بأنه تخاذل عن نصرة عثمان «*وكتب يستمدّكَ بالجند، فحبستهم عنه، حتى قتل وهم بالزرقاء (مدينة بالشام)*»

وروى الطبري في تاريخه من طريق ابن السائب الكلبي:

«فلما رأى عثمان ما قد نزل به وما قد انبعث عليه من الناس كتب إلى معاوية بن أبي سفيان وهو بالشام:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن أهل المدينة قد كفروا وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول.

فلما جاء معاوية الكتاب تربص به وكره إظهار مخالفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد علم اجتماعهم.

فلما أبطأ أمره على عثمان كتب إلى يزيد بن أسد بن كرز وإلى أهل الشام يستنفرهم ويعظم حقه عليهم ويذكر الخلفاء وما أمر الله عز وجل به من طاعتهم ومناصحتهم ووعدهم أن ينجدهم جند أو بطانة دون الناس وذكرهم بلاءه عندهم وصنيعه إليهم، فإن كان عندكم غياث فالعجل العجل فان القوم معاجلي

فلما قرئ كتابه عليهم قام يزيد بن أسد بن كرز البجلي ثم القسري فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر عثمان فعظم حقه وحضهم على نصره وأمرهم بالمسير إليه فتابعه ناس كثير وساروا معه حتى إذا كانوا بوادي القرى بلغهم قتل عثمان رضي الله عنه فرجعوا»

وحسب هذه الرواية فإن عثمان بلغ به اليأس من استجابة معاوية الى حد الكتابة مباشرة الى قيادات من اهل الشام! وأن هؤلاء قد استجابوا له دون إذن معاوية! ولكن من المسلم به تاريخياً أن سيطرة معاوية على الشام كانت محكمة فكيف تسير قواتٌ وجيوشٌ من عنده رغماً عنه؟ كما أن الرواية تقول ان معاوية كره مخالفة اجماع أصحاب النبي(ص)، مما يعني أن الصحابة كانوا مجتمعين على حصار عثمان وخلعه وقتله؟! ثم متى كان معاوية يقيم وزنا للصحابة وهو الذي كان وجه اليهم تحذيراً بل تهديداً صارخاً في آخر زيارة له الى المدينة؟!

فتلك الروايات كلها غير صحيحة. أو بالأحرى هي محرفة بهدف توجيه تهمة التواطؤ لقتل عثمان الى معاوية. والسبب الذي يجعل البعض يصدّق تلك التهمة بحق معاوية هو أنه قد استفاد بالفعل من مقتل عثمان الذي اتخذه وسيلة للوصول الى أهدافه بالاستيلاء على الخلافة. ولكن استخدام معاوية واستغلاله اللاحق لحادثة مقتل عثمان لا يعني أنه كان مساهماً فيه، فليس هناك أي أساس تاريخي لتلك التهمة. وانما المسألة أن سلوك معاوية وسياسته الانتهازية تجعله خليقاً، لدى الكثيرين، بتلك التهمة!

فالذي حدث تاريخياً أن عثمان قد أرسل بالفعل يستنجد بمعاوية في الشام كيّ يهبّ لانقاذه. وتبدو رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة الأقرب الى الصحة:

«وكتب إلى أهل الشام عامة، وإلى معاوية وأهل دمشق خاصة: أما بعد، فإني في قوم طال فيهم مقامي واستعجلوا القدر فيّ. وقد خيّروني بين أن يحملوني على شارفٍ من الإبل إلى دخل (جزيرة في اليمن)، وبين أن أنزع لهم رداء الله الذي كساني، وبين أن أقيدهم ممن قتلتُ. ومَن كان على سلطان يخطئ ويصيب.

فيا غوثاه يا غوثاه! ولا أمير عليكم دوني. فالعَجَل العَجَل يا معاوية! وأدرك ثم أدرك، وما أراك تدرك»

والأرجح أن مبادرة معاوية بإرسال نجدة عسكرية لإنقاذ الخليفة كانت في الواقع القشة التي قصمت ظهر البعير والتي عجّلت في قيام الثوار بقتل عثمان. أي بعبارة أخرى ان استجابة معاوية لنداء عثمان قد

سرّعت في مقتله، وليس تقاعسه الذي أدى لذلك. نتابع في رواية الإمامة والسياسة لابن قتيبة أن الخبر قد جاء إلى الثوار أثناء حصار عثمان «*إن معاوية قد بعث من الشام يزيد بن أسيد، مَدَداً لعثمان، في أربعة آلاف من خيل الشام. فاصنعوا ما أنتم صانعون وإلاّ فانصرفوا*» وكذلك روى ابن قتيبة في الامامة والسياسة «*...فلما سمع القومُ إقبالَ أهل الشام، قاموا فألهبوا النار بباب عثمان...*»

فالثوار أصبحوا تحت ضغط زمني شديد لكي ينتهوا من الأمر الذي هم بشأنه. فلم يعُد أمامهم متسع مفتوح من الوقت لكي يتصرفوا. فجنود معاوية قادمون في الطريق، وعليهم اتخاذ قرار: يجب على عثمان أن يستسلم، وبأي طريقة كانت، ويقبل بعزل نفسه عن منصبه وبسرعة، وإلاّ كان عليهم مواجهة الجنود القادمين من الشام. ولو وصل جنود معاوية فهم حتماً قادرون على حماية عثمان وعندها يكون قد أسقط بيد الثوار وخاب كل جهدهم. فمعنى ذلك انه ليس فقط سيستمر عثمان في منصبه وسياسته رغماً عن أنف الجميع، ولكن أيضاً سوف تتعزز مكانة معاوية وترتفع إلى عنان السماء في دولة عثمان! كيف لا وهو عندها سيكون الحامي للخليفة والضامن لاستمرار حكمه! وبذلك سيكون سعي الثوار قد ارتد معكوساً عليهم، وهذا ما لا يستطيعون تحمله!

وقد ذكر العلامة ابن عبد البر في الاستيعاب[1] «*إن معاوية قد وجّه حبيبَ بن مسلمة بجيش الى نصر عثمان بن عفان، فلما بلغ وادي القرى بلغه مقتل عثمان، فرجع*»

ولم يشر الى تخاذل ولا تأخير من قبل معاوية. ورغم اللبس الذي يتعلق بشخص القائد العسكري الذي أرسله معاوية مدداً لعثمان – يزيد بن أسد القسري في الامامة والسياسة أو حبيب بن مسلمة الفهري لدى ابن عبد البر– إلاّ أن ذلك ليس سبباً وجيهاً للشك في خبر استجابة معاوية وقيامه بارسال قوات، ولكنها لم تصل في الوقت المناسب فعادت ادراجها من حدود الشام عندما بلغها نبأ مقتل الخليفة.

---

(1) وايضا ذكر ابن الأثير في أسد الغابة نفس هذا الخبر مع تحديد عدد القوات التي أرسلها معاوية مع حبيب بن مسلمة الفهري، وهو أربعة آلاف.

الفصل الرابع: النهاية المأساوية للخليفة

عملية القتل[1]

استمر حصار عثمان في داره 40 أو 45 أو 49 يوماً حسب الروايات، وسبقتها الفترة التي لم يكن فيها عثمان محصوراً. وهذه فترة طويلة مُنهكة جداً بكل تأكيد: منهكة للثوار أنفسهم، ولعثمان، وللصحابة الموجودين في المدينة ولكل سكانها أيضاً.

وقد صورت المصادر كيف كان عثمان يحاول إقناع المهاجمين بالكف عنه. وكثير منها يرسم صورة محزنة للخليفة وهي تتحدث عن لجوئه - بلا جدوى - الى تعداد مناقبة الاسلامية في جهد منه للتأثير عليهم. ومن ذلك ما رواه الترمذي في سننه عن ابي عبد الرحمن السلمي قال *«لما حصر عثمان أشرف عليهم فوق داره ثم قال: أذكركم بالله هل تعلمون ان حراء حين انتفض قال رسول الله (ص): اثبت حراء فليس عليك إلاّ نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: نعم!*

قال: اذكركم بالله هل تعلمون ان رسول الله (ص) قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزتُ ذلك الجيش؟ قالوا: نعم!

---

(1) مصادر هذا البحث: كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص264)، الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص73-74)، تاريخ خليفة بن خياط (ص130)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1232+ ص1288+ ص1308)، تاريخ الطبري (ج3 ص411-425)، الإمامة والسياسة لابن قتيبة (ج1 ص63)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 548)، سنن الترمذي (ج5 ص288)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص176)، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص190-191)، أسد الغابة لابن الأثير (ج2 ص178).

ثم قال: اذكركم بالله هل تعلمون ان رومة لم يكن يشرب منها أحد إلاّ بثمن فابتعتها فجعلتها للغني والفقير وابن السبيل؟ قالوا: اللهم نعم!

وأشياء عدها»[1]

ولكن كانت الجموع الثائرة قد وصلت إلى نقطة اللاعودة في صراعها مع عثمان. وكان القتل هو النتيجة الطبيعية للموقف كله.

وتوجد روايات كثيرة حول تفاصيل عملية القتل، ومَن الذين باشروا بتنفيذها فعلا.

روى ابن حبان في كتاب الثقات «... *ثم أخذ محمد بن أبي بكر بيد جماعة، وتسور الحائط من غير أن يعلم به أحد، من دار رجل من الأنصار، حتى دخلوا على عثمان وهو قاعدٌ والمصحف في حجره ومعه امراته والناس فوق السطح لا يعلم أحد بدخولهم.*

فقال عثمان لمحمد بن ابي بكر: والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني. فرجع محمد.

وتقدم اليه سودان بن رومان المرادي، ومعه مشقص، فوجأه حتى قتله وهو صائم.

ثم خرجوا هاربين من حيث دخلوا

.... وكان تمام حصاره خمسة واربعين يوما»

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى :

«ان محمد بن ابي بكر تسور على عثمان من دار عمرو بن حزم، ومعه كنانة بن بشر بن عتاب و سودان بن حمران و عمرو بن الحمق. فوجدوا عثمان عند امراته نائلة وهو يقرأ في المصحف سورة البقرة.

فتقدمهم محمد بن ابي بكر فأخذ بلحية عثمان فقال: قد أخزاك الله يا نعثل!

---

(1) ولا مانع من قبول مثل هذه الروايات، مع التحفظ على بعض مضامينها، وبخاصة إجابة المهاجمين بنعم على كل ما يقوله الخليفة عن نفسه.

فقال عثمان: لستُ بنعثل، ولكن عبد الله وأمير المؤمنين.

فقال محمد: ما اغنى عنك معاوية ولا فلان

فقال عثمان: يا ابن أخي! دع عنك لحيتي فما كان أبوك ليقبض على ما قبضتَ عليه!

فقال محمد: ما أريد بك أشدّ من قبضي على لحيتك.

فقال عثمان: أستنصر الله عليك وأستعين به.

ثم طعن جبينه بمشقص في يده، ورفع كنانة بن بشر بن عتاب مشاقص كانت في يده فوجأ بها في أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت في حلقه، ثم علاه بالسيف حتى قتله»

وفي رواية ابن ابي عون «ضرب كنانة بن بشر جبينه ومقدم رأيه بعمود حديد فخرّ لجنبه. وضربه سودان بن حمران المرادي بعدما خرّ لجنبه فقتلو(ه). أما عمرو بن الحمق فوثب على عثمان فجلس على صدره وبه رمق فطعنه تسع طعنات وقال: أما ثلاث منهن فإني طعنتهن لله وأم ست فإني طعنت اياهنّ لما كان في صدري عليه»

وأضاف مزيداً من التفاصيل المؤثرة :

«وأخبرنا محمد بن عمر قال حدثني الزبير بن عبد الله عن جدته قالت: لما ضربه بالمشاقص قال عثمان: بسم الله توكلتُ على الله. وإذا الدم يسير على اللحية يقطر، والمصحفُ بين يديه. فاتكأ على شقه الأيسر وهو يقول سبحان الله العظيم، وهو في ذلك يقرأ المصحفَ، والدم يسيلُ على المصحف حتى وقف الدم عند قوله تعالى: (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم). وأطبق المصحف وضربوه جميعاً ضربة واحدة. فضربوه والله -بأبي هو- يحيي الليل في ركعة ويصل الرحم ويطعم الملهوف ويحمل الكل فرحِمهُ الله»

ورد في الامامة والسياسة لابن قتيبة :

«... فدخل عليه محمد بن أبي بكر فصرعه، وقعد على صدره، وأخذ

بلحيته، وقال: يا نعثل ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن عامر وابن أبي سرح .

فقال له عثمان: لو رآني أبوك رضي الله عنه لبكاني، ولساءه مكانك مني .

فتراخت يده عنه، وقام عنه وخرج

فدعا عثمان بوضوء فتوضأ، وأخذ مصحفا، فوضعه في حجره، ليتحرم به. ودخل عليه رجل من أهل الكوفة بمشقص في يده، فوجأ به منكبه مما يلي الترقوة، فأدماه ونضح الدم على ذلك المصحف .

وجاء آخر فضربه برجله، وجاء آخر فوجأه بقائم سيفه، فغشي عليه، ومحمد بن أبي بكر لم يدخل مع هؤلاء. فتصايح نساؤه، ورش الماء على وجهه فأفاق .

فدخل محمد بن أبي بكر وقد أفاق فقال له: أي نعثل، غيرت وبدلت وفعلت .

ثم دخل رجل من أهل مصر، فأخذ بلحيته، فنتف منها خصلة، وسل سيفه، وقال: أفرجوا لي، فعلاه بالسيف، فتلقاه عثمان بيده، فقطعها، فقال عثمان: أما والله إنها أول يد خطت المفصل، وكتبت القرآن !

ثم دخل رجل أزرق قصير مجدر، ومعه جرز من حديد، فمشى إليه فقال: على أي ملة أنت يا نعثل ؟

فقال: لست بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة إبراهيم حنيفا وما أنا من المشركين .

قال: كذبت. وضربه بالجرز على صدغه الأيسر فغسله الدم، وخر على وجهه، وحالت نائلة بنت الفرافصة زوجته بينه وبينه، وكانت جسيمة، وألقت بنت شيبة نفسها عليه، ودخل عليه رجل من أهل مصر، ومعه سيف مصلت، فقال والله لأقطعن أنفه، فعالج امرأته عنه، فكشف عنها درعها. فلما لم يصل إليه أدخل السيف بين قرطها ومنكبها، فضربت على السيف، فقطع أناملها، فقالت: يا رباح، غلام لعثمان أسود ومعه سيف، أعن عني هذا، فضربه الأسود

فقتله. ثم دخل آخر معه سيف فقال: أفرجوا لي، فوضع ذباب السيف في بطن عثمان، فأمسكت نائلة زوجته السيف، فحز أصابعها، ومضى السيف في بطن عثمان فقتله، فخرجت امرأته وهي تصيح، وخرج القوم هاربين من حيث دخلوا»

وروى خليفة بن خياط في تاريخه عن وثاب «و جاء محمد بن ابي بكر في ثلاثة عشر رجلاً فأخذ بلحيته فقال بها حتى سمعت وقع أضراسه.

وقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك!

فقال: أرسل لي لحيتي يا ابن أخي.

قال: فأنا رأيته استعدى رجلاً من القوم بعينه، يعني أشار اليه، فقام اليه بمشقص فوجأ به رأسه.

قلت: ثم مه؟ قال: ثم تعاوروا عليه والله حتى قتلوه رحمه الله»

وروى عن الحسن «ان ابن ابي بكر أخذ بلحيته فقال عثمان: لقد أخذت مني ماخذا أو قعدت مني مقعدا ما كان أبوك ليقعده! فخرج وتركه.»

وروى عن ابن عمر «ضربه ابن ابي بكر بمشاقص في أوداجه، وبعجه سودان بن حمران بحربة»

وروى عن قتادة «الذي ولي قتل عثمان رومان، رجل من بني أسد بن خزيمة. أخذ ابن ابي بكر بلحيته وذبحه رومان بمشاقص كانت معه»

وروى عن كنانة مولى صفية ان الذي قتل عثمان «رجل من أهل مصر يقال له خالد بن الحارث»

ولم تخل روايات خليفة من هجاء للقاتلين. فهي تتحدث عنهم وكأنهم وحوش من غير بني البشر! فبعضها تذكر «جاء رويجل كأنه ذئب» وبعضها تقول «دخل عليه رجل من بني سدوس يقال له الموت الأسود فخنقه قبل ان يضرب بالسيف»

وأيضا لم ينسَ خليفة ورواته إضافة التفاصيل الدرامية للحادث ! فذكر أن أول قطرة من دم عثمان سالت فوقعت على المقطع من المصحف الذي فيه «فسيكفيكهم الله» ! وأيضا أن رجلاً ضرب عثمان بالسيف والمصحف معه فقطعت يده فقال له عثمان ان تلك اليد التي قطعها أول يد خطت المصحف!

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة عن صالح بن كيسان «*دخل عليه محمد بن ابي بكر بشريان كان معه فضربه في حشائه حتى وقعت في أوداجه فخرّ.*

وضرب كنانة بن بشر جبهته بعمود.

وضربه سودان بن حمران بالسيف.

وقعد عمرو بن الحمق على صدره فطعنه تسع طعنات وقال: علمتُ انه مات في الثالثة فطعنته ستاً لما كان في قلبي عليه»

وروى عن يزيد بن ابي حبيب ان الذي تولى قتل عثمان هو هذان بن رومان بن هذان الاصبحي. كما روى عن نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان شعراً تتهم فيه كنانة بن بشر التجيبي بقتله.

وبالإضافة الى هذه الروايات المختصرة أخرج أيضاً روايات فيها تفاصيل مأساوية عن لحظات عثمان الأخيرة. ومن ذلك رواية تقول ان المتمردين اقتحموا دار عثمان واعتدوا عليه بالضرب حتى أغمي عليه بعد أن سال دمه، فأفاقته نساؤه بعد أن مسحن وجهه بالماء «*فدخل محمد بن ابي بكر بعد ذلك وهو يرى أنه قد قتل. فلما رآه قاعداً قال: ألا أراكم قياماً حول نعثل!! وأخذ بلحيته فجرّه من البيت الى باب الدار وهو يقول: بدّلتَ كتاب الله وغيرته يا نعثل.*

فقال عثمان رضي الله عنه: لستُ بنعثل ولكني أمير المؤمنين. وما كان أبوك ليأخذ بلحيتي.

فقال محمد: لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول (ربنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل).

ودخل رجل من كنانة تجوبي من أهل مصر مخترطاً بالسيف فقال: اخرجوا اخرجوا. فأخرج الناسَ فطعن في بطنه.

فجاءته امرأته بنت الفرافصة الكلبية تمسك السيف. فقطع أصابعها»

كما أخرج روايات تقول بعضها ان الذي قتله كان عمرو بن بديل الخزاعي، وأخرى تقول ان القاتل كان رجلاً من اهل مصر اسمه جبلة، وأخيرة تقول ان القاتل كان نيار بن عياض الاسلمي.

كما أخرج الروايات التي تقول ان دم عثمان سال على المصحف، وبالتحديد قطر على آية (فسيكفيكهم الله).

وأخف الروايات وطأة فيما يتعلق بمحمد بن ابي بكر هي تلك التي وردت عن كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب والتي يجيب فيها من سأله إن كان محمد يؤخذ بدم عثمان فأجاب *«معاذ الله. دخل عليه فقال له عثمان رضي الله عنه: لستَ بصاحبي. وكلمه بكلام فخرج ولم يند بشيء من دمه.*

فقلتُ لكنانة: من قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم!»

وعلق ابن شبة: *«فهذان الحديثان يبرئان محمد بن ابي بكر من أن يكون نوى قتل عثمان رضي الله عنه. وسائر الأحاديث جاءت بخلافهما»*

ولستُ أدري كيف أدخل جبلة بن الأيهم، وهو الذي له شؤون مع عمر بن الخطاب، في هذا الأمر؟!

وقد أخرج الطبري في تاريخه عددا كبيراً من الروايات من مصادره حول عملية قتل عثمان، تتفق في اجمالها مع ما ورد أعلاه لدى المصادر الأخرى. وأشير من بينها الى رواية له عن الواقدي يذكر فيها صراحة أن الثوار قد استعجلوا عملية القتل عندما سمعوا أنباء عن قدوم قوات من الشام والعراق ومصر لانقاذ الخليفة. كما أشير الى رواية عن جعفر المحمدي يذكر فيها أن السبب الذي استفز الثوار ودفعهم للهجوم كان قيام المتحصنين مع عثمان بقتل رجل محترم منهم، وصف بانه صحابي ويدعى نيار بن عياض الاسلمي، عندما رموه بسهم بينما كان يقف مخاطباً عثمان. ورفض عثمان تسليم القاتل (وهو ربما أبو حفصة اليماني مولى مروان أو كثير بن الصلت الكندي).

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب:

عن الزبير «وكان أول من دخل الدار عليه محمد بن ابي بكر، فأخذ بلحيته فقال له: دعها يا ابن أخي ! والله لقد كان أبوك يكرمها. فاستحيا وخرج .

ثم دخل رومان بن سرحان -رجل أزرق قصير محدود، عداده في مراد، وهو من ذي أصبح- معه خنجر، فاستقبله به وقال: على أي دين أنت يا نعثل؟

فقال: لستُ بنعثل، ولكني عثمان بن عفان، وأنا على ملة ابراهيم حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين.

قال: كذبتَ ! وضربه على صُدغه الأيسر، فقتله. فخرّ رضي الله عنه، وأدخلته امرأته نائلة بينها وبين ثيابها، وكانت امرأة جسيمة. ودخل رجل من اهل مصر معه السيف مصلتاً فقال: والله لأقطعنّ أنفه، فعالج المرأة، فكشفت عن ذراعيها، وقبضت على السيف، فقطع ابهامها فقالت لغلام لعثمان -يقال له رباح- ومعه سيف عثمان: أعني على هذا وأخرجه عني. فضربه الغلام بالسيف فقتله»

وأضاف ابن عبد البر «واختلف فيمن باشر قتله بنفسه :

فقيل: محمد بن ابي بكر ضربه بمشقص.

وقيل: بل حبسه محمد بن ابي بكر وأسعده غيره، وكان الذي قتله سودان بن حمران.

وقيل: بل ولي قتله رومان اليمامي .

وقيل: بل رومان رجل من بني أسد بن خزيمة.

وقيل: بل ان محمد بن ابي بكر أخذ بلحيته، فهزها وقال: ما أغنى عنك معاوية، وما أغنى عنك ابن ابي سرح، وما أغنى عنك ابن عامر. فقال له: يا ابن أخي أرسل لحيتي، فوالله انك لتجبذُ لحية كانت تعز على أبيك، وما كان أبوك يرضى مجلسك هذا مني! فيقال: انه حينئذ تركه وخرج عنه. ويقال: انه حينئذ أشار الى من كان معه، فطعنه أحدهم وقتلوه. والله أعلم»

كما ذكر رواية كنانة مولى صفية بنت حيي بن أخطب التي يبرّأ فيها محمد بن ابي بكر من دمه ويقول «*قتله رجل من اهل مصر يقال له: جبلة بن الأيهم، ثم طاف بالمدينة ثلاثاً يقول: أنا قاتل نعثل*»

ولم يغفل ابن عبد البر الحديث عن الدم السائل فوق المصحف، فقال: «*وأكثرهم يروي أن ان قطرة، أو قطرات من دمه سقطت على المصحف، على قوله جل وعلا (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)*»

وقد انفرد اليعقوبي في تاريخه بذكر محمد بن ابي حذيفة من ضمن القتلة. فروى باختصاره المعهود :

«*وكان الذين تولوا قتله: محمد بن ابي بكر، ومحمد بن ابي حذيفة، وابن حزم.*

وقيل: كنانة بن بشر التجيبي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وعبد الرحمن بن عديس البلوي، وسودان بن حمران»

وروى السيوطي في تاريخ الخلفاء ان محمد بن ابي بكر هو الذي بادر بتسور دار عثمان ومعه «رجلان» أوصاهما بقتله، ويروي إمساك محمد بلحية عثمان ثم انسحابه بعد أن ذكره عثمان بأبيه، فقام «الرجلان» بقتله. كما أخرج رواية لابن عساكر عن كنانة مولى صفية فيها هجاء للقاتل «*قتل عثمانَ رجلٌ من اهل مصر، أزرق أشقر، يقال له: حمار*»

ومن إجمالي الروايات أعلاه يمكن تلخيص ما جرى على النحو التالي:

- هناك شبه اجماع على مسؤولية الثوار القادمين من مصر عن تنفيذ عملية القتل.
- وصلت المدينة أخبارٌ بأن الغوث قادم لعثمان من ولاته في الأمصار. فشعر الثوار بالحاجة الى التصرف بسرعة قبل وصول المدد. فزادوا من شدة حصارهم لعثمان وضغطهم عليه ليعتزل الخلافة أو يواجه القتل. وفي تلك الأثناء قتل أحد رجالات الثائرين بسهم أطلقه احد المتحصنين مع عثمان، ولما رفض الخليفة تسليم المسؤول عن ذلك استغل الثوار ذلك للمباشرة بقتل عثمان.

- تلقى المهاجمون مساعدة «لوجستية» من شخصيات انصارية من اهل المدينة، وبالتحديد من عمرو بن حزم الذي كان جاراً لعثمان ففتح ابواب داره وأدخل الثوار ليهاجموا عثمان منها. كما انضم رفاعة بن رافع بن مالك الأنصاري[1] الى جموع الثوار في هجومهم على عثمان ومن معه، وشارك في اشعال النيران بباب دار عثمان.
- هناك تضارب حول أسماء الأشخاص الذين اقتحموا دار عثمان وقتلوه. ولكن تُجمِعُ الروايات على دخول محمد بن أبي بكر عليه وإمساكه بلحيته وقوله له أنه لم يُغنِ عنه معاوية ولا ابن أبي السرح ولا مروان ولا ابن عامر، وأن عثمان ذكّره بأبيه وقال له أنه لو رآه في هذا الموقف لساءه ذلك جداً، فاستحى محمد وخرج ليترك المجال لغيره لينفّذ المهمة. وبالإضافة إلى محمد بن أبي بكر، تذكر الروايات أسماء: كنانة بن بشر التجيبي، وسودان بن حمران المرادي، وعمرو بن الحمق الخزاعي، وابن هذان الأصبحي و عبد الرحمن بن عديس البلوي، والغافقي بن حرب وغيرهم، كمسؤولين مباشرين عن قتل الخليفة.

وفي ظل تلك الفوضى العارمة، وحمّى القتل المستعرة، يصعب تحديد الذين قاموا بتسديد الطعنات إلى جسد عثمان العجوز، ولكن الأرجح أن يكونوا من بين هؤلاء الأشخاص المعروفين بحماسهم وتشددهم تجاه عثمان.

وليس مهماً في الحقيقة أن تتم الإشارة إلى اسم معين كمسؤول عن قتل عثمان، لأن ظروف تلك الحادثة تجعل المسؤولية جماعية إلى أقصى حد. فما تمّ ليس حادث اغتيال فردي وإنما نتيجة هياج عام وغليان تراكم حتى انفجر. ومن المستبعد أن يكون هناك مَن بين الثوار من لم ينفذ صبره بعد ذلك الحصار الطويل والمفاوضات المضنية، بلا طائل.

وتذكر الروايات بعض التفاصيل الدرامية في ذلك الموقف العصيب. وبعضها يشير إلى دفاع زوجة الخليفة، نائلة بنت الفرافصة، عنه دون جدوى،

(1) سبق الحديث عنه من ضمن الشخصيات الانصارية التي انضمت الى صفوف الثوار.

مما أدى إلى قطع أصابع يدها. وبعضها الآخر يشير إلى أن الخليفة كان يقرأ القرآن حين قتل «*فسال الدمُ على المصحف*»! وأخرى تقول ان قطرة دم سقطت على المصحف تماماً فوق آية «فسيكفيكهم الله»!

وكان قتل عثمان في 18 من ذي الحجة سنة 35.

هل دافع مروان عن الخليفة؟[1]

من المدهش جداً أن مروان بن الحكم قد نجا من القتل رغم وجوده الى جانب عثمان في تلك الظروف العصيبة.

وعلى الرغم من أن بعض الروايات تشير إلى أن مروان كان يدافع عن الخليفة وأنه لذلك تعرّض للضرب والاعتداء حتى أغشي عليه، إلاّ أن ذلك مستبعد تماماً. فليس هناك أي تفسير مقنع يمنع الثوار من قتل مروان. فرأس مروان كان من المطالب الرئيسية للثوار، والذي بسببه ربما فقد عثمان حياته. فكيف يمتنع الثوار عن قتل مروان إذن؟ لقد قاموا بقتل رأس الدولة، وشيخ بني أمية، ولم يبالوا بكونه خليفة للمسلمين، فما الذي يمكن أن ينالهم من جراء إضافة مروان إلى جانب عثمان كضحية لهذه الثورة؟

وقد روى الطبري في تاريخه أخباراً عدة بشأن مروان. فعن طريق الواقدي روى أن شاهد العيان أبا حفصة اليماني، وهو مولى لمروان، قال ان عثمان «*... قال لمروان: اجلس فلا تخرج.*

فعصاه مروان فقال: والله لا تقتل ولا يخلص اليك وأنا أسمع الصوت! ثم خرج إلى الناس.

فقلت ما لمولاي مترك فخرجت معه أذب عنه ونحن قليل. فأسمع مروان يتمثل

*قد علمت ذات القرون الميل * والكف والأنامل الطفول*

---

(1) مصادر البحث: تاريخ الطبري (ج 3 - ص 412 - 414)، تاريخ دمشق لابن عساكر (ج57 ص241+ ص259)، أنساب الأشراف للبلاذري (ج6 ص 199) و كتاب الثقات لابن حبان (ج2 ص265).

ثم صاح من يبارز؟ وقد رفع أسفل درعه فجعله في منطقته

قال فيثب إليه ابن النباع فضربه ضربة على رقبته من خلفه فأثبته حتى سقط فما ينبض منه عرق. فأدخلته بيت فاطمة ابنة أوس جدة إبراهيم بن العدي

قال فكان عبد الملك وبنو أمية يعرفون ذلك لآل العدي»

وروى عن طريق جعفر المحمدي عن حسين بن عيسى عن أبيه «... *وحمل رفاعة بن رافع الأنصاري ثم الزرقي على مروان ابن الحكم فضربه فصرعه فنزل عنه وهو يرى أنه قد قتله»*

وروى الطبري ايضا عن طريق ابن اسحق عن أبي بكر بن الحارث بن هشام :

«...فخرج مروان بن الحكم فقال من يبارز ؟

فقال عبد الرحمن بن عديس لفلان بن عروة: قم إلى هذا الرجل. فقام إليه غلامٌ شاب طوال فأخذ رفيف الدرع فغرزه في منطقته فأعور له عن ساقة فأهوى له مروان وضربه ابن عروة على عنقه فكأني أنظر إليه حين استدار.

وقام إليه عبيد بن رفاعة الزرقي ليذفف عليه. قال فوثبت عليه فاطمة ابنة أوس جدة إبراهيم بن عدي قال وكانت أرضعت مروان وأرضعت له فقالت: إن كنتَ إنما تريد قتل الرجل فقد قتل، وإن كنتَ تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح !

قال فكف عنه. فما زالوا يشكرونها لها فاستعملوا ابنها إبراهيم بعد»

وروى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد أن ابن البياع الليثي كان «*يبارز مروان بن الحكم.*

فكأني أنظر الى قبائه قد أدخل طرفيه في منطقته وتحت القباء الدرع.

فضرب مروانَ على قفاه ضربة قطع علابي رقبته. ووقع لوجهه فأرادوا أن يذففوا عليه، فقيل: أتبضعون اللحم؟! فترك» وروى أيضاً عن ابراهيم بن عبيد بن رفاعة قال «*قال أبي بعد الدار، وهو يذكر مروان بن الحكم: عبادَ الله! والله لقد ضربتُ رقبته فما أحسبه إلاّ قد مات. ولكن المرأة أحفظتني قالت: ما تصنعُ بلحمه تبضعه؟ فأخذني الحفاظ فتركته*»

وهكذا فالروايات مضطربة. فبعضها يذكر ان الذي هاجم مروان كان ابن النباع (او ابن البياع)، وبعضها تذكر رفاعة بن رافع (أو عبيد بن رفاعة). وقد ذكرنا سابقا أن ابن الاثير وابن عبد البر قد ذكرا أن الحجاج بن عمرو الانصاري هو الذي ضرب مروان يوم الدار فأسقطه وهو لا يعقل.

ولكن معظمها تشير الى أن مروان قد حُمِل الى بيت امرأة وهو شبه ميت فقامت بإبعاد المهاجمين عنه.

ولكن هذه الروايات غير مقنعة، وربما يكون فيها اختلاق لمصلحة مروان. فلو كان مروان جاداً في الدفاع عن الخليفة كما تصوره الروايات لما كان ممكنا أن يبقى على قيد الحياة، ولكان مصيره مثل غيره ممن أخلصوا لعثمان وذادوا عنه: فقد روى ابن حبان في كتاب الثقات *«وقتل يوم قتل عثمان من قريش عبد الله بن وهب بن زمعة الأسدي وعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام والمغيرة بن الأخنس بن شريق الثقفي. وقتل معهم غلامٌ لعثمان أسود. أربعة أنفس»*[1]

ومما يضعف من نظرية قيام مروان بالاستبسال في الدفاع عن الخليفة أن قصة المرأة التي أنقذت مروان بن الحكم من الموت، بعد أن أصيب وكاد يهلك، تكررت في سياق أحداث حرب الجمل، وبشكل يكاد يكون متطابقاً تقريباً ! فقد روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن سعد *«وقاتل مروان أيضاً حتى ارتثّ. فحُمِلَ الى بيت امرأة من عنزة. فداووه وقاموا عليه.*

فما زال آل مروان يشكرون ذلك لهم»

فهل هذا معقول ؟ وهل كان مروان متخصصا في العثور على نساء يسعفنه بعد إصاباته الخطرة؟

فالأرجح إذن أن مروان بن الحكم قد فرّ من المدينة المنورة بطريقةٍ ما، لما شعر باقتراب أجل عثمان ولمَسَ تصميمَ الثوار على قتله. وليس تصرفٌ كهذا بغريب على شخصٍ كمروان.

---

(1) وهذه الرواية توضح مدى العزلة التي عانى منها عثمان أثناء محنته، كما توضح مدى الخذلان الذي تعرض له. فحين لا يقتل مع الخليفة سوى أربعة أنفس فذلك يعني الكثير.

وأما غير مروان من بني أمية الموجودين في المدينة، فقد كانوا مختبئين عند زوجة الرسول (ص) الأموية في مخزن للحبوب أثناء تلك الاحداث العاصفة! روى البلاذري في أنساب الاشراف من طريق المدائني «*لجأ بنو أمية يوم قتل عثمان الى ام حبيبة، فجعلت آل العاص وآل حرب وآل أبي العاص وآل أسيد في كندوج*[1] *وجعلت سائرهم في مكان آخر.*

ونظر معاوية يوماً الى عمرو بن سعيد يختال في مشيته فقال: بأبي وأمي أم حبيبة ما كان أعلمها بهذا الحيّ حين جعلتك في كندوج»

دفن عثمان [2]

لم تقتصر مأساة الخليفة العجوز على حصاره وإهانته في أواخر ايامه، ولا على الطريقة القاسية التي قتل بها، بل امتدت الى ما بعد وفاته: تجهيزه ودفنه.

روى الطبري في تاريخه من طريق جعفر المحمدي:

«*نبذ عثمان رضي الله عنه ثلاثة أيام لا يدفن.*

ثم إن حكيم بن حزام القرشي ثم أحد بني أسد بن عبد العزى وجبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف كلما عليا في دفنه وطلبا إليه أن يأذن لأهله في ذلك ففعل وأذن لهم علي.

فلما سمع بذلك قعدوا له في الطريق بالحجارة وخرج به ناس يسير من أهله وهم يريدون به حائطا بالمدينة يقال له حش كوكب كانت اليهود تدفن فيه موتاهم.

فلما خرج على الناس رجموا سريره وهموا بطرحه فبلغ ذلك عليا

---

(1) الكندوج هو مخزن تجمع فيه الغلال

(2) مصادر هذا البحث: الطبقات الكبرى لابن سعد (ج3 ص78)، الامامة والسياسة لابن قتية (ج1 ص65)، تاريخ الطبري (ج3 ص438– 440)، تاريخ اليعقوبي (ج2 ص176)، الاستيعاب لابن عبد البر (ص 459)، تاريخ المدينة لابن شبة (ج4 ص1240)، اسد الغابة لابن الاثير (ج3 ص382+ ص383).

فأرسل إليهم يعزم عليهم ليكفن عنه ففعلوا فانطلق حتى دفن رضي الله عنه في حش كوكب.

فلما ظهر معاوية بن أبي سفيان على الناس أمر بهدم ذلك الحائط حتى أفضى به إلى البقيع فأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبره حتى اتصل ذلك بمقابر المسلمين»[1]

وروى من طريق الواقدي *«لبث عثمان بعد ما قتل ليلتين لا يستطيعون دفنه. ثم حمله أربعة حكيم بن حزام وجبير بن مطعم ونيار بن مكرم وأبو جهم بن حذيفة، فلما وضع ليصلى عليه جاء نفرٌ من الأنصار يمنعونهم الصلاة عليه فيهم أسلم بن أوس بن بجرة الساعدي وأبو حية المازني في عدة ومنعوهم أن يدفن بالبقيع.*

فقال أبو جهم ادفنوه فقد صلى الله عليه وملائكته.

فقالوا: لا والله لا يدفن في مقابر المسلمين أبداً!

فدفنوه في حش كوكب.

فلما ملكت بنو أمية أدخلوا ذلك الحش في البقيع فهو اليوم مقبرة بني أمية»

وبالاضافة الى الروايتين أعلاه، سرد الطبري مجموعة اخرى من الروايات المتعلقة بدفن عثمان. فمن الواقدي أن البعض اقترح ان يدفن عثمان بمقبرة اليهود بدير سلع، ولكن حكيم بن حزام رفض بشدة وثار وأصر أن يدفن ببقيع الفرقد. وفي رواية اخرى للواقدي أن زوجته نائلة طلبت من حويطب بن عبد العزى وجبير بن مطعم وابي جهم بن حذيفة وحكيم بن حزام ونيار الاسلمي أن يتولوا دفنه، فحملوه الى البقيع بين المغرب والعشاء ودفنوه عند نخلات عليها حائط بعد ان صلى عليه جبير بن مطعم، وانهم كانوا خائفين ان ينبش ا

---

(1) لا شك أن معاوية كان يشعر بمدى المهانة التي تعرض لها شيخه وأسّ بني أمية عثمان والمتمثلة بكونه مدفوناً بين اليهود فسعى الى تصحيح الوضع عن طريق دمج المكانين فلا يبقى عثمان بعيداً عن قبور المسلمين.

وفي رواية ثالثة للواقدي أن البعض أراد حز رأس عثمان لولا أن منعتهم زوجتاه. وانهم ارادوا ان يصلوا عليه في موضع الجنائز فأبت الانصار.

وعن سيف بن عمر ان مروان بن الحكم قد صلى عليه ودفن في البقيع «مما يلي حش كوكب» مع مجموعة من عبيده، وانه لم يغسل وكفن في ثيابه.

وعن جعفر المحمدي أنه لم يشهد جنازته سوى مروان وثلاثة من مواليه وابنته.

وروى اليعقوبي في تاريخه «وأقام ثلاثاً لم يدفن. وحضر دفنه حكيم بن حزام، وجبير بن مطعم، وحويطب بن عبد العزى وعمرو بن عثمان ابنه. ودفن بالمدينة ليلاً في موضع يعرف بحش كوكب. وصلى عليه هؤلاء الاربعة.

وقيل: لم يصلّ عليه.

وقيل: أحد الاربعة قد صلى عليه، فدفن بغير صلاة.»

وجاء في الامامة والسياسة:

«... فإذا هو في نفر فيهم جبير بن مطعم، وأبو الجهم بن حذيفة، والمسور بن مخرمة، وعبد الرحمن بن أبي بكر، و عبد الله بن الزبير، فاحتملوه على باب وإن رأسه ليقول: طق طق، فوضعوه في موضع الجنائز.

فقام إليهم رجال من الأنصار، فقالوا لهم: لا والله لا تصلون عليه!

فقال أبو الجهم: ألا تدعونا نصلي عليه، فقد صلى الله تعالى عليه وملائكته ..... فاحتملوه ثم انطلقوا مسرعين كأني أسمع وقع رأسه على اللوح، حتى وضعوه في أدنى البقيع.

فأتاهم جبلة بن عمر الساعدي من الأنصار، فقال: لا والله لا تدفنوه في بقيع رسول الله، ولا نترككم تصلون عليه!

فقال أبو الجهم: انطلقوا بنا، إن لم نصل عليه فقد صلى الله عليه، فخرجوا ومعهم عائشة بنت عثمان، معها مصباح في حق، حتى إذا أتوا به حش كوكب حفروا له حفرة، ثم قاموا يصلون عليه، وأمهم جبير بن مطعم، ثم

دلوه في حفرته، فلما رأته ابنته صاحت، فقال ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربن الذي فيه عينيك، فدفنوه، ولم يلحدوه بلبن، وحثوا عليه التراب حثوا»

وروى ابن عبد البر في الاستيعاب :

عن مالك «لما قتل عثمان رضي الله عنه ألقي على المزبلة ثلاثة أيام. فلما كان من الليل أتاه اثنا عشر رجلاً فيهم حويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وعبد الله بن الزبير، وجدّي، فاحتملوه. فلما صاروا به الى المقبرة ليدفنوه، ناداهم قوم من بني مازن: والله لئن دفنتموه هاهنا لنخبرنّ الناسَ غداً ا فاحتملوه. وكان على باب، وإن رأسه على الباب ليقول طق طق ا حتى صاروا به الى حَش كوكب، فاحتفروا له. وكانت عائشة بنت عثمان رضي الله عنهما معها مصباح في جرة، فلما أخرجوه ليدفنوه صاحت، فقال لها ابن الزبير: والله لئن لم تسكتي لأضربنّ الذي فيه عيناكِ. قال: فسكتت. فدفن.»

وأضاف ابن عبد البر موضحاً بشأن حش كوكب فقال «كوكب: رجل من الانصار. والحَش: البستان. وكان عثمان رضي الله عنه قد اشتراه، وزاده في البقيع، فكان أول من دفن فيه. وحُمِل على لوح سراً»

وذكر ابن عبد البر روايات أخرى بشأن دفن عثمان :

«وقد قيل: انه صلى عليه عمرو بن عثمان، ابنه.

وقيل: بل صلى عليه حكيم بن حزام.

وقيل: المسور بن مخرمة .

وقيل: كانوا خمسة، أو ستة وهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة، ونيار بن مكرم وزوجتاه: نائلة وأم البنين بنت عيينة. ونزل في القبر نيار وأبو جهم وجبير. وكان حكيم وزوجتاه أم البنين ونائلة يدلونه. فلما دفنوه غيبوا قبره رضي الله تعالى عنه»

وروى عن الزبير «وبقي عثمان رضي الله عنه يومه ذاك مطروحاً الى الليل، فحمله رجال على باب ليدفنوه، فعرض لهم ناسٌ ليمنعوهم من دفنه، فوجدوا قبراً قد كان حفر لغيره فدفنوه فيه. وصلى عليه جبير بن مطعم»

وروى ابن شبة في تاريخ المدينة عن الزهري «*جاءت أم حبيبة بنت ابي سفيان رضي الله عنها فوقفت بباب المسجد فقالت: لتخلنّ بيني وبين دفن هذا الرجل أو لأكشفنّ ستر رسول الله (ص). فخلوها.*

فلما أمسوا جاء جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وعبد الله والمنذر ابنا الزبير، وأبو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن حسل رضي الله عنهم فحملوه فانتهوا به الى البقيع. فمنعهم من دفنه ابن بجرة -ويقال ابن نحرة الساعدي- فانطلقوا به الى حش كوكب فصلى عليه جبير بن مطعم رضي الله عنه ثم دفنوه وانصرفوا»

كما أخرج روايات أخرى تقول ان الذي منع من دفنه كان جبلة بن عمرو الساعدي مما دفعهم الى دفنه في حش كوكب وان الذي صلى عليه كان المسور بن مخرمة الزهري وأنهم هالوا عليه التراب ولم يضعوا على لحده لبناً وان التي كانت معهم عائشة ابنته. وأخرى تقول ان الذي صلى عليه كان جبير بن مطعم في ثمانية رهط منهم حكيم بن حزام والحسن بن علي وابو الجهم بن حذيفة وعبد الله بن عمر وامرأتاه نائلة بنت الفرافصة وام البنين بنت عيينة بن بدر. ورواية تذكر اسم نيار بن مكرم الاسلمي ضمن من دفنوه.

وروى ابن سعد في الطبقات الكبرى عدة روايات حول دفن عثمان تفيد أن أربعة رجال قاموا بدفن عثمان والصلاة عليه وهم جبير بن مطعم (وهو الذي صلى عليه)، وحكيم بن حزام وأبو حذيفة بن الجهم العدوي ونيار بن مكرم الأسلمي، وقد دفنوه ليلاً في حش كوكب، بعد أن خرجت معهم زوجتا عثمان: نائلة بنت الفرافصة وأم البنين بنت عيينة.

وذكر أيضا رواية ان جبير بن مطعم صلى عليه في ستة عشر رجلا، ولكنه قال ان الروايات السابقة هي الأثبت.

وذكر رواية أن من ضمن الأربعة كان جد مالك بن أبي عامر.

ويلاحظ اختلاف في أسماء الأشخاص الأربعة بين روايات ابن سعد وغيره، كما لم يذكر أم حبيبة، ولم يتطرق إلى بقاء جثته ثلاثة أيام بلا دفن.

وجمع ابن الاثير في اسد الغابة مختلف الروايات فقال «*ولما قتل دفن ليلاً، وصلى عليه جبير بن مطعم، وقيل حكيم بن حزام، وقيل المسور بن مخرمة، وقيل لم يصلّ عليه احد، منعوا من ذلك.*

ودفن في حش كوكب بالبقيع. وكان عثمان اشتراه وزاده في البقيع

وحضره عبد الله بن الزبير وامرأتاه ام البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية ونائلة بنت الفرافصة الكلبية. فلما دلوه في القبر صاحت ابنته عائشة فقال لها ابن الزبير: اسكتي وإلاّ قتلتك. فلما دفنوه قال لها: صيحي الآن ما بدا لك أن تصيحي»

وهذه الروايات كما هو ظاهر فيها اضطرابٌ كبير في تحديد تفاصيل دفن الخليفة. وهذا الاضطراب مفهومٌ، بل طبيعيٌ في مثل تلك الظروف المأساوية، حيث الفوضى العارمة تسود في المدينة (فمثلاً يرد في الروايات اسم نيار بن عياض الاسلمي ضمن قتلة عثمان، بينما يرد اسم نيار بن مكرم الاسلمي ضمن من دفنوه! فهل هناك خلط؟ أم انهما قريبان أحدهما يبغض عثمان والآخر يحبه؟)

ويمكن تلخيص الروايات والجمع بينها على النحو التالي:

- بقيت جثة الخليفة ليومين او ثلاثة بدون دفن، وبلا احترام. ولا يمكن استبعاد الروايات التي تقول بان بعض الثائرين قد اعتدوا على الجثة أو على الأقل حاولوا ذلك.
- تدخلت زوجتا الخليفة، نائلة بنت الفرافصة وام البنين بنت عيينة بن حصن، أو أم المؤمنين أم حبيبة بنت ابي سفيان، وضغطن من اجل دفنه، عن طريق استنهاض همم رجال من أشراف قريش واستثارة حميتهم.
- تصدى مجموعة من أبناء بطون قبيلة قريش لمهمة الصلاة على عثمان ودفنه. وكانت مهمة صعبة وخطرة نظراً الى انعدام الأمن في المدينة وسيطرة العناصر الحاقدة على الخليفة ميدانياً. وهؤلاء الذين تولوا أمر عثمان كانوا حكيم بن حزام (من بني أسد بن العزى)، وجبير بن مطعم (من بني نوفل بن عبد مناف) وأبو جهم بن حذيفة (من بني عدي) والمسور بن مخرمة (من بني زهرة)، وربما كان معهم عبد الله بن الزبير بن العوام، وحويطب بن عبد العزى. وانا أستبعد الرواية التي تقول بان مروان بن الحكم قد شارك في الصلاة عليه او دفنه. فقام هؤلاء بحمله ليلاً من أجل تجنب مواجهة جماهير الثائرين، وصلى

عليه احدهم. وهنا يلاحظ غياب كبار الصحابة: فلم يشارك علي ولا الزبير ولا طلحة ولا سعد بن ابي وقاص ولا عبد الله بن عمر.

- لم يتمكن هؤلاء من دفن عثمان في مقبرة المسلمين المعروفة في البقيع. فقد عارضهم وتصدى لهم شخصيات من أهل المدينة، من الانصار، ممن كانوا حاقدين على الخليفة. ويمكن الاشارة الى شخصيات من بني ساعدة بالتحديد مثل جبلة بن عمرو وأبي بجرة، مما قد يدفع الى الاعتقاد أن أقرباء سعد بن عبادة هؤلاء كانوا لا يزالون متأثرين بما جرى لزعيمهم على أيدي قيادات قريش قبل حوالي ربع قرن. وطبعاً كانوا مدعومين من أوساط الثائرين.
- اضطر المتولون أمر عثمان الى البحث عن مكان آخر لدفنه، فكان الحل هو حش كوكب الذي هو منطقة غير بعيدة عن البقيع كان اليهود يستعملونها لدفن موتاهم. واحتياطاً قاموا بإخفاء معالم القبر، بعد أن دفنوه بسرعة. وفيما بعد لما سيطر بنو أمية على الخلافة انتبه معاوية الى رمزية المكان (اليهودي) المدفون به عثمان، فأمر بإزالة الفواصل بينه وبين مقبرة البقيع ويدفن المسلمين حوله، الى أن اتصل بها.

وذكر ابن الاثير في اسد الغابة عن نافع ان عثمان قتل يوم الجمعة 18 أو 17 من ذي الحجة سنة 35. وعن ابي عثمان النهدي: قتل في وسط ايام التشريق. وعن الواقدي: قتل يوم الجمعة 8 ذي الحجة يوم التروية من سنة 35. وقيل يوم الجمعة لليلتين بقيتا من ذي الحجة.

وقال ايضاً «*وكان عمره 82 سنة، وقيل: 86 سنة قاله قتادة، وقيل كان عمره 90 سنة*»

وقال اليعقوبي في تاريخه «*وقتل لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة 35، وهو ابن ثلاث وثمانين سنة، وقيل ست وثمانين سنة*»

مصادر الكتاب

- عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، توفي 630 للهجرة:

- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تصحيح مصطفى وهبي. المطبعة الوهبية 1280.
- الكامل في التاريخ
- اللباب في تهذيب الانساب، دار صادر، بيروت.

- أبو الحسن علي بن عيسى ابن أبي الفتح الاربلي، توفي 693 للهجرة، كشف الغمة في معرفة الأئمة، دار الاضواء، بيروت، الطبعة الثانية 1405 ه‍ – 1985 م.
- أحمد ابن أعثم الكوفي، توفي 314 للهجرة، كتاب الفتوح، تحقيق: علي شيري،الطبعة الأولى، سنة 1411 ه‍ – 1991 م، مطبعة دار الأضواء، الناشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع
- محسن الأمين، أعيان الشيعة، حققه وأخرجه حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.
- أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، توفي 256 للهجرة:

- الجامع الصحيح، طبعة دار الجيل، بيروت – لبنان
- التاريخ الصغير، تحقيق محمود ابراهيم زايد، الطبعة الأولى 1406، دار المعرفة – بيروت.

- محمد بن حبيب البغدادي، توفي 245 للهجرة، المنمق في أخبار قريش، صححه وعلق عليه خورشيد أحمد فاروق، 1964، مطبعة دائرة مجلس المعارف العثمانية – حيدر أباد – الهند

• أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، توفي 279 للهجرة :
- أنساب الأشراف، حققه وعلّق عليه محمد باقر المحمودي، منشورات مؤسسة الأعلمي – بيروت ط1، 1394 -1974.
- أنساب الأشراف، تحقيق / سهيل زكار، ورياض زركلي. دار الفكر، 1417.
- فتوح البلدان، مطبعة لجنة البيان العربي – القاهرة.
• ابو عيسى الترمذي، توفي 279 للهجرة، سنن الترمذي (وهو الجامع الصحيح)، حققه وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية 1983.
• أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، توفي 255 للهجرة، البيان والتبيين، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، الطبعة الأولى 1998، دار الكتب العلمية – بيروت.
• هشام جعيط، معاصر، الفتنة، دار الطليعة – بيروت، الطبعة الرابعة 2000
• أبو عبد الله محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، توفي 405 للهجرة، المستدرك على الصحيحين، تحقيق د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة – بيروت. 1406
• محمد بن حبان أبو حاتم البستي التميمي السجستاني، توفي سنة 354 للهجرة
- صحيح ابن حبان، تأليف الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1993
- كتاب الثقات، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية 1393– حيدر أباد / الهند. الناشر مؤسسة الكتب الثقافية
• أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر العسقلاني الشافعي، توفي 852 للهجرة.
- الاصابة في تمييز الصحابه ،دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت / الطبعة الأولى 1995
- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثانية، دار المعرفة – بيروت.
• عز الدين أبو حامد بن هبة الله ابن أبي الحديد، توفي 656 للهجرة، شرح نهج البلاغة، بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى1959

● محمد بن الحسن الحر العاملي، توفي 1104 للهجرة، وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، تحقيق محمد رضا الجلالي، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث بقم المشرفة، مطبعة مهر – قم، الطبعة الثانية 1414.

● أحمد بن محمد بن حنبل، توفي عام 241 للهجرة :

- كتاب العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وتخريج د. وصي الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامي – بيروت الطبعة الأولى. دار الخاني للنشر والتوزيع – الرياض.

- مسند أحمد، طبعة دار صادر - بيروت

● أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، توفي 463 للهجرة، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1 1417 – 1997.

● عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، توفي 808 للهجرة، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المشهور ب تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1971.

● خليفة بن خياط العصفري، توفي 240 للهجرة ، تاريخ خليفة، رواية بقي بن خالد، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان 1993

● علي بن عمر الدارقطني، توفي 385 للهجرة، علل الدارقطني، تحقيق محفوظ الرحمن زين الله السلفي، منشورات دار طيبة – الرياض، ط1 1405.

● عبد الله بن بهرام الدارمي ،توفي 255 للهجرة، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال – دمشق.

● سليمان بن الأشعث السجستاني المعروف بأبي داود، توفي 275 للهجرة، سنن أبي داود، تحقيق سعيد محمد اللحام، الطبعة الأولى 1990، دار الفكر – بيروت.

● أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري، توفي 282 للهجرة. الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، ط1 1960، دار إحياء الكتب العربية.

● أبو عبد الله شمس الدين الذهبي، توفي 748 للهجرة :

- تاريخ الاسلام، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الاولى 1407- 1987.

- سير أعلام النبلاء، أشرف على تحقيقه وخرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط وحسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1413 – 1993

- السيد سابق، فقه السنة، ط1 2003، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- محمد بن سعد، توفي 230 للهجرة، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت
- كتاب سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي، توفي 76 للهجرة، بتحقيق الشيخ محمد باقر الانصاري (الناشر غير مذكور).
- جلال الدين السيوطي، توفي 911 للهجرة، تاريخ الخلفاء، تحقيق سعد كريم الفقي، الطبعة الأولى 2003. دار اليقين – مصر.
- الفضل بن شاذان الازدي النيسابوري، الايضاح، توفي 260 للهجرة، بتحقيق جلال الدين الحسيني الارموى (الناشر غير مذكور).
- أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري، توفي 262 للهجرة، تاريخ المدينة المنورة، حققه فهيم محمد شلتوت، الطبعة الثانية 1410 ه، مطبعة قدس – قم.
- سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، توفي 360 للهجرة، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ط2، الناشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة
- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، توفي 310 للهجرة، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان.
- أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي 460 للهجرة، رجال الطوسي، تحقيق جواد القيومي الاصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الاولى، رمضان 1415.
- ابو عمر بن عبد البر القرطبي النمري، الاستيعاب في معرفة الاصحاب، صححه وخرّج أحاديثه عادل مرشد. دار الاعلام – الاردن. الطبعة الاولى 2002.
- احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، المكتب الجامعي الحديث- الاسكندرية .الطبعة الاولى 1998
- محمد عبده، شرح نهج البلاغة، اعتنى به وراجعه علي أحمد حمود، المكتبة العصرية – بيروت، 2002.
- أبو القاسم علي بن الحسين ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر، توفي 571 للهجرة، تاريخ مدينة دمشق، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، توفي 276 للهجرة، الامامة

والسياسة المعروف بتاريخ الخلفاء، تحقيق الاستاذ علي شيري. الناشر: انتشارات الشريف الرضى، الطبعة الأولى – ايران، 1413

- محمد يوسف الكاندهلوي، حياة الصحابة، دار المعرفة – بيروت.
- عماد الدين أبو الفداء اسماعيل ابن كثير، توفي 774 للهجرة:

- تفسير القرآن العظيم، تقديم الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت – لبنان 1992

- البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، الطبعة الولى 1408 للهجرة، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- علي الكوراني العاملي، معاصر، جواهر التاريخ. الناشر: دار الهدى الطبعة الاولى 2004.
- محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجة، سنن ابن ماجة، حقق نصوصه وعلّق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر
- علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، توفي 975 للهجرة، كنز العمال، تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة – بيروت.
- أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، توفي 345، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية – لبنان، 2007.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، طبعة المكتبة العصرية – صيدا \ لبنان – 2003
- محمد بن محمد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد، كتاب الجمل، مكتبة الداوري، قم – ايران.
- تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، توفي 845 للهجرة، النزاع والتخاصم بين بني امية وبني هاشم، تحقيق السيد علي عاشور.
- د. عدنان محمد ملحم، معاصر، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى، دار الطليعة – بيروت. الطبعة الاولى 1998.
- أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي الاسدي الكوفي، أسماء مصنفي الشيعة المشتهر برجال النجاشي، مؤسسة النشر الاسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، الطبعة الخامسة 1416.
- أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، توفي 303 للهجرة، سنن النسائي،

بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. طبعة 1348/ 1930، دار الفكر – بيروت.

- نصر بن مزاحم المنقري، المتوفي سنة 212 للهجرة، وقعة صفين، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2 ،1382، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، ضبط وتحقيق الشيخ محمد علي القطب والشيخ محمد الدالي بلطة. طبعة المكتبة العصرية. صيدا - لبنان، 2003
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، توفي 468 للهجرة، أسباب النزول، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة 1968. الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة.
- محمد بن عمر بن واقد، المعروف بالواقدي، توفي 207 للهجرة، كتاب المغازي، تحقيق د. مارسدن جونس. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت. الطبعة الثالثة 1989
- أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي، توفي 292 للهجرة، تاريخ اليعقوبي، دار صادر – بيروت.

نبذة عن المؤلف



ولد حسام عبدالكريم، واسمه الكامل حسام محمود حسن شحادة عبد الكريم، في مدينة إربد في الأردن عام 1968، لأسرة فلسطينية نازحة.

وفي عام 1986 حصل على شهادة الثانوية العامة من الزرقاء - الأردن، وكان من ضمن الطلاب العشرة المتفوقين على مستوى المملكة الأردنية الهاشمية.

وفي عام 1991 حصل على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية، من الجامعة الأردنية - عمان. وكان صاحب الترتيب الأول.

وفي عام 1992 حصل على شهادة الماجستير في الهندسة الكيميائية المتقدمة، من جامعة لندن، بمرتبة الشرف ومنذ ذلك الوقت عمل كمهندس في القطاع الخاص في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة.

وقد صدر له من قبل:

«قريشٌ وعليّ» نشر عام 2006

«اخبار الفتنة الكبرى: عهد عثمان» نشر عام 2012



حسام عبد الكريم ◆ صعود معاوية خلفيات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

1





THE RISE OF MUAWIYAH

تاريخ



صعود معاوية

خلفيّات الفتنة الكبرى ـ عهد عثمان

▼

هذا الكتاب هو الجزء الأوّل من عمل ضخم يبحث في أحداث قضيّةٍ كبيرةٍ في تاريخ صدر الإسلام، ويتناول وقائع الفتنة الكبرى التي امتدّت أحداثها في الفترة ما بين سنة 23 للهجرة (بداية حكم الخليفة عثمان) وسنة 41 للهجرة (سيطرة معاوية على مقاليد الحكم). إنّه بحث وتنقيب في أمّهات الكتب والمصادر الأصيلة للتاريخ الإسلاميّ، ومقارنة بين الأخبار والروايات في المصادر المختلفة، وتحليلها وملاحظة الاختلاف أو الاتفاق فيما بينها، وكل ذلك من أجل محاولة الوصول إلى الحقيقة التاريخيّة؛ ولهذا الغرض لا يتردّد المؤلّف في دحض مقولات وآراء ذاعت وشاعت عن طريق إخباريّين ورواة غلبت عليهم عاطفتهم أو نزعاتهم المذهبيّة؛ كما لا يتردّد في الدخول إلى مناطق حسّاسة من تاريخ صدر الإسلام تتعلّق بالعلاقات بين كبار الصحابة ومواقفهم في مراحل مختلفة من مجريات الفتنة التي أدّت إلى مقتل خليفة المسلمين على أيدي أفراد من رعيّته من المسلمين.

الناشر

يلي هذا الجزء، جزءٌ ثانٍ يتناول موضوع حرب الجمل بين عليّ وعائشة، وجزء ثالث يتناول معركة صفين التي آلت إلى نهاية عهد عليّ



ISBN 978-6589-09-904-8



الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2019
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962